مؤلفات ثروت أباظة

٤



- قصص من مصر القديمة
- هبوط السماء
- خواطر في الفن

مؤلفات ثروت أباظة
٤

نقوش من ذهب ونحاس

خيوط السماء

طائر في العنق

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

الاخراج الفنى : عفاف توفيق

نقوش من ذهب ونحاس

نقوش من ذهب ونحاس

١

هى قصة ذات عروق بعيدة فى أغوار الزمن ، لست بطلا من أبطالها ولكننى أحب أن أحكيها ·· كيف أحكيها وأنا لست واحدا من أبطالها ·· هل يهمك كثيرا أن أكون من أبطالها مادمت سأرويها لك ·· لن أقول لك انها من واقع الحياة فلا أحب أن أكون سخيفا الى هذا الحد ولكننى فى الواقع لست أدرى ان كنت أنت تحب الرواية من واقع الحياة أم من واقع الخيال · يقول الروائيون ان أهم شىء فى العمل الفنى أن يكون مقنعا ولايهم من بعد المصدر الذى يصدر عنه ولكن الحياة حين تؤلف لاتحاول أن تقنع ، انها تؤلف وتنفذ مؤلفها على الحياة وعلى صلات النـــاس بعضهم ببعض وعلى بدايات حياتهم وعلى نهايتها ولايعنيها فى شىء أن تكون مقنعة أو غير مقنعة والناس ·· الناس جميعا فى كل مكان شهود فى كل

قصة وأبطال فى كل قصة وقد تلهيهم الأحداث عن محاولة الفهم وقد يفكرون • والذين يفكرون هم الاغبياء لانهم لن يبلغوا من تفكيرهم الى ماتصبو اليه نفوسهم من طمأنينة بل هم سيزدادون حيرة وقلقـا بل قد يزدادون سـخطا وتبرما ولا تعنى الحياة فى كثير أو قليل بحيرتهم أو قلقهم أو سخطهم أو تبرمهم •

تجـــرب فيهـم ومايعلمون كتجـربة الطب فى الأرنب

ولكن هل تجرب فيهم الحياة حقيقة كتجربة الطب • ان الطب حين يجرب يحاول أن يصل الى نتيجة معينة من تجربته فالى أى نتيجة تحاول أن تصل الحياة • • • يبدو أننى سأصبح غبيا كهؤلاء الذين يفكرون • • عادة ساذجة عادة التفكير هذه • • وكلما ازداد التفكير عمقا يكون صاحبه أكثر سذاجة • •

فالأذكياء وحدهم هم الذين يعرفون ألا أمل أن يصلوا بتفكيرهم الى نتيجة مؤكدة ، واضحة المعالم • ولكن هناك أنواع من التفكير لابأس بها • • منها ذلك التفكير الجاد الخطير الذى كان يستغرق راشد بك برهان وهو جالس بمكتبه الضخم فى سرايه الواقعة بشارع خيرت • • كان راشد بك يريد أن يسافر الى أوروبا وهو يبحث عن مواعيد السفن المسافرة وهو حريص على أن يســافر على أول باخرة • • فقد تشـوق الى باريس والى أصدقائه هناك ولست فى حاجه الى ذكاء لتعلم أن هؤلاء الأصدقاء انما هن صديقات ولكن الحشمة تحتم أن نكتبها أصدقاء • انهن كثيرات هؤلاء الأصدقاء • • كان اليوم هو السبت وقد وجد راشد بك سفينة فى طريقها الى مرسيليا فى يوم السبت الذى يليه وكان لابد له أن يبلغ السيدة والدته عن هذا السفر حتى تشرف على تجهيز ملابسه وترى ما الذى يحتاج اليه قبل أن يسافر ، وكان لابد له أيضـا أن يستقل

القطار الى التفتيش ليلقي نظرة نهائية على حسابات الزراعة ويأخذ ماحصله حمزة أفندى البلاشونى من ايراد الأرض . وقام راشد بك الى والدته وراح يصعد السلم الى الطابق الأعلى في هدوء وفي تفكير عميق . كان السلم يفضى الى بهو عريض شامخ الاعمدة عميق الفخامة تقوم فيه الارائك الضخمة عليها القطيفة المزركشة القادمة منجنوا ،وكانت والدته قد آنشأت لنفسها فى هذا الطابق غرفة للجلوس تستقبل فيها صديقاتها وكانت أمه جلفدان هانم أفندى تحب آن تجلس في هذه الغرفة حتى وان لم يكن لديها صديقات تستقبلهن . وهكذا لم يكن راشد بك محتاجا أن يتخلى عما يفكر فيه ليتجه الى الغرفة انما هو يقصد اليها دون ومضة من تفكير .. انه يعلم أنه سيفتح الباب وسيراها فى كرسيها الكبير المجاور للمرآة التى تواجه الباب يعلم ذلك ولم يفكر فيه .. لقد كان مشغولا بما يحتاج من نقود في باريس وبما سيجده عند حمزه أفندى البلاشونى ويفتح الباب . أمه بجانب المرآة والمرآة مازالت تواجه الباب ولكن .. ماهذا الجمال الذى يقف بجانب صورتى فى المرآه .. من هذه كيف لم آرها قبـل اليوم وكيف كان يمكن أن أراها . طبعا سترفع اليشمك الى وجهها لقد بقيت العينان .. تكفينى العينان .. جمال الدنيا كلها فى هاتين العينين لم يحس راشد بك بالأعين الأخرى التى تعلقت به ولا آحس بعينى أمه التى أدهشها وقوفه بعـد تأكده من وجود حريم معها . لم يحس شيئا من هذا وانما ظل رانيا الى العينين اللتين تطلان من فوق اليشمك وطالت به الوقفة حتى اضطرت الأم آخر الأمر أن تقول .

ــ فيه حاجه راشد بك

وانتبه راشد بك فجأة لينحنى قائلا وهو يقفل الباب .

ـ عفوا هانم أفندى ٠

ويعود الى مكتبه ويجد جدول البواخر ينتظره فيطويه في هدوء ويضعه في الدرج الأسفل من مكتبه ويمد رجليه على المكتب ويزيح طربوشه الى الوراء ويستغرق مفكرا في لا شيء ٠

***

حين يسمع أقدام السيدات تعبر فناء السراى يقف الى الشباك وينظر اليهن وهن يركبن العربة التى تجرها أربعة خيول مطهمة ولم يلتفت الى العربة ولا الى الخيول وانما تثبت نظره على التى تسير خلفهن جميعا فلم يكن يشك لحظة أنها أصغرهن وأنه لابد لها أن تكون خلفهن جميعا ٠٠ ان قوامها أكثر جمالا من عينيها ٠٠ أكان لابد أن يكون لهذه السراى سلم للحريم وآخر للرجال ٠٠ أكنت أريد أن أراها عن قرب ٠٠ وماذا ينفع القرب ان جمالها لايحتاج الى كثير من انعام النظر ٠٠ انها جميلة ٠٠ أو هى فاتنة لاشك فى ذلك ولكن ماذا يمكنني أن أفعل ٠٠ أخطبها ٠٠ هكذا مرة واحدة وماذا يمكن أن أفعل غير هذا ٠٠

ـ هانم أفندى

ـ أنها ابنة عثمان باشا فكرى ٠

ـ لا يفوتك شيء ٠

ـ وقفتك أمام الباب كانت طويلة ٠

ـ عيناها ٠

ـ نعم جميلة ٠

ـ أنت موافقة ٠

ـ لا مانع

سكت راشد بك ولم يسأل آمه عن شيء ٠٠ وعم يسأل ٠٠ ابنة عثمان باشا فكرى ٠٠ الأمر اذن لايحتاج الى سؤال ٠٠ أما ثروته فمعروفة كانت ألفى فدان بقى منهـا بضعة فدادين بعد البذخ الذى كان يعيش فيه وراشد بك لا يحتاج الى مال فثروته لا يحصيها العد وان كان هو يجيد احصاءها ويعرف كل خافية منهـا ٠٠ وعثمان باشـا رجل ذو مكانة مرموقة فى الحياة المصرية ولاشك أنه تولى ابنته بالتربية المعهودة فهى تجيد التركية والفرنسية وعزف البيانو واختيار الملابس واستقبال الناس وتنسيق الأثاث واعطاء الأوامر للخدم ٠٠ ولاداعى اذن للسؤال ولكن آمه ٠

ـ لم تسأل عن خديجة ٠

ـ اسمها خديجة ؟

ـ يقولون انها متحررة فى آرائها ٠

ـ كم عمرها ؟

ـ بينك وبينها خمس عشرة سنة تقريبا ٠

ـ أنا لست كبيرا ٠٠

ـ ولست صغيرا ٠

ـ ست وثلاثون سنة اكتمال الرجولة ٠

ـ وعشرون سنة بداية الانوثة ٠

ـ ولكنها آبنة عثمان باشا فكرى ٠

ـ الأنوثة لا شأن لها بعثمان باشا فكرى

ـ مارأيك ٠

ـ لن نجد خيرا منها ٠

ـ فلماذا المناقشة اذن ؟

ـ أريدك أن تعرف ٠

ـ اذن ؟ !

ـ أخطبها لك ٠

٢

المفروض أن أروى لك فى هذا الفصل موقف خديجة من هذه الخطبة ويمكن أروى لك هذا الموقف بطرق عدة ٠٠ فمثلا أستطيع أن أقول ان خديجة كانت تحب ابن خالتها عزت بهادر الذى نشأ معها منذ الطفولة الأولى وكان يقاربها فى السن ومادمنا نتكلم عن هذه الطبقة من الناس فالمفروض آن أقول لك انه يهوى ركوب الخيل ويجيده وأنه طلق اللسان ـ بالفرنسية طبعا ـ وأن لغته العربية لا تكاد تستقيم وأنه ممشوق القـوام تافه العقلية لايفكر الا فى أتفـه الأمـور وأسخفها ٠ وأكون بذلك سائرا وراء كل من كتب عن هذه الطبقة ٠

أو كان من الممكن أن أقول لك مثلا ان عثمان باشا فكرى دخل الى ابنته فقال لها ٠

ـ أبشرى ياخديجة ٠٠ عندى لك أعظم خبر ٠

ـ صحيح يابابا ٠

وطبعا حين تقرأ بابا لابد لك أن تشد البائين فهكذا تنطقها ممثلات السينما فى أفلامنا العربية ٠٠ نرجع الآن الى الحوار الذى كان المفروض أن أقدمه اليك ٠٠ يقول الأب وقد تهلل وجهه بالفرح ٠

ـ جاءك عريس لا مثيل له فى مصر ٠

وهنا كنت سأحتار كيف أكمل المشهد ٠٠ هل ستطرق خديجة فى حياء أم تراها كانت ستقول ٠

ـ من ؟

وعلى الحالين كان عثمان باشا يقول ٠

ـ راشد بك برهان ٠

وكنت ساحتار أيضا كيف تتصرف خديجة بعد هذا هل كانت ستسأل أباها عن العريس واحواله جميعا من شكل وعمر ٠٠ وطبعا لا داعى للسؤال عن الشهادة أو الثقافة فقد كانت هذه الأشياء فى ذلك الحين بعيدة عن مجال السؤال عند السيدات وتوشك أن تكون كذلك عند الرجال أيضا ٠

أم تراها كانت ستطرق حياء وخجلا وتقول الجملة التى لم يستطع كاتب حوار أن يغير منها شيئا على طول السنين ٠

ـ اللى تشوفه يابابا ٠

ولعلى كنت سأخرج من هذه الحيرة بوسيلة أكثر يسرا وأقرب الى منطق الأمور فأجعل خبر الخطبة ينتقل الى الابنة

عن طريق أمها وأنتهز هذه الفرصة لأقدم اليك كل مالم تعرفه بعد عن شاكر بك برهان على لسان الأم .

ولكن ما العجلة فى تعرفك على شاكر بك برهان ولماذا لانتكلم عن خديجة قليلا .. فأنت لم تعرف عنها الا أن عينيها جميلتان ولكنك أنت لم تعرف مثلا أن قوامها فارع رشيق لاتطغى عليه نحافة ولا يفرط عليه سمن ، وهى ذات شعر ناعم اذا أطلقت عنانه هدر على كتفيها فى عربدة طاغية ، وجبينها عريض فيه ذكاء ، وعيناها اللتان عرفت أنهما جميلتان فيهما جرأة وفيهما تطلع الى المستقبل فى وثوق الذكى وفى فتور الأنثى ، وأنفها دقيق مائل قليلا الى الخد الأيمن هذا الميل الذى يراه بعضهم جمالا ويراه بعض آخر عيبا فى جمالها الفاتن .. وان كنت من الذين يحبون أن يوصفوا بالمثقفين فلعلك تحب أن تعرف شيئا عن ثقافتها .. قرأت كورنى وراسين وفولتير وهيجو وفلوبير وروسو حتى اعترافات روسو قرأتها وقرأت شكسبير مترجما وقرأت ديكنز وهاردى وتولستوى ودستيوفسكى .. أظنك عرفت الآن أنها كانت تحب القراءة وكانت تعبد الشعر فقد كانت تحفظ روايات كورنى وراسين جميعا وتحفظ كثيرا من شعر هيجو ولم تكن تميل كثيرا الى مضحكات موليير .. كانت القراءة عندها هى الوسيلة التى تفتح لها النافذة على عالم لم يكن من الممكن أن تخالطه أو تندمج فيه .. فقد كان الحريم جزءا منفصلا عن المجتمع فى ذلك الحين .. يحركنه من داخل البيوت ولكنهن لايشاركن فى حركاته .

وكانت خديجة شأن كل فتاة تعرف أنها ستتزوج فى يوم من الأيام وكانت تعتقد أنها ستتزوج رجلا مثقفا تستطيع أن تشترك معه فى أحاديث طويلة عن الشعر والأدب ، وكانت

الخشية تخالجها أن يكون هذا المثقف ذا ثقافة عربية وانجليزية وليس ذا ثقافة عربية وفرنسية • فالمثقفون فى ذلك العهد كانوا جميعا يجمعون الى العربية ثقافة أجنبية أخرى • ولم يكن الغنى فى ذاته أمرا ذا بال عند خديجة • فالغنى عند الأغنياء شىء مفروض يعتقدون هم أنه طبيعى •• يصاحب التكوين البيولوجى لأجسامهم فالمال عندهم شىء من المقرر وجوده كما يوجد لهما عينان وأنف وشفتان • ولكن الثقافة هى التى كانت نادرة الوجود فاذا وجدت فهى عميقة راسية الأصول بعيدة الأغوار • وقد كانت خديجة لاتتصور أن يكون خطيبها غير مثقف • ولم يكن تفكيرها هذا مجافيا للصواب فان والدها الذى أتاح لها هـذا التثقيف لايقبل أن ينالها شخص لايقف مع مابلغته من دراسة على درجة واحـدة فان تفاوتت الدرجة فليكن هـو فى العليا لا فى السفلى • وهى فى سذاجتها الثقافية نسيت أن للمال عند الأغنياء نداء ولغة يفهمونها جميعا دون اتفاق بينهم • فمن الطبيعى ألا يتزوج الغنى الا ذات ثراء ومن الطبيعى أن يسـارع الثرى يقبول الغنى خطيبا لابنته •

وهذا الاتفاق غير المكتوب بين الأغنياء يتضمن أن كل شىء غير الثراء يمكن اغتفاره أو تجاهله •

وهكذا لم يكن عجيبا أن يقبل عثمان باشا فكرى خطبة راشد بك دون ريث من تفكير • وخصوصا أنه أصبح غنيا سابقا ولكنه مازال يحمل اللقب «غنى» •

ومن الطبيعى أيضا أن تقبل خديجة الزواج فهى تعلم أنها نهاية محتومة لحياة البنت فى بيت أبيها أو بداية محتومة لخلية جديدة من الحياة •

والاسم الذى تقدم لخطبتها اسم شــهير فى عالم الشراء وليس شهيرا فى عالم الثقافة فقد كان المجتمع فى ذلك الحين لايلقى ستارا من التجاهل على أى مهتم بالثقافة فلو كان على جانب منها مهما يكن ضئيلا لذاع صيته . بل ان الحياة كانت تتيح لمن يهوى شراء الكتب أن يصبح شهيرا فى عالم التثقيف حتى وان لم يقرأ هذه الكتب وقد كان أغلب هذا النوع من الهواه يكتفى من الهواية بالشراء دون القراءة . فالقراءة لها ناس وشراء الكتب له ناس آخرون . والذين يقرأون لايهمهم مطلقا طريقة الطبع التى يهتم بها الشراءون . كل مايعنى أهل القراءة أن تكون الحـروف واضـحة جلية لا لبس فيها ولا غموض وقد يكون هذا الوضوح فى ذاته سببا فى رخص الكتاب لا فى غلو سعره .

ولاتنتظر منى أن أفيدك كثيرا فى الشروط التى لابد منها ليكون الكتاب تحفة أثرية ذات شأن فأنا من ذلك النوع الساذج الذى يحب أن يقرأ ولا يهمه أن يقتنى .

على أية حال لم يكن راشد من القــراءين أو الشرائين المدمنين وان كان ملما بكثير من الكتب وكان غنيا مدمنا للغنى وان كانت خديجة فى آمال اليقظة وأحلام النوم ترجو أن يكون زوجها مثقفا يحب كورنى وراسين أو المتنبى وشوقى على الأقل الا أن هــذه الآمال وتلك الأحــلام لم تكن شروطا أساسية فى اختيار رجلها فقد كانت ثقافتها تتيح لها قدرا من الذكاء تعرف به أنها هى لاتملك من حرية الاختيار القدر الكافى الذى يسمح لها أن تضع الشروط ولو توفرت هــذه الحرية فما كانت لتجعلها تضع هذه الشروط . فهذه الآمال والأحلام لم تكن الا خواطر تهفو الى النفس أو تهفو اليهــا

النفس ولكن خديجة تعلم كل العلم أنها أمل لايزيد أو حلم مصيره المؤكد التيقظ على الحقيقة ٠

وهكذا أعفتني خديجة من الحيرة التى خشيت أن تتولانى أمامك فى بداية هذا الفصل ولم توجه الى أبيها الا سؤالا واحدا ٠

ـ هل أنت راض عنه

ـ وأين أستطيع أن أجد مثله ٠

ـ أمرك اذن ٠

لم تسأل كم عمره فالمجتمع لم يكن قد أتاح بعد للفتاة أن تسأل عن عمر زوج المستقبل ، واذا كانت امتنعت أو منعتها التقاليد أن تسأل هذا السؤال الطبيعى المعقول وهى أيضا لم تكن تحب ابن خالتها عزت فالطرق اذن جميعها مغلقة دون أى أسئلة أخرى بل لعلها لم تكن تحتقر أحدا فى حياتها قدر احتقارها لهذا العزت فهو فراغ تجسم فى هيكل انسانى يعنى كل العناية بشاربه وشعر رأسه ولكنه لايبذل أقل عناية برأسه هذا من داخله ٠ فان رأيته رأيت تمثالا وان حادثته وجدت التمثال خيرا منه ٠

فأنا اذن لاأستطيع أن أقيم عقبة من أى نوع تمنع زواج خديجة من راشد وتم الزواج ٠

٣

لو كان المتزوج أحدا آخر غير راشد لكان من الطبيعى أن يكون شهر العسل فى مصر ولكن راشد يحب أن يذهب الى أوروبا ويحب أن يبهر زوجته بالحياة الباذخة التى يعيشها والفتاة على ثقافتها فى بواكير العمر ومطالع الحياة فهى برعم يريده راشد أن يتفتح على يديه وهو صاحب الخبرة الواسعة عن الورود التى لاتعرف الذبول ولايدركها مايدرك الورود من شحوب ·

يريدها امرأة كاملة المعالم يدعو الى بيتها كبار الناس فيبهرهم من بيته غنى وافر يصاحبه الذوق الرفيع وهو يعلم منها أنها فى بيت أبيها كانت تهتم بالكتاب ولكنه أيضا كان يقدر أن التى تهتم بالكتاب تستطيع أن تهتم بكل شىء وهو يريدها فى حجرة نومه امرأة ناضجة خبير عالمة بما يرضيه ويطمئن غرور الرجل فيه ونزوته فى وقت معا ·

وهـو يريدها اذا ذهبت لمجتمع من النســاء أوقعت فى نفوسهن الحسرة والغيرة أو الاعجاب والاكبار ويريد منها أن تكون أنموذجا للأناقة ٠

طراز عجيب راشد ٠ فهو قد نال من التعليم المنتظم قدرا ربما اعتبره البعض ضئيلا وخرج بعد ذلك الى الحياة فاذا هو يصاحب الحياة صحبة عميقة لصيقة ويوغل فيها ايغــالا رفيقا فى بعض الأحيان وفيه عنف شديد فى بعض آخر من الأحيان ٠ عرف الناس فى كل متجه من متجهات الحياة ودرس من القانون مايعنيه من القانون فاذا هو يفوق عتاة المحامين ومشاهيرهم وضــارب فى بورصــة الأوراق المالية والقطن فانسكب عليه المــال يزيده غنى ٠ وأصبح راشــد شخصية مرموقة فى المجتمع المصرى تضطر الأنظار أن تلتفت اليه ٠ فلم يكن التعليم المنتظم هو المصدر الوحيد للثقافة فى ذلك الحين ٠ بل ان المحامين كانوا يعملون بغير شهادة من الحقوق فى ذلك الزمان ٠ وقد اختار راشــد من الثقافة مايرى أنه يحتاج اليه ٠ ولهذا لم يكن عجيبا أن يتقن الفرنسية لا ليقرأ بها كورنى وراسين وانما ليقرأ بها العقود وليضارب بها فى البورصة وليجتذب بها الأصــدقاء من الفرنسيين وتعلم الانجليزية وأتقنهــا ولكن شكسبير وملتن وهاردى وديكنز كانوا لايعنون عنده شيئا الا أسماء يرددها على مسمع الانجليز الذين يتعرف عليهم ٠

قد كان نوع الثقافة التى يتمتع بها راشــد من فصيلة أخرى بعيدة كل البعد عن تلك الثقافة التى أتقنتها خديجة حتى لنستطيع القول فى ثقة أنه من الطبيعى أن كلا منهما كان يعتبر الآخر غير مثقف ٠

وراشد يعتبر الحياة عملا ومتعة وهو يمازج بينهما فى

مقدرة بارعة ، فلم يكن عجيبا أن يصحب زوجته الى باريس ٠
كان راشد يريد أن يستغنى بزوجته عن كل نساء العالمين ولهذا كان يريد فيها كل نساء العالمين ٠

لم تكن خديجة تتصور أن ترى هذا الذى رأته في فرنسا ٠ وكان أبعد شيء عن ذهنها أن ترى هذا الذى رأته مع زوجها بالذات ٠ فالأيام القليلة التى قضتها معه فى بيته فى مصر طالعتها منه مهابة لم تر فى حياتها رجلا يتمتع بها ٠ فحديثه أمر وان تسربل بالرجاء ، ورأيه نهائى وان تزيا بالتواضع ٠ نوع من المهابة لايعرفه الا صاحب الموهبة الكبيرة التى تجعل صاحبها كبيرا ٠

وفى الباخرة الى باريس

ــ تعرفين أننى عشت سنوات بلا زواج ؟

ــ نعم

ــ كان طبيعيا أن أعرف نساء أخريات

ــ مادام قبل الزواج فهذا شأنك ٠

ــ طبعا أنا لا أستأذن منك عن شيء صنعته فى الماضى

ــ فلماذا تخبرنى

ــ لا أريد أن أخفى عنك أولئك اللواتى عرفتهن فى فرنسا

ــ أتريدهن أن يكن صديقات لك وأنت متزوج

ــ اسمعى ياخديجة ٠ أنا فى صداقاتى الفرنسية لم أكن أعرف الا فتيات الملاهى ٠

ــ اذن

ـ أنا أريد منهن أن يكن تسليتك فى فرنسا

ـ اذن

ـ سنذهب الى الأماكن التى يرقصن فيها وسيقبلن على وقد يقبلنني

ـ يقبلنك

ـ وماذا يهمك ؟

ـ لا أريد

ـ كنت أستطيع أن أخفى عنك هذا وأذهب بك الى أماكن أخرى وأزورهن دون علمك

ـ لابأس فلنذهب اليهن

ـ سيصبحن أداة تسلية لك ٠

ـ أنت عندى الآن كل نساء العالم وستجدين أنت عندى كل نساء العالم وأنا لاأحب أن أعد بأشياء سأنفذها ٠ فانى أحب أن يكون التنفيذ هو الوعد وتحقيقه فى وقت معا ٠

وكان عند الوعد والتنفيذ ٠

ورأت فرنسا ٠٠ رأت منها باريس وغير باريس ٠

كانت فى خيالها مسرح أحداث الروايات ومعانى حب وحدائق هوى ونسمات قصص لبلزاك ودوديه وفلوبير وغيرهم وكانت فى أنحاء خيالها رؤى مجنحة لايحيط بها تعريف واضح ٠٠ كانت تبدو فى خفى الوعى منها أحلاما ٠ يشملها ضباب فهى بلا وضوح وتكسوها أستار شفيفة فهى فى نفسها عميقة ولكن بلا معالم ، موجودة ولكن بلا تثبت ، سماوية

أحيانا لعوبا أحيانا أخرى ، أو أرضية مسرفة فى عمق الواقع لما صنعه بها زولا وفلوبير وستندال والآباء الأوائل للواقعية الوليدة ٠

ثم رأتها وغاص بها زوجها فى عميق حناياها فازداد فى عينيها جمالها ولم ترفض نفسها الواقعية فيها فهى واقعية ان أسرفت فى الفجور فهى تعنى فى الوقت نفسه بتجميل هذا الفجـور حتى يصبح نوعا من المتع البشرية التى تلتئم مع طبيعة الحياة فى باريس لاترفضها باريس ولا من يزور باريس حتى اذا خرجت عن باريسها هذه أصبحت تهتكا تعافه النفس وترفضه وتحتقر كل من يلم به ٠

رأت الغوانى اللاتى كن صويحبات زوجها وقبلن زوجها أمامها فلم تحس لذعة غيرة فى قبلهن ٠

لم تحس أن اللواتى يقبلنه نسوة عرفهن وانما أحست أن ماضيه هو الذى يقبله ٠ وكانت قد بدأت تحب زوجها فهى تحب أن يرضى عنه ماضيه كما يرضى عنه حاضره ، وكما ترجو أن يرضى عنه مستقبله ٠

والغريب أن فتاة منهن طلبت أن تجلس معها فى جلسة خاصة ٠ كانت قد أحست من لقاء هذه الفتاة بزوجها أنها أقربهن اليه ٠

وقالت لها الفتاة عجبا

ــ أنت زوجته

ــ نعم

ــ حقــا

ــ وأى عجيب فى ذلك

ـ أردت أن أتأكد

ـ أنا زوجته

ـ أتعرفين كيف يظل زوجك

ـ أعرف كيف أخلص له

ـ هل أنت سخيفة الى هذا الحد

ـ هل الاخلاص سخف

ـ الاخلاص مفروض لايحتاج الرجل أن يكافىء زوجته عليه

ـ ماذا ؟

ـ طبعا أنت مندهشة أن تسمعى هذا الكلام منى

ـ لا ٠٠ أبدا ٠

ـ بل أنت مندهشة ٠

ـ لنفرض ٠

ـ اسمعى ٠٠ لقد كنت فتاة زوجك فترة من الفترات ٠

ـ ربما أدركت ذلك من لقائك به ٠

ـ ان مانصنعه فى الكباريه ليس هو الحب ٠ اننا حين نحب لانهب هذا الحب الا لواحد ٠ وكان زوجك يغيب عنى فترات قد تصل الى سنة ومع ذلك لم أكن أهب حبى لأحد طوال فترة غيابه ٠

ـ ولكن ٠٠؟!

ـ ان مانهبه للزبائن انما هى أجسامنا فقط ٠٠ افهمى ماأقول ٠ أنا أتكلم عن الحب ٠

ـ متى كان هذا ؟

ـ لم تتغلب على واحدة من زميلاتى ·· أنت فقط التى تغلبت على ·

ـ أتكرهيننى ·

ـ لم يكن من الممكن أن يتزوجنى فهو شرقى وأنا أعرف ظروفه ·

ـ أشكرك ·

ـ أتعرفين كيف تحافظين عليه ·

ـ ربما ·

ـ ان لم تكن لك بضاعة الا الاخلاص فأغلب الأمر أننى سأستقبله قبل أن تمر على زواجكما بضعة أشهر ·

ـ الواقع أن هذه هى البضاعة الوحيدة التى أعرفها ·

ـ اذن فسأعلمك ·

وعلمتها ··

لقد رأت باريس وتعلمت فى أهم جامعات الحياة على أعظم أساتذة الحب والمتعة ومعرفة الرجال ·

ولم يكن مارأته من باريس وحدها هو حصيلة علمها · انما مارأته من زوجها كان أعظم هذا الرجل المهيب الذى سمعت عنه فى فترة الخطبة أن رجال المال العتاة لايخشون أحدا فى البورصة قدر خشيتهم منه · هـذا الرجل الذى استطاع بهيبته الذكية الخارقة الذكاء أن يجعل حمزة البلاشونى وكيل أعماله فى الدائرة الزراعية · رجلا فى غاية الأمانة · كان هذا الوكيل كما سمعت عنه يقول ان

الانسان حين يسرق اى صاحب مال يعرف أنه قد يفصل من عمله فان كان صاحب المال قاسيا غاية فى القسوة فقد يذهب به الى السجن . اما مع راشد بك فلا يعرف آى مصير ينتظره فهو خليق أن يصنع به كل مالايتوقعه آحد .

راشد هذا ينكشف فى ملاهى باريس عن هذا الشخص الذى يستطيع فى مقدرة فائقة أن يجعل كل لحظة معه متعة حتى يصبح الجالسون والجالسات جميعهم وجميعهن مغمورين فى فترة من الحياة مليئة بالحياة تلفهم سعادة غامرة تزلزل أعماق أعماقهم فيزداد غوصهم فى لحظاتهم لايريد أحد منهم أن يفكر فيما كان يصنع بأمسه أو فيما قد يصنعه به غده وراشد هو روح هذه الغمرة الطاغية من الأمتاع وهو الينبوع أو هو ان شئت الشلال الهادر بالاسعاد . وهو فى الوقت نفسه يستطيع أن يجعل كل فرد من الموجودين يعتقد أنه هو لا راشد سبب هذه السعادة وهذا الامتاع . كيف استطاع هذا الرجل المهيب آن يكون خبير متعة لايدانيه فى خبرته المتخصصات من فتيات الملاهى فى باريس أو أصحابهن .

وتومض فى ذهن خديجة فكرة تعمل فيها النظر وتوشك أن تؤمن بها . ان معرفة الانسان كيف يكون سعيدا وكيف يعتصر لحظات السعادة اعتصارا لايبقى من رحيقها على قطرة ، موهبة لاتتأتى الا لعبقرى يعرف كيف يعيش . ويعرف من مسالك الحياة فى جدها ولهوها مالايعرفه أبناء الحياة مجتمعين .

والذى لاتعرفه خديجة آن راشدا ترك فى مصر مشكلة يضيق بها أشد الضيق تهدد قدرا من ماله ولكنه مع ذلك

اقنع نفسه بأنها مسألة هينة ميسورة وأنها لاتستحق حتى أن يؤخر سفره من أجلها ·

لقد اغتاله صديق له فى عشرة آلاف جنيه ·

والذى لاتعرفه أيضا أن سبب اغتيال صديقه لهذا المبلغ هو زواجه منها ومعرفته لسيدة من سيدات مصر لها أهمية كبرى فى المجتمع المصرى والذى لاتعرفه أيضا أنه فجع فى صديقه وفى ثقته به فجيعة ان لم تزد على فجيعة المال فهى تستوى معها ·

ولكن أهذا الحديث يناسب لحظات المتعة التى يعتصرها راشد ويسقيها صرفا غير مشوبة لزوجته الحبيبة خديجة · سننسى كل هذا الذى يضيق به راشد ونتيح له ما أتاحه لنفسه من شهور صاخبات بالهناءة فى ربوع فرنسا جميعا ·

وعرفت خديجة عن زوجها شيئا لم تكن تتوقع أنه يتخلق به فهو لايلعب القمار مطلقا · قد يشرب مع الشاربين ولكنه لايقرب مائدة القمار ·

ـ ولكنك تضارب فى البورصة ·

ـ البورصة خبرة وبعد نظر مالى ولايصاب فيها الانسان الا اذا حدثت أشياء لم تكن فى الحسبان ولكن القمار تسليم أموالى كاملة ليد غير أمينة ولا مخلصة ولا صديق لها وهى أيدى الحظ · أنا لا أقبل هذا لكرامتى ولا لثقافتى ولا لعقلى ·

ـ فهل المقامرون جميعهم أغبياء ·

ـ بل ان كثيرا منهم أذكياء ·

ـ فما لهم يقامرون ·

ـ لقد أخطأوا الطريق الى المتعة فتلمسوها على مائدة القمار أما أنا ··

ـ لاتكمل ·· لقد رأيت ·· نعم ان أحدا لايعرف طرق المتعة كما تعرفها أنت ·

ـ ولكن هناك شيئا لم تقله ·

ـ وهو ؟

ـ وهو اننى مع كل هذه المتع ظللت مخلصا لك لا أهب نفسى الا لك ·

ـ وهذا حق أيضا ·

٤

لماذا يتوقف العقل عنـد بعض النـاس ويتصرفون تصرفات حمقاء مع أنهم من ذوى العقل الراجح الذى استطاع أن يمكن لهم وينزلهم منزلة محترمة عند الناس ·

لو أن أحدا سأل زكريا باشـا حسام الدين على سبيل الاستشارة مارأيك فى زيجة الزوج فيها فات الخمسين منذ ست سنوات وهو يحث الخطى نحو الستين · والزوجة فيها تمشى الهوينى الى العشرين من عمرها لم تكملها لكان جوابه متسما بالعقل والرزانة وبعد النظر · فالمسـألة لايختلف فيها عقـلان على شىء ان الرجـاحة أو على الأقل لاينعمان بالغباء الشديد ·

ولكن العجيب أن زكريا باشا حسـام الدين هو نفسه

تزوج الآنسة سهير ممدوح كريمة ممدوح عزت باشا أما زكريا باشا فهو مستشار فى محكمة الاستئناف عرف بعلمه الواسع بالقانون بل وعرف أيضا بحبه للأدب وكثيرا ماكانت أحكامه قطعا أدبية يتغنى بها المحامون خاصة الذين صدر الحكم فى صالحهم وهو موسع عليه فى الرزق واسع الأفق عميق النظرة ولهذا لم يكن عجيبا أن يصبح وزيرا • وقد سر بهذا لأنه كان يفكر منذ زمن أن يترك القضاء الجالس الى القضاء الواقف • ولعله فى ذلك تأثر بالقصة التى تروى عن أحد مشاهير المحامين فى فرنسا وكان ابنه يعمل فى القضاء وكانت سمعة ابنه أيضا عظيمة فقد عرف عنه أنه من أحسن القضاة • وفى يوم سأل أحد الصحفيين المحامى •

ـ لماذا تعمل أنت فى القضاء الواقف بينما يعمل ابنك فى القضاء الجالس •

فأجاب المحامى الذكى •

ـ لو استطاع ابنى الوقوف ماجلس •

وأغلب الأمر أن الأب كان يريد ابنه أن يعمل معه فى المكتب الكبير ليظل محتفظا بمكانة المكتب بعد وفاته والراجح أن الابن كان يفضل العمل فى القضاء بطبيعة مواهبه أيا ماكان الأمر فالمؤكد أن زكريا باشا تأثر بهذه القصة وأراد أن يقف عن كرسى القضاء ليصبح محاميا واثقا من عمله القانونى ومن لغته فى وقت معا •

وهكذا جاء تعيينه فى الوزارة خير طريق يخرج منه الى مقاعد المحامين • كان زكريا باشا قد تزوج فى أول حياته نعيمة هانم شهاب بنت مجدى باشا وقد أنجب منها ابنهما عدلى •

ولكن زكريا باشا كان يحب النســاء وكان بارعا فى الحصول عليهن • والطريق تجمع أصحاب القصد الواحد فلم يكن عجيبا أن يجمع طـريق النســاء بين الباشا زكريا والبك راشد فكانت صداقة • قوامها الأول وقد يكون الأهم النساء •

ولكن «راشد» صاحب مصالح كبيرة والباشا زكريا حين ترك الوزارة الى المحاماة أصبح يتمتع بنفوذ كبير وأصبحت الأبواب التى لاتفتح لغيره من المحامين تفتح له • ولراشد عين يقظى كعين الصقر تدرى أين يكمن الخير لها فقضـايا راشد تنتقل اذن من تلقاء نفسها الى مكتب الباشا وتزداد الصداقة توثقا •

لعلك الآن تعجب ان ذكرت كل شىء عن الباشا أو أكاد ولم أذكر شيئا عن زوجه الأولى نعيمة هانم شهاب ولا عن زوجه الثانية الآنسة سهير حمدى •

وماكان لى أن أذكر شيئا عن واحدة منهن دون تفصيل لايقبل الاجمال • فنعيمة هانم شهاب هى الابنة الوحيـدة للغنى الشهير مجدى باشا شهاب • وهى سيدة علمها الغنى أن تأمر فتطاع • وليس زكريا باشا بأقل منها غنى أو أدنى حسبا وانما تعلقه بالنساء وعلمه بأنه لاشك سيخونها جعله يسمح لها بأن تأمر فتجاب وأن تبدووكأنها هى رجل البيت• وكان ذكاء زكريا ومعرفته أنه آخر الأمر يستطيع دائما أن يفعل مايريد داخل البيت أو خارجه يجعله يتيح لها هـذا المظهر المتآمر الصلب تفرح به هى ولا يخسر هو شيئا ••

ولكن شيئا واحدا فات زكريا باشا • وما هذا بعجيب فالأذكياء أيضا تفوتهم أشياء •

لقد استولت نعيمة هانم على ابنهما عدلى منــذ ولادته فهى وحدها صــاحبة الشــأن فى تربيته وهى التى تدخله المدرسة بل انها هى التى اختارت له الكلية التى يدخل اليها والعجيب أن هذه الكلية لم تكن الحقوق التى تخرج فيها أبوه والتى تخرجت فيها الغــالبية العظمى من وجــوه البــلاد ووزراؤها وحكامها . لقــد اختارت له كلية الهندسة وقد نشأ عدلى فكرة من أمه وخطره منها واشارة من يدها فهو لايعرف أن يختار ولا يريد أن يعرف فالذى لم يعرف الحرية يوما لايفكر فيها بل لعله اذا منحها تمثلت له شــيئا بغيضا لايطيقه ولايحتاج اليه . فالاختيار فى الحيــاة شىء صعب ومهمة شاقة لايتعرض لها الا من لايتمتع بأم كأم المهندس عدلى التى تختار عنه كل شىء يتعلق به وكل طريق ينبغى له أن يسير فيه .

وحين تخرج عدلى فى كلية الهندسة اختارت له نعيمة هانم زوجته وتزوجها وكان عدلى على غناه دميم الخلقة وأصبح بفضل السيدة والدته كريه الخلق ضــعيفا تافهــا . وحين تزوج وانسلخ كيانه عن كيان أمــه فى السكن وخــلا به وبزوجته بيت تجلى على حقيقته البشــعة أمام زوجته أنه لايجيد فى الحياة الا أصناف الطعــام فما كان له فى بيت أبيه بعد أمه الا الطاهى يلازمه فتعلم عنه أصول الطهى حتى أجادها وأحس بالرضاء عن نفسه واطمأن أنه صاحب موهبة وسبحان رب العرش فى علياء ســمائه يهب لكل عبــد من عباده مهما يكن تافها شــيئا تطمئن اليه نفســه أنه يملك مالايملكه الآخرون .

وربما كانت هذه الموهبة بالنســبة لزوجته فى الأيام الأولى من زواجهما مثار ضحك ومزاح ولكن ويل للزوجة

وللزوج معا اذا تبينا ان الضحك والمزاح انما هما جد كل الجد • وأن عبقرية المهندس ليست فى شىء الا فى طهو أصناف الطعام •

ضاقت الزوجة راوية بزوجها أشد الضيق ولما كان لابد للضيق أن يتمثل فى عمل فما هو الا شهر أو بعض شهر حتى كان عدلى مطية وزوجه راكبتها ويبدو الأمر من النظرة السطحية أن مثله فى ذلك مثل ابيه ولكن وهلة من انعام النظر سرعان ماتعود بها العين الخبيرة ان هدوء أبيه عن ذكاء وعن محاولة لاعفاء مايصنعه خارج البيت أما هدوء الابن فعن غباء ولأنه لايعرف الا أن يكون هادئا • وحلت الزوجة محل الأم ولم يقم بينهما أى خلاف فراوية ذكية تعرف كيف تبدو أمام حماتها دائما طيعة ذلولا لاتخالف لها أمرا أو ترد لها كلمة فملكت بذكائها الأم والابن جميعا •

وهكذا وقع زكريا باشا فى خطأ لم ينجه منه ذكاؤه المتوقد وبدلا من أن يكون ابنه جديرا بأن يحمل اسمه أصبح هزوة لكل هازىء وأغلب الأمر أن زكريا باشا أراد لابنه أن يلهى زوجته عنه فيستطيع هو أن ينصرف الى نسائه ماشاء له الانصراف • فان زوجته تعرف عنه ميله للنساء بل لقد حدث بينهما حادث تدافعت أصداؤه فى مصر جميعا يوم أن دعت زوجته سيدات كثيرات فى ليلة شاع فيها الأنس والسرور بمناسبة عودتها من الأراضى الحجازية بعد أن حجت بيت الله وزارت قبر نبيه •

وكان الباشا يوم ذاك فى البيت ولكنه كان فى حجرته بعيدا عن مجتمع النسوة •

لم تكن نعيمة هانم تعرف أن صديقتها صالحة هى رفيقة

الباشا فى هذه الأيام ، فلم يكن عجيبا أن تدعوها . وكم كانت المفاجأة صعبة حين تفقدت صالحة فى أثناء الحفل فلم تجدها فاذا خادمتها مبروكة تشير لها بأصبعها الى أعلى وتصعد نعيمة هانم الى حجرة الباشا فتجدها خالية فتكمل صعودها الى السطح لتجد صالحة فى أحضان زوجها واذا بها تصرخ صراخا يتعالى على صوت المغنية فى الطابق الأدنى واذا بها تخلع حذاءها وتنهال به على معالى الباشا وكان يومذاك وزيرا جديدا . وتصبح القصة حديث مصر جميعا . وتطلق صالحة من زوجها وتنقطع صلة الباشا بها .

ولكن الباشا لايستطيع العيش من غير أخرى ويتعرف فى هذه الأيام على المستشار ممدوح بك عزت وهو رجل اقترب من المعاش وذهب الى معالى الوزير يرجوه أن يسعى له أن ينال رتبة الباشوية وهو فى طريقه الى مقاهى المعاش .

وممدوح بك عزت رجل تزوج وهو كبير السن من سيدة مات عنها زوجها هى السيدة نبوية الباجورى وقد أنجبت لزوجها فتاة كان عمرها يوم ذهب والدها الى وزير العدل يدور حول العشرين .

فى غمرة التقرب الذى يسعى به ممدوح بك الى معالى الوزير دعاه الى الغداء فى منزله وهناك رأى الباشا لأول مرة بيت ممدوح بك ورأى أيضا ابنة ممدوح بك . أما البيت فكسير متواضع يدل على أن سعادة المستشار شريف وفقير وأما البنت فتدل على أن سعادة المستشار أحسن اختيار زوجته وأن الله جعل الابنة تشبه الأجمل فى والديها .

راقت سهير فى عين الباشا ولكن هذه فتاة فى حضن

أبيها فلا سبيل اليها أو على الأقل الطريق الذى تعـود أن يسلكه لايصلح معها ٠٠ مع هذه الفتاة ليس هناك الا طريق واحدة ٠

ـ سعادة الباشا ابنتك سهير غاية فى الجمال ٠

ـ لاتنس يامعالى الباشا أن صدور الرتبة منك يوشك أن يكون براءة للباشـوية فأنت الوزيـر المختص باقتراح الرتب للمستشارين ٠

ـ سعادة الباشا أنا أعرف اختصاصاتى كل المعرفة ٠

ـ اذن ٠

ـ أظن جلالة الملك لايرضى أن يكون أبو زوجتى بك ٠

ـ ماذا ٠٠ ماذا قلت معاليك ٠

ـ أنا ياأخى أخطب ابنتك لنفسى ٠

ـ هذا شرف يامعالى الباشا ٠

ـ ولى شرط ٠

ـ أنا تحت أمر معاليك ٠

ـ أن يظل الزواج سرا حتى أجـد الفرصة مناسـبة لاعلانه ٠

وتم الزواج ونال ممدوح باشا رتبة الباشوية ٠

لم يكن عجيبا أن يقبل ممدوح بك أو باشا خطبة ابنته فقد كانت المناصب والرتب ذات شـأن أسـطورى فى ذلك الزمان ولكن العجيب أن شخصا فى ذكاء زكريا باشا يخطب فتاة تصغر ابنه بعشر سنوات ٠ من المؤكد أنه ماكان ينصح

أى انسان ينتصحه أن يفعل مافعل ولكن الانسان دائما يظن أنه شىء آخر غير الناس وأن مالايجدر بغيره يجدر به فزكريا مثلا كان يظن أن شبابه دائم وأن الجاذبية التى يتمتع بها تستطيع أن تعوض سهير عن فتوة العشرين وأن اللقب والمكانة أهم بكثير من تقارب السن ٠

ولم يكن الأب يسأل ابنته فى شأن زواجها ولهذا لم تحاول سهير أن تمتنع فمادام أبوها قد اختار لها هذا فلا ترد ارادته ولكنها فى شبابها المتفتح كانت تعرف الطريق الذى فرشه لها أبوها برتبة الباشوية التى نالها .

وظل الزواج سرا ٠

شخص واحد كان الباشا يصحبه الى بيت زوجته الجديدة هو راشد بك برهان ٠ فقد عرف فيه الباشا قدرته الفائقة على سكب حياة كاملة فى لحظات متعة ٠ وقد كانت السرية التى تحيط بالزواج تجعل الصلة بينه وبين زوجته يحيط بها جو المغامرات الذى كان يحيط بصلاته مع رفيقاته السابقات وقد كان الزواج يحصن العلاقة اذا هى افتضحت من أن تلوك الألسنة اسمه كما لاكتها فى حادثة الحذاء وفى أحداث أخرى مشابهة ٠

أعجب راشد بزوجة الباشا وأعجبت به ٠ رأت فيه الشخص الذى تستطيع معه أن تمارس شبابها وتحس بجمالها الآسر مقدرا عند خبير نساء ٠ وهو وان كان يكبرها فى السن الا أن الفارق أقل من ذلك الفارق الذى يفصلها عن زوجها ٠

أحست سهير فى عينى راشد الاعجاب وكانت تعلم أنه لن يقدم على مغازلتها على مرأى من زوجها فالزوج لماح

الذكاء وراشد يعرف مقــدار لماحيته وذكائه اذن فلتقدم هى ٠

حين انتهت الســهرة وحان الموعــد لراشــد أن يترك الزوجين قام واستأذن وصافح الباشا وصافح ســهير واذا بشىء أدرك أنه ورقة تتكور فى يده فيطبق عليها يده ٠

ويقرأ راشد على ضوء سيارته الداخلى ٠

«تعال غدا فى الساعة السابعة الباشا لن يأتى غدا»

ويضع الورقة فى جيبه ولا يتولاه عجب كثير فقد كان يعلم أنه اذا لم يقم هو بدور العشيق لهذه الزوجة الشابة فسيقوم غيره ولابأس أن يخــون صــديقه الذى ائتمنه على حريمه فهو خير ألف مرة من غيره فقد يكون هذا الغير محبا للظهور وقد يكون شابا فيه رعونة الشباب وزهوه فيفتضح من أمر الباشا ماينبغى أن يكون سرا ٠

فهو اذن يقوم بدور العشيق لزوجة صــديقه حمــاية لعرض هذا الصديق أن تنتاشه ألسنة حــداد وفى ميــدان السياسة يباح كل شىء ٠

ذهب الى بيته فى هــذه الليلة فاستقبله بدوى خادمه الجديد بعد أن أحال خادمه السابق على المعاش ٠ فقد كان عم محمدين كما كان يسميه قد بلغ من الكبر عتيا فطلب اليه أن يظل فى البيت يشرف على المأكل والمشرب ويترأس الخدم دون أن يقوم بأى عمل وطلب اليه أيضا أن يستقدم خادما له جديدا يقوم على خاصة شأنه ويتولى شأن ملابسه ٠ فكان بدوى ٠

خلع راشد حلته وألبسه بدوى الجلباب واستلقى راشد

على سريره ٠٠ لقد بدأت مغامرة جديدة ٠ لم يكن الى ذلك الحين قد رأى خديجة بل أنه لم يرها الا بعد ذلك بحوالى عامين استمرت فيهما علاقته بسهير وطبعا لم يعرف الباشا شيئا فكان كثيرا ما يقضى مع الزوجة وزوجها السهرات ٠

***

اغتالت البورصة فهمى عبد الحميد ٠ صديق راشد اللصيق وجاره فى الأرض الزراعية وشح المال فى يده وأوشك أن يبيع عزبتة المجاورة لأرض راشد الواسعة فاستدعاه راشد ٠

ـ كم تحتاج ٠

ـ لماذا لاتشترى أنت العزبة ٠

ـ هذا كلام فارغ ٠

ـ المبلغ كبير ٠

ـ ولكن البورصة لاتستمر على حال واحدة ٠

ـ وهى أيضا بلا قلب ٠

ـ اذا كانت خانتك اليوم وأعطت غيرك فليس بعيدا أن تخون غيرك فى غد وتعطيك ٠

ـ اذا أعطتنى أشترى أرضا أخرى أو أسترد منك الارض ٠

ـ أنا لن أشترى ٠

ـ أبحث عن مشتر ٠

ـ وانت لن تبيع ٠

ـ غير معقول أن تسلفنى مبلغا كبيرا كهذا ٠

ـ اذا لم أحتمل أضمنك فى البنك ٠

ـ أريد عشرة آلاف جنيه ٠

ـ عندى ٠

ـ أبيع العزبة أحسن ٠

ـ العزبة تساوى أكثر من هذا ٠٠ خذ ٠

وأعطاه شيكا بالمبلغ وكتب فهمى كمبيالة مستحقة الدفع عند الطلب وضعها راشد فى حافظة نقوده ٠

***

فى سهرة عند الباشا أو عنـد سهير أيهمـا شئت قـال راشد ٠

ـ معالى الباشا عندى خبر لابد أن أقوله ٠

ـ وهل تحتاج الى مقدمات ٠

ـ ولعل سهير هانم يهمها أن تعرفه أيضا ٠

ـ خيرا ٠

ـ ربما أصبح من العسير على أن أكثر من زيارة معاليك بعد ذلك ٠

ـ اذن فالخبر هام حقيقة ٠

ـ أنا أيضا سأتزوج ٠

واربد وجـه سهير هنيهـة ولكن سرعان ما استجمعت قوة الأنثى ٠

ـ ألف مبروك ٠

وقال الباشا ·

ـ نعرفها ·

ـ يامعالى الباشا لو كنت تعرفها لما تزوجتها أنا أبدا ·

وقهقه الباشا بصوت مرتفع ·

وتبسمت سهير وقال راشد مستطردا ·

ـ نعرف أباها والى هنا والمسألة سليمة والحمد لله ·

ـ من ·

ـ ابنة عثمان باشا فكرى ·

ـ لقد اخترت ·

ـ حقا ياباشا ؟

ـ سمعت عنها كل خير ·

ـ الحمد لله ·· معاليك متأكد أنه سمع فقط ·

ـ نعم ·· نعم ·· لاتخف ·· وماذا تريدنا أن نقدم لك هدية لهذا الزواج ·

ـ معاليك خير من يختار ·

ـ اننى أعد لك مفاجأة منذ بضعة أشهر أظن أنها تصلح هدية لزواجك ·

ـ هل لى أن أسأل ·

ـ الآن أستطيع أن أقول لك ·

ـ عظيم ·

ـ أنت تعرف صلتى برئيس الوزراء ·

ـ نعم ولو انك رفضت أن تشترك فى الوزارة ·

ـ الوزارة بالنسبة لى خسارة كبيرة فهى تجعلنى أترك الشركات التى أعمل بها ٠

ـ ربما كنت على حق ٠

ـ اعتـذرت عن عدم قبول الوزارة ولكن تستطيع أن تعتبرنى مشتركا فيها فرئيس الوزراء يستشيرنى دائما وقد طلبت أجرا لاستشارتى هذه ٠

ـ طبعا استشارة زكريا باشا لابد أن تكون مكافأتها كبيرة ٠

ـ لقد طلبت لك الباشوية ٠

ـ حقا ٠

ـ وأظن أن اسمك سيظهر فى انعامات العيد ٠

لم يبق الا أشهر قلائل وتصبح راشد باشا برهان ٠

ـ اسمح لى أن أقبلك يامعالى الباشا ٠

***

حين ذهب الى بيته راح خادمه الجديد أدريس يخلع عنه ملابسه فقد غضب عم محمدين على بدوى واتهمه بأن يده طويلة وحرامى فطرده وجاء بأدريس بدلا منه ولم يكن راشد بك يرد لعم محمدين أمرا يأمره فى البيت فقد كبر على يديه وهو يعتبر مربيا له ٠٠

لاحظ ادريس أن راشد بك سعيد حالم وان كان لم ينطق بحرف واحد وبينما هو يخلع عنـه بنطلونه اذا بعم محمدين ٠

ـ سعادة البك ٠

وقال راشد فى نفسـه بعد بضعة أشهر ستقول سعادة الباشا ياعم محمدين ٠

ـ نعم ياعم محمدين ٠

ـ فهمى بك تحت ٠

ـ الآن ٠

ـ لما رأى دهشتى قال انه يريدك فى شىء مهم ٠

ـ اللهم أجعله خيرا ٠٠ البسنى يابدوى آسف أقصد ياادريس ٠

وحين لبس قال لمحمدين ٠

ـ هات دفتر الشيكات من درج الدولاب ياعم محمدين

ونزل راشد الى حجرة مكتبه ٠

ـ خيرا يافهمى ٠

ـ أين الكمبيالة ؟

ـ يارجل ٠٠ أمن أجل هذا تأتى فى هذه الساعة ٠

ـ ان الحديث الذى آريدك فيه لاتصـلح له الا هـذه الساعة ٠

ـ هل رد الدين يحتاج الى هذه الساعة ٠

ـ انى سارده نعم ولكن ليس بالطريقة العادية ٠

ـ ماذا ؟

ـ معى ورقة تحتاج اليها ٠

ـ وهل تريد أن تبيعها لى ٠

ـ نحن نعمل فى البورصة وأنت قلت ان البورصة لا قلب لها ٠

ـ ولكن نحن لنا قلوب ٠

ـ نحن أبناء البورصة ٠

ـ بل نحن أبناء الانسان ٠

ـ المهمَ ألا تريد أن ترى الورقة ٠

ـ لابأس ٠

وأخرج فهمى الورقة وفتحها لحظة ثم أقفلها وأعادها حيث كانت ٠

ودارت الدنيا براشد واستمر فهمى ٠

ـ انك على وشك الزواج وفضيحة كهذه تقضى على زواجك ٠

ـ هل هذا معقول ٠

ـ وقد عرفت أنا بتحرياتى أن الباشا تزوج سهير ممدوح وطبعا الورقة منها ٠

ـ أيمكن هذا !

ـ تصور لو وقعت الورقة فى يد ابنه عدلى ٠ لقد جن حين أخبرته أن أباه تزوج وحاول أن يخبر امه ولكنها فى مرض الموت ولاتعى شيئا ٠

ـ أهذا فهمى الذى يكلمنى ٠

ـ تصور أن عدلى ينوى رفع دعوى سفه على أبيه فكر فى اثر هذه الورقة فى القضية ٠

ـ فهمى المبلغ لايهمنى وسأعطيك الكمبيالة ولكن كيف تصنع أنت هذا ٠

ـ ألم أقل لك ان البورصة لا قلب لها ٠

ـ ولكن أنا أيضا ابن البورصة وأنا ٠٠ أنا ٠

ـ أعرف ماتريد أن تذكره من شهامتك ولكن الناس معادن ٠ أنت شهم وأنا نذل أظن أن هذا يوفر عليك كثيرا من الكلام ٠

ـ هات الورقة ٠

ـ هات الكمبيالة ٠

ـ لك حق فأنت تظن الناس جميعا مثلك نتبادلها فى وقت واحد ٠

وتمت المبادلة ٠٠

ـ هل اطمأننت الآن ٠

ـ كنت أستطيع أن أطلب ضعفى هـذا المبلغ وكنت ستدفع ٠

ـ الآن أعلم أنك أنت الذى ستدفع ٠٠ وستدفع أضعاف ماأخذت ٠

ـ أتظن ذلك ٠

ـ سترى ٠

٥

وهكذا سافر راشد الى أوروبا مع عروسه فى ذهنه كثير يشغله فقد ترك زوجة زكريا باشا نعيمة هانم بين موت وحياة وابنه عدلى كاد يجن من خبر زواج أبيه وهو لايجد من أمه آذنا أو فهما ليبثها هذا الخبر فتقضى على هذا الزواج قضاء مبرما وهو وان كان قد تجاوز الثلاثين الا آنه غبى قاصر العقل هزيل التصرف ، وليس ببعيد آن يرفع دعوى السفه على أبيه فجهله يحول بينه وبين معرفة هزل هذه القضية وعدم جديتها . وكل مايعرف عن آبيه أنه زوج أمه الذى يطيعها فى كل شىء ولو كان على شىء مهما يكن هينا من الذكاء لعرف أن أباه لايطيع أمه الا فى تافه الأمور فلو قد فكرت أن تتعرض لآرائه الفقهية آو السياسية لكان له معها شأن آخر .

وليس راشد بالذى يفكر هذا التفكير جميعه فى شأن زكريا لمجرد الاهتمام بأمره وانما خشى أن يشغله شأن ابنه هذا عن السعى الى الباشاوية التى وعده بها .

وهو يخشى أيضا أن تؤلبه سهير عليه فقد قطع علاقته بها تمــاما منذ ذلك اليــوم الذى أعلنها فيه آنه سيتزوج وللسيدات الى هذه الأمور مداخل لايلج منها سوى ذكائهن ·

ولكنه مع كل ذلك كان يفضــل السفر فهو لايحب أن يظهر أحدا على اهتمامه برتبة الباشوية ثم لاتأتى وهو يفضل أن يعرفها الناس من المرسوم لا منه وأن له أصــدقاء خلص وهو يخشى ــ وان كان يعرف نفسه ــ ان تفلت منه كلمة تنبىء عما يدور بنفسه من آمال ·

وقد حرص راشد ألا يخبر زوجته بما ينتظر ، فالرتبة عند السيدات لها مكانة خاصة وهــو يخشى ألا تأتى فتهتز مكانته فى نفسها ·

لم يستطع شىء من هذا جميعه أن يحول بينه وبين أن يعيش الساعة فى فرنسا ساعات مكثفة من البهجة يشيعها من نفسه الى قلب زوجته والى قلب كل من يشاركهما فى لياليهما أو فى بياض نهارهما ·

فهو من أولئك القلة التى تعرف لكل لحظة حقها فلايعدو التفكير على المتعة ولاتعدو المتعة على العمل ·

وهو أيضا كان يعلم أن ليس فى القاهرة شىء يستطيع أن يفعله فالانتظار وحده ليس عملا ·

أما عن فهمى فانه لم يبت ليلته التى زاره فيها ليعرض سفالته الا وقد أعد له عــدته وعــرف تفاصيل ماسيفعله بشأنه · ولم يكن الموعد الذى حدده قد جاء بعد ·

حين عاد راشــد الى القــاهرة فى أوائل سبتمبر كان الباشا قد أعلن زواجه من سهير بعد أن ماتت نعيمة وأصبح الباشا يخرج مع زوجته فى كل مكان ·

وكان عـدلى قد رفع دعوى السفه على أبيه فجعل من نفسه أضحوكة بين الناس · فان كا نلابد من دعوى ترفع كان الأجدر أن يرفعها الأب العالم الذكى على ابنه الغبى الجاهل ·

وكان زكريا باشا كبيرا كشأنه فاكتفى بارسال أصغر محام فى مكتبه وهو يعلم أن مهمة المحامى غاية فى السهولة واليسر · ولم يكن عجيبا ألا يفكر زكريا باشا فى حرمان ابنه من الميراث وماكان أيسر من هـذا بالنسبة اليه ولكن لعله بروح القاضى العادل ، والفقيه القانونى قد أدرك أنه هو الذى أهمل شأن ابنه وجعل منه هذا السخيف الذى أصبحه بما هيأت له أمه من مجالس فارغة مع نسوة جاهلات وماهيأه له طاهى المنزل من ثقافة مطبخية ·

ولم يشأ زكريا أن يعاقب ابنه على خطأ ارتكبه هو نحوه ويعتبر نفسه مسئولا عنه ·

وبقدر ماكانت أحاديث القاهرة تسخر من سخافة عدلى بقدر ماكانت تكبر موقف أبيه وتعاليه عن الصغار وعن أن يجعل نفسه فى كفة ميزان مع ابنه السخيف ·

كان العيد قد اقترب وذهب راشد الى القـرية ومعه زوجته وراح يوزع على الفلاحين الملابس والنقود مضاعفة هذا العام مدعيا أنها من أجل زوجته فانطلقت الألسنة تدعو لها وله بكل هناء وان كان هو فى خبىء نفسه يدبر لأمـر ويعد له بهذه المنح عدته ·

ظهرت أسماء الذين أنعم عليهم برتبة الباشاوية وانفجر الخبر فى البلدة حيث أحب راشد أن يكون ففى الريف تصبح الأفراح والأحزان أكثر جلاء ووضوحا من المدينة ·

فى الريف ينطلق الفرح فيصبح فى كل بيت · توشك تراه فى الشمس وفى القمر وفى الزرع وعلى وجوه الأنعام مع زغاريد النساء ورقص الرجال وقرع الطبول وهتـاف المزمار ·

وأعاد راشد المنح مرة أخرى بمناسبة الباشوية وركب سيارته مع زوجته ليقيد اسمه فى دفتر التشريفات ثم ليذهب بعد ذلك فورا الى زكريا باشا ليشعره أنه يعـرف الفضل لأهله وأخبره زكريا باشا بالأسماء التى ينبغى أن يمر بها ليقدم الشكر مثل رئيس الوزراء ورئيس الديوان وكبير الياوران وغيرهم ·

لم يمكث الباشا راشد فى القاهرة أكثر من يومين ثم أخبر خديجة أن لديه عملا فى القرية وقد يضطر أن يغيب بها يومين ولم تكن الزوجات الى ذلك الحين يناقشن رغبات أزواجهن وخديجة لها من ثقافتها مايجعلها تعرف تماما متى يجمل بها أن تسأل ومتى ينبغى لها ألا تتدخل فهى تدرك أن أعمال زوجها ليست مجال أسئلة لها أو تدخل ··

وهكذا أخذ حضرة صاحب السعادة راشد برهان باشا طريقه الى قريته ·

٦

في زيارته الأولى سأل ٠

ـ متى نجمع القطن ؟

ـ بعد بضعة أيام ٠

ـ والعزب التى تجاورنا ؟

ـ بعـدنا ٠

ـ كلها ؟

ـ كلها نحن أول من زرعنا القطن فى الجهة ٠

ـ عظيم ٠٠ سأحضر معكم الجمع هذا العام ٠

ـ نزداد شرفا ياسعادة الباشا ٠

فى زيارته الثانية ركب راشـد حصانه وراح يمـر بأرضه مع حمزة البلاشـونى وكيل زراعته ٠ وبدا وكأن «راشد» أخطأ الطريق فمر على حدود الأراضى المجاورة وسأل حمزة ٠

ـ كم فدان قطن هذه ؟

ـ ثلاثمائة فدان ٠

ولم يعقب ٠

وحين عاد الى البيت قال لحمزة ٠

ـ أريد متولى الفراش ٠

ـ سعادتك تقصد متولى صاحب الفراشة ٠

ـ نعم ٠

ـ سعادتك تنوى أن تقيم لنا ليلة بمناسبة الباشوية ٠

ـ ستكون ليلة وأنت بطلها ٠

ـ ياليت ياسعادة الباشا لو كنت أعرف كيف أغنى لغنيت للصبح ٠

ـ ستغنى ياحمزة ٠٠ ستغنى للصبح ولكن بأصوات أخرى ٠

ـ سعادتك تتوقع أن أفهم ؟

ـ مؤقتا المطلوب ألا تفهم ٠

وسأل متولى صاحب الفراشه ٠

ـ كم كلوب عندك ؟

ـ أمرك ياسعادة الباشا ٠

ـ أريد ثلاثين ٠

ـ أمرك سعادة الباشا ٠

ـ خذ ٠٠ اشتر ماينقصك وحين تنتهى الليلة خذها لك

ـ ربنا يطيل عمر سعادة الباشا ٠

ـ متى تكون مستعدا ؟

ـ عندما تأمر

ـ الليلة ٠

ـ أمـــرك ٠

وقال لحمزة ٠

ـ أريد كل نظار العزب ٠

ـ أمر سعادة الباشا ٠

ـ بعد ساعة ٠

ـ أمرك ٠

ـ ومعهم الخوليه ٠

ـ أمرك سعادة الباشا ٠

قال لهم راشد ٠

ـ أريد أطفالا وشبابا ونساء فى سن جمع القطن ٠

وقال حمزه ٠

ـ كم تريد ٠

ـ لو كنت أريد عددا ضئيلا ماجمعت كل هؤلاء الرجال أريد كل من تستطيعون أن تجمعــوه ٠ وأريد عربات نقل وجمالا وحميرا أيضا بقدر ماتستطيعون ٠

ونظر الرجال بعضهم لبعض وقال أحدهم ٠

ـ القطن عندنا لايستحق الجمع الآن ٠

ـ لاعليك ياحاج جوده ستعرف كل شيء في حينه ٠٠ أنا أعرف أن أحدا لم يفتح في الجمع حتى الآن ٠٠ كم نفر تستطيع أن تجيئني به ٠

ـ أمرك أستطيع أن أحضر آكثر من مائتين ٠٠ فالجميع الآن لا يصنعون شيئا ٠

ـ وهذا بالضبط ماقصدت اليه ٠

ـ وهو كذلك ٠

وراح كل ناظر وكل خولى يدل بعـدد الأنفـار التى يستطيع جمعهم واكتمل العدد الفا ومائتين أدرك الباشا أنهم لن يتجاوزوا الألف وهذا ما اراد ٠

ـ متى تستطيعون أن تحضروهم ٠

ـ أن أردت الآن ٠

ـ أنا فعلا أريدهم الآن ٠٠ ان انتظرنا الى الغد فشل كل الترتيب الذى أصنعه ٠

ـ أمرك ٠

ـ متى تحضرون ٠

نظر الحاج جوده حوله لحظة ثم قال ٠

ـ صفار شمس ياسعادة الباشا ٠

وأمنت الأصوات على الموعد ٠

قبل ان تغرب الشمس كانت الأرض الفضـاء الواقعة أمام سراى راشد باشا برهان تغص بالناس منهم من جـاء

تلبية للطلب ومنهم من جاء ليعرف السر وراء هذه الدعوة الغريبة للناس والأنعام جميعا وفى نفس الوقت كان الباشا مجتمعا مع حمزه ونظار العزب فى حجرة مقفلة لم يسمح لغيرهم بدخولها · وسأل الباشا حمزه ·

ــ هل خفر العزب معكم ·

ــ طبعا ·

ــ هل معهم أسلحتهم ·

ــ طبعا ·

ــ كم بندقية عندنا ·

ــ كان عندنا عشر بنادق أثنتان منهما الآن فى الاصلاح ·· عندنا الآن ثمان ·

ــ لا بأس ما سأقوله الآن سينفذ دون أن يعرف أحد فى الخارج شيئا الا وأنتم فى المكان الذى أحدده ·

ــ أمرك ·

ــ ستأخذون الانفار جميعا الى أرض فهمى عبد الحميد ·

ونظر الرجال بعضهم الى بعض وأكمل الباشا ·

ــ فى ساعة زمن سينزل الجميعة الغيط مع كل جماعة كلوب وحول الأرض الخفراء مع بنادقهم ·· يهددون فقط لا أريد عنفا وقد تكتمت الخبر وأعتقد أن أحدا لن يأتى اليكم وفهمى عبد الحميد غير موجود وحين يأتى ستكونون قد جمعتم القطن ·

الأكياس ياحمزه التى آتينا بها لقطننا أنا اشتريتها لهذه العملية ٠

ــ أمرك ياسعادة الباشا ٠

ــ تخرجون وتأخذون الأنفار دون آن تقولوا الى آين حتى يجدوا آنفسهم أمام القطن ياحمزه هذا أجر مضاعف للأنفار وكافيء كل من يبدى همة ٠

الناس في القرى لايسمحون لفرصة كهذه آن تمر دون أن يعرفوا أعماق الأسرار التى تقف وراءها انهم واثقون أن هذ االمشهد الذى يرون سيصبح تاريخا يتحاكون به ويجعلون منه على الأيام بصمة كعــام الفيل الذى خلده التاريخ ٠ فكل حــدث ضخم في القرية عــام فيــل ونراهم يقولون فى سليقة مواتية وكان هذا قبل حكاية الباشا وفهمى عبد الحميد بأسبوع أو بعدها بشهر وهكذا ستصبح علامة زمنية يرويها أب الى ابنه وابن الى حفيده ٠

فهيهات هيهات آن يتركوا الجموع تذهب ولايقتصــوا أثرها ويتبعوها الى حيث تذهب وان كانت جهنم هى المقصد والمتجه ٠

وهكذا تجمع مئات آخرون حول الجميعة الذين آنافوا على الألف وساروا يتبعهم كل من رآهم حتى اذا بلغوا أرض فهمي وقف حمزة وألقى أوامــره فى حسم وفى اختصــار وتفرقت الأضواء وأحاط الخفراء بالأرض وتسلم كل نفر خطا وبدأ جمع القطن ٠ ووقف المتفرجون لحظات وقد عقدت الدهشة ألسنتهم ولكنهم مالبثوا آن تبينوا مقــدار الجــرأة والابتكار فى هذا الذى يحدث وهم مطمئنون آن ســندهم الباشا فما لهم لايشاركون فيما أخــذ فيه الجميعة وتصبح

زوايتهم بعد ذلك مؤيدة بأنهم جمعوا مع من جمع وتمكنوا أن يجمعوا ثلاثمائة فدان بدأوا فيهـا بعـد أذان المغرب وانتهوا منها وصلاة العشاء مازالت حاضرة ·

حتى السرقة فى القرى توقت بأوقات الصلاة · وهكذا نستطيع أن نقول انه حين وجبت صلاة الفجر كان قطن فهمى عبد الحميد فى مخازن راشد باشا برهان مستقرا وكأنه فيها منذ أيام طويلة ·

***

أصبحت هذه القصة أحدوثة المديرية كلها يتناقلونها بشيء أثير من الدهشة · فراشد حسن السمعة لم يمد يده فى حياته الى ماليس له وفهمى عبد الحميد ليس فوق مستوى الشبهات وهكذا سرعان ماابتدعت الاشـاعات قصـة عن السبب وصدقها الناس ·

فالناس لايحكمون على أحد من حادثة واحدة وانما هم ينظرون فى ماضيه جميعا ويقارنون ويقدمون الحيثيات ثم يصدرون الحكم ·

لقد أكل فهمى عبد الحميد على راشـد مبلغا من المال وأبى أن يرده اليه فلم يجد راشد أمامه سبيلا الا هذا فهو لايحب أن يستلب أحد أمواله مادام هو لايحب أن يستلب أموال أحد ·

وهكذا أصـبح فهمى عبد الحميد المجنى عليه ظالما لا مظلوما ولا اشفاق عليه فهو الذى صنع اسمه هذا وسيرته تلك بين الناس فليس عجيبا أن يكون هذا هو حكم الناس عليه · وأن من يقدم على ماأقدم عليه نحو شخص أكرمه

وآقال عثرته وحفظ عليه ماله وأرضه ليس غريبا عليه أن يكون اسمه بين الناس غير كريم · فهذا الاسم يتكون عند الناس من أشياء صغيرة غاية فى الصغر · يأتيها ذو النفس اللئيمة عن غير قصد ويستقبلها الناس فى كثير من الأحيان وبنوع من النفور قد لايعرفون سببه وليس غريبا أن تسمع من الناس عن فلان منهم أنهم لايرتاحون اليه وربما عجزوا عن ابداء الأسباب ان سألتهم أسبابا فهمى عبد الحميد هو هذا الفلان من الناس عند الناس ·

عرف أهل المديرية مما تواتر عن هذه الحادثة آن «راشد» فى القرية فتوافدوا اليه من كل البلاد يهنئونه بالباشوية ويسخرون من فهمى عبد الحميد وربما حاول أصدقاؤه المقربون أن يعرفوا منه مادعاه الى مافعل ولكنه كان يقول فى حسم ·

ـ هو يعرف وهذا يكفى ·

وقصد الى بيت راشد باشا مدير المديرية والمأمور والحكمدار وقال الباشا المدير ·

ـ جاءتنا شكوى من فهمى عبد الحميد ·

وقال راشد فى نوع من التجاهل ·

ـ خيرا ·

ـ لاتحاول معنا تجاهلا ·· فقد حققنا الشكوى ·

ـ مم يشكو ·

ـ المهم أن كل رجاله رفضوا آن يشهدوا ضد أى أحد من رجالك · فأشجع من فيهم الذى قال ناس لانعرفهم ·· وأغلبهم قال ليسوا من الناحية ولا من الجهة ·

ـ مازلت لاأعرف عم تتحدث ياسعادة الباشا ٠

ـ والله وأنا الآخر لا أعرف عم آتحدث ٠٠ اطلب لنا القهوة ياسعادة الباشا ٠

ـ انها عادة تأتي دون أن أطلبها ياسعادة الباشا شرفت ٠٠ شرفت ياسعادة الحكمدار وانت ياسعادة البك المأمور ٠

ـ انتهزنا الفرصة لنهنىء سعادتك بالباشوية ٠

ـ أكرمك الله ياسعادة الحكمدار ٠٠ ان شاء الله نهنئك بها قريبا ٠

والتفت الى الباشا المدير ٠

ـ سعادة الباشا يحب النارجيلة ٠

ـ وقد أحضرتها معى فى السيارة ٠٠ آتأمر باحضارها

ـ لا ياسعادة الباشا فى هذه المرة ستشرب فى نارجيلة أخرى ومعها دخان استقدمته لسعادتك خصيصا من تركيا ٠٠

وصفق راشد باشا وأصدر أوامره ومالبثت أن جاءت شيشة ذات مبسم من المرجان وقد أحكم عليها دخان واضح الفخامة وماهى الا أن جذب منها الباشا المدير جذبة فاذا هو يقول :

ـ سعادة الباشا ليس فى مصر رجل مثلك يعرف كيف يحيى الناس فى أناقة وترفع ٠

ويضحك الجميع ٠

لقد كانت ملاحظة المدير غاية فى الصدق ٠٠ فمن يستطيع أن يقول ان مديرا عظيما يرشى بنارجيلة انما هى

هدية من ناحية الثمن لاتساوى شيئا ثم هو يقدمها اليه على الملأ والرشاوى لاتقدم على الملأ ·· انمـا هى هـدية من صديق ولاتحمل أى تأويل آخر ·· ثم هى هدية تحمل فى طواياها أن مقدمها يهتم بمن سيقدمها اليه ويبحث عما يسره من الهدايا ويقدمها اليه ·

ذكى سعادة الباشا الجديد ·· ذكى لاشك فى ذلك ·

٧

شهيرة سيدة عجيبة .. إنها ابنة عم خديجة وأبوها وجدى باشا عزت وقد تظن أنى أخلط الأنساب فجعلت أخا عثمان باشا فكرى اسمه وجدى باشا عزت ، ولو أنك سألت واحدا من أبناء هذا الجيل لعلمت أن المدارس فى ذلك العهد العهيد من الزمن كانت تسمى تلاميذها بأسماء تركية غير تلك التى يردون بها الى المدرسة ولم تكن هناك شهادات ميلاد فى ذلك الحين .

فوجدى باشا عزت هو أخو عثمان باشا فكرى كما شاءت المدرسة أن تسميه . وان كان عثمان باشا فكرى قد نال الباشوية عن طريق غنى سابق تبدد فأصبح أقرب الى الفقر فان وجدى باشا عزت نال الباشوية عن طريق السياسة فقد كان عضوا بالتجمعات البرلمانية التى كانت تسمى المجلس التشريعى أو مجلس شورى القوانين ولم تمهله الحياة أن يرى مجلسى البرلمان اللذين نبتا عن دستور عام ١٩٢٣ وكانا يسميان مجلس النواب ومجلس الشيوخ . ولكن وجدى باشا

ترك مع ذلك سيرة طيبة وترك أيضا بقية من مال تجعل ابنته شهيرة تنسلك بشيء من الصعوبة والعسر مع طبقة الأغنياء الا أنها كانت تعيش عيشة سمحة لا عنت فيها ولا ارهاق ·

وكانت شهيرة تستطيع أن تستغنى باسم أبيها وبما تركه من مال عن تعلقها بأصحاب الألقاب وأصحاب الشهرة فهى مثلا لم تزر خديجة الا زيارات نادرة تستر بها واجبات القرابة · فلم يكن راشد ذا شهرة فى المحيط الذى تحيا فيه شهيرة وابنة عمها لاتمثل عندها الا أنها ابنة باشا وباشا غير ذى شهرة بل وغير ذى مال أيضا ·

وهكذا لم تجد شهيرة داعيا أن تزورها حتى اذا نال راشد الباشاوية أصبحت شهيرة لاتترك بيت خديجة بل وأصبحت لاتخفى عنها سرا من أسرارها ·

كانت شهيرة تجد متعة فى نطق كلمة باشا وتحس لها مذاقا فى فمها وموسيقى فى أذنها وتكاد تشم لها رائحة فواحة العبير فى خياشيم أنفها · ونفس هذا الشعور من النشوة كان يلفها اذا ذكرت اسما من أسماء المشاهير فى أى متجه تحققت له الشهرة فيه · وانى لأعجب لها ولاشك أنك ستعجب معى ان النساء الشهيرات فى عالم الليل وفى غير مايشرف المرأة ان تشتهر به كن يثرن فى نفسها نوعا من التوفز حتى اذا تعرفت بواحدة منهن اتخذت منها صديقة مقربة توشك لاتفلت يوما لاتزورها فيه أو تتصل بها ·

رحبت خديجة بصداقة ابنة عمها الجديدة · والحقيقة أن شهيرة أنيسة الجلسة طيبة الحديث يمر معها الوقت لاتكاد جليستها تحس به · وقد سعدت شهيرة أن توثق صلتها

بجلفدان هانم والدة راشد باشا وقد كان الجميع يناديها هانم أفندى كما سمعت ابنها يناديها فى أول هذا الحديث الذى أسوقه اليك ·

فكلمة هانم أفندى ذات رنين عند شهيرة بل أنها تجد فى نطقها انها تختلف عن الأخريات اللواتى لايعرفن سيدة يقلن لها هانم أفندى · ولايهمها أن سبب هذه التسمية آت من أن السيدة جلفدان كانت ابنة لاحدى حريم السلطان عبد الحميد وزوجها لواحد من أتباعه وقد خطبها زوجها والد راشد من تركيا وشفع له غناه فنسى أصهاره أو أرادوا أن ينسوا أنه ليس الا فلاحا لايرقى الى سماواتهم ·

ليس شيء من هذا يقع موقع الأهمية عند شهيرة المهم أن تقول هانم أفندى والمهم أن هانم أفندى أحبتها وتجمع الجلسة ثلاثتهن ·

ــ ألا ترين طريقة لقريبتك هذه شهيرة هانم ·

ــ مالها هانم أفندى ·

ــ لاتريد أن تأتى لنا بمولود ·

وكانت خديجة تحب حماتها حبا طاغيا فهى قد تركت لها شئون المنزل تصنع فيه ماتشاء وقد قدرت لها خديجة هذا فجعلت اشارتها أمرا فهى تنفذ لها أوامرها قبل أن تنفذها لزوجها ولهذا لم تكن أحاديث حماتها عن الانجاب تثير فى نفسها شيئا مما يغضب له النساء عادة اذا طالعتهن الحموات بمثله وعلى كل حال فقد كان لها مع حماتها فى يومها ذاك شأن آخر ·

ــ وهل بيدى هانم أفندى ·

ـ كل شيء بأمر الله هانم أفندى ٠

ـ ولكن ياابنتى ياشهيرة انها لاتريد أن تسمع كلاما فى هذا الشأن ٠٠ علينا أن نحاول ٠٠

ـ نعم فى هذا أنت محقة هانم أفندى ماذا جرى لك ياخديجة ٠٠ لابد أن نحاول ٠٠ أعرف داية ٠٠

ـ اسكتى ياشهيرة ٠

ـ ألا تريدين حتى أن تسمعى ٠

ـ هانم أفندى ٠٠ انى حامل ٠٠ وأنا أخبرك الآن قبل أن أخبر الباشا وسقط الصمت على الحديث المتحمس وارتسمت ابتسامة على فم خديجة ، واندلعت دهشة وفرحة فى عينى جلفدان وانعقد لسان شهيرة ٠٠ لحظات ٠٠ بدت بطيئة ولكنها لحظات ثم انتفضت هانم أفندى الى دولاب نقودها وقبضت منه قبضة وصاحت :

ـ يابنات ٠٠ يافهيمة ياوهيبة ياسنية ياحبيبة ٠٠

وتقاطرت الخادمات الى السيدة الكبيرة ٠

ـ خذن ٠٠ خذى أنت وأنت وأنت ٠٠ زغردن زغردن جميعا ٠٠ افتحن الشبابيك ٠٠ افتحن الشبابيك أنا آمر بهذا ٠٠ افتحن الشبابيك وزغردن ولاتتوقف منكن الزغاريد حتى يأتى الباشا ويسمعها منكن ٠

وأخذ الضحك السعيد بمجامع خديجة وأحست شهيرة لأول مرة أنها لاتجد شيئا تقوله أو تفعله ٠

وخرجت جلفدان هانم من الحجرة وراحت تصدر الأوامر أن يبلوا الشربات وطلبت محمدين وأمرته أن يفرق عيشا ولحما عند مقام السيدة زينب وسيدنا الحسين ٠

وقالت شهيرة لخديجة فى اهتمام :

ـ جاءنى عريس ٠

ـ من

ـ سامى حسنين ٠

ـ ابن خالتك ٠ متى جاء من أوروبا ؟

ـ منذ شهر ٠

ـ أخذ الشهادة ؟

ـ فى الهندسة ٠

ـ وأنت مارأيك ؟

ـ تريدين الحق ٠

ـ أريد الحق

ـ هو بلا شخصية ٠

ـ بالنسبة لك ليس هذا عيبا ٠

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أنت لاتحبين أن يكون هناك رأى بجانب رأيك ٠

ـ وهو أيضا فقير ٠

ـ وهذا أيضا أحسن لك ٠

ـ أعوذ بالله منك

ـ أنت غنية وغناك وفقره سيجعل كلمتك دائمـا هى النافذة ٠

ـ دمه ثقيل ٠

ـ يخف ٠

ـ يعنى ٠

ـ توكلى على الله ٠

وارتفعت الزغاريد فعرفتا أنها تستقبل الباشا بالبشرى

٨

انصبت أخبـار القطن على فهمى عبد الحميد ترادفها الدهشة والعجب ولعل بعض الندم ألم به · وسـأله الناس فتظاهر بأنه مظلوم وان لم يبد سببا · خشى أن يختلق سببا فيحل به عقاب آخر وخشى أن يقول الصدق فيحتقره الناس · لقد أدرك أن راشـد قد اصطنع ماليس من خلقه ليرد عليه تصرفه · لقد انتهب هو أموال راشد آمنا الا أن راشـد لن يتخذ نفس الطريق ليسترد أمواله ·

لم يستطع فهمى عبد الحميد أن يذهب الى راشد بعد الحادث بفترة قصيرة وانما آثر أن يترك الأيام تنسى الناس ماحدث وآثر أن يشعر راشد أنه انتقم فلا يجاريه فى الحديث · حتى اذا مر من الوقت ما أراد فهمى أن يمر ذهب الى راشـد فى

بيته فى مصر فقد حرص ألا يرى رجال راشد ورجاله ذله وانكساره خاصة بعد أن عرف ماكان من زيارة المدير ورجال الادارة لبيت راشد بالبلدة • وفى القاهرة •

ـ لم أتوقع هذا •

ـ لأنى عشت عمرى كله أكرمك واكرم جوارك •

ـ فلماذا لم تكرم خطئى ؟

ـ أنا لا أستطيع أن أكرم سفالتك • لا اكرام عندى للسفالة •

ـ كلنا فى الهوى سوا ياسعادة الباشا •

ـ كذبت •

ـ حين تستحل صلة غير شريفة بصديق قريب لك تسمى هذا خلقا •

ـ أنا غير مستعد أن أدافع عن نفسى أمامك •

ـ ولقد حميتك أن تدافع عن نفسك أمام زكريا باشا •

ـ لو كنت أعطيتنى الورقة دون استغلالها لجاز لك أن تقول هذا •

ـ وما البأس أن أستغلها وأنا فى فقرى هذا •

ـ لقد وقفت الى جانبك فى فقرك • وأنا لم أطالبك •

ـ فرصة لاحت لى •

ـ فرصة قذرة •

ـ ألا يجوز لى وأنا ابن البورصة أن أستغل ضربة حظ •

ـ لقد صنعت أنت هذه الضربة واشتريتها من خادم لى ٠

ـ كيف عرفت ٠

ـ الأمر لايحتاج الى ذكاء ٠ ولو كنت ذكيا حقا لقدرت ذكاء الآخرين ٠

ـ لكل منا أن يبحث عن مصالحه آينما وجدت ٠

ـ ولكن يجب علينا أن نكون على شيء من الخلق ٠

ـ ياسعادة الباشا اننا نلعب على مائدة واحدة ٠

ـ ربما أكون قد أخطأت ولكنني أعرف أننى كنت مخطئا وقد تبت ٠٠ اننى منذ تزوجت لم آخن زوجتى ٠

ـ ولا خنت صديقا لك ٠

ـ رددت خيانة أحدهم ولم أخنه ٠

ـ ياسعادة الباشا لقد خنتك فى مالكوخنت أنت صديقك فى عرضه فلا أعتقد أنك الشخص المناسب للحديث عن الشرف ٠

ـ أنت خنتنى فى مالى وفى اكرامى لك ٠

ـ لم تذهب بعيدا عما ذهبت اليه ٠

ـ أما أنا فقد تبت ٠

ـ الله وحده يعلم مافى القلوب ٠

ـ ولكننا نحن البشر نعرف الظاهر ٠ من الأعمال ٠

ـ ظاهر الأعمال أنك استوليت على قطنى بغير حق ٠

ـ أليس لى حق عندك ٠

ـ أمام القانون لا حق لك ·

ـ لو كان القانون يعطينى حقى مالجأت الى تحطيمه ·

ـ وترى هذا عملا شريفا ·

ـ ألم تقترح أنت ألا نتكلم عن الشرف ·

ـ هذا حقك ·· وماذا تنوى أن تفعل ·

ـ أما أنا فقد فعلت ·

ـ يخيل الى أن عملك لم ينته ·

ـ لن أسمح لك بزراعة أرضك حتى أسترد مالى الذى عندك ·

ـ أكتب لك كمبيالة جديدة ·

ـ معنى الكمبيالة أننى أقبل تسليفك وأنا لا أقبل ·· فى هذه المرة لابد أن أسترد أموالى نقودا مثل التى أعطيتها لك ·

ـ ولكن ·· ولكن هذا مستحيل ·

ـ لماذا ·· لقد غطيت خسارتك بالمبلغ الذى أعطيته لك ثم كسبت من أسهم الشركة الخديوية مبلغ عشرين ألف جنيه وكسبت من صفقة اتحاد البنوك ثلاثين ألف جنيه ·· لو لم أكن أعرف أنك تستطيع رد أموالى لبحثت عن طريقة أخرى لاستردادها ·

ـ تعرف عنى كل شىء ·

ـ لقد قلت الآن اننا نلعب على مائدة واحدة ·

ـ نخصم ثمن القطن وأعطيك الباقى لك ·

ـ أى قطن ·

ـ راشد بك ·

ـ باشا اذا سمحت ·

ـ راشد باشا ·· آتنوى ··

ـ لقد نويت ·

ـ وهل هذا معقول ·

ـ وهل مافعلته معقول ·

ـ ان لى أولادا ·· هذا حرام عليك ··؟

ـ وهل لابد أن يكون لى أولاد حتى أنال حقى وعلى كل حال ياسيدى اطمئن فان ابنى فى الطريق ·

ـ فمن أجل خاطره اذن ياسـعادة الباشا ارحمنى ·· أعرف أنك قادر ولكننى أعرف أيضا أنك تعفو اذا قدرت .

ـ بشرط واحد ·

ـ لقد أحضرت معى المبلغ ·

ـ اسمع يافهمى سـأقبل المبلغ الذى أحضرته على أن ننسى كل شىء حدث بيننا فى هذه الفترة ·

ـ هذا شرط أبحث أنا عن تحقيقه اذا رفضت أنت ·

ـ وهو كذلك هات المبلغ ·

ـ شكرا ياسعادة الباشا ·· ألف شكر ·

٩

جاء المولودالأول لراشد باشا وقد حلا له أن يسميه اسما عربيا عريقا ، فسماه أسامة وحاولت هانم أفندى أن تعترض لتخلد أسم أبيها نيازى ولكنهـا وجدت من ابنها اصرارا وقد صاحب مجىء أسـامه فرح كبير فى الأسرة استبشرت خديجة واستبشرت به هانم أفندى ولم يجـد راشـد باشا بأسـا أن يستبشر به أيضا فقد تحـدد يوم زواج شهيرة من ابن خالتها سامى حسنين • وكان اليوم محددا بعد ميلاد أسامه بعشرة أيام وقد تصادف أن تم تحديد الموعد والميلاد فى يوم واحد •

وفى المسـاء وبعـد أن استطاعت خديجة أن تسـمر مع المهنئين وهى فى سرير ولادتها قالت شهيرة •

ــ والله لا أتزوج حتى تستطيعى انت حضور فرحى •

ـ هل جننت ياشهيرة ·

ـ أكون مجنونة لو فعلت غير هذا ·

وهكذا تجدد تحديد الموعد على يد الطبيب الذى أشرف على ميلاد أسامه فالأطباء فى ذلك الحين كانوا يشرفون على الولادة ولا يقومون بها · فانه لا ينبغى للسيدات ان يلدن بمشهد من رجل حتى ولو كان طبيبا · فكان الطبيب يحضر الولادة جالسا مع الرجال وكانت الداية التى يرشحها الطبيب هى التى تقوم بعملية الولادة نفسها · فاذا حدث خلل يستدعى تدخل الطبيب فانه حينئذ يتولى بنفسه العمل مباشرة · فقد كان ذلك الجيل لايؤمن أن الوقاية خير من العلاج مادامت هذه الوقاية ستحطم عرفا عريقا كانكشاف الحريم على غير الزوج · وقد كان راشد جديرا أن يحطم هذا العرف لولا أن الطبيب طمأنه أن الولادة ستكون طبيعية وأنه لايوجد ماتخشى عواقبه · لم يكن راشد من هؤلاء الذين يحبون أن يحطموا التقاليد لمجرد تحطيمها وانما كان يحطمها اذا تعارضت مع منطق الأمور ومعقوليتها وأن قضاءه شهر العسل فى أوروبا والطريقة التى أظهر بها زوجته على باريس لتدل على أنه لاينتمى لهذا الجيل الذى يسلكه فيه زمانه ومولده وأسرته ·

ولعل من العجيب أن راشد كان بهذا التحضر العقلى فى خاصة شأنه وأن يحافظ فى نفس الوقت على العرف والتقاليد محافظة صماء اذا لم تكن تتعارض ، مع رغباته وأهوائه ومزاجه الخاص ·

فصلاته النسائية فى مصر قبل الزواج مستورة لايعرف عنها أحد شيئا ولولا خطأ نسيان لما أتيح لفهمى ماأتيح له من الحصول على هذه الورقة ·

أما صلاته النسائية فى باريس فقد كانت صاخبة عربيدة يستره فى علانيتها أن أحدا لايعرفه هناك ٠

كان راشد شخصين متناقضين وهما مع ذلك متوائمان فى نفسه متفاهمان لايعارض واحد منهما الآخر ولايعترض أحدهما على مايأتيه الثانى كتوأمين اختلفت أخلاق كل منهما عن الآخر وتألفهما فى الوقت نفسه الحب العميق والاعجاب ٠٠ كان كل من الراشدين فى نفس راشد يعجب براشد الآخر ويحبه ويشيد فى همسه به ولولا خشية أن يقال نرجسى يحب نفسه لأعلن عن حب الراشدين أحدهما للآخر المكتم فى نفسه التى تبدو أمام الناس راشدا واحدا ٠ بل لقد كان هذا الحب المكتوم هو فى ذاته صانع الشخصين وسر حياتهما معا ٠

كان راشد العربيد يعجب براشد الجامد الصلب المحافظ على التقاليد المعتنى بملبسه عنـاية تقليدية فلا ينسى ، أن يمسك العصا وأن تكون الياقة منشاة انقلب طرفاها الى أعلى وتوسطها رباط عنق أنيق يتوسطه هو الآخر دبوس ماسى عريق ٠

ويعجب راشد العربيد براشد فى المحافل العامة رافضا اختلاط الرجال بالنساء ورافضـا عمـل المرأة الا أن تكون خادما بالمنازل ورافضا كل ماتريد الحضارة أن تدخل به الى العصر ٠

ويعجب راشد العربيد براشد مقيم الصلاة فى مواقيتها وذاهبا الى المسجد من يوم الجمعة حتى اذا كان فى القـرية سبقته السجادة ليصلى عليها ٠ واذا عرف فى القرية أن شابا من شبابها يغازل امرأة أو يحاول أن يعتدى عليها استقدمه

وانهال عليه ضربا حفاظا على الشرف وردعا لكل من يحاول أن يحطم تقاليد الدين وعرف الآباء والأجداد ٠

ويعجب راشد العربيد براشد فاتح بيته فى القاهرة والريف كل ليالى رمضان ومشاهير المشايخ يتبادلون قراءة القرآن ويؤم البيتين الناس يباركون هذا العرف العظيم الذى يصر راشد أن يحافظ عليه ٠

أما راشد هذا التقليدى فهو يعجب براشد العربيد فى كل مايأتيه راشد العربيد سواء كان ما أتاه تاريخا لايعود أو واقعا يعيش فيه ٠ وسواء كان ذلك فى باريس مفضوحا هناك محببا لاعلان العربدة حيث لايعرف أحد من ذلك العربيد أم فى القاهرة يأتى من يأتيه من النساء فى محافظة على التقاليد وفى عربدة صامتة وقور لاتتفاضح ولا تعالن وانما تستمتع فى داخلها فتحتوى المتعة جميعا غير ذائعة ولا بادية ٠ ولكل من الصخب والصمت والعربدة والوقار متعته فى نفس راشد ٠

ولكن راشد حين جاء أسامة أحس أن راشدا ثالثا وفد على الراشدين وأحس أن هذا الثالث لن يجعل الأمور تجرى فيما تعودت أن تجرى فيه ٠

كان «راشد» براشديه يحس أنه حر وأن لديه من المال مايكفيه لارضاء نفسه فيرضى بها الراشدين جميعا ٠

كان المال عنده وسيلة يحقق بها ماتصبو اليه نفسه سواء كان هذا الذى تصبو اليه مرحا ومتعة أم كان تعاظما ووقارا ٠ فملبسه دائما أفخم ملبس وأثاث منزله أعظم أثاث وسيارته أحدث طراز ٠

والمـال متعة لا مثيل لها مادام عنـد صـاحبه وسيلة لغاية ٠

والمال نقمة لاتماثلها نقمة ان أصبح هو فى ذاته غاية لا وسيلة وهدفا لا طريقا وأملا لا سبيلا لأمل ٠

أى شيطان ركبه فجعله يظن أنه ينبغى له أن يترك لابنه مالا أكثر مما يملك ٠

لقد أحس فجأة أنه لابد له أن يضاعف الثروة التى ورثها حتى يرضى ابنه هذا الذى مازال فى سنوات الرضاع ٠

أصحيح أحس بهذا أم تراه هيأ لنفسه أن يحس هـذا الاحساس ٠ هل يقلب الأبناء آباءهم رأسا على عقب ٠

أيمكن لهذا الطفل الذى يلوح طيفا قادما على المستقبل لم تكتمل معالم وجهه أو جسمه ٠٠ مشروع الانسان هذا يستطيع أن يقلب شخصا فى جبروت راشد ، وفى اكتمال عناصره من شخص يريد المال ليستمتع به الى شخص يريد المال للمال !؟ أنا لاأصدق ٠ أغلب الظن أنها رغبة خفية فى نفسه تبحث لها عن باب يبدو مشروعا لتنقلب حقيقة ولتجعل من صاحبها الذى عاش سيدا للمال الى عبد من عبيد المال ٠ فالذى يريد المال ليعيش به يظل سيدا لماله ولزمنه فاذا أصبح المال فى ذاته هو الغاية لذاته لا لما يحققه لصاحبه من عيش رغيد ينقلب المال حينئذ سيدا شرها قاسيا جبارا متسلطا بلا رحمة ومن أين الرحمة وهو جماد بلا عاطفة ومن أين وهو هو أكبر أعدائه ، العاطفة وباسمه هذا المادى تسمت كل المذاهب البعيدة عن روحانية البشر وعن انسانية الانسان ٠ انه يمثل الجـانب الصلب الحاقد البشع فى البشرية جميعا ٠٠

أكان راشد في دخيلة نفسه يريد الغنى للغنى وليمتع نفسه بمتعه الظاهرة والخافية حتى اذا جاء أسامة بدا ماكان يخفيه ٠

من يستطيع أن يقول ؟ علماء النفس هؤلاء أبعد الناس عن معرفة النفس وشر مايخادع النفس نفس وصاحبها ٠٠ تلهو به ، وتعميه عن حقائقه ، وتجليه عن مواقفه من الحياة ، ويظن بذاته غير حقيقة ذاته ،ويمضى الى مسالك من الحياة لاتطيقها نفسه ولم تهيئه لها ، فهو ماعاش متخبط وان ظن بنفسه العلم والثبات ، فان صادفه شيء من النجاح ظن أنه عرف الطريق وهيهات هيهات أن يعرف ٠ فان كان ذلك الفيلسوف قد طلب الى الانسان أن يعرف نفسه فى كلمتين اعرف نفسك كأنهما بديهية من البديهيات ، فقد كان يدرى أو لعله لم يكن يدرى أنه بهاتين الكلمتين قد طلب الى الانسان أصعب ماتطلبه الحياة من الانسان ٠

مسكين أسامة اتخذه أبوه سببا وماكان سببا وجعل من مجيئه مستدار حياة ومايدرى أسامة ولو درى لجثا على ركبتيه لأبيه يرجوه أن يظل كما عاش حياته سيد المال لا عبد المال ٠

اذا أصبح المال هو الهدف انعدم الهدف فالأرقام لاتعرف نهاية ومادمت لاتعرف لهدفك نهاية فأنت ومن لا هدف له سواء ، وويل لانسان انعدم من حياته الهدف ٠ بل لعل الذى يحياها مصادفة يترك لأيامها أعنة قياده ومتجه أحلامه ومسار آماله أعظم سعادة من انسان جعل جمع المال هو الهدف وهو الحياة فان هذا الانسان المسكين جهل أو أراد أن يجهل أن الهدف قد انعدم فى حياته وأنه كان قد وضعه أمامه ٠ فالمال

المال والسعار السعار والحيـاة اذن جحيم لاينتهى الى نعيم ونيران لا برد لها ولا سلام والانسان يومئذ يجهل الرقم الذى يريد أن يقف عنده فان قدره وبلغه أغراه المال بمـا بعـده وتنهار حياة الانسان تحت نعال المال ويصبح السـيد عبدا وباختياره ٠

١٠

خسر عدلى القضية ضد أبيه وربمـا كان يعـلم أنه سيخسرها على أية حال فان كان عقله قد حال دون هذه المعرفة فالذى لاشك فيه أن راوية زوجته كانت تعرف ذلك وانما حلا لها أن يصبح اسم الباشا وابنه على كل لسان ٠ فالحياة مع عدلى راكدة وراوية ليست خائنة بطبيعة تكوينها فهى لم تخن زوجها ولاتنوى أن تخونه وهى لهذا ضيقة بحياتها معه ضيق ملالة وهو نوع من الضيق يجعلها تبحث دائما عن تسلية قد تكون هذه التسلية كبيرة كقضـية البـاشا أو صـغيرة كانضمامها الى مجموعتين من السيدات احداهن للحديث وهذه تضم خديجة وشهيرة ومجموعة أخـرى للعب الكونكان لعبا لاتلقى فيه بكثير من الأموال فهى ليست مغامرة بطبيعتها وهى تعلم مقدار الغنى الذى انسكب على زوجهـا بعـد وفاة أمه

خاصة وأن أباه فى ترفعه أبى أن يأخــذ نصيبه من تركة زوجته وترك ذلك النصيب لابنــه الذى رفع عليه دعــوى السفه فزاد هذا من اكبــار الناس لزكــريا ومن احتقارهم لعدلى . على أية حال لم يكن هذا الغنى سببا يجعل راوية تنفق المال فيما لايفيد فهى تقدر أن ابنتها التى جاءت بها والتى لاتنوى أن تجىء بغيرها لن تغفر لها تبديد أموال أبيها . وقد كانت ابنتها هالة هى كل شىء فى حياتها .

فمادامت حياتها قد خلت من الزوج فلا أقل من أن تعمرها لابنه .

وهكذا استطاعت راوية أن تتواءم مع حياتها وتقبلها وتخلق فيها المتعة التى حرمتها بزواجها من هذا الأبله .

وقد كان عدلى خليقا أن ينعم بحياته هــو أيضــا فهو يستطيع دائما أن يجد أصناف الطعام التى يطهوها ويستطيع دائما أيضا أن يجد مجالس النساء ويشاركهن الحديث . كان يستطيع هذا جميعه ولكن قضية أبيه حطمت كل المتع التى كان يستطيع أن يخلقها لنفسه . لقد وهم أن القضية ستحطم سمعة ابنه . فاذا هى لاتمس أباه فى شىء وانما تحطم حياته هو تماما .

لقد وجد نفسه بين أصدقائه مجال سخرية لاذعة كانوا يخفونها عنه فأصبحوا يبدونها . بل لقد وجد السيدات من صديقات أمه يشحن عنه بحديثهن . حتى لقد أحس فجأة أنه لايجد فى حياته شيئا أو انسانا . زوجه لاتحدثه الا بصيغة الأمر وهو بأوامرها هذه مطمئن أن شئون البيت لاتحتاج منه الى رعاية .

ولكن هو .. هو عدلى ماذا يصنع بحياته .. ان أموال

أمه كلها عمارات فهي لاتحتاج الى ادارة وانما هي الدائرة يذهب منها موظفان كل شهر يجمعان الايجارات ثم لاشيء بعد ذلك وهو يذهب الى دائرة أمه كل يوم ولكن بلا عمل ٠

تاه عدلى فى الحياة وتاهت به الحياة ٠٠ لايرافقه فى التيه الممتلىء بالحسرة الا صديقه عزت بهادر ٠٠ لعلك لاتذكره فقد مر ذكره عليك مرورا لا بريق فيه ولا امعان ٠

وماذا بى أن أمعن عنده النظر والحياة نفسها خلقته فى عجلة فلم تجعل له عمقا يقف عند محب للتعمق ٠

انه ابنة خالة خديجة ٠ وكان طبيعيا أن تقوم بينه وبين عدلى هذه الصداقة التى تجمع السخفاء والضائعين فى مواكب التفاهات يزيدهم الغنى تفاهة ولا يستر عليهم حقيقة أمرهم، ومن عجب أن تصحب فضيحة عدلى مع أبيه فضيحة لعزت فى الدوائر التى تحيط بهما ٠

كان عزت على صلة بسيدة طلقت حديثا من زوجها ٠ وأعجبها جمال عزت وربما أعجبها أيضا فراغه ٠ فالسيدات فى أحيان كثيرة يستطعن أن يعجبن بما لا يعجب به آخرون ولم يكن عزت فى صلته بهذه السيدة يطلب منها وفاء أو ولاء فلقد عرف أنها اتصلت بعد أن عرفته بباشا عجوز أرغمته ظروف خارجة عن ارادته أن يعمل فى الحياة السياسية فاذا هو يتصدر منصبا خطيرا وليس له فى نيل منصبه سابقة فضل ولا عرف عنه الذكاء لا قدر الله وانما هو منصب يتمنى كل حزب أن يكون شاغله من أعضائه وحتى لايزيد هذا المنصب الخلافات بين الأحزاب استقر الرأى أن يشغله شخص لاينتمى الى أى حزب ولا يعرف عنه أنه يميل الى حزب بعينه

وبين شخصيات مصر جميعا لم يكن هناك الا عبد المحسن باشا وفيق فشغل المنصب ٠

وتعرف في احدى الحفلات بنجاة طلبة وفي خبرة أدركت نجاة أنه طلبتها ،فعزت وان يكن غنيا الا آن غناه ليس بالقدر الذى يتيح لها أن تنال ماتشاء آما عبد المحسن باشا فغناه لا نهاية له ٠

كان الباشا في السبعين من عمره وحين خرج من هذا الحفل كان موعد لقائه بنجاة قد تحدد ٠

والتقيا ٠

كانت نجاة حاملا منذ لقائها الأول بالباشا ، وكانت قد أخبرت عزت أن يحدد موعدا مع طبيب يعرفانه ليخلصهما من الجنين في شهره الأول ٠ ولكن بعد أن تعرفت بالباشا اتجه رأيها الى تفكير آخر ٠

ـ أنت لاتعرف منذ متى وآنا آحبك ٠

ـ هل كنت تعرفينني ٠

ـ ومن في مصر لايعرف عبد المحسن باشا وفيق ٠

ـ لم آكن أتصور أن سيدة في جمالك تحب رجلا في ٠٠

ـ لاتكمل ٠٠ ان آجمل سيدات مصر يتمنين منك نظرة ٠

ـ انت تبالغين ٠٠ انني رجل عجوز ٠

ـ عجوز ٠٠ أنت عجوز ٠٠ فليسألني من لايعرف وآنا أدله على الخبر اليقين ٠

ـ فأنت ترين أنني ٠

ـ شاب فى العشرين ·· صحة تأكل الحديد · ولكن هناك شرط ·

ـ أأمرى ·

ـ تحتفظ بهذه الصحبة لى أنا وحدى ·

ـ أنت تعرفين أن زوجتى ماتت ·

ـ وأنا من أين أعرف ·· ربما لك زوجات أخريات تخفيهن ·

ـ زوجات بالجمع ·

ـ صحتك هذه لا يكفيها عشر نساء ·

ـ طمأنك الله ·

ـ احلف ·

ـ احلف ·

ـ انا لا أصدقك ·

ـ لاتصدقين يمين الباشا ·

ـ أنت معى لست الباشا · أنك هنا الولد الشقى الذى لا أضمن كلمة من كلامه ·

ـ وماذا تريدين حتى تضمنى ·

ـ هناك حكاية لم أتأكد منها ·· اذا تأكدت سأخبرك ماالذى أريده ·

***

ـ اليوم لابد لنا من حديث ·

ـ أنا تحت أمرك ٠

ـ لابد أن نتزوج ٠

ـ ماذا ٠

ـ لاشك أنك سمعت ٠

ـ لماذا ٠

ـ أولا هذا هو الوضـع الطبيعى ٠٠ فأنا سيدة مطلقة وأنت مهما تكن فأنت غريب ومقابلتى لك ستثير الأقاويل ٠

ـ ولكن مركزى ٠٠ ماذا سيقول الناس اذا انا تزوجت ٠

ـ أتخاف أن يقال تزوج بسنة الله ورسوله ولا تخاف أن يقال اتصل بسيدة عن غير طريق مشروع ٠

ـ ولكن ٠٠ ولكن ٠

ـ ولكن ماذا انا لست من أسرة بسيطة ٠

ـ هذا مؤكد فأنا أعرف المرحوم والدك وليس هـذا هو الاعتراض مطلقا ٠ انمـا أخشى أن يضحكوا من رجـل فى السبعين ٠

ـ سنك هذا شأنى أنا وحدى ٠٠ وأنا وحدى التى أعلم حقيقة سنك حين تخلو بنا الحجرة ٠

ـ ياحبيبتى ٠

ـ ومع كل هذا فأنا لم أقل لك الخبر المهم ٠

ـ وهناك أيضا خبر مهم ٠

ـ انى حامل ٠

ـ ماذا ٠

ـ الذى حصل ·

لـقد عشت مع زوجتى أكثر من خمس وأربعين سنة ولم أنجب منها فأرا ·

ـ ولكنك فى شهور قلائل ستنجب منى طفلا وانى واثقة أنه سيولد بهـذه الشوارب التى تحلى وجهك والتى يرسـمها رسامو الكاريكاتير بدلا منك ويقهقه الباشا من فرح أو من سعادة أو من النكتة فقد اختلط عليه الأمر ولم يعد يدرى ·

ويعود الى الجد لحظة ·

ـ ولكن اسمعى ·· اسمعى ·

ـ قل ·

ـ ألا يحسن أن يكون الزواج عرفيا ·

ـ ولماذا ·

ـ أنت تعرفين أن ثروتى كبيرة والطامعون فيها كثيرون واذا عرفوا أننى تزوجت سيرفعون دعـوى سفه على اذا كان الولد الاهبل عدلى رفعها على أبيه وهـو آبوه · واذا كانت دعوى السفه رفعت على زكريا باشا عبقرى السياسة والقانون ألا ترفع على · أما الزواج العرفى المستور فأنت تنالين به حقوق ابنك ·

ـ بعد الشر ·

ـ اسمعى الكلام ومع ذلك لايشعر به أحد ·

ـ أنا موافقة ·

وتم الزواج بشـهادة عبود عبد القـادر السـفرجى ، وسمهان عبد المولى السائق ·

واستطاع الحمل بعد ذلك أن يظهر للعيان فى غير خجل وقد أصبح هذا الحمل مزحة صويحبات نجاة تشاركهن السخرية منه كما أصبح حديث الدوائر التى لا عمل لها الا الحديث ٠

وعدلى وعزت يضحكان مع الضاحكين ٠

وقبل أن يفرح الباشا بقدوم ابنه انتقل الى العالم الآخر وانفجرت قضايا الميراث ٠

والعجيب أن الطفل جاء نسخة طبق الأصل من عزت فقد أبت السماء أن تشارك الخاطئين فى جريمة اختلاط الأنساب٠ والأعجب أن عزت أصبح هو الذى يدور مع نجاة عند المحامين ليتمكن من اثبات بنوة ابنه الى رجل آخر ولكن شهادة الميلاد على كل حال قد كتبت اسم الطفل وجدى عبد المحسن وفيق ٠٠ وذهبت الشهادة فى طريقها القضائى واستمرت علاقة عزت بوضعها هذا العجيب واستمرت معها القضايا توشك لايبين لها نهاية ٠ فالثروة ضخمة وأبواب الطعن والتلاعب بالقانون هيهات أن تعرف حدا تقف عنده ٠

وهكذا أصبح عزت مثل عدلى سخرية الساخرين فما بعجيب أن تتوثق بينهما الصداقة ٠ وكلاهما غنى وكلاهما فارغ بلا عمل ٠

فى هذا الفراغ وفى هذا الشعور من كل منهما أنهما يعيشان الحياة ، ولا يعيشانها بدأ ذهابهما الى السباق يكون منتظما وبدأ أيضا جلوسهما الى مائدة القمار يكون يوميا ٠

ويحدث مالايتوقعه أحد ٠ تحاول راوية أن تمنع زوجها من اللعب فاذا هى ولأول مرة تواجه من عدلى عصيانا ٠

كيف استطاع أن يعصى · لم يكن القمار قد تمكن منه الى درجة الادمان · ولكنه أحس فجأة أنه يجب أن يعصى · ويحدث شيء آخر لايتوقعه أحد · لقد بدأ عدلى يتوارى بقبحه فى جمال عزت ويبحث عن النساء ويحاول أن يتعرف بهن فان رفضته واحدة لاتطيق قبحه قبلته أخرى يغريها ماله ·

ليس لعزت زوج ولا ولد رسمى فهو حر يفعل بماله مايريد أما عدلى فله ابنته وله زوجته ·· ان ذهب عنه هذا المال فأى مصير يمكن أن ينتظرهما أو ينتظرانه ·

أصبحت راوية تنظر الى الحياة فى هلع وأصبحت فجأة تتمنى أن تعود الى حياة الملالة ، ولكن مازال هناك أمل يمكن أن تلجأ اليه ·· وما لها لا تحاول ·

١١

أصبحت سهير ممدوح حرم الباشا رسميا وتصـدرت بيت زوجها وأحست بمكانها هـذا الجـديد وخشيت العيون الرواصد حواليهما سواء كان ذلك فى المنزل أو فى خارجه فأمرها اليوم وهى الزوجة الرسمية التى تصحب الباشا فى كل مجتمع غير أمرها فى بداية الزواج يوم كانت تتستر عن العلن · لقد كان شعورها يومذاك يغريها بهذه الصلة التى أتاحتها لراشد فقد كانت تحس أنها عشيقة وليست زوجة أما اليوم فالوضع مختلف كل الاختلاف · ومادامت هذه الصلة بينهما وبين رشاد قد مرت لم تلكها الألسنة فالحمد لله وأصبح لابد لها أن ترعى مكانتها الجديدة ومستقبلها ·

ولهذا لم تجد بأسا أن تلبى دعوة راشـد لزوجهـا الى العشاء ولم تجد بأسا أيضا أن توطد صـداقتها بخـديجة ·

وبطبيعة الحال وجدت شهيرة فى اسم زكريا باشا ذلك الطنين الذى تهواه فسعت الى صلتها هـذه بسـهير تزيدها ثبـوتا ورسوخا وقد وجدت سهير فيها خير صديق فهى تماما التى تصلح لصداقتها فان تكن الثقافة والقراءة والاطـلاع قد أفسدت عقل خديجة وجعلتها فى جلوسها الى السيدات تبدو غريبة وان بذلت غاية الجهد أن تبدو موائمة مع الجلسة • فان شهيرة سيدة كما يجب أن تكون السيدات التى تحبهن سهير • • حكايات الآخرين والتعليقات ، الخبيثة أحيانا والفاجرة أحيانا أخرى والذكية الطريفة غالبا •

كان أقصى أمل تسعى اليه سهير أن تأتى لزوجها الشيخ بمولود وقد سألت الأطباء فوجدت أن ماتحلم به أمر يمكن الحدوث •

وهكذا ازدادت صلتها بشهيرة توطدا فهى رفيقتها الى كل المظان التى يمكن أن يحقق أملها وحذار أن توحى اليك هذه الجملة بتفكير غير شريف فهى فعلا تريد مولودا لزكريا على أن يكون زكريا أبوه فهذه المظان هى الأطباء غالبا وفى أحيان قليلة تكون هذه المظان بيوت الله تتلمس البركة عند المشايخ الأطهار وآل البيت • وفى مرة واحدة صحبتها شهيرة الى أحد السحرة ولم تكررها ؟ فقد خشيتا أن يغضب الباشا اذا علم •

وكان حمق شهيرة سببا رائعا لتكون زيارتها للأطبـاء طبيعية وكانت صداقتها لسهير تجعل رفقها بهـذه الطبيعة نفسها •

وقد دلت بعض دلائل لاتكفى للتأكد أن أمل سهير وشيك التحقيق •

***

كانت راوية تريد آن تقصد الى سهير مباشرة ولكنها لاتعرفها وقد خشيت من لقاء خشن ستكون سهير معذورة فيه بعد الذى فعله عدلى مع أبيه ·

ولم تفكر راوية كثيرا وانما قصدت الى خديجة فهى تعرف حسن مدخلها للأمور وذكاءها وحكمتها عند التقدير ·

ـ مطلب غريب سأطلبه منك ·

ـ على كل حال أنا لست غريبة وتستطيعين أن تطلبى منى ماتشائين بلا استثناء ·

ـ حتى ولو كان مطلبا شاذا ·

ـ ان لم تقصدى صديقتك المخلصة بالمطلب الشاذ فمن تقصدين ·

ـ أريد أن أصلح مابين عدلى وزكريا باشا ·

ـ أرى مطلبك حكيما وعاقلا بل ورائعا آيضا ·

ـ أنت تعرفين أن عدلى انغمس فى القمار وقد فشلت معه كل وسائلى ويخيل الى أن شعوره بغضب أبيه عليه هو الذى يجعله يندفع هذا الاندفاع ·

ـ اسمعى ان تفكيرك كله صائب ولكن لى رأيا ·

ـ قولى ·

ـ أنا سأسافر غدا الى الحجاز مع الباشا لنحج ولن يتاح لى أن أقابل زكريا باشا الا بعد عودتى ولكن لى رآيا ·

ـ وماهو ؟

ـ ماسبب خلاف عدلى مع الباشا ؟

ـ زواج الباشا ·

ـ سأترك الحقائب وأنزل معك الآن الى سهير أعرفك بها وسترين أنها تستحق كل خير ·

ـ أتظنين ذلك ؟

ـ هلمى بنا ·

***

كانت سهير جالسة مع شهيرة وأصبحت كل دقيقة تمر على سهير دون أن يحدث جـديد فيها يدنيها من أملها · وكانت السيدتان تتوقعان آى زيارة الا أن تكون راوية ·

ولكن سهير سيدة تعرف كيف تستقبل من يأتى الى بيتها حتى وان لم يكن متوقعـا ·· بل حتى وان لم يكن كريمـا معها ·

قالت راوية ·

ـ أظن ياسـهير هانم لم تكونى تتوقعين هـذه الزيارة منى ·

ـ على العكس كنت أتوقعها من زمن بعيد ·

وقالت شهيرة :

ـ طالما قلت لك أن سهير مندهشة آنك لم تأتى اليها ·

ـ كنت خائفة ياسهير هانم ·

ـ أظن هانم هذه ليست فى محلها ·

ـ أنت مكان حماتى ·

ـ ولكنى أقاربك فى السن • ونحن أقارب وقد فرحت بهذه الزيارة فرحا لاتستطيعين أن تتصورى مقداره فقد كان بعد ابن الباشا وبعدك عنه ينغصنى دائما وليس له فى الدنيا الا أنت وزوجك •

ـ البركة فى حضرتك •

ـ أنا لاأستطيع أن أعوضه عن ابنه وزوجة ابنه التى هى فى مكان ابنته وحفيدته التى لم يرها حتى الآن •

وقالت خديجة فى ذكاء لبق •

ـ ياأختى لقد أحضرتنى بلا مناسبة •• لا لزوم لى فى هذه الجلسة أبدا •

ـ لم أكن أعرف أن سهير هانم ••

وقالت سهير مقاطعة :

ـ هيه ؟!

ـ سهير لطيفة الى هذا الحد •

وقالت خديجة :

ـ وعرفت أروح أنا لأكمل حاجات السفر •

وقالت شهيرة :

ـ حج مبروك ياستى والله لولا الذى أحمله لذهبت معك •

وقالت خديجة :

ـ فلماذا لاتأتين أنت ياسهير وما أنت لاتحملين شيئا •

وقالت شهيرة فى تخابث مقصود ٠

ــ وكيف عرفت ٠

وقالت خديجة فى فرحة مندهشة :

ــ ماهذا ٠٠ أصحيح هذا الكلام ؟

وأطرقت سهير وقالت شهيرة :

ــ ولماذا لا ياستى ألسنا مثل الأخريات ؟

وتحمست خديجة ٠

ــ ردى ياسهير صحيح هذا ؟

وقالت سهير فى جمجمة :

ــ والله أخشى أن أقول نعم وأنا لم أتأكد بعد ٠

ــ يااختى قولى نعم ولايهمك ٠٠ ألف مبروك ٠

وقالت راوية فى فرح صادق فهى تتمنى أن تنجب سهير فوجود طفل لها سيجعلها تزداد حبا لابنتهما هالة ٠

ــ ربنا يجعل دخلتى عليك مبروكة ان شاء الله ٠ ولو كانت غيرك وانت أول مرة ترينني فيها لظننت آننى فرحانة من وراء قلبى واننى كنت أتمنى أن يفوز زوجى بثروة أبيه ولكن المال والحمد لله كثير ولاينقصنا وليس لنا الا هالة ولاننوى أن نجىء بغيرها وكم أتمنى أن يأتى لها منك عم قريب من سنها فيصبح لها كأخ من دمها ولحمها تستطيع آن تعتمد عليه وفرحى بهذا الخبر فرح واحدة أحبتك من أول زيارة وفى نفس الوقت تريد أخا لابنتها ٠ فصدقينى آنا فرحانة ٠

ـ يعلم الله ياراوية لقد صدقتك . وأنا لم يكن يهمنى أن يكون المولود ولدا أم بنتا ولكن بعـد الذى قلته أصبحت أتمنى أن يكون ولدا .

ـ سأدعو لك عند شـباك النبى ان شـاء الله ياسـهير وسيكرمك الله باذن الله ..

أفوتكم بعافية ..

هل أرسل لك السيارة ياراوية ؟

وردت سهير :

ـ سيارتنا ستوصلها لاتحملى هما .

***

حين قصت سهير على زكريا باشا ماحدث .

ـ ألم تعرفى ان كانت جاءت بعلم عدلى أم بغير علمه .

ـ هى لم تقل ولكن الذى أتصوره أنها لم تقل له .

ـ أنا أمامى حل واحد .

ـ ماهو ؟

ـ أنا أستطيع أن أعين عدلى فى وظيفة خارج القطر .

ـ خارج القطر ؟!

ـ نعم مثل فرنسا أو سـويسرا فهو مهندس وعليه أن يمارس هذا الذى تعلمه فى المدارس ليحس أنه يصنع شيئا فى الحياة .

ـ ولكن يازكريا ان له ابنة فكيف يكون الأمر ..

ـ هذا ماأريد الكلام فيه ٠

ـ ماذا تريد ؟

ـ أريد أن أربى أنا البنت ٠

ـ وماله !

ـ أنا أعرف أنك تتمنين طفلا وحفيدتي عندك ستكون مثل ابنتك ٠

ـ أنا أريد أن أربى حفيدتك لأنها حفيدتك لا لانى أريد طفلا ٠

ـ وما البأس أن تجمع هالة بين صفتين حفيدتي وابنتك في وقت واحد ٠

ـ أنا عندى طفلي ولست ٠٠

ـ ماذا ٠٠ ماذا قلت ؟

ـ كنت أريد أن أتأكد قبل أن أقول لك ولكن ليس من المعقول أن تعرف صاحباتى وأنت ٠٠

ـ هل أنت جادة ؟

ـ وهل يمكن أن أهزر فى مثل هذا ؟!

ـ وهل أنت متأكدة ؟

ـ أكاد ٠

وجم زكريا باشا وجلس مفكرا ٠

ـ ماذا يازكريا أكثير على طفل منك ؟

ـ ياسهير فكرى فى الحكاية ٠٠ ماهذا الكلام الذى تقولين ؟

ـ والله أنا زعلت ٠

ـ يابنتي لقد ظلمتك حين تزوجتك وبهذا الطفل يكون ظلمي لك قد تضاعف ٠

ـ وهل شكوت لك ؟

ـ سهير أنا لا أحتاج أن أسمع منك شكوى حتى أعرف الحقيقة ٠

ـ الحقيقة أنك تخاف أن يغضب عدلي ان جئت له بأخ فأنت مهما يفعل بك تحبه ٠

ـ اسمعي ياسهير ٠ عدلي أنا ظلمته لأني شغلت بنفسي وبالسياسة ولم أعن أقل عناية بتربيته ولهذا أنا أشفق عليه ٠ أما الطفل الجديد فأنا أحبه أكثر من عدلي لأني لن أرى منه مارأيته من عدلي ٠٠ حتى لو أصبح في خلق عدلي فان الحياة لن تتيح أن أرى منه شرا ٠ أما تفكيري الذي رأيته ووجومي فهو أنني أهملت ابني الأول بزحمة الحياة وهأنذا سأهمل ابني الثاني بفعل الموت ٠

ـ زكريا ماذا تقول ؟

ـ لقد جاوزت الخامسة والسبعين ياسهير فكيف يمكن أن تتيح لي الحياة تربية ابن مازال جنينا في عالم الغيب ٠

ـ أهذا مايحزنك ؟

ـ ومع ذلك فأنا لست حزينا ففرحك بطفلك يجعلني فرحا به أنا أيضا ٠٠ كل ما في الأمر أنني أفكر ٠٠ أعجب على رجل في مثل سني أن يفكر ٠

ـ اتركها على الله يازكريا ٠

ـ ان الله سبحانه لديه الكثير الذى يشغله هل كان لابد لرجل مسن أن يشغله هو أيضا بطفل يأتى به وهو فى آخر العمر ٠

ـ لاتحاول أن تفكر لله أيضا يازكريا ٠

ـ أستغفر الله العظيم ٠

ـ أستغفر الله العظيم ٠

١٢

لم يكن ذهاب راشد الى الحج خطرة عابرة ، ولكن الحقيقة أنه مع كل العربدة التى صخبت بها حياته مؤمن عميق الايمان وهو منذ تزوج استطاع أن يجعل من خديجة أنسه الصاخب حين يشاء وزوجته حين يقتضى الأمر ، فهو ثائب ٠

وحين أتى اليه أسامة أراد أن يقفل من كتابه صفحات يخشى فى فترات ملل أن يغرى بفتحها ويعود اليها ٠

فصحب خديجة واتجه الى بيت الله واستلم أركان الكعبة وتغشاه ذلك الرهب الأمين الذى يعرفه من يعرفون الله وانسربت من عينيه الدمعات والتفت الى خديجة تظلها صفحة البيت الحرام فرأى فى وجهها الخشوع حيا فواحا بأريج من

العطر حسب للحظات أنه يراوحها من سماوات صاحب البيت واستغفر الله وأطرق وظلت هي رانية العينين الى الكعبة يوشك من يراها أن يظن أنها تستشف من وراء الأشياء وجه عزيز كريم ·

طافا وأديا مناسك الحج وانتقلا الى بيت النبي وما أن وقف في رحابه راشد حتى ذهل عن الدنيا وتولته خفقة أرعشته فاذا هو بكاء وبكاء ، يكاد جسمه يستحيل الى عبرات ، وارتمى على أعتاب النبي كأنه صديق قديم يلقي بنفسه الى أحضانه وراح يصيح هذا مكان الخطائين يارسول الله فاشفع ·· اشفع فربما أخطأنا لتشفع ·

وأحست خديجة أن بينها وبين النبي سببا فهي سمية حبه الأول وحضن رسالته الدفيء وهي منذ عرفت الحياة تركع في ايمان وتسجد في صدق مع نفسها ومع الله ·· ان القبر الذى أمامها يضم من الدنيا أحب الدنيا اليها ويضم من الآخرة وسيلتها الى أجمل ماتعد به الآخرة من لقاء وجه الله ·

نسى راشد أن بجانبه زوجته بل نسى أنه زوج ونسى أن له ابنا ينبغي أن يدعو الله له في هذه السدة الزكية ·

ونسيت خديجة أنها في صحبة زوجها بل ذهلت عما يحيط بها ونسيت وهي الأم ابنها ·

حتى اذا هدأ بعض الروع من الزوج والزوجة أشار المطوف في هدوء صوته وكأنه أمر عادى ليس له ماله من جلال وسمو ·

هنا كان ينزل الوحي على رسول الله ·

وانتفض راشد وكأنما مسه المس ·· هنا ·· هنا التقت

السماء بالأرض أكرم سماء بأكرم من فى الأرض فى آخر لقاء عرفه الكون • هنا انقلبت موازين العالم من الجبروت الى المساواة ، ومن العزة بالاثم الى عبادة رحمن السماوات والأرض ، ومن الفجور الى العفة ، ومن الوهم الى الحقيقة ، ومن عبث الحياة والموت الى مجد الدنيا والآخرة ، ومن الحضيض الى القمم الشامخات • ارتمى بجانب مكان الوحي وراح ينظر اليه فى خشوع وحب ثم استجمع وقام فصلى صلاة لله وحين ختم الصلاة أفاق الى خديجة تنهى صلاتها هى أيضا •

لقد زار راشد العالم أجمع • ولكن شيئا لم يزلزل كيانه جميعا كما زلزل فى رحاب الله وفى حضرة النبى الأعظم • ليس متصوفا وانما هو مؤمن فما هذا الذى لقف نفسه جميعا وهزها فانتفضت كشجرة فى بواكير حياتها تناوحتها ريح عاتية تقتلع شم الأشجار وعواليها ولكن العجيب أنه أحس شجرته ازدادت ثبوتا فى سموات الايمان وفى أحضان الخلود •

أحس أنه يريد أن يذوب تخشعا وحمدا لله أنه مؤمن فبهذا الايمان تفجرت فى نفسه هذه الاشعاعات النورانية فعانق نوعا علويا من السعادة لم يعرفه فى أية لحظة من لحظات حياته • عربيدة كانت هذه اللحظات أم لحظات مؤمنة قانتات •

مساكين أولئك الذين لا اله لهم ولا دين ترسو على شواطئه الآمنة الجازعات من أيامهم • والهالع من مضطرب حياتهم يقطعون حياتهم هباءة هائمة تقطعت أواصرها بأصولها وانعدمت طرقها الى المستقبل لاتدرى من أين ولا

تدرى الى أين · باختيارها ألقت بنفسها الى الضياع فشمل الضياع ماضى حياتها ومستقبلها ومابعد المستقبل ·

ودع راشد وخديجة الأراضى المقدسة واستقبلتهما على الباخرة جماعة من الأصدقاء ·

وحين استقر بهما المقام فى بيتهما بالقاهرة أقاما حفلا كبيرا دعوا اليه من تعودا أن يدعـوهم ولكن الرهط المدعو فوجىء بشيئين لو لم يكن الداعى هو راشد لكانت المفاجأة أعظم وطأة وأشد غرابة ·لقد أقام راشد بمناسبة حجه وحج زوجته الى بيت الله الحرام حفلا غنائيا أحيته أم كلثوم والأعجب من ذلك أن الخدم داروا فى الحفل بكؤوس الويسـكى والكونياك وكل ماتعود راشد أن يقدمه فى ولائمه· الشىء الجديد الوحيد الذى خجل أن يعمله فى يومه هذا أن يشارك أصدقاءه فى شرب الخمر ·

١٣

انقلب زكريا باشا الى انسان آخر بعد أن وهب الله له يحيى وجاءت حفيدته هالة لتعيش معه بعد أن سافر أبواها الى سويسرا ليعمل عدلى مهندسا فى شركة عالمية للكهرباء ٠

لم يصبح زكريا باشا ذلك الرجل الوقور الذى لاينطق كلمة الا بعد أن تمر بمئات المرشحات فى عقله الكبير وثقافته الواسعة التيجمعت ثقافة السياسة والقانونوالأدب والمجتمع جميعا فى بوتقة واحدة هى رأس ذلك الرجل ٠

أصبح الآن لايغادر بيته فـرحا بعبط الطفل الوليـد وسذاجة الطفلة التى تتحطم على شفتيها الكلمات ٠

والأعجب من ذلك أنه حين يجلس فى مجتمعه لايفوته أن

يذكر شيئا من ضحكات ابنه أو بكائه وشيئا آخر من انقلاب الكلمات الى الغاز على لسان حفيدته .

أصبح الرجل الذى لم يهتم بابنه فى بواكير الشباب فيجعله يخرج الى الحياة مثقفا ثقافة امرأة جاهلة أو ثقافة أمه على أكثر تقدير . يحاول اليوم أن يثقف ابنة هذا الابن أعظم ثقافة بل انه فى تعجله للأيام وفى خشيته أن تعاجله بالنهاية قبل أن ينفذ لابنه وحفيدته مايهفو اليه راح يحاول محاولات تدعو الى السخرية أن يثقف يحيى نفسه وهو على كتف أمه أو كتف مربيته .

ويوم تصبح سن هالة صالحة لأن تذهب الى المدرسة يذهب هو شخصيا معها الى مدرسة السكركير وتشعر الراهبات بأهمية الطفلة عند جدها ويقصد هو أن يؤكد هذا الشعور . فيذهب بعد ذلك كل أسبوع ليكون على متابعة تامة لتقدم حفيدته فى الدراسة .

وتدرك سهير أن فى ارضائها لهالة ارضاء للباشا فتحرص على أن تدللها دائما ولم تكن سهير غبية فلا يفوتها أن تجعل الطفلة تخاف جدها حتى لاتكون حياتها كلها تدليلا ويحمل الباشا مسئولية التأديب بقلب خافق ولكنه يدرك أنه لابد من ذلك لتكون هالة كما ينبغى لها أن تكون .

ويوم يصبح يحيى صالحا للذهاب الى المدرسة يقضى الباشا ليلة بيضاء فلا يزوره النوم حتى بواكير الصباح .

لقد عاش حتى دخل يحيى الى المدرسة فما الذى يخبئه الغد لهذا الطفل وأى مصير يلقى اليه اذا هو ذهب الى لقاء ربه قبل أن يشب الطفل ويصبح جديرا بمواجهة الحياة مواجهة جديرة بالحياة وبانسان الحياة . لقد كان شبح عدلى يخيف

زكريا باشا فهو يخشى أن يصبح الأخ مثل أخيه بل أشد مايخشاه أن يصبح عدلى مسؤولا عن يحيى ويحيى يعد قضيبا لينا يسهل تشكيله وويل ليحيى اذا شكل أخاه على شكله هو ٠

ان سهير طيبة سمحة النفس وقد ينفع هذا فى أن يجعل يحيى نقى الضمير قريبا الى نفوس الناس ولكن هذا بالتأكيد لاينفع يحيى فى أن يكون مثقفا فليست سهير على شىء من الثقافة ٠٠ ليتها كانت مثل خديجة ان راشد لاشك مطمئن على ابنه فقد جاء به وهو فى سن باكرة ثم هو لايخشى عليه الغد اذا اختار هذا الغد أن يسلك راشد طريقه الى الله ٠ طالما نادينا بأهمية تعليم المرأة وظنوا بنا الظنون وحسبوا أننا بما ندعو اليه نحاول أن نتقرب الى الغرب فى عماية ودون نظر الى ديننا وتراثنا ٠ وأنا لا أعرف فى الدين شيئا يمنع تعليم المرأة ٠ بل ان ديننا أول دين جعل لها كيانا وذمة مالية مستقلة عن ذمة الزوج ٠

أهذا وقته من ليحيى فى غده ٠

لقد جاوزت العمر وأنا أعلم أنى اليوم أقف على مشارف الجانب الآخر من الحياة ٠

أرأيت ٠ لايستطيع العقل أن يحل كل المشاكل ٠ لابد من هذه الغرفة المضيئة من الايمان لنحيا بها فلولاها لجزعت أيامى كلها وقضيت مابقى لى من الحياة مجنونا ملهوفا على مستقبل ابنى هالعا من الغد وحينذاك أبدد أيامى الباقية فى الخوف ويسلمنى الخوف الى سوء الرأى ٠٠ ليس لى الا أن أكل الأمر الى الله ٠ والموت والحياة بيده ٠ وبهذا الموت أو الحياة يتحدد مصير ابنى يحيى وحفيدتى هالة ٠٠ اذن فهل نحن مخيرون أم مسيرون ٠ نحن لانتحكم فى مولد أو موت واذن ٠٠؟!

مابين هذين نحن فيه مخيرون • ومصير يحيى ألا يرتبط ارتباطا وثيقا بموتى وحياتى •• أهو بعد هـذا مسير أم مخير •

لقد اخترت أنا أن أجيء به وأنا فى هذه السن وهذا فى ذاته اختيار ثم حين يشب عن الطوق هو مخير فيما يفعل • أهو مخير أم تحكمه تربيته وكيف سار نهجه فى الحياةوكيف رباه من رباه • ولكن الذى رباه أيا كان سـواء كنت أنا أم كانت أمه أم كان أخاه قد اختاروا له الطريق فالاختيار اذن يحكم حياته •• سواء كان ذلك اختياره هـو أم اختيار من أشرف على نشأته لايعقل أن السماء وهى العدل المطلق تجبر الانسان ثم تحاسبه لا محاسبة الا مع الاختيار وبهذا يختلف جبار السماوات والأرض وهو العدل فى قمم العدل الشامخة وبين الجبـارين فى الأرض الذين ينزلون حكمهم عـلى من لايملكون الاختيار •

أجبر واختيار ومدرسة يحيى غدا وأنا لا أدرى ما مصيره وما مستقبله •

اننى تاركها الى الله •• وهل بيدى الا أن أتركها لله •

ومن يدرى لعل يحيى •• أعوذ بالله •• ليس لى غير الله •• أنا لم أقصر •• ولكننى قصرت •• أتزوج فى هذا السن وأتى به أيضا ثم أزعم أننى لم اقصر •

لقد أخطأت وابنى •• لهفى عليه •• هو الذى سيتحمل الخطأ لا أنا •

أخطأت مع عدلى حين أهملت شأنه ••

وأخطأت مع يحيى حين جئت به •• وحسبى الله ••

ولكن أكنت أملك ألا أجيء به ٠

طبعـا ٠

وأمـه ٠

ماشأنها ٠

ماذنبها ٠٠ انها شابة وتريد أن تصبح أما ٠

فليكن اذن أبو ابنها غير هذا الكهل الذى هو أنا ٠

الخطأ يبدأ يوم تزوجتها ٠

اذن ٠

لا سبيل لى اذن ٠٠ لقد أخطأت وعلى وحدى ٠٠ ياليت على وحدى يقع العبء ٠ وانما ولدى هو الذى سيحمل العبء ولا ذنب له فيه ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

١٤

نظرت شهيرة الى ابنتها طويلا .. لم تكن تدرى لهذه النظرة سببا ، وانما هى ألقت عينهاعلى بهيرة ثم ثبتتها يحسب من يراها أنها نظرة بلهاء خالية من أى معنى الا أن نظرها اتجه الى هذا المتجه ثم شرد ذهنها وهى فى هذه اللحظة . ولكن لو انزاحت عن الانسان فيها مايتغلف به الانسان من أسرار لراينا فى جوانحها هلعا على ابنتها أو اذا شئت الدقة فى التعبير وما لك لا تشاء مادمت قد التزمت أنا أن أقص عليك وأن أكون دقيقا حين أخاطبك ـ كان هلع شهيرة على نفسها لا على ابنتها ، لقد قبلت زواجها من سامى وحسبت أن الزوج بلا شخصية هو أصلح زوج لها ثم مالبثت أن تبينت أن الزوج بلا شخصية لايصلح للحياة مطلقا فهو مايلبث مع الأيام أن يصبح شيئا بلا طعم ولا لون ولا رائحة قد يكون مريحا

لزوجته ولكنها تلك الراحة التى تسعد بها المرأة من خادم فى البيت وتشقى بها غاية الشقاء من زوج يفترض المجتمع أن يكون هو السيد ·

وسامى مسكين لايستطيع أن يكون سيدا أبدا · فالسيد لابد أن يكون مهيأ بخلقه الشخصى أو بما له أو بهما جميعا ·

يمكن أن يكون السيد سيدا أو رجلا ذا وجود اذا كانت الطبيعة قد وهبت له هذا السر العجيب الذى يجعل الانسان معتزا بأنه انسان · وبأن الله كرمه على العالمين فلا ينبغى له أن يذل الانسان الذى كرمه الله فيه ·

يمكن أن يكون رجلا ذا وجود اذا استطاع أن يروض أقدامه أن تسير على هذه الشعرة الواهية التى تفصل بين الانسان الذى يحافظ على كرامته وبين الانسان التافه الذى يحاول أن يحجب تفاهته بغروره ·

وتلك موهبة ينميها البيت والمجتمع الذى يعيش فيه الانسان وليس من الحتم أن يكون المرء غنيا لتنمو هذه الموهبة وانما من الحتم أن يكون هذا الانسان نابتا بين أناس يعرفون كيف يكرمون أنفسهم وكيف يكونون كراما على الناس يستغنون عن الغنى بالعفة وعن الغرور بلين الجانب وحسن المعاشرة ·

وقد يستطيع المال أن يحجب عيوب الشخصية المتلاشية ولكن قليلا ماتحجبها ثم مايلبث الأقربون أن يدركوا الحقيقة ويسقط حجاب المال وتبقى الشخصية الزائلة ·

وكان سامى يجمع بين الشخصية الضائعة وبين قلة المال وابتكر لنفسه أيضا ، عدم العفة فهو يريد أن يلبس أحسن

ملبس ويأكل أحسن مأكل ولايجد حــرجا من نفسه ولا من كرامته أن يلقى بهذا الثقل أيضا على زوجته غير مكتف أنها تقوم بشأن البيت وحدها ٠

وقد يكون عيب سامى هــذا شــيئا لايصيب الا خاصته الأقربين ومن يلاصقونه فى الحياة ومن أقرب اليه من زوجته ومن ألصق به منها ! ولكن ألا يكفى أن يصاب منه هؤلاء ٠٠ وما الناس جميعا اذا كان هؤلاء لايكنون له الاحتقار ٠

حين تسقط قيمة الزوج عند زوجته يصبح كل شىء لها مباحا ٠ ربما تكون شريفة الجوهر ٠٠ وربما تكون هى نفسها أبية تنأى بشرفها عن الألسنة اللاهيــة التى تتميز بالمجتمع لتجعل السر فيه جهرا والخفى علنا والخبىء شــهيرا والمستور مفضوحا ٠

ولكن زوجا كزوج شهيرة كفيل بأن يجعلها تنتقم منه حتى ولو كان عرضها هو أداة الانتقام وقد تنازعها الرغبة عن العفة وقد تتغلب العفة آخــر الأمر ٠ أو قــد تنتظر المرأة انتظارا غير لهيف وغير مكترث ولكن انتظار ترقب وقد تعرض لها سانحة الخيانة وقد تتردد وقد تقبل أيضا ٠

كانت شهيرة وهى تنظر الى ابنتها فى هذه الفترة التى تتردد فيها والتى توشك فيها أن تقبل ٠

وكان الذى يعــرض الفرصة صــديقا لزوجها جمعت بينهما صداقة طبيعية فهو رئيس زوجها فى العمل ٠ ويتمتع سامى برضـــاء شــكرى بك الكيــلانى فهو يحسن أن يكون مطيعا ٠

ومرض سامى بضعة أيام فزاره شكرى ٠٠ ورأى شهيرة

فتوثقت الصداقة بين شكرى بك الكيلانى و ....
وسامى .

وكان طبيعيا ان تؤدى هذه الصداقة أن يطلب شكرى بك شهيرة هانم كل يوم ويتحرى أن يكون هذا الطلب وسامى فى مكان العمل .

وتنظر شهيرة الى ابنتها بهيرة .

أى غد ينتظرك ؟!

أب موجود بلا وجود .

وأم لاتمنع غير زوجها أن يتصل بها .. ولاترى بأسا أن توغل العلاقة الى أبعد من ذلك .

بهيرة .. أى مصير ينتظرك ؟!

١٥

نزل راشد باشا من سيارته والتفت الى السائق عبده خليل فى هدوء ٠

ـ سيأتى أحدهم لتسلم السيارة ٠٠ سلمها له ٠

ـ أمرك سعادة الباشا ٠

ودخل راشد باشا الى حجرة مكتبه وجلس الى المكتب البالغ الأناقة الذى ينتمى الى عهد لويس السادس عشر والذى يقال ان بعض وزراء هذا العهد كانوا يجلسون اليه ولكن راشد لم ينظر الى المكتب الأنيـق وانما كل مافعله أن خلع الطربوش وجلس على كرسى المكتب ورفع رجليه ليستقر بهما على مكتب لويس السادس عشر ٠ ونظـر الى سقف الحجرة ورحلت عيناه فى تهاويل السقف التى تصور ملائك السماء

يدفون بأجنحتهم حول ملاك كبير تباعد جناحاه ، المذهبان وارتسمت على شفتيه ابتسامة وادعة مطمئنة لاتستطيع أن يفزعها أو يشغلها عن اطمئنانها مفزع أو شاغل ٠٠ انهـا ابتسامة ترنو الى السماء وتطمئن اليها ومادامت بالسماء قد تعلقت فلا شيء يعنيها بعد ذلك ٠٠ لا شيء ٠ وحين توغـل العين في الابتسامة وفي عيني الملاك تجد صفاء وتجد مرحبا لكل بني الانسان يؤكدها هذان الجناحان اللذان يفـرشان السماء كأنهما ذراعان تتهيآن لاحتضان عزيز عائد ٠

كان راشد باشا ينظر الى هذا جميعه ولكن عينيه كانتا لاتتبينان من التهاويل شيئا ٠

يراها ولا يراها تتماوج الصورة في عينيه فتبين وتختفي وتلوح حتى تبدو وكأنها مجسـمة واضـحة وتتلاشى حتى ليعلوها الضباب أو كأنما تمحوها أفواج من الظن وأسـتار من الأوهام ٠ يفكر راشد باشا ولكنه لايفكر ، ويندهش ولكن لايبدو التعجب على وجهه ٠ تتزاحم صور وجـوه مع صـور السقف فلا يتضح رسم ولا تتبلور صورة ولا يتحدد وجه ٠

ربما توسط أمواج الطيوف أسامه في وجهه البريء وفي كلامه الجديد الطازج الذي يقع من اذن أبيه وأمه موقع النغم السماوي المنسجم ٠ يذكـر ماتعلم في المدرسـة ويباهي به وكأنما تعلمه وحده ولايعرفه أحد من الناس غيره ٠ ولاتغيب صورة أسامة وانما يزحف عليها وجه خديجة ويتقلب على مدى السنوات التي تزوجها فيها غير حريص في تقلبه على الترتيب الزمني ولا على ترتيب ظهور هذه التجاعيد القليلة التي بدأت ترتسم في نبل على صفحات وجهها ٠ قد تبدو أمامه وهي في المرآة أول يوم رآهـا ثم قد تقفز السـنوات الى يوم بشرته الزغاريد بمجيء أسامه أو قد تبدو وهي تتكلم معه في خاصة

أمورهما أو وهى تتكلم في المجتمعات العامة فتحيط بها هالات من الاعجاب أو قد تحيط بها أيضا هالات من الحسد • وقد تبدو أمه وقد يذكر مرضها وتشبثها بالفراش وقد يثب وجه حمزة البلاشونى ثم فهمى عبد الحميد يكبر وجهه ويكبر حتى لايتيح لأحد ، ولا حتى لأسامه أن يبقى معه فى اطار الصورة بل العجيب أنه يزيح أسامه أول مايزيح ،والأعجب أنه مايلبث أن يضمه ويحتويه وكأنه يهدهد أحــلامه • ويغمض الباشا عينيه ولكن صورة فهمى متشبثة بالظلام تشبثها بالنور ويهز الباشا رأسه فتمحى الصورة مرغمة •

ويعود نظر الباشا فلا يرى الا تهاويل السقف وتعود الصور الى الوضوح ثم ترين عليها أستار من الوهم أو أستار من الضباب •

وكأنما يثوب شاكر الى مكانه فتعلو وجهه فترة من الأسى وقد تفكر دمعتان أن تستميحا عينيه الشامختين ثم ماتلبث الدمعتان أن ترتدا هالعتين يزجرهما كبرياء العينين أن تظهرا الا فى العميق العميق فى نفس الرجل الأشم • رافضا أن يبدو منــه للعيــان ألم حتى وان كان خاليا الى نفسه • فهذا المكتب بما يضم من أثاث وماتحويه جدرانه وسقفه من نقوش أشياء خارجة عن نفسه لايجوز لها أن تعــرف مابداخلها أو تطلع عليه •

لم يكن يخبى أن هذا الذى يطالعه اليوم أمر يقع لكل من يعمل فى ميدانه ولكن الذى كان يدهش له أنه كان يتقى هذا اليوم بكل ذكائه وكل خبرته • وفى سرحة تفكير استعاد بها الأحداث الأخيرة أدرك أنه تخلى عن ذكائه وعن خبرته جميعا يوم أراد أن يجتاح أسواق البورصة ليكون لابنه أعظم قدر من

الثراء • وفى انشغاله بالنظر الى الهدف عمى عن الطريق وغفل عن مزالقه •

لقد أصبح «ميداس» ملك الذهب الاسطورى الذى أحب الذهب حتى انقلب الى ذهب • واذا انقلب العقل وتجاربه الى جماد ــ حتى وان كان ذهبا ــ كف عن العمل الأصيل الذى خلق من أجله • وانهار الانسان لأن الانسان تركيب يختلف تماما عن تركيب الذهب •• هكذا الاسطورة أما فى الحياةفان العقل يتوقف والتجارب تنزوى ذليلة وينهار الانسان ولكن شيئا من العقل أو التجارب أو الانسان لايصبح ذهبا •

لقد استعبده المـال ففقد الاختيار واذا فقد العقـل الاختيار فقد معه سبب وجـوده فى الحيـاة • والعجيب أن الانسان صاحب هذا العقل لايدرك هذا لأنه لايستطيع أن يدركه الا بالعقل الذى توقف عن العمل أو من هنا أجد نفسى مخطئا اننى بدأت هـذه الجملة بالتعجب بينما العجيب حقا ألا يحدث هذا • لقد فقد حضرة صاحب السعادة راشد باشا برهان كل مايملك ومادمنا نريد الدقة فى التعبير فقد أصبح كل مايملكه سعادة راشد باشا برهان مرهونا رهنا حيازيا لدائنين مختلفين من بينهم فهمى عبد الحميد • وجود هـذا الدائن بين الدائنين يجعل راشد على ثقة مؤكدة أن الدائنين لن يتجاوزوا يوم البيع بيوم واحد •

لو أمعن راشد التفكير لكان الحل الطبيعى الذى يؤدى اليه المنطق الأخرس الجامد الذى لايعرف السماء أن ينتحر سعادة الباشا • فهذا هو أسهل الطرق التى يستطيع أن يسير فيها • فهو لايطيق أن يرى زوجته تلبس أخلاق الثياب أو يرى ابنه يتكفف الناس يسألهم مايرد به الجوع •

ولكن فكرة الانتحار هــذه هي الفــكرة الوحيدة التي لاتجرؤ أن تقترب من ذهن الرجل الصامد راشد برهان . لقد عاش غنيا وسوف يثبت لنفسه وللناس أنه يستطيع أن يعيش فقيرا . ويظل على الحالين كريما على نفسه ومن كان كريما على نفسه فهو كريم على الناس وان رغمت من بعض الناس أنوف .

في لحظته تلك لم يكن يعرف الا أنه سيستطيع أن يعيش ولكنه في لحظته تلك لم يعرف كيف سيعيش . كان يدرى كل الدراية أنه مؤمن بالله وأنه لن يذهب الى رحابه الا في طريق يرضاه الله لمن يؤمنون به .

والعجيب أنه في لحظته القاتمة القاسية العاصــفة بل التي سكنت فيها العاصفة عن خرابه الكامل في هذه اللحظة كان يغبط نفسه .. لقد وجد فيها شيئا أكرم من الغنى وأغلى من المال . لقد وجد الطمأنينة الى السماء والايمان بالله . ماذا يفعل غير المؤمنين لو تعرضوا لما يتعرض له كان شامخا ان استطاعت نفسه أن تقر وهي تحس أن في ثنايا نسيجها تنداح هذه النفحة الزكية الأمينة الحانية التي لايستطيع أن يبقيها في نفوس العباد الا اليد التي ابرأت هذه النفوس ، وحنت عليه حنوا يتقاصر عنده حنو الأمهات على الفطيم .

تلك اليد الرؤوم التي تشفع الكارثة باللطف ، والجزع بالأمن ، والفاجعة بالايمان .

أسلم نفسه لها واتضحت له الحجرة كما عهدها خالية من الطيوف بريئة من الأخيلة وانكشفت له تهاويل السقف عن فنها الرفيع الذى طالما بهره اذا ماسمت اليه عيناه ... أهذه الرسوم محجوز عليها هي أيضا .. انها فن رفيع لايقدر

بمال ولكن الدائنين لايرون فيه الا سقفا لايكمل البيت بدونه والبيت محجوز عليه . لا حياة للفن فى صراع المال .

دخل ادريس الى حجرة المكتب .

ـ فهمي بك عبد الحميد .

ولم ينزل الباشا قدميه عن المكتب ولم يجزع وان كانت بعض الدهشة قد تولته .

ـ ما له .

ـ فى الخارج يريد مقابلة سعادتك .

وصمت الباشا .. ليس من المعقول أن يأتى ليتشفى والجرح جديد .. اذن .

ـ دعه يدخل .

وأنزل الباشا قدميه واستعد للقاء الرجل فمهما يكن البيت محجوزا عليه الا أنه حتى الآن بيته .

دخل فهمي عبد الحميد وأسى صادق مرتسم على وجهه .

ـ سعادة الباشا .

ـ أهلا فهمي .. اقعد .. اقعد أولا .

ـ سعادة الباشا أنا لا أعرف ماذا أقول لك .

وعجب راشد أن رأى بواكير دموع تطفر الى عينى الرجل وكأنها تودع دموعا أخرى سبقتها .. وأصبح الموقف أكبر من الانسان . وأوشكت دموع راشد العصية أن تطفر الا أنه زجرها .. فقد تكون دموع فهمي وفاء لصداقة قديمة أو اعتذارا عن موقف سابق أو اخوة صمدت فى وجه الأحداث

أما دموع راشد فلن تكون الا ذلة واستكانة وضعفا ولن يفهم فهمى أنهـا انمـا انهمرت اكبـارا للانسـان حين يعلو على الانسان ٠

ـ لقد أصبح هـذا البيت من نصيبى مقـابل دين فى الأوراق مقـداره عشرون ألف جنيه ٠ هـذه أوراق الرهن اقرأها سعادتك ٠

ـ وتريد البيت الآن ٠

أريدك أن تقرأ الأوراق ياسعادة الباشا ٠

ونظر راشد فى الأوراق نظرة سريعة كانت كافية لمن هو فى مثل خبرته ٠ وقال وهو يرد الأوراق الى فهمى ٠

ـ نعم فعلا ٠

ـ هل ينقصها شىء ؟

ـ لا أظن ٠

ـ أعد النظر اليها ياسعادة الباشا واقرأها على مهل ٠ ربما كان ينقصها شىء ٠

ـ أعتقد أنها كاملة يافهمى لاينقصها شىء ٠٠

ـ سعادتك متأكد ٠

ـ طبعا متأكد ٠٠ وأنا على استعداد أن أسلمك ٠٠

ـ سعادة الباشا ٠٠ أرجوك تأكد من الأوراق ٠

ـ ياأخى اذا كنت تريد أن تتسلم البيت الآن فأنا على استعداد ٠

ـ سعادتك تقصد أن تخرج من بيتك الآن ومعك أسامه والسيدة والدتك المريضة والسيدة حرمك ٠

ـ هذا ماتقوله الأوراق ومايقـوله حقك ·· الرهن حيازى لمجموعة الدائنين ·

وقد قسمتم الرهن على أنفسكم فيما بينكم وأصبح البيت من نصيبك بموافقة جميع الدائنين ·· هذا لاشك فيه ·

ـ وهذه هى أوراق الدين والحيازة ياراشد باشا ·

وفى حركة ثابتة واثقة مـزق فهمى الأوراق ثم أعـاد تمزيقها ·

ـ فهمى مـاذا فعلت ·· انت بهـذا تضيع حقك فى الدين ·

ـ وما عشرون الف عندك ·· ادفعهـا حين تشـاء أو لاتدفعها اذا شئت انما أنا لا أخـرج راشـد باشا وأسرته ووالدته من البيت الذى عاشوا فيه عمرهم كله ·

ـ فهمى أهذا معقول ·

ـ هذا هو المعقول · فلنختلف أحاربك وتحاربنى ولكن راشد أدهم لايخرج من بيته أبدا ·

ـ فهمى هل هناك كلام يوفيك حقك ·

ـ حاولت أن تكون السيارة ضمن دينى فلم أستطع ·

ـ لايهم ·· لايهم شىء ·· أنت كما أنت الآن أمامى أعز من كل المال الذى فقدت ·

ـ أنا لن أبقى لأسمع هذا الكلام ·· السلام عليكم ·

ـ والقهوة ·

ـ ستصبح شربات حين أرى الوقت مناسبا ·

***

ان للسماء طرقا عجيبة · قد أتصور أن يفعل اى دائن مافعل فهمى عبد الحميد الا فهمى عبد الحميد · لو أن الانسان عرف السبل التى تستعملها السماء لأصبح الها · ولكن السماء تحب أن نذكره دائما أنه انسان لايزيد وهناك من فوق سبع سموات رحمة ترسل حنانها وشعاعها بالطريق الذى تراه مناسبا أو طبيعيا لا الطريق الذى يتصوره مجرد الانسان ·· وهيهات لمجرد الانسان أن يفهم ·

كيف يمكن لفهمى عبد الحميد ان يكون ذلك الملاك وهو هو نفسه الذى ارتكب من الأعمال مايعف الشيطان عن ارتكابه ·

كيف يستطيع الملاك والشيطان أن يعيشا معا فى كيان واحد والذى يسمو الى ماتصنعه الملائكة هو نفسه الذى يتردى الى ما لا تهوى اليه الشياطين ·· ألهمها فجورها وتقواها ·

فالذى يصنع الخير هو خير من الملائكة لانه يصنع الخير باختياره لا بالطبيعة المواتية التى لاتعرف الملائكة غيرها والذى يتردى الى فجورها يهوى الى حضيض أسفل من حضيض الشياطين لأنه هو نفسه كان يستطيع أن يختار الطريق الآخر الذى لايستطيع أن يختاره الشيطان ·· وألهمها فجورها وتقواها · قد يغلب الفجور مرة وقد تغلب التقوى مرة ويصبح الانسان تركيبا عجيبا لا هو شر كله ولا هو خير كله وانما يتمازجان فيه فى غير تنافر ويصبح كل من العنصرين مادة فى كيان الانسان ليظل الى الأبد ذلك اللغز الذى حارت فيه مراحل البشرية على مر التاريخ ·

***

قالت خديجة :

ـ أبيع مجوهراتى ٠

ـ هى فى البنك باسمى وأغلب الظن أنها حجز عليها هى أيضا ٠

ـ أكلم أبى ٠

ـ اياك ؟

ـ انه أبى ٠

ـ اسمعى هذه المشكلة ملكى أنا وأنا الذى صنعتها وأنا الذى يجب أن أتولاها وحدى ٠

ـ لتكن أنت من صنعتها ولكن أنت رب بيتى مسئوليتى عنك قدر مسئوليتك عنى ٠

ـ لو كان لك مال مستقل لكان الذى تقولينه طبيعيا ٠

ـ ولكن أبى مسئول عنى ٠

ـ سقطت عنه هذه المسئولية منذ تزوجتك ٠

ـ العلاقات الانسانية ليست عقودا تسجل فى المحكمة ٠ يغضب أبى أشد الغضب اذا لم أقل له ٠

ـ غضبه سيكون أكبر اذا قلت له ٠

ـ منك ٠

ـ من نفسه

ـ من نفسه ؟

ـ انه لايستطيع أن يصنع شيئا ٠٠ دخل أبيك يكاد لايكفيه ٠

ـ ماهذا الذى تقول ٠

ـ حقيقة أنا أعرفها قبل أن أتزوجك وتأخرت أنت في معرفتها ٠

ـ ولكن لابد أنه سيعرف كل شيء عن حكايتنا ٠

ـ أنت طيبة ياخديجة ٠٠ هل تظنين آن آحدا فى مصر سيجهل ماحصل لى ٠

ـ فهو الذى سيكلمنى ٠

ـ ربما ٠

ـ اذن فسيغضب لأننى لم أكلمه ٠

ـ أعلم ذلك ٠

ـ ماذا أقول له ٠

ـ قولى انك عرضت على مساعدته فرفضت ذلك رفضا قاطعا ٠

ـ ولكنه سيكلمك ٠

ـ لاتخافى فان كنت فقدت مالى فانى لم أفقد لباقتى ٠

***

وقالت أمه وهى فى فراش مرضها ٠

ـ راشد لاتخف ٠

ـ أنا غير خائف ٠

ـ مصاريف بيتك على ٠

ـ وأنت ماذنبك ؟

ـ كنت أستطيع أن أعطيك أرضى فتبيعها ولكنى أخاف أن تأكلها ديونك · سأبقى أرضى لأصرف منها على البيت ·

ـ هانم أفندى لاأدرى ماذا أقول لك ·

ـ لا تقل شيئا · لن أعيش طويلا والآفدنة القليلة التى ورثتها عن أبيك ستؤول اليك ولكنى أريد أن أعيش كما تعودت أن أعيش لا أسأل أحدا شيئا ·

ـ سيكون لك هذا على كل حال ·

ـ انك طول حياتك تنفق على وعلى ملبسى وكنت أنفق أنا ايرادى على من يستحقون الصدقة ·· وعندى بعد ذلك بقية وايراد الأرض سيكفى مصاريف البيت فلاتحمل هما من هذه الناحية ودبر أنت حالك فى غير هذا ·

***

وقال عثمان باشا فكرى ·

ـ لقد أكرمت خديجة منذ تزوجتها وأصبح بينكما الآن أسامه وهو حفيدى وأنا مسئول عنه وعن ابنتى وسمى وتصرفاتك الكريمة مع ابنتى تتيح لى أن أكون مسئولا عنك أنت أيضا فدعنى أقدم مساعدتى ·

ـ أنا دائما أعتبرك أخى الأكبر ان لم أعتبرك والدى وأنت فى مكانه عندى ولكنى أحب أن أقوم بنفسى بهذا العبء ·

ـ أساعدك فى أيامه الأولى ·

ـ وأصبح أمام زوجتى شخصا ضعيفا لا يستطيع أن يواجه الأحداث ·

ـ لقد عشت عمرك غنيا ٠

ـ فدعني أجرب أن أكون فقيرا ٠

ـ أمرك ٠

***

وقال أسامه ٠

ـ بابا ماذا حصل ؟

ـ ماذا حصل ؟

ـ في البيت حاجه غريبة ٠

ـ مثل ماذا ؟

ـ لا أعرف !

ـ هل نقص شيء ؟

ـ السيارة ٠

ـ وانت مالك بالسيارة ٠

ـ أنا فقط لا أراها ٠

ـ أصبحت قديمة ٠

ـ اشتريت سيارة جديدة ٠

ـ ليس الآن ٠٠ هل هذا هو كل التغيير ٠

ـ طبعا لا ٠

ـ وماذا أيضا ٠ ؟

ـ لا أعرف ٠٠ ستى ليست كما تعودت أن اراها ٠

ـ مريضة ٠

ـ أنها مريضة من زمان ولكنها ليست هى ٠

ـ وماذا أيضا ؟

ـ وكفاية ٠

ـ وماما ٠

ـ لا ماما لم تتغير

ـ وانا ٠

ـ انت ؟! ٠٠ انت ؟! لا أعرف ٠

ـ والخدم ٠

ـ لا أعرف ٠٠ يمكن ٠٠ ربما ٠٠ نعم ٠٠ افتكرت كانوا دائما يهزرون معى ٠٠ الآن دائما التكشيرة على وشهم ٠

ـ كل هذا رأيته ٠

ـ لا أعرف ٠٠ تعرف يابابا ساعات أحس بأشياء ولا أعرف كيف اقولها ٠

ـ مثل ماذا ٠

ـ لوكنت أعرف كنت قلت ٠٠ لا أعرف ٠٠ فيه شيء ولكن ماهو ٠٠ لا أعرف ٠

ـ ستعرف يا أسامه ٠٠ سيأتى يوم وتعرف ٠

***

بدأ حياته الجديدة بداية لم تر مثلها القاهرة ولا أحسب

أنها ستراها .. كانت هناك عمليات تجارية صغيرة تعود أن يتركها ولايعنى بها ليهتم بعمليات أكبر عاد الى هذه العمليات . ولكنه كان يريد أن ينتقل بسرعة .. وكان قد انتوى أمام نفسه ألا يستغنى عن أحد من الخدم أبدا . فقد استقروا فى البيت منذ سنوات طوال وأصبح من غير الممكن أن يستغنى عن أحد منهم . كان هناك شعور يجمعهم أنهم أسرة واحدة لعل احدا منهم لم يفصح للآخر بهذا الشعور ولكنه راسخ فى نفوسهم ربما الى درجة عميقة وثابته ومؤكده حتى ليصبح من العبث ان تكون موضوع حديث .

وهكذا بقى عبده خليل سائق السيارة دون أن تكون هناك سيارة وسرعان مانبتت الفكره فى ذهن راشد باشا .

والذين كانوا يعيشون فى القاهرة هذه الأيام أصبحوا يرون منظرا عجيبا .

سعادة الباشا يركب موتسيكل له مقعد جانبى الذى يطلقون عليه سيدكار يقود الموتوسيكل سائق غاية فى أناقة المظهر يلبس البذله التى كانوا يطلقون عليها بذلة طلب وهى تمتاز بسترة مقفلة عند الرقبة زرقاء داكنة الزرقة على حوافيها قطان أحمر والبنطلون منتفخ من أعلى تلقفه بعد ذلك رقبة طويلة لحذاء جلدى فاخر .. هكذا كان ملبس عبده وهو يقود السيارة الباكار نفس ملبس عبده خليل وهو يقود الموتوسيكل السيدكار الذى يركب سعادة الباشا فى مقعده . حتى اذا أراد الباشا أن ينزل فى مكان ما لبعض شأنه سارع عبده خليل يفتح باب السيدكار فى عظمة ووقار ونزل الباشا فى سمته المهيب الذى تعود أن ينزل به من السيارة الباكار .

والباشا وهو يصنع هذا لايفكر لحظة أنه يفعل شيئا يدعو الى الدهشة · وفيم الدهشة أن الباشا يعتبر السيارة وسيلة لا غاية · والموتوسيكل وسيلة تؤدى الغرض نفسه · وراشد باشا برهان الذى كان يركب السيارة الباكار هو نفسه راشد باشا برهان الذى يركب الموتوسيكل السيدكار ·

١٦

دق جرس التليفون بمنزل زكريا باشا .

ـ أنا عبد القادر ابراهيم وكيل وزارة الخارجية يامعالى الباشا .

ـ أهلا عبد القادر بك أهلا وسهلا .

ـ متى أستطيع أن أرى معاليك .

ـ وقتما تشاء .

ـ فى أسرع وقت اذا أذنت سعادتك .

ـ الآن اذا شئت .

عشر دقائق أكون عند معاليك .

السن والثقافة والتجارب جعلت زكريا باشا يبدو هادئا

وهو ينتظر وكيل الوزارة ولكنه كان واثقا أن شيئا يتصل بابنه عدلى فى طريقه اليه ٠٠ وقد تعود منذ سنوات ألا يصل شيء سعيد بأبنه عدلى ٠ ابت عليه تجاربه أن يفكر فيما يمكن ان يكون هذا الشيء ٠

وجاء وكيل الوزارة ٠

عدلى يسهر كل يوم الى الفجر يلعب القمار فى جنيف ولا يكفيه أى مال بل ان صحته وهو الشاب لم تعد تستطيع أن تتحمل ما يصنعه بها ٠

مرتبه وايراده الذى يذهب اليه هناك يقذف به جميعا على مائدة القمار ٠ بل انه حتى لايتناول من الطعام مايقيم أوده فهو يفضل أن يلعب القمار عن أن يتناول الطعام الذى يحتاج اليه جسمه ٠ فهو لايذهب الى الفندق الا بعد الظهر لينام ساعتين ثم يستأنف وكل هذا ماكان يحتاج الى وكيل الوزارة ليأتى به الى زكريا باشا ٠

لقد نضب المال من يد عدلى فاذا هو يطلب من الفندق الذى ينزل به أن يصرف له شيكا يقدر بالنقود المصرية بحوالى خمسمائة جنيه وقد قصد أن يطلب صرف الشيك فى يوم سبت حتى تكون البنوك مقفلة فى يوم الأحد ظانا أنه يستطيع أن يكسب فيودع المبلغ فى البنك قبل أن يقدمه الفندق ٠

لم يكسب ٠

وطرده الفندق وطالب السفير المصرى بالشيك وحساب الفندق ٠

دفع السفير ٠ ولم يشأ أن يخبر الوزير لانه يعرف أنه صديق الباشا وأخبر وكيل الوزارة ٠

طبعا دفع الباشا كل ما أخبره به وكيل الوزارة وما ان ودعه الى الباب حتى عاد الى التليفون ملهوفا .

ـ راوية .

ـ أفندم سعادة الباشا .

ـ تعالى حالا .

وحين جاءت

ـ كم ترسل لك دائرة عدلى كل شهر .

وتسمرت عينا راوية على الباشا وتقلصت خلجات وجهها وحاولت أن تتماسك بكل مايطيق البشر أن يتماسكوا ولكن هيهات لدموع مثلها أن تغيض ، لقد طفرت الى سكب وراء سكب .

ـ لا عليك ياابنتى .. لا عليك خذى .

ـ لا آخذ شيئا ياعمى .. لايمكن .

ـ ستأخذين .

ـ ألا يكفى انك تربى هالة وانك رفضت أن تأخذ نصيبك من تركة نينا نعيمة هانم .

ـ هذه أشياء ليس من شأنها أن تسقط واجب زوجك فى الانفاق عليك .

ـ هذا خطأه وليس من المفروض أن تتحمل أخطاءه .

ـ ومن يتحمل أخطاء الأبناء الا آباءهم .

ـ ألا يكفى ماتحملته أنت من عدلى .

ـ أنا لم أتحمل شيئا .

ـ بعد كل هذا .

ـ هذه كلها أخطائى أنا ·· مادمت لم أحسن تربيته فعلى أن أتحمل كل مايفعل ·

ـ من قال هذا ·· ياعمى الناس طبائع ·· وعــدلى طبعه هكذا ولا ذنب لك أنت ·

ـ يابنتى أنا لم أقم بواجبى نحو عدلى ·· وأنا الآن أحاول أن أستدرك الخطأ الذى وقعت فيه ·· خذى ·

ـ لايمكن ·

ـ أنت تعرفين الى أى حد يحترمنى أبوك ·

ـ أعرف ·

ـ لاتضطرينى ان أدعوه وأعطيه مايجب آن تأخــذيه أنت ·

وقبلت راوية المال ·· وأنصرفت ·

ولكن قصة عدلى لم تتم فصولا ·

***

ماهو الا شهر وبعض شهر حتى جاءت الأنباء أن عدلى سقط مريضا بعد هذا الجهد الذى أنهك به جسمه واضطر الباشا أن يصحب راوية الى سويسرا ·

وهناك وفى حجرة من فندق فقير التقى الباشا مع ابنه عدلى لأول مرة بعد ماصنعه عدلى تجاه أبيه ·

وهناك لم يجد الباشا من ابنه الا بقية حطام لم يترك القمار منه شيئا ·

كان موقف الابن ذليلا حتى لم يحاول أن يعتذر وكان

موقف الأب اليما حتى لم يذكر من هذا الشيء الذى أمامه الا أنه ابنه وأنه مريض ٠

سرعان ماعرف الأب وعرفت راوية أن مرض الصدر هو مايعانيه عدلى ٠

فى مصحة فى ليزين على جبل بالقرب من لوزان استقر عدلى ودفع الباشا نفقات العلاج وأعطى لراوية مايكفى لفترة أخرى وسافر الى القاهرة بالباخرة ٠

وفى القاهرة استقبلته من راويه برقية ٠٠ لقد مات عدلى ٠

***

منذ ذلك اليوم أصبح زكريا انسانا آخر ٠٠ كان يخشى أن يبدى حبه ليحيى ابنه ويخشى أن يظهر ضعفه لهالة حفيدته فاعتزل عنهما الحياة بعد أن أصر أن يقيم معه ومع زوجته زوجة ابنه راوية ٠

ومنذ ذلك اليوم اصبح زكريا باشا يمثل لأبنه وحفيدته شيئا مقدسا لا سبيل الى الحديث معه وانما تصل اليهما الأوامر منه والنقود وكأنه طيف غير انسانى لاصلة له بالبشرية ٠

وكان يحيى فى تلك السن التى يتشكل فيها الانسان ليصبح رجل الغد ٠

وأما هالة فلاهية يصغر عندها كل شىء ليصبح مجرد حدوته أو أداة تسلية ٠

لم يكن زكريا يتوقع أن تطول به الحياة حتى يفقد عدلى وأصبح يخاف على ابنه وابنته ٠٠ أن يتعلقا به ثم يخذلهما

ويتركهما فينهار صرح فى نفسيهما كبير · كان يريد حياته أن تكون على هامش حياتهما · ولو أنه أراد ان يجتمع بهما لأعجزته نفسه فقد كان موت عدلى بالنسبة اليه فى سنه هذه نكبه لم يحتملها ·

كان يدرى انه لم يحسن تربيته وكان يدرى أنه لايصلح لشيء ، وكان يدرى أنه طعنــه أو حــاول أن يطعنه بهــذه القضية التى رفعها · ولكنه أيضا كان يدرى أنه ظل لفترة طويلة من حياته ابنه الوحيد · وان أهميته قد زادت حين أتى بهالة وحين أتى هو بيحيى · وكان يجعل فى حياة عدلى من بعده اداة أمن تصحبه فى رحلته الى الحياة الأخرى · ولكنه مات ·

وفى لحظــة ينهــار هــذا الأمن ولايبقى من عدلى الا انه مات يكفى هذا · وسنة الحياة ان يدفن الأبن أباه وويل للأباء أو قل ان شئت ويل للحياة كلها اذا أختلفت هذه السنة فدفن الأب أبنه ·

ينسى زكريا كل شيء الا أن ابنه مات فتصبح مسالك الحياة أمام عينه مهوشة شائهة لامعنى لها ·

لايختلف عنده طريق عن طريق · بل انه حتى لم يعــد يريد أن يختار ولا أن يدلى برأى ·

هو لا يشارك فى السياسة · وهو لا يذهب الى مكتب المحاماة وهو لايجد فى مجلس الأصدقاء أنسا أو ترفيها · لم يبق من الأصدقاء الا من يصغرونه أما أتراب حياته ورفاق طريقه فقد ماتوا واحدا بعد الآخر وأقفرت من حوله الحياة التى كانوا يصنعونها معا ·

حتى السـياسة التى كان من أعلامها اختلفت دروبهــا

وتغير رجالها فأصبح لايفهم عنهم ولايفهمون عنه وحتى اذا فهموا فانه لايريد أن يدلى برأى •

وكيف يدرى زكريا باشا أنه اذا أبدى آراءه فى تربية ولده وحفيدته يكون قد قال الرأى الصواب • ومن يعرف والخطأ فى عصر هؤلاء • وكيف يستطيع أن يشارك فى تربية الأحفاد ـ فيحيى وان يكن أبنه خليق أن يكون حفيده ـ وهو لم يوفق فى تربية ابنه حتى يفكر فى تربية حفيده •

فى حجرته زكريا باشا أن غادرها فساعة أو بعض الساعة يحس بها أنه حى لم يمت ثم الى غرفته يعود •

ومن هذه العزلة اتخذت سهير وراوية أداة ارهاب للطفلين وعند يحيى أصبح سمت الرجل كما ينبغى أن يكون هو هذا الباشا المنعزل هكذا أصبح الأمر عند يحيى • أصبح يعتقد ان الرجل لايكون رجلا الا اذا لم ير أحدا ولم يره أحد وأصبح يظن أن الرجل العظيم ـ ومن اعظم من جده ـ يجب ان يكون صموتا لا يتكلم فاذا تكلم فكلامه أمر واشارته لا يصحبها الا الطاعة من الآخرين • هكذا صورت أمه أباه وهكذا أكد أبوه هذه الصورة بوجه ارتمى عليه الحزن واحتضنته تجاعيد السنين فأصبح بمزاج الألم والأيام تكشيرة لا انبساط لها ••

ربما استطاعت راوية أن تنجو بهالة من هذه الصورة • وهالة على كل حال بطبيعة جنسها لاتصبو أن تكون رجلا •• ورجلا مرهوبا • ولكن راوية خشيت على ابنتها أن يجعلها موت أبيها جانحة الى الحزن فى حياتها فراحت تتيح لابنتها كل فرصة للبهجة ولم تكن تستعمل اسم الجد الا حين ترى أن هالة تبالغ فى طلب البهجة • وكان ذكر اسمه

مصحوبا بالرغبة التى تريدها الأم وتلصقها به وهو فيها مظلوم كافيا ان يرد هالة الى ماتبتغيه الأم من الاعتدال .

***

كان يحيى فى السادسة عشر حين مات ابوه زكريا باشا .

وفجأة وجد يحيى نفسه قد انتصب رجلا على رغم أنفه . فالخدم لايذكرونه الا بلفظ البك . هكذا مفردة دون اسم يحيى يسبقها أو صفة الصغير تلحق بها .

أصبح هو البك . ليس «بك» وانما البك .. كاملة خالصة له . فقد أرادت سهير أن تجعل منه رجل الأسرة الجديد ولم يكن بد من أن تحيطه بكل هالات التوقير اذا كانت سنه وثقافته لاتستطيعان أن تحيطاه بشىء .

وحين مر بعض الوقت قالت راوية .

ـ ألا ترين من الأنسب أن أرجع الى بيتى .

ـ لماذا .

ـ أنت تعرفين أن بيتى مغلق ومن الطبيعى أن أعيش فيه مع ابنتى .

ـ وما الطبيعى فى ذلك .

ـ كانت هالة مع جدها .. أما الآن .

ـ شأنك عجيب ياراوية هى الآن مع عمها فى القرابه ومع أخيها فى السن . فأى عجيب فى ذلك .

ـ ربما يحب يحيى أن يعيش وحده .

ـ أسمعي .. أنا وانت لم نختلف طوال هذه السنوات وأصبحنا كأخوات . وهـذا البيت بيتي وبيت يحيى معا وقد تعودت الحياة معك كمـا أعتقد أنك تعودت الحيـاة معي . وليس من الطبيعي أن تعيشي وحـدك مع هالة وبيت عمها موجود . واذا كان الباشا قد مات فاننا نستطيع أن نجعل من يحيى رجل البيت ونعيش معا .. ودعينـا لا نعود لهذا الحديث .

ـ على شرط .

ـ قبلته .

ـ أتعرفينه .

ـ كنت لاتشاركين في نفقات البيت والآن تريدين أن تشاركي .

ـ فهل تقبلين ؟

ـ نعم أقبل .

***

من حسن حظ هالة ومن حسن حظ يحيى أو من سوء حظه لاأدرى أن هالة جاء لها خطيب .

اما أن هذا من حسن حظها فلاشك في ذلك فان هالة لم تسـتطع أن تتصور يحيى هو البـك . فقد عاش عمره رفيق الملعب وكانت تسخر سخرية شديدة من جو التوقير الذى تشيعه حوله أمه وتشتد السخرية بها اذا رأت أمها تشجع هذا التوقير ولم تكن تحتفظ بسخريتها لنفسها دائما كانت تفجرها كلمات لاتتحرز أمام من تنفجر وكثيرا ماكان ذلك

يحدث أمام الخدم فترتسم على أفواههم بسمات تنال ـ لاشك ـ من الهيبة الصارمة التى ينبغى أن تفرش تحت أقدام الأمير الصغير .. البك ..

وكان يحيى يجن من سخرية هالة وكانت أمها تحاول ـ عبثا ـ أن تردعها .

ولكن هالة مسكينة فما تستطيع أن تتصور يحيى كما تريد السيدتان أن ترسماه ، دون أن تضحك ضحكا ساخرا يتشكل فى كثير من الأحيان كلمات لاذعة .

وهكذا لم يكن عجيبا أن يرحب الجميع بذلك العريس الذى تقدم للزواج من هالة .

ولم يكن عجيبا أيضا أن تكون التحريات التى أجروها عنه مبتسرة تتسم بالتعجل أكثر مما تتسم بالجدية والتعمق .

كل ماعرفوه عنه أنه خريج التجارة العليا وأن آباه تاجر من أواسط التجار لا هو بالغنى الفاحش الغنى ولا بالفقير المدقع .

العريس اسمه جابر عبد البديع الشحات فى السابعة والعشرين من عمره ويعمل مع أبيه فى التجارة .

له أخ أصغر منه بسنة واحدة وقد تخرج فى كلية الحقوق واسمه حامد وحامد يعمل بالأعمال الحرة فى غير تجارة أبيه بجانب عمله بالمحاماة . والحقيقة فى أمر حامد أن مكتبه ستار لأعماله التجارية فاسم المحامى ومكتبه يخلقان حوله جوا يستطيع عمله التجارى أن ينتفع بهما . وهو فعلا يعمل بالمحاماة ولكنه يختار قضاياه ، ولجابر وحامد بعد ذلك

أختان تكبرانهما ومتزوجتان ولهما أبناء أما الكبرى فاسمها حميدة وأما الصغرى فاسمها رشيدة •

وحين جمع الفرح الأسرة في منزل زكريا باشا أحست راوية أنها تعجلت ولكن هالة لم تفكر في عقد مقارنة بين أسرتها الجديدة وأسرتها التي عاشت فيها وانما هي سعيدة أن تتزوج في هذه السن الباكرة ويعجب بها شاب أنيق مثل جابر ولم تكن تجربتها تسمح لها بأن تقدر معنى هذه السلسلة الذهبية الضخمة السميكة المتوحشة التي يعلقها أبوه عبد البديع الشحات على صدره ولا معنى الفستان الأحمر الذى يسمون أحمره بالأحمر الانجليزى الذى ترتديه حميدة ولا معنى الفستان الفستقى اللامع الذى ترتديه رشيدة •

أما راوية وسهير فقد فهمتا تماما أى أسرة ناسبتها ابنتهما المسكينة هالة ونظرت كل منهما الى الأخرى نظرة تقول «لماذا» لو أن هالة فقيرة وبحثت عن بعض غنى لكان ذلك مفهوما لو أن السن تقدمت بها فشارفت الثلاثين لكان هناك بعض العذر لو أنها أحبت جابر وأحبها لأصبح الأمر لايحتاج الى تبرير •

ولكن هكذا وبدون أى أسباب • لماذا ؟

وفي لحظة واحدة اتجهت العيون منهما الى البك •• الى يحيى •• ودمعت عينا راوية ولم تخف الدمعات فالأمهات اللواتى يفقدن أزواجهن مباح لهن دائما أن يبكين فى أفراح أبنائهن أو بناتهن • ولكن سهير فهمت معنى الدموع من راوية ووثقت من فهمها وأطرقت خجلا •• لقد جعلها حرصها على أن تجعل ابنها «بيكا» لاتكتنفه السخرية تنصح بتعجيل هذا الزواج دون ريث من تأمل أو بحث ، أو تفكير •

كان فى الفرح كل أصدقاء راوية وسهير فلم يكن عجيبا أن تكون شهيرة سيدة مرموقة فى الفرح تذهب وتجىء وتدعو الى الطعام وتمر بجانب الخدم وهم يقدمون الحلوى والشربات . بل لقد تولت هى نفسها تقديم علب الحلوى الى المدعوين مع راوية وسهير .

وفى الفرح تعرف شباب بشباب .

تعرف حامد بيحيى وبشهيرة وبهيرة وتعرفوا به ضمن من عرفوهم فى ليلتهم تلك .

كان يحيى فى فترة هذا الفرح قد اتخذ قرارا خطيرا وزاده هذا القرارا شعور ابالأهمية آن كان هذا الشعور عنده يحتاج الى مزيد .

كان يحيى يتعثر فى التعليم حتى بلغ الثالثة الثانوية وهو فى التاسعة عشر من عمره وكان مازال المدى أمامه بعيدا فقد كان لابد له أن ينال الثقافة ثم التوجيهية . وأدرك أن هذا أمر بعيد المنال ان لم يكن مستحيلا .

وهنا يقف علماء النفس حائرين . فهناك من يقول ان جو الأهمية الذى تفجر حول يحيى كان خليقا أن يجعله يذاكر ويصبر نفسه على الجهد لأنه لايليق بالرجل المهم أن يسقط أمام الخدم والأتباع الذين لايقولون عنه الا البك .

وهناك فريق من هؤلاء العلماء يقول ان هذا الشعور بالأهمية مع عدم الادراك لقيمة الثقافة يجعله يظن أن التعليم شىء ثانوى لايستحق هذا العناء وأن البك لايجوز له أن يصنع مايصنعه عامة التلاميذ ويذاكر كما يذاكرون وينجح كما ينجحون .

وهكذا تجد أن علماء النفس هؤلاء كثيرا مايزيدون الأمور تعقيدا وكثيرا ماتنغلق أمامهم المسالك فلا أحد منهم يعلم ان كان على خطأ أم كان على صواب ٠

ولكن يحيى لم يفكر على كل حال أن يسأل علماء النفس ولا أن يستخبر كتبهم وهو أيضا ـ وهو البك ـ لم يكن محتاجا أن يستشير أحدا فحزم أمره وقرر رأيه وأصدر قراره ٠٠٠ لا تعليم ٠٠٠

وقرار البك لا مرد له ٠٠ وأدركت أمه أنها لن تستطيع أن تجادله فهي تعلم أن البك الذى صنعته وجعلت من حولها يصنعونه معها لم يعد صالحا للنقاش ٠

وهكذا أصبح البك بك رسميا وان لم يصدر بشأن رتبته براءة من القصر الملكى ٠ وهو أيضا فى غير حاجة الى براءة القصر الملكى لأن الوهم الذى يحيط به ضخم ضخامة الحقيقة نفسها فالبراءة بالبكوية لن تزيد حقيقة تكوينه ثبوتا لديه أو لدى المجتمع الذى يحيط به ٠

وهكذا تثور حول يحيى بك مشكلة أعيت الأجيال ، هل الحقيقة هى مايعتقده الانسان أم أنها معنى مجرد ليس يعنى بمن يعرفه أو من يعارضه ٠ وان كانت معنى مجردا فما قيمته اذا لم يجمع عليه الناس ٠ ولكن هل كل حقيقة يجمع عليها الناس ٠ ودعنا نسأل أيضا هل كل مايجمع عليه الناس حقيقة ٠ ومالنا لانسأل أيضا وهل أجمع الناس على شىء ٠

فاذا قلنا ان هناك غالبية كاثرة تجمع على أمر معين وأن هناك أقلية لاتوافق الاجماع ٠ فانه لابد لنا أن نسأل مرة أخرى هل من الحتم أن تكون أغلبية الناس معتنقة الحقيقة وأن الأقلية لا قيمة لها ومن يحكم فى هذه القضية ٠٠ أان هناك

رأيا معروفا أن الحقيقة واحدة لاتتعدد • ولكن هل عــرف أحد هذه الحقيقة الواحدة ومادام أحد لم يعرفها فأين نجدها• المؤكد أنها متعددة وأنها واحدة ولكن أحــدا لايستطيع أن يعرف أين ـ الحقيقة الخالصة فى هذا العدد الكبير من الحقائق ليس غريبا اذن أن تكون الحقيقة ضائعة بين البشر الذى ركب من عقل وشهوة ومن فكر وعاطفة ومن حكمة وهوى • فبين التيارين المتعارضين تنزوى الحقيقة ويعتقد كل انسان أن الحقيقة التى استقر عليها رأيه هى الحقيقة فلا يأس اذن أن يعتقد يحيى أنه بك فعلا رغــم افتقــار رتبته الى بــراءة رسمية •

وعرف حامد أن البك فى هذا البيت معناها يحيى وعرف شهيرة وأعجب كل الاعجاب بابنتها بهيرة •

وكان بين المدعوين أيضا وجدى فان أردت أن أذكرك به فلابد أن أنسبه الى أمه لانها الجانب المجمع عليه من أبويه انه ابن نجاة • وهو عند كل من يعرف نجاة ابن عزت بهادر وعند القضاء الذى أصــدر الحكم فى قضــيته ابن عبد المحسن باشا وفيق •

وكان وجدى فى نضارة الشباب وفى فتوته يتمتع بجمال أخاذ سامق ويتمتع أيضا بذكاء خارق يعرف هو بخلقه الخاص وظروفه التى أحاطت بولادته ونشأته والقضايا التى وجدها تتلقفه مع مهد الطفولة كيف يســتعمل هــذا الذكاء وأين يستعمله • وهو فى أعماله لذكائه هذا يستعمل كل مالديه من أصل ممزق بين الحقيقة التى يكاد يلمسها بالشــبه بينه وبين الذى يناديه بعمه عزت وبين الوهم الذى أكسبه القضاء حجية الشىء المحكوم فيه • كما يجعل ذكاءه يســتخدم هــذا

الجمال الذى لاتستطيع عين أن تعبره دون أن تقف عنده وتطيل الوقوف ٠

وكانت خديجة وراشد باشا وأسامة بين المدعوين ٠

راشد باشا قد عادت اليه ثروته ولكنه حولها الى عمارات باسم أسامه مباشرة وقطع مابينه وبين الريف تماما فباع عزبته التى استخلصها من أيدى الديانة وابتاع بثمنها عمارات فقد أدرك أن وحيده الذى ربى بالقاهرة لن يستطيع أن يستنبت من الأرض ريعها كما أدرك أن ابن خديجة التى عاشت عمرها بالقاهرة لن يكون فلاحا يفهم كيف يعامل الأرض وقد حقق أسامه ظن أبيه فاذا هو طالب يحب العلم واذا هو شاب يحب القراءة وهكذا لم يكن غريبا أن يجدنفسه بين شباب الفرح يقف على جزيرة مستقلة به وان كان ذكاؤه قد مكنه أن يشارك الشباب من أمثاله أرضهم ودنياهم ٠

جمع الفرح قوما كثيرين وتعارف منهم من لم يكن من قبل متعارفا والتقى الأصدقاء يصلون حديثا كان بينهم ثم انقطع أو يبدأون حديثا هو آخر الأمر الى انقطاع ٠

١٧

اتصلت نجاة بشـهيرة فى التليفون وتحـدد بينهما موعد ٠

ـ نحن بيننا صداقة عمر ٠

ـ مالزوم هذا الكلام يانجاة ٠٠ أنت تعـرفين مكانتك عندى ٠

ـ أريد هذه الصداقة أن تصبح قرابة ٠

ـ هى الآن أكثر من قرابة ٠

ـ من غير لف أو دوران أريد بهيرة لوجدى ٠

ـ والله ياحبيبتى أنا تحت أمرك ولكن بنات هذه الأيام لهن رأيهن الخاص ٠ وأكـذب لو قلت لك ان لى رأيا أو أن لأبيها رأيا ٠

ـ أنا عارفة ·· وعارفة أيضا أن جمال وجدى لايماثله جمال وانت عارفة غناه ·

***

وقالت شهيرة لزوجها سامى حسنين ·

ـ الولد غنى وحلو ولكنه دائما مع النسوان وسمعت أنه يلعب القمار ·· وحكاية المحكمة هذه ستظل تلاحقه ·

ولم يكن سامى فى حاجة أن يقول لها الأمر أمرك فقد كان يدرك أنها تكلمه لتفكر بصوت مرتفع وليس لأنها تريد رأيه · فهو عندها بلا رأى ·

لم تشأ شهيرة أن تخبر ابنتها عن هذه الخطبة فهى لاتحتاج الى رأيها هى أيضا وان كانت قد أنبأت بهيرة أن الرأى رأى ابنتها فما كان هذا منها الا لتعطى لنفسها فرصة لتفكر ·

وقالت بهيرة لأمها :

ـ لماذا لم تقولى لى شيئا حتى الآن ·

ـ وماذا تريدين أن أقول ·

ـ ألم يخطبنى أحد ·

ـ اذن فقد عرفت ·

ـ طبعا ·

ـ من قال لك ·

ـ أنا موافقة على هذا الزواج ·

ـ لن أخبرهم بالموافقة حتى تفكرى ·

ـ لقد فكرت ·

ـ وماذا علينا أن ننتظر ·

ــ ولماذا ننتظر ٠

ــ يتهيأ لى أن هناك خيرا منه ٠

ــ الذى أريده أنا هو أحسن زوج لى ٠

ــ لايغرك الجمال ٠

ــ لاشىء يغرينى ٠٠ كل مافى الأمر أننى أريده وهذا يكفى ٠

ــ ومع ذلك سأنتظر ٠

ــ شأنك ٠

***

وطلب عبد البديع الشحات موعدا من سامى حسنين ٠

ــ توكلنا على الله ٠

ــ على الله التوكل ٠

ــ مد يدك ٠

ــ تحت أمرك ٠

ــ نقرأ الفاتحة ٠

ــ على ماذا ؟

ــ فاتحة بهيرة بنتك على ابنى حامد ٠

ــ آه هكذا ٠

ــ وماذا فى هذا ٠٠ لقد ناسبنا زكريا باشا حسام الدين

ــ ومن غير نسب زكريا باشا انتم ناس أفاضل ياعبد البديع بك ٠

ــ كتر خيرك فما التردد اذن ٠

ـ أليس لهذه البنت أم • وهى أليس لها رأى •

ـ ومنذ متى يكون للحريم رأى ياسامى بك •

ـ نعم •

ـ كانت الكلمة بعيدة كل البعد عن حياة سـامى فأطرق قليلا ثم قال :

ـ لابد من رأى الست والبنت ياعبد البـديع بك •• الدين يقول هذا •

ـ أمرك •• ولك أن تسأل عن حامد • محامى قد الدنيا وأيضا تاجر واع يكسب من الهوا •

ـ ربنا يهيأ الخير ان شاء الله •

***

وذهبت شهيرة الى خديجة وحكت لها عن العريسين اللذين جاءا فى وقت واحد تقـريبا لبهيرة واستطاعت أن تصـوغ الحكاية وكأنها تستشعرها •

وفهمت خديجة الاشارة •

قالت للبك •

ـ يحيى أليس من الطبيعى أن تتزوج

ـ حين أجد البنت المناسبة •

ـ عندى •

ـ من •

ـ مال وجمال وأصل •

ـ أعرفها ؟

ـ كل المعرفة ٠

ـ فمن هى ؟

ـ خمن ٠

ـ بهيرة ٠

ـ عجيبة ٠٠ كيف عرفتها ٠

ـ أنا لست غبيا ٠

ـ لا ٠٠ الحكاية وراءها سر ٠٠ هل تحبها ٠

ـ أخطبيها لى ٠

***

ودون أن تستشير شهيرة ابنتها أو زوجها أعلنت الموافقة وأدركت بهيرة أنه لا سبيل لها أن تعارض ٠٠ وان كان وجدى قد استطاع أن يبهرها بجماله ويكلمها بضع مرات فى التليفون فالأمر لم يصل الى الحب الذى يجعلها تقف من أمها الذى يتبعها أبوها موقفا فيه تعنت ٠ وكان اعلان القبول ليحيى يحمل فى ذاته اعلان الرفض لوجدى وحامد معا ٠٠

وتم الزواج ٠

١٨

حين أعلن قانون الاصـلاح الزراعى كان راشد باشا قد لقى ربه فلم يتح له أن يشهد نتيجة تصرفه الذى اسـتبدل الأرض فيه بالعقارات ولكن أسامه قرأ الفـاتحة على روح أبيه شاكرا له ماصنع فقد استطاع أن ينجو به من الاستيلاء على أمواله ·

أما يحيى فقد كان يملك أرضـا كثيرة وكان قد أنجب ولديه باسل وشهاب وكان من الطبيعى أن يبحث عن محـام ليقوم له بعمل الاقرارات · ولكن قبل أن يبحث كان حامد عبد البديع بين يديه ·

ـ سعادة البك النسب له حقوق ·

ـ طبعا ·

ـ بمجرد نشر القانون جئت لأقوم عنك بعمل اللازم ٠

ـ ألف شكر ٠٠ فكرت أن أتصل بك ولكن مسألة الأتعاب جعلتنى ٠٠

ـ مسألة ماذا ؟

ـ وهذا ماكنت أخشاه ٠

ـ لاتقـل هـذا الكلام ياسـعادة البـك ٠٠ عيب ٠٠ لايصح ٠

ـ اذا لم تأخذ أتعابك فاسمح لى لن أستطيع أن أوكلك ٠

ـ وهل بيننا أتعاب ٠٠ انما بيننا نسب ٠

ـ هذا لايمنع هذا ٠

ـ وماذا يقول أخى وماذا تقول بنت أخى سعادتك هالة ٠

ـ لن يعرف أحد منهم شيئا ٠

ـ على كل حال هذه مسألة نتكلم فيها فيما بعد ٠

ـ وهو كذلك ٠

ـ كم فدان عند سعادتك ٠

ـ مايقرب من ستمائة وستين ٠

ـ كل هذا ٠

ـ نعم فقد اشترى أبى أرضا كثيرة ٠

ـ وكم عمارة ٠

ـ هل القانون ذكر شيئا عن العمارات ٠

ـ لم يعد شيء مؤكدا ٠

ـ عندى ست عمارات ٠

ـ العمارات تكتبها سيادتك باسم باسل وشهاب ٠

ـ وأظن أكتب لكل منهما خمسين فدانا ٠

ـ طبعا ولكن الأرض الزائدة لها عندى ترتيب آخر ٠

ـ ماذا ؟

ـ ليس من المعقول أن تسلمهم ثلاثمائة وستين فدانا ٠

ـ وماذا يمكن أن أفعل ٠

ـ القانون أتاح لنا شهرا للبيع ٠

ـ نعم ٠

ـ أنا ـ اذا سمحت ـ سأذهب الى العزبة وأبيع بقـدر الامكان ٠

ـ لابأس ٠

ـ غدا تكتب لى توكيلا ٠

ـ وهو كذلك ٠

ـ والباقى بعد البيع سأتصرف فى شأنه ٠

ـ ماذا ؟!

ـ سأتصرف فى شأنه ٠

ـ ماذا تعنى ٠

ـ أعنى أنك لن تسلم فدانا واحدا للحكومة ٠

ـ ماذا تعنى ٠

ـ يحيى بك هل سعادتك محام ؟

ـ لا

ـ إذن اتركنا نشوف شغلنا ٠

***

كان وجدى جالسا فى بيته وحوله جماعته عجيبة ٠٠ كيف عرفهم ومتى عرفهم ٠٠ هذه هى عبقرية وجدى وعبقرية ناهد ٠٠

وكانت ناهد فكرى تزين الجلسة ومعها الراقصة الذائعة الصيت سوسن ٠ وما أظننى بحاجة الى أن أذكر اسم والد سوسن فشهرتها قامت باسمها وحده دون اسم السيد والدها٠ وعلى كل حال فاسم أبيها اذا قالته لن يكون الاسم الحقيقى فليس من المعقول أن تقول أن اسم أبيها هو عبد الدايم ٠ ومادامت قد غيرت اسمها الأصلى الذى كان شلبية فقد كان لابد لها أن تبحث لعبد الدايم عن اسم آخر يضرب الى التركية أو الى الارستقراطية ، وعلى كل حال هى فى غير حاجة الى هذا البحث ٠٠ والذين يلتفون حولها لايعنون فى قليل أو كثير باسم أبيها فمادامت هى بهذا الجمال وهذه الرشاقة ومادامت تستطيع دائما أن تضحك هذه الضحكة ذات الصليل فهى فى غير حاجة الى أب على الاطلاق ٠

فى بيت وجدى الكؤوس تدور حتى لقد أصاب الكؤوس نفسها دوار من الخمر أو التنقل ٠٠ لايهم ٠

وتلف أيضا على المدعوين غابة ينفذ من خلالها الدخان المخدور والغابة لاتكف عن الدوران ٠

يعدها لهم فتى توسط حلقتهم ان أنعمت فيه النظر وأنت محتاج الى انعام النظر فالدخان ضباب كثيف والرؤية

ليست ميسورة وماهم فى حاجة الى رؤية ميسورة· ولكن أنت لابد لك أن تنعم النظر فاذا فعلت وجدت الفتى الجالس الذى يعد المخدر هو جابر عبد البديع · أتذكره ·· ماأخالك الا تذكره ·· انه زوج هالة وهو هو نفسه أخو حامد ·

***

باع حامد من أرض يحيى تسعين فدانا وكان القانون يبيح للأسرة ثلاثمائة فدان فكان لابد أن يستولى الاصلاح الزراعى على مائتين وسبعين فدانا ·

ـ اذن نسلم الأرض ·

ـ يحيى بك أهذا كلام ·

ـ وهل هناك كلام آخر ·

ـ هذا شغلى أنا ·

ـ وهل هناك شغل أيضا فيما يفرضه القانون ·

ـ القانون صديقى وأنا أعرف كيف أتصرف معه ·

ـ حتى القانون أصبح صديقك ·

ـ مؤكد ·

ـ كيف ·

ـ من الذى يطبق القانون ·

ـ القضاة ·

ـ هذا فى القضايا العادية أما فى الاصلاح الزراعى فهناك جهات كثيرة قبل أن نسمع كلمة القضاء هذه ·

ـ آه فهمت ٠

ـ ومن يفهم اذا لم يفهم يحيى بك ٠

ـ اذن نتفق على الأتعاب ٠

ـ أنت مصر على تسميتها آتعابا ٠

ـ سمها أنت كيف تشاء ٠

ـ أحب أن أسميها هدايا ٠

ـ لتكن أذن هدايا ٠

ـ كم أهديتنى عن الأرض التى بعتها عنك ٠

ـ ثلاثون جنيها عن الفدان ٠

ـ ستكون الهدية فى هذه الفدادين ٠

وقبل أن يكمل جملته دخلت بهيرة ٠

ـ أتعملان ٠

ـ نعم ٠

ـ اذن أترككم ٠

ـ وهل هناك عمل يخفى عليك تفضلى يابهيرة هانم ٠

ـ وهو كذلك ٠

وقال يحيى ٠

ـ لم تقل هدية الفدادين الباقية ٠

ـ أقولها لك غدا فى التليفون ٠

ـ كنت على وشك قولها ٠

ـ لم أكن أنوى ان أقول الرقم ·

ـ فماذا كنت تنوى أن تقول ·

ـ كنت سأقول اننا سنجعلها هدية واحدة لكل الأرض مرة واحدة ·

ـ لابأس ·

ـ ولن آخذ شيئا الا بعد أن تطمئن الى قبول التصرف من الجهات المختصة ·

ـ موافق ·

***

حين دق جرس التليفون ردت بهيرة ·

ـ بهيرة هانم ؟

ـ أنا ·

ـ أنا حامد عبد البديع ·

ـ مرحبا ياأستاذ ·

ـ أنا سعيد الحظ جدا ·

ـ كذا ·

ـ وهل فى هذا شك ·

ـ شك كبير ·

ـ لماذا لاقدر الله ·

ـ بالأمس أنهيت الحديث بمجرد دخولى ·

ـ وهل تهمك هذه الأعمال ·

ـ أليست أعمال زوجى ٠

ـ ياأستاذ حامد زوجي لايخفى عنى شيئا أبدا ٠

ـ وهل معقول أن شخصا له زوجـة مثلك يخفى عنهـا شيئا ٠

ـ أهذا رأيك ٠

ـ هذا جزء من رأيى يا أفندم ٠

ـ الجزء الأول ٠

ـ لا ٠٠ هذا الجزء العشرون والأخير ٠

ـ وماذا عن الجزء الأول ٠

ـ الجزء الأول خاص بالجمال والأنوثة ٠

ـ كفى كفى ٠

ـ حضرتك التى سألت يا أفندم ٠

ـ من معك ٠

ـ وهل معقول أن يكون أحد معى وأنا أتكلم عن هذه الأجزاء ٠

ـ متى سنراك ؟

ـ أمرك ٠

ـ الليلة ٠

ـ تحت أمرك ٠

ـ يحيى بك موجود ٠

ـ أيهمك وجوده ٠

ـ المهم وجود حضرتك ٠

ـ الساعة السادسة اليوم ٠

١٩

ناهد فكرى سيدة عجيبه فى المجتمع المصرى · أنهـا ليست من طبقة الأمراء · وأبوها ليس وزيرا ولا هو رئيس وزارة انما هو رجل عـاش عمره يؤدى عمله كموظف فى وزارة المالية ·

وكان طريقه فى الحياة يفرض عليـه أن يعرف ذوى الشأن فى السياسة والمجتمع ولكنه هو نفسه لم يكن يحب أن يخوض المجتمع أو يدعى السياسة · هو رجل موظف · وهو موظف أمين شريف لم يسمع أحد عنـه شيئا يشـوب سمعته بسوء · وزوجته هى ابنة عمه وجدان هانم قرنى وقد كانت سيدة من خيرة السيدات ليس لها فى الحياة الا زوجها وبيتها وابنتها ناهد وابنها سعيد ، وكانت السيدة لاتترك

سجادة الصلاة الا لتقوم بشؤون بيتها وكان من الطبيعى أن يرسل ابنه وابنته الى المدرسة فقد كان من هذا الجيل الذى اعتبر التعليم ضرورة لا غنى عنهـا للفتى أو الفتـاة على السواء .

وأتم سعيد الدراسة واشترى له أبوه سيارة فان موارده لم تكن قائمة على مرتب الوظيفة وانما كانت الوظيفة لمجرد أن يكون موظفا فقد كان يجل نفسه أن يكون بلا عمل مهما يكن غناه هذا الغنى الفاحش الذى تركه له والده .

لقد كان فكرى الزينى يملك ثمانى عمارات الى جانب تسع قطع أرض فضاء جميعها صالح للبناء وكانت كل قطعة منها لاتقل عن العشرين فدانا ويصل بعضها الى خمسين فدانا . ولكن فكرى لايتصور أن تكون وظيفته فى الحياة مالكا فقط .

فقد كان يرفض أن يرود المجتمعات ويرفض كما ذكرت لك أن يعمل بالسياسة فاذا خلت حياة الغنى من مجتمع أو سياسة أصبحت فراغا لايطيقه أحد .

لم يكن عجيبا اذن أن يشترى فكرى لابنه سعيد سيارة، ولم يكن غريبا أيضا أن يختار سعيد أفخم سيارة فى ذلك الحين وقد كانت «باكار» وكان لها غطاء يرفعه عن نفسه أو يسدله كيفما يعن له .

ولكن فكرى لم يقدر أن ابنه حين اشترى السيارة كان قد أعد لنفسه الوسيلة التى يموت بها .

هكذا شاء القدر ونزلت الفاجعـة عليه وعلى زوجته قاصمة توشك أن تخلع جذورهما من الحياة ولولا أن تعلقا بالايمان ولولا هذا اللطف الخفى الذى تبطن به السـماء

الفواجع لكان الجنون أقل ماينتظر الرجل الطيب وزوجته المتوكلة على الله ٠

وهكذا انفردت ناهد بوالديها فكانت تصنع كل مالاتستطيع فتاة فى سنها وفى مجتمعها أن تفعله ٠

الملابس غاية فى الفخامة ٠ السيارة دائما من آخر طراز ٠ الزينة يقوم بها أعظم المتخصصين وأدوات الزينة تأتى من أعظم الأنواع واذا لم تسعفها بها القاهرة ـ وقد كانت من أعظم الأسواق العالمية ـ أسعفتها بها باريس أو لندن أو أى بلد فى العالم ٠

وامتدت صداقات ناهد مع كل رواد المجتمع الذين كانوا حينذاك من بنات وأبناء الأمراء فان تواضعوا فمن أبناء وبنات رؤساء الوزارات أو الوزراء أو وكلاء الوزراء وقد كان لهم فى هذه الأيام دوى وطنين ويمكن أن يكون رواد هذه المجتمعات من مجرد الأغنياء ولكن حتم عليهم حينئذ أن يكون آباؤهم وأمهاتهم هم أنفسهم من روادالصالونات يدعون الى بيوتهم كما يدعوهم الناس ،والا فلا مكان لهم أو لاولادهم فى هذه الأبهاء ٠٠

ولم يكن فكرى ولا كانت الست وجدان ليفكرا أن يرودا هذه الصالونات ومن المؤكد أن أحدا منهما لم يكن يفكر أن يدعو الى مثل هذه الحفلات ٠

ولكن العجيب ـ وهذا ماجعلنى أبدأ هذا الفصل ـ أن السيدة ناهد سيدة عجيبة فى المجتمع ٠

كيف يسمح أبوان لاشأن لهما بصالونات المجتمع ومباذله لابنتهما أن ترود هذه المجتمعات ولا يمنعانها ٠

وكيف استطاعت هذه الفتاة بمفردها ودون عون من دعوات توجهها مثل الدعوات التى تتلقاها أن تفرض نفسها على المجتمع بهذه القوة وهذا الجبروت ·

لايستطيع المجتمع أن يدعو جميع أعضائه فى كل دعوة ·· وانما هناك دائما نوع من الاختيار · والذى دعى هذه المرة عند فلان يستطيع فلان آخر الا يدعوه فى المرة اللاحقة ·

ان أى بيت من البيوت التى تصطنع هذه الدعوات لاتستطيع أن تحتمل أكثر من عدد معين يمثل على أحسن تقدير عشر هذا المجتمع أو واحدا على عشرين منه ·

ولكن مهما تكن الدعوات قليلة ومهما يكن البيت صغيرا فلابد أن تتصدر الليلة ناهد فكرى ·

أى سحر فيها ؟

انها جميلة · لاشك فى ذلك ولها هذا العطر السحرى الذى يجتذب العيون والقلوب فهو عطر ممزوج بجسمها تكون معها وهى بعد جنين لاتشتريه ولايستطيع أحد أن يشتريه ، فيه هذه الخاصية التى لم يستطع أحد أن يكشف سرها وانما هى تأسر فى غير عقل وتستولى على المشاعر فى غير منطق وكل ماعليها من عطور وملابس وماصنعه البشر بشعرها من تلافيف أو بوجهها من زينة لا قيمة له مع هذا العطر الذى منحته لها الطبيعة والذى لايعرف أحد مأتاه والذى نحمد الله أن أحدا لايعرف مأتاه والا أصبح الرجال جميع الرجال عبيدا أو مجانين ، وأصبحوا جميعا ــ ولاشك فى هذا ــ عصاه ·

ولكن أهذا العطر هو الذى يجعلها تتصدر الحفلات

جميعا .. كيف .. اذا قبلنا ذلك فى الحفلات التى يقيمها الرجال فكيف بنا أن نقبله فى الحفلات التى تقيمها النساء .. انها هناك مهما يكن جنس الداعي رجلا كان أو كانت امرأة . عجوزين كانا أو كانا من الفتيان ..

وهذا السحر فيها تمتاز به اثنتان أو ثلاث فتيات أخريات . وهن أيضا يستقبلن الدعوات وحين يجتمعن ينشق الحفل عن مباراة فى الجمال والأنوثة لايهم أحد من الكاسب فيها ومن الخسران . فالمؤكد أن المدعوين جميعا هم الكاسبون .

ولكن أولئك الفتيات كثيرا ماتؤجل دعوتهن وكثيرا ماتخلو منهن الحفلات الا ناهد .. انها دائما هناك .. هذا هو العجب ..

والمجلات تتابع هذا المجتمع فى اصرار ومازالت تتابعه .. لم تستطع ثورة حطمت كل المعايير والمقاييس والقيم القديمة أن تحطم أهون ما فى هذا المجتمع من متابعة المجلات لأخبار الصالونات .

وقد هشمت الثورة من كان يؤم هذه الصالونات ولكنها فى نفس الوقت أخرجت للصالونات قوما آخرين .

وان كان المجتمع المهشم قد أدرك معنى الصالون ومعنى الابيوسون والشينوا ومعنى الرفق فى الغزل والكلمة تهمس ولا تقذف واحتساء الخمر بحذر حتى لايفلت الزمام الا قلة هزيلة منهم كانوا مرضى . وان كان المجتمع الذى هشمته الثورة يعرف معنى الموسيقى الحالمة أو الصاخبة ويعرف كيف يمسك بأدوات الطعام الفضية أو الكريستوفل أو المستجلبة من شيفيلد وميبل أندوب ويجيلها على الأطباق السفرة أو الليموج فلاتسمع لها الا همسا كهمس المحبين .

فان المجتمع الجديد يعرف كيف يشـــترى أغلى الأشـــياء ويقذف بها فى صالوناته لايفكر فى مواءمة بعضها لبعض . فهذان كرسيان حديثان فى غاية الغلاء موضوعان الى جانب أريكة أبيسون . وهــذه منضدة من النوع الحــديث المرتفع الثمن الى جانب كرسى مرسوم على نمط لويس السادس عشر . والخمر فى المجتمع الجديد أنهار والشاربون يعبون عبا ويعلون وينهلون ولا يحتسون فهم يريدون أن يسكروا لا أن يشربوا، والمجتمع الجديد يخصص حجــرات للمخــدر ذى الدخان أو المخدر الذى يبتلع . فالسكر عندهم هو الغاية وهم يملكون اليه الوسيلة .

والأطباق غالية الثمن والأدوات مازالت فضية ولكن اذا مد الطعام نشبت أمامك معركة بين أدوات الطعام والأطباق .

وعلى الحالين المجلات عندنا تهتم بهــذا المجتمع . كانت تهتم بالمجتمع الراحل وهى اليوم تهتم بالمجتمع الذى أخــذ مكانه .

وفى أى مجتمع تسطع ناهــد فكرى لتكون نجمــة كل المجلات فاذا هى فى بعض عام أعظم شهرة من كواكب السينما جميعا .

وحين أقبل الاصلاح الزراعى كان أبوها قد انتقل الى العالم الآخر بعد أن جعل ناهد مالكة لكل مايملك وحين أصبح المجتمع الجديد هو المجتمع المعتمد المعترف به راح مجتمع ناهد القديم يلملم أذياله ويتخفى فى التياع ، ويبتعد عن أضواء آلات التصوير بل عن أضواء الشمس اذا استطاع .

والعجيب أن ناهد استطاعت فى مقدرة فائقة أن تغرب من المجتمع القديم لتشرق فى المجتمع الجديد ، وان كانت فى

المجتمع القـديم شمسا مع ثلاثة شـموس أو شمسين فهى فى هذا المجتمع شمسه الرفيعة المتألقة التى تنفرد بسمائه ٠

تلك هى قصة ناهد مع المجتمعين ماذا عن ناهد فى بيت أبيها ذلك الرجل الجاد وأمها تلك السيدة الودود التى لاتعرف الا البيت والصلاة ٠

كان أمر الوالدين عجبا ٠ حاولا بكل مايملكان من جهد أن يقفا بين ابنتهما وبين الطريق الذى اختارته ولكنها كانت كالفرس الجموح ٠ وحين طالت المناقشات بينها وبين أبويها وأوشكت أن تضيق بها وجدت وسيلتها من قريب ٠

كان وجدى موجودا فى كل دعوة تلبيها ناهد ٠ وكان جماله الواضح يجعله دائما ملتقى اهتمام ٠ وكان وجدى قد أعد نفسه لهذا المجتمع فعرف كيف يكون سهلا فى حديثه يسير به على سطح الأمور ولا يغوص فى أعماقها ٠ ان دخل فى نقاش استطاع أن يقنع كل من يحادثه أنه صاحب الحق الأصيل وهكذا كان يترك الآراء تشتجر وتتشابك وهو يقف منها موقف المؤيد لكل رأى فقـد أدرك من المجتمعات التى هيأتها أمه أن من لا رأى له هو أقرب الموجـودين الى قلوب الحاضرين ٠

ولكل انسان فى الحياة هدف ومتجه وماكان وجدى ليفكر مطلقا أن يكون صاحب مكانة فى الحياة العامة وانما كان هذا المجتمع بالذات هو غايته وهدفه حتى شهادة الحقوق التى حصل عليها كان يعتبرها وسيلته الى هذه المجتمعات وليست وسيلته ــ لا قدر الله ــ الى قضاء واقفا كان هـذا القضـاء أو كان جالسا ٠

وحين شب وجدى عن الطوق وعرف قصة ميلاده تقبلها فى هلع أول الأمر ثم أمعن النظر فيها فاذا هو يخرج بها الى

رأى استقر عليه وارتاح له · لقد أعجب بأمه غاية الاعجاب فليس عليها من بأس فى رأيه أن تصل بينها وبين أبيه عزت وهو من هو جمالا · لقد رآه وقد زحفت الغضون الى وجهه ولكنها لم تستطع أن تعدو على جماله · وحين مات عزت فكر أن يسير فى جنــازته ولكنه خشى أن يتغامز عليه المشــيعون فاكتفى بدموع تحدرت من عينــه فى طى الكتمان ولم يكن يدرى يومذاك لماذا يبكى فأبوة عزت له أبوة أساءت اليه أمام الناس ثم هو لم يشــعر منه بحنان · وجمود الأبوة يجعل الأبنــاء يكرهــون آباءهم أكثر من كراهيتهم لاعــدائهم · فالمفروض أن العدو لايرحم والمفروض أن الأب ، رحمان وعطوف وحنون كله اشفاق وقلب يخفق بابنه وروح ترفرف حيث يتحرك أبناؤه ·

فاذا لم يرحم فقد خرق نواميس البشر واذا قســا بغير عدالة فقد قلب مواقع الأفلاك أما اذا جحد ابنه فكان عنده هملا لاوجود له فهو قد مزق أستار البشرية وانحط عن درك الحيوان ·

ولكنه بكاه ··

كان وجدى اذن يرى ألا بأس على أمه ان تقيم بينها وبين أبيه عزت صلة فشأن السيدة المطلقة أن تبحث عن سند لها فى الحياة واذا لم يتوفر السند الشرعى فان وجدى يرى ألا بأس عليها أن تبحث عن سند غير شرعى · فاذا كان جميلا فالعذر اذن ممهد لها ·

ويرى وجدى أن أمه كانت ذكية حين ألحقت نســبه الى عبد المحسن باشا فهى تختار لابنها ·· ومن حقها أن تختار له ·· الأب الأحسن ·· ومن أحسن من عبد المحسن باشا ·· وجعلت الطفل شرعيا ·

وليقل الناس بعد ذلك مايقولون .. لقد فاز بناء على حكم القضاء باب باشا وبثروة جديرة بالباشاوات وهكذا استطاع وجدى فى قدرة لاتتأتى الا لنوع خاص من البشر أن يعجب بأمه لأنها ذكية ويعجب بأبيه الذى صنعته له المحكمة لأنه باشا وبأبيه الذى فرضته عليه الحقيقة والطبيعة وأحاديث الناس لأنه جميل ولأنه قادر على أن يجعل النساء يحببنه . فوجدى فى نظر نفسه يجمع المجد من ثلاثة أطراف ان كان أهل المجد والشاعر الذى تحدث عن أطراف مجده يجمعون المجد من طرفين اثنين على أكثر تقدير والغالبية العظمى ان كان لهم مجد يتفاخرون به فهو لايزيد عن طرف واحد .

وخاض وجدى المجتمع بهذه الثقة الهائلة بنفسه وبميلاده وكثيرا ماكان يغبط نفسه لأن الكثيرين ممن يخوضون هذا المجتمع يحتاجون الى جهد جهيد من ثقافة خاصة ودربة فى التعامل وممارسة لهذه الحياة واختلاط بالأسرات وزمن طويل حتى يتحقق لهم آخر الأمر شهرة بين أبناء هذه المحافل أما هو فقد وجد شهرته سبقته الى محافل هذا المجتمع جميعها ولم يكن يضيق حين تعرفه بعض السيدات بأخرى قائلة وجدى ابن نجاة مقنعا نفسه أن الأم صديقة السيدات ومن الطبيعى أن ينسب اليها عندهن ولايريد وجدى أو هو لايهمه أن يتشكك فى السيدة التى تقدمه على هذه الصورة انها انما تتخلص من حيرة بين الحقيقة القضائية والحقيقة التى تعرفها هى ويعرفها الجميع ويؤكدها هذا الشبه بين الابن وبين أبيه الحقيقى .

قالت له ناهد :

ــ أظن أننى كبرت وأنت أيضا على هذا اللف والدوران

ــ أى لف ودوران .

ـ وكبرنا أيضا على الاستمباط ٠

ـ والنتيجة ٠

ـ قل أنت ماذا تريد ٠

ـ مادمنا قد وضعنا شروطا للعبة فيجب علينا أن نلتزم بها جميعا ٠

ـ حسنا ٠٠ لن ألف معك ٠٠ أهى محاولات منك لاجتذابى اليك أم أنت جاد فى هذا الغزل وهذه النظرات التى أصبح الجميع يتندر بها ٠

ـ هذا يتوقف على معنى الجدية ٠

ـ لايختلف اثنان فى معناها ٠

ـ ولكن نحن قد نختلف ٠

ـ أمختلفان نحن عن الناس ٠

ـ المؤكد أننى لم أسمع أن مثل هذا الحديث دار بين اثنين قبلنا ٠

ـ لانك دائما تدير أحاديث أخرى ٠

ـ وأسمع أحاديث أخرى أيضا ٠

ـ استطعت فى فرح هالة فقط أن تقيم علاقة بينك وبين بهيرة ٠

ـ أمازلت تذكرين ؟

ـ أنا لست مثل بهيرة ٠

ـ هذا مؤكد ٠

ـ أنا أعرف أنك طلبت أن تتزوج بهيرة ٠

ـ أمى التى طلبت ·

ـ لم يكن حبا اذا ·

ـ بداية استلطاف ·

ـ والذى تفعله معى الآن ·

ـ ماذا تريدينه أن يكون ·

ـ أنا لا أمانع فى الزواج ·

ـ وأنا أرحب به ·

ـ على شرط ·

ـ كل الشروط مقبولة ·

ـ أن يعيش كل منا بالطريقة التى تروق له ·

ـ أمعقول أن تقولى هذا ·

ـ هذا ماسأفعله ·

ـ فى استطاعتك أن تفعليه دون آن تذكريه ·

ـ لا أحب الخداع ·

ـ ربما كنت أحبه ·

ـ لعلك احتجت اليه ·

ـ كل الناس تحتاج الى بعض الخداع ·

ـ ولكن بعض الناس تحتاج الى الخداع الدائم ·

ـ لقد قبلت الشرط ·

ولم يتردد فكرى بك فى قبـول خاطب ابنته رغـم آنه يعرف كل شىء عن تاريخ حياته بل ان وجدان هانم رحبت

بوجدى • فقد كان الأب والأم كليهما يخـافان كل الخـوف ألا تتزوج ابنتهما بعد أن أصبحت حديث المجـلات وأبواب المجتمع • وكان فكرى بك فى آخريات أيامه وكان يخشى كل الخشية أن يترك ابنته بلا زوج فيزداد سـفورها على الحياة وهكذا تم الزواج فى سرعة واستقلت ناهـد ببيتها ولم تعد رقابة أمها أو أبيها تلاحقها •

وسرعان مااستقرت الحياة بينها وبين وجدى بل سرعان ماتفاهما • لم يكن طريقاهما متباعدين كان الهدف واحدا ولكن كلا منهما كان يسلك الطريق لحسابه الخاص •

لم تمض شهور على الزواج حتى كان فكرى الزينى قد لقى ربه • ولم تمض شهور أخرى حتى صدر قانون الاصلاح الزراعى • وشمر وجدى عن ساعد الجد وشمرت معه ناهد فاذا بيتهما ملتقى الأرباب الجـدد أو أنصـاف الأرباب من الأتباع • واستعملت ناهد كل وسائلها من سحر الأنوثة وعطر السماء ، وتخـاضع اللفظ ، واختيار الاشـارة ، ورسـم الابتسامة وافتعال الغضب ، واصطناع الحفلات ، وصـناعة الابهار •

واستعمل وجدى كل ماحبته به الطبيعة من اصطناع الغباء وقبول كل الأوضاع وتوطيد الصداقات مهما يكن ثمن الصداقة من عرض أو سمعة • فما يعنيه العرض ولا قيمة عنده للسمعة • فهو من هو عرضا وسمعة بحكم الميلاد •

لقد كانت ثروة أبيه من الأرض الزراعية وقد استطاع بمواهبه هذه أن يبقى عليها كاملة لم يتسلم منها الاصلاح الزراعى شيئا وقد أعانه على تلفيق الأمور حامد عبد البديع •

ومن هذه الأبواب التى تفتحت لحامد على يد وجدى وأخيه جابر الذى كان على صلة قديمة ببعض الأرباب الجدد استطاع حامد أن ينقذ أرض يحيى . ويتقاضى ثمنا لذلك عشرين فدانا من أرض يحيى يصحبها أيضا عرض يحيى .

٢٠

لم يكن أسامه يتصور حين حصل على شهادة الحقوق آن يتجه الى ما اتجــه اليه فقد بدأ حيــاته بأن تمرن فى مكتب المحامى الكبير صديق والده مهران باشــا عبد الفتــاح وقد استطاع أن يعرف فى هذا المكتب الكبير كيف يكون المحامى كبيرا · فأسامه يجيد الفرنسية وهكذا كان يستطيع دائما فى كل القضايا أن يرجع الى أعظم المصــادر وقد علمه مهران باشا كيف يتناول القضــايا ويتعــامل معها ويغوص فى أدق ماتخفيه أوراقها ·

وماهى الا شهور حتى تبين مهران باشا أن آسامه يملك موهبة المحاماة · وأدرك أن أسامه يستطيع أن يكون امتداد الأجيال العباقرة من المحامين امثال عبد العزيز فهمى ومرقص حنا والهلباوى ووهيب دوس وعلوبة ومرعى الى آخر هــذه

الأسماء التى وطدت دعائم المهنة الخطيرة وأرست أركانها فى مصر والشرق العربى ٠

وقد أدرك أسامه أن عمله باللغة الفرنسية سيمكنه أن يكون محاميا عملاقا فى القضايا المدنية ٠ فهى التى تحتاج الى البحث والرجوع الى المصادر الأصلية للقانون ٠

وراح أسامه يخطو خطواته الأولى ولكن قليلا ماخطا ٠٠ فقد سرعان ما انقلبت موازين المجتمع كلها ٠٠ ولم يصبح للقانون المدنى مكان ٠ فالقانون المدنى يقوم أساسا على أن للمـال حرمه والدولة هى التى تحمى هـذا المال ان يستلب بطريق غير مشروع ٠

فحين تستلب الدولة نفسها هذه الأموال وتصدر القوانين بالحراسة والمصـادرة لاستلابها تسقط حرمة المال ويصبح اختطافه والاستيلاء عليه بغير حق هو الأصل وتصبح ، حرمته واحترام حق الانسان فيه استثناء لايقاس عليه ولا يتوسع فيه ٠

وفى ظل هـذه الشرائع الجديدة من سـقوط الشرعية ينزوى القـانون خـزيان ينظر ويتحسر وتدمى جـراحه ولاينطق ٠ فالقـانون هو الشرعية فـاذا استبيحت الشرعية اندثر القانون وهكذا أصبح القانون المدنى تاريخا يروىعنه كفترة من الزمان كانت ولم تصبح ومرت ولم تعد توجد ٠ وتخلو الحياة من القـانون ٠ وتخلو أيضا من العـاملين فى القانون ٠

وهكذا كان من الطبيعى أن يبحث أسامه لنفسه عن عمل جديد ٠ لم يتصور أنه يستطيع أن يتوظف فقد تعلق بالمحاماة وأحبها ورسم مستقبله وحياته على أن يكون محاميا ٠ وقد

قضى السنوات التى عمل بها فى المحاماة فى توطيد أركانه فى ميدان القانون ·· والقانون المدنى بالذات فحين رأى القانون المدنى يحتضر حار به الطريق واشكلت أمامه المناهج ولم يعد يدرى الى أى مصير يصوب غايته ·

كان قد خلف مهران باشا فى المكتب فى صفقة مالية معتدلة جديرة برجل كبير مثل مهران باشا وبشاب غنى مثل أسامه وفى الأيام الأولى لاستقلاله بالمكتب بدأ الانهيار القانونى فى الحياة المصرية وأصبح أسامه يتابع القضايا القديمة فى المكتب ويقينه يزداد كل يوم أنه لن يجد قضايا جديدة ·

فاسم المكتب كبير ولا يؤمه الا أصحاب القضايا الكبيرة وهؤلاء زالوا تماما من الحياة المصرية مضيعين بين المصادرة والحراسة · وباسم الحراسة والمصادرة اغتالت الدولة الغالبية العظمى من أصحاب المال بقانون فكان شأنها مع هؤلاء شأنا فريدا فالسارق يعاقبه القانون ويسترد منه المال اما اذا اغتصب القانون نفسه المال فى حماية من قوة الدولة وسلطانها فانه حينئذ يصبح اللص أشرف من الدولة وتصبح السرقة أشرف من القانون فلم يكن غريبا أن يدرك أسامه أن المكتب الى افلاس · وان كان هناك بعض محامين صغار يروحون ويجيئون فى المحاكم فان هؤلاء انما يترافعون فى قضايا صغيرة لاتستطيع أن تقترب من باب المكتب الكبير ·

كان أسامه واثقا انه لابد له أن يبحث عن طريق آخر وكان وثوقه هذا يزداد فى كل يوم ايقانا ·· اين أذن الطريق ·· فكر ان يكتب لجميل فى الكويت أو لصبحى فى السعودية لعل واحدا منهما يستطيع أن يجد له عملا هناك فهو لايطيق البطالة حتى وان كان موفور المال ·· كان فى ذلك اليوم

أوشك أن يصمم على كتابة الخطاب ولكن وكيل المكتب يدخل اليه .

ـ زوجة محمدين تطلب أن تراك .

ـ عم محمدين .

ـ قالت أنت تعرفها .

ـ أدخلها فورا .

وقام أسامه وراء وكيله وفتح باب مكتبه وهو يصيح .

ـ أهلا أمه مرسيله .

ـ أهلا بك ياابنى .

ـ أين أنت ..

ـ فى الدنيا .

ـ تفضلى .

وتدخل السيدة العجوز ويجلسها أسامه على كرسى قريب من مكتبه ويجلس أمامها كما يفعل مع كبار الزوار . أنها زوجة عم محمدين الذى كان مع أبيه وجده والذى لقفه على كتفيه . وكان عم محمدين قد مات منذ سنوات وسأل أسامه زوجته هذه التى يناديها أمه مرسيله أن كانت تريد مرتبا شهريا أم تريد مبلغا واحدا مرة واحدة ففضلت المبلغ الواحد فأعطاها ألفى جنيه وطلب اليها أن تقصد اليه فى أى لحظة اذا احتاجت اليه وكانت والدته منذ فترة تطلب اليه أن يسأل عنها وذهب فعلا الى البيت الذى كانت تقيم فوجدها قد تركته ولم يعد يعرف عنوانها فكان فرحه بمجيئها طبيعيا فقد كان يريد أن يطمئن على أحوالها وهى فى هذه السن المتقدمة كما كان يريد أن يطمئن أمه عليها .

ـ لقد وقعت من السماء ٠

ـ أتلقاك بعينى يا أمه مرسيلة ٠٠ أين أنت لقد ذهبت الى ٠٠

ـ سأحكى لك ٠٠ حين أخـذت منك المبلغ كان عمك محمدين قد اشترى أرضـا بحلوان وهو يعمل مع المرحوم والدك قلت أضع المبلغ فى بناء بيت يسترنى ، أنا وابنى راشد وزوجته ٠

ـ راشد تزوج ٠

ـ لم يكن أيامها متزوجا ولكن قلت فى نفسى أنه لابد سيتزوج ٠

ـ معقول ٠

ـ وتزوج فعلا ٠ واسم النبى حارسه تعلم ميكانيكى ٠

ـ سيارات ؟

ـ سيارات وكل الماكينات واستطاع واحد من صحابه ان يعينه بشركه من شركات الحكومة ٠

ـ عظيم ٠

ـ أنا أجرت شقه فى حلوان لاكون بجانب البيت وهو يبنى وراشد تعين والحمد لله أصبحت الحالة مستورة وتزوج راشد بنت حلال من أربع سنوات ، وعنده الآن ولدان على وحسين ٠

ـ بسم الله ماشاء الله ٠٠

ـ تعيش ٠٠ ما أدرى من يومين الا وواحد من صحاب راشد يدخل الى ويخبرنى أنهم قبضوا على راشد ٠

ــ ماذا ٠٠ لماذا ٠

ــ قال صاحبه أنه كان فى مظاهره ٠

ــ مظاهرة ٠٠ وهل هناك مظاهرات الآن ٠

ــ ياابنى والله لا أعلم ٠٠ قال عن البتاع الاشتراكى وانه قال فى الاجتماع كلاما جعل الرؤساء يزعلون ٠٠ المهم الولد محبوس ٠

ــ أين ٠

ــ لا أدرى ٠

ــ كيف ؟

ــ ليلتين الآن لم يأت الى البيت ولا أعرف له طريقا ٠

ــ من الذى قبض عليه ٠

ــ سبحان العالم ٠

ــ طيب ياأمه مرسيلة تعالى أنت معى الآن الى البيت ٠

ــ أروح ياابنى البنت مراة راشد فتها فى البيت حالها ملخبط ولايصح أن أتركها وحدها ٠

ــ اسمعى ٠٠ تعالى معى وسأرسل السيارة تأتى بزوجة راشد وبعلى وحسين أيضا ٠

ــ يخليك ٠٠ يطول عمرك ٠٠ يعمر بيتك ٠

ــ قومى ياامه مرسيلة ٠٠ قومى ٠٠ هيا ٠٠ نينا ستفرح جدا لما تشوفك ٠٠ وأنت أيضا ستفرحين لما تشوفى مراتى نادية وابنى راشد وفهمى ٠

ـ محفوظ باســم الرحمن الرحيم تعيش الأسامى ٠٠ ولا تدعونى ياسى أســامه لقد شــلتك على كتفى ولا أحضر فرحك ٠

ـ ربنــا يعلم ٠٠ بحثت عنك بلا فائــدة ٠٠ على كل نصلح الخطأ اليوم ٠٠ هيا بنا ٠

٢١

الخيانة ليست وليدة منطق وانما هى طبيعة فى بعض الناس أو ان شئت الدقة هى طبيعة فى آكثر الناس مثلما تجد الأمانة طبيعة أيضا عند قلة من الناس ٠

وقد تعانى المرأة من زوجها ماتعانى ولكنها مع ذلك تظل شريفة دون آى منطق يدعو لهذا الشرف الا آنهـا هى بطبيعتها شريفة ، ولاتتصور أن الحياة فيها طريق آخر غير الشرف ٠

وليس صحيحا أن البنت لامهـا كما يقول هـذا المثل السخيف الذى يكفى القدره على فمها دون آى داع ودون آن يكون للقدرة آى دخل فى الموضوع الا آن تكون مقدمة دون معنى لنتيجة لا صلة لها بالمقدمة ثم هى نتيجة خاطئة ٠

فكثيرا ماعرفت الحياة فتيات شريفات غاية الشرف وهن من أمهات لايعرفن الشرف فى أى شىء وكثيرا .. بل وكثيرا جدا ماأصبحت بنات غير شريفات وهن فى ذلك من أمهات كلهن شرف وهكذا تجد نفسك فى غير حاجة أن تكفى القدره على فمها لتطلع البنت لامها كما يقول هذا المثل العامى الساذج .

ولكن لابأس أيضا أن تتعرض البنت لظروف مثل ظروف تعرضت لها أمها فتجد البنت نفسها سائرة فى الطريق الذى سبقتها فيه أمها .

ولكن الموقف مع بهيرة ابنة شهيرة مختلف كل الاختلاف وان كانت النتائج متشابهة كل التشابه .

فشهيرة خانت زوجها لأن زوجها كان يدعو الناس الى احتقاره بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة . فلم يكن غريبا اذن أن تبحث شهيرة عن أحضان تحترمها فخانت .

أما بهيرة فزوجها يفرض احترامه على الناس بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة . أو هو فى الواقع يصطنع الوسائل غير المشروعة فى فرض هذا الاحترام . ذلك أنه يطالب بالاحترام بالتكبر لا بالكبرياء وبالتظاهر لا بالحقيقة . فهو أجوف بلا علم ومن أين العلم وبلا تجربة ومن أين التجربة وقد وجد نفسه فى بواكير الحياة من كبار بكوات المجتمع المصرى بغير ثقافة أو علم أو تجربة فى الحياة . وكانت البكوية التى صبتها عليه أمه بقوة المال وجبروته لاتتيح له أن يخالط أبناء جيله ويحيا الحياة الطبيعية التى تجعل الانسان حين يكبر انسانا طبيعيا شأنه شأن الآخرين له تجاربهم وله أيضا أخطاؤهم .

اعتزل يحيى الحياة قابعا بين جـدران بكويته الباكرة وتكبره الكاذب فأصبح فراغا • ولهذا لم يكن عجيبا أن يقنع بالاحترام الزائف من ظاهر الناس وان خالطه الاحتقار بل وان خالطته السخرية فى أعماقهم •

وبهذا التكبر وبهذا الارغام على الاحترام الموهوم عامل يحيى الحياة وعامل أقـرب النـاس اليه زوجه بهيرة وابنيه باسل وشهاب •

وهكذا راح ثلاثتهم يبدون له الاحترام غاية الاحترام ويكنون له الاحتقار غاية الاحتقار •

أما الزوجة فهى تحتقره للتكبر السخيف الذى يلازمه فهو دائمـا منفوخ الصـدر يتكلم وكأنمـا كلامه وحى من السماء ويخاطبها وكأنما يتنازل كل التنازل آن يمتد بينهما حديث •

وكم كان سهلا على بهيرة أن تبدى له الاحترام وتشـبع الغرور العجيب الذى ركب فيه ثم هى بعد ذلك تصنع ماتشاء لتشعر أنها تنتقم من غروره وأنها قادرة دائمـا على تحطيم كبريائه ولو فى نفسها • والحب لايستطيع آن يماشى الاحتقار مطلقا وهكذا أصبح من المستحيل أن تحب بهيرة زوجهـا • واذا انعـدم الحب من البيت فـكل شىء غـير شريف معقول وطبيعى •

أما ابنـاه فهما لم ينتهيا الى احتقـار كبريائه الا حين تقدمت بهما السن وعـرفا آباء آخـرين لأصـدقائهما • وبالمقارنة تبين لهما أن أمر أبيهما عجيب •

لقد وجدا الآباء الآخرين يحبون أبناءهم ويبدون هذا الحب فى شتى صور • قد يبدو منهما الحب فى كلمة اشفاق أو

حتى فى كلمة تأنيب حانية · أو قد يبدو فى منحة مالية أو قد يبدو فى اهتمام بدراسة أو اشفاق عند مرض أما أبوهما فلا يبدى ، لأى منهما أى عاطفة · انه يحبهما لاشك ولكنه بصلفه وتكبره يختزن حبه ويضن به أن يظهر ·· انه يستكبر أن يبين منه حب لعله كان ينتقم لنفسه أن أباه لم يظهر له حبه منذ بدأ هو يدرك الأشياء · أو لعله كان يظن أن الأجدر بالأب ألا يظهر منه حب فمادام أبوه قد صنع هذا فهذا اذن هو المثل الأعلى أما حب أمه له وتفخيمها لشأنه فهذا أمر مفروض ، لانه يرى نفسه فوق البشر وأمه لم تزد على أن اعترفت بتفوقه وسموه وهو بعد اذا سأل نفسه فيم هذا التفوق أو ذاك السمو سارعت اليه نفسه بالكثير الكثير من توافه الأمور التى تجعله يتأكد أنه صنف فوق البشر وأنه انسان يسمو على الانسانية ·

وهكذا شب باسل وشهاب فى منزل قاتم ، الأم فيه تبدو تابعة للأب وهى فى حقيقة الأمر الشخصية المتبوعة لا التابعة لأنها استطاعت فى مهارة أن تجعل زوجها يصنع ماتشاء أن تصنع ببعض كلمات بسيطة من اشباع الغرور · ثم هى بعد ذلك تسحبه خلفها كيفما تريد · ويسير الأهبل خلفها وهو يظن نفسه يقودها وينفذ كل ماتشاء وهو يظن أنها هى التى تنفذ كل مايشاء والابنان يكبران ويدركان هذه الحقيقة فتنقلب موازين الحياة عندهما · ويكرهان اباهما لأنهما لم يريا منه شيئا يستحق الحب ويعجبان من أمهما لانها جعلت من أبيهما هذا المسخ الشائه وحين توثقت صلة الأب والأم بحامد عبد البديع وجد باسل وشهاب فى حامد شخصية كريهة ·

وربما كانت هذه الكراهية لأنه دخل البيت الذى لم

يتعود أن يستقبل أحدا فقد كانت الأم تريد أن تستولى على الزوج وكان الناس بطبعهم ينفرون من الزوج وهكذا كان البيت مقفل الأبواب دون الآخرين • ولو لم يكن فى البيت مع الأب والأم ، سهير أم يحيى لكانت حيـاة الطفلين فى البيت جحيما • فالأم مشـغولة بخططها المشروعة وغـير المشروعة والأب مشغول بغروره ولا أحد يسكب على الطفلين حنانا الا سهير • وربما أحست سهير أنها هى التى جعلت ابنها مرسوما بهذا الجفاء والغرور وكانت تعزى نفسها آنها لم تكن تتصور أن يتمادى فيه الغرور الى هذا الحد ولكن تلك هى مصـيبة المشاعر فى نفوس النـاس •• فانها قبيحة كانت أو حميدة لاتعرف ، أين ينبغى لها أن تقف • وهـكذا تصبح المشاعر القبيحة بالغة القبح ، وتنقلب المشاعر الحميدة الى شىء يدعو الى الضجر أحيـانا أو السخف أو الملالة فتنقلب فى أحيـان كثيرة الى شىء كريه هى الأخرى •

وحين ماتت سهير كان الطفلان يشبان الى بواكير المراهقة وانقطع عنهما ذلك المنهل من الحنان فى وقت كانا فى آشـد الحاجة اليه •

وحينئذ دخل الى حياتهما حامد • وأحسا نحـوه بذلك المقت وان لم يدريا لذلك سببا وأغلب الأمر أن السبب كان فى داخلهما ولكن حامد استطاع فى مهارة فائقة أن يتقرب منهما • وقد كانت السبل مهيأة له من قريب •

لقد عرف كيف يعاملهما كرجلين وراح يصحبهما معه الى مزارع أبيهما كلمـا ذهب لعمل فى مـزارع أبيهما أو فى مزرعته هو بعد أن أصبح مالكا لعشرين فدانا هناك •

ــ وعرف أيضا كيف يكون واسـطة لهما عنـد أبيهما فاشترى كل منهما سيارة وهو يدخل الى الجامعة •

وأصبح حامد قريبا كل القرب الى قلب باسل وشهاب ولم يكن ذلك غريبا فقد كان هو الانسان الوحيد الذى يدخل البيت دخول الأقارب • وقد استطاعت معاملة حامد هذه أن تفتح عين الأم على تلك الهوة التى تفصل بين الولدين وأبيهما بل انها فتحت عينيها المروعتين على تلك الهوة بينها هي وبين ولديها •

وهكذا راحت تتقرب اليهما وتعمل على اسعادهما بكل ماتملك من قوة ، ولكنها حرصت كل الحرص أن تكون مصادر هذه السعادة بعيدة عن الأب فهى لم تكن تريد للولدين أن يحبا أباهما فهى حريصة أن يدرك الأب أن أحداً لايحبه فى هذا الوجود الا هى •

وكان الولدان يحسان بحنوها ويحسان أيضا بهذا الحنو ينقلب الى قساوة طاحنة كلما اقترب واحد منهما الى ساحة الأب •

***

كان الوقت شتاء • وكان شهاب فى حجرته الخاصة يشاهد التليفزيون ، الذى أحضرته له أمه فى عيد ميلاده ولم يكن معه باسل • ولم يكن ذلك عن جفاء فقد كانت العلاقة بين الأخوين صداقة صحيحة فرضتها عليهما طبيعة الحياة فى بيت أبيهما أو قصر أبيهما اذا شئت • ولكن باسل كان قد اختار أن يتجه الى الهندسة حين اختار شهاب أن يتجه الى الحقوق فان الصداقة بينهما لم تستطع أن توحد طريقهما فى الحياة •

وكان لكل منهما حجرته فى البيت وكانت هذه الحجرة مجهزة بكل ماتصبو اليه نفس شاب • فلكل مكتبته الخاصة

ولكل جهازه الخاص للتليفزيون وجهازه الخاص للراديو • فلم يكن غريبا أن يفترق الاخوان فى الساعات الأولى من الليل ليصطبغ كل منهما فى حجرته مايحلو له •

كان التليفزيون فى تلك الليلة يعرض فيلما أجنبيا وكان شهاب مستغرقا فى مشاهدته بعيدا عن واقع الحياة كل البعد .

وانتهى الفيلم وانتهى الارسال أيضا وقام شهاب الى الباب ونظر الى غرفة أخيه فوجد أنوارها مطفأة فقد كان يحس أن النوم بعيد عنه • خاب أمله في السمر مع أخيه وأقفل الباب وعاد الى مكتبته فوجد كتابا كان قد اشتراه ولم يفتحه وراح ينظر فى صفحاته • الفكر الماركسى والاسلام • وكان عنوان الكتاب هو الذى أغراه بالشراء فقد كان يحس كأبناء جيله أن النفاق من حوله يمكن أن يقلب جميع القيم والموازين ولم يستبعد أن يجد منافقا يزعم أن الاسلام يبارك الماركسية وكان هذا النفاق هو الحديث الذى لاينقطع مصادره كلما اجتمع شباب • واعتقد شهاب أن هذا الكتاب سيمده بمادة لاتنفد عن سيطرة النفاق المطلقة على الحياة المصرية بل على الدين أيضا •

أعاد الكتاب الى المكتبة فقد كان فى نشوة لاتقبل أن تواجه هذا الانحطاط بحسب الانسان المصرى أن يواجه النفاق فى الصحف وفى الحياة لأن الانسان لابد له أن يقرأ الصحف وأن يعيش الحياة • فاذا خلا الى نفسه وأحس بنوع من النشوة فينبغى له أن يحاول نسيان الصحف والحياة العامة ومايسودهما من نفاق والا أصبح شخصا مولعا بتعذيب ذاته دون مبرر •

بحث عن رواية لكاتب يحترمه ووجدها ووجد فيها ما تصبو اليه نفسه من انطلاق • واستلقى على السرير وبدأ

يقرأ .. لم تـرق له بداية الرواية . أقفلها وأطفـأ نور السرير وترك نفسه ترود مايحلو لهـا من وديان الخيال أو الحقيقة أو هما معا متمازجان تتماوج المعالم منهما متناغمة أو متنافرة وهو ملق نفسه الى الدفاع لايكبح جماح الخيال ولايهتم بحقائق الواقع . ولم يكن يدرى أطال به الوقت أم لم يطل حين سمع همسا وخطوات وعجب . فان لكل حجرة من حجرات القصر حمامها الخاص وليس هناك مايدعو الى صوت فى الليل أبدا .

قام الى الباب وفتحه فى غير حذر وفى اللحظة نفسـها سمع صوت باب يقفل ثم رأى شخصا ينزل السـلم المفروش بالبساط السميك وعلى ضوء القمر الذى ينفذ كسهم القدر من شباك السلم رأى وجه حامد . هم أن يلحق به ولكن قدميه تسمرتا . وحين استطاع أن يجرهما كان حامد قد خرج من الباب الرئيسى .

ذهب الى حجرة أبيه وفتح الباب ولم يفكر .

ــ بابا .

وقام الأب مفزوعا .. هـذه هى المرة الأولى فى حياته التى يتجرأ فيها أحد أن يفتح عليه الباب دون اذن سابق .

ــ من .. ماذا .. من .

ــ هل أنت نائم .

ــ هذا هو الطبيعى فى ساعة مثل هذه .

ــ فماذا كان حامد يفعل هنا .

ــ من .

ـ حامد ٠

ـ حامد من ؟

ـ حامد الذى لايدخل بيتنا غيره ٠

ـ أجننت ؟

ـ ياليتنى جننت ٠

وجاءت الأم ٠

ـ ماذا ؟

ـ اسمعى مايقول ابنك ٠

ـ حامد نزل الآن من هنا ٠

ـ من ؟!

ـ كنت أظنه يعمل مع أبى أو أنا على الأقل تمنيت أن أجده يعمل مع أبى ، ولكن أبى نائم ٠

أى امرأة غير بهيرة كان يمكن أن تنهار ولكن بهيرة شىء آخر ٠٠ من المؤكد أنها طبيعة أخرى غير طبيعة البشر ٠

ـ اسم الله عليك ياشهاب مالكياابنى ؟

وراحت تجس جبهته ٠

ـ آه قل هذا ٠

ـ ماذا ؟

ـ الولد نار ٠٠ ضع يدك يايحيى ٠

ووضع يحيى يده والعجيب العجيب أنه قال :

ـ فعلا ٠٠ فعلا عنده حمى ٠

ـ تعال ياشهاب استند على .

وفغر شهاب فمه ولم يستند على أمه وانما استندت هى عليه وسحبته ولكن من ينظر اليهما يخيل اليه أنه هو الذى يسحبها وذهبت به الى حجرته وقبل ان تدخلها سمعت باب حجرة زوجها وهو يقفل عليه ودخلت مع شهاب الى حجرته وأغلقت الباب وأرادت أن تلقى به الى الفراش ولكنه كان قد أفاق من ذهوله .

ـ ماما . ماذا تفعلين ؟

ـ تنام وتستريح وحبة اسبرين تصبح بكرة فى أحسن صحة .

ـ ماما كيف استطعت أن تقنعيه أننى محموم .

ـ لأنك محموم فعلا .

ـ ماما !!

ـ انتظر قليلا حتى أحضر لك الأسبرين وبعض الثلج .

ـ أخرجى من هنا .

ـ ماذا تقول ؟

ـ أخرجى حالا قبل أن أعمل ماأريد ان أعمله ..

ـ شهاب .

ـ أخرجى .

وأمام نظراته القاتلة خرجت سهير .

***

مسكين يحيى .. لم يكن ماقاله ابنه جديدا عليه .. كان يعرفه .. وفكر كثيرا .. كيف يمكن أن يعالج الموقف

.. أيطلقها فتصبح الحقيقة مدموغة بورقة الطلاق الرسمية .. وهل تحتمل كبرياؤه هذا .. ايكلمها .. وتعرف أنه يعـرف .. سكت واحتمل وكان كل أمله ألا يعـرف أحـد آخر .

واليوم عرف شهاب .. ماذا سيفعل شهاب ؟

استطاع هذا السؤال البسيط أن يبقى يحيى مؤرقا حتى الصباح .

***

لم يقل شهاب شيئا لأبيه ولكن العبء كان أكبر من أن يحتمله وحده . قال لأخيه .. وارتمى الأخوان فى دوامة قاتلة من الخزى والشعور بالمهانة .

ـ أبلغ تأثيرها عليه الى هذا الحد .

ـ اسمع أن أبى يعرف .

ـ ماذا تقول ؟

ـ لايمكن لابد أنه يعرف .

ـ على كل حال إن لم يكن عارفا فقد عرفته أنا ورفض أن يعرف .

ـ شهاب ماذا ستفعل ؟

ـ لانعرف .

ـ كيف سننظر الى أم عاهـر ، وأب ديوث وصـديق خائن ؟

ـ نحن الآن لانستطيع أن نفكر .

ـ لابد أن نفكر ·· ماذا سنفعل ·

ـ نطلب منهما أن نعيش فى بيت وحدنا ·

ـ ربما يرفضان ·

ـ لاتتكلم عنهما ·· تكلم عنهـا وحـدها انها تفعل ماتريد ·· هو لاشىء ·· بكل صـمته المهيب وبكل عظمته المتجهمة هو لاشىء ·

ـ اذن سترفض ·

ـ لاتستطيع أن ترفض لنا شيئا الآن ·

ـ لماذا ؟

ـ بعد الذى رأيته ·

ـ انها متأكدة أنك لن تقول لأحد ·

ـ فعلا · ولكن لماذا ترفض ·

ـ بماذا تبرر خروجنا من القصر ·

ـ اذن لايدخل حامد هذا بيتنا ·

ـ ولا هذا · الظاهر أنك لاتعرف قيمة حامد ·· انه صديق الحكام اليوم وهو الذى يحمى بيتنا أن يؤخذ ويحمى ابى أن توضع عليه الحراسة ·

ـ حراسة ·· أيقبل هذا الوضع خوفا من الحراسة ·

ـ لا تبالغ فى ظلمه ربما قبله حتى لايعرفه أحد ·

ـ اسمع لابد أن نجد حلا ·· لن نستطيع العيش فى هذا البيت بل لن نستطيع العيش فى مصر كلها ·

ـ وجدتها ·

ـ ماذا ؟

ـ نسافر الى الخارج ٠

ـ نهرب ؟!

ـ نهرب

ـ ولكن الحقيقة التى نعرفها أنستطيع أن نتركها هنا ٠

ـ هناك دنيا أخرى ٠

ـ ولكنها لن تستطيع أن تبتلع الحقيقة التى نعرفها ٠

ـ على كل حال هذا خير من أن نرى هؤلاء الناس ٠

ـ أى شىء خير من أن نرى هؤلاء الناس ٠

ـ أى شىء خير من أن نرى هؤلاء الناس ٠

ـ الى أين نسافر ٠

ـ الى فرنسا ٠

ـ ولماذا فرنسا ؟ نسافر الى انجلترا ٠

ـ أولا لأننا نتقن الفرنسية ٠

ـ وهـذا سبب يجعلنا نسـافر الى انجلترا حتى نتقن الانجليزية أيضا ٠

ـ الحقوق دراستها فى فرنسا والهندسة أيضا أما فى انجلترا فستكون دراسة الهندسة فقط هى الممكنة فالقانون الانجليزى بعيد كل البعد عن القانون المصرى ٠

ـ لولا الظروف التى نمر بها لكنت تركتك تسافر الى فرنسا وسافرت أنا الى انجلترا أما الآن فلابد أن نكون معا دائما ٠

ــ ومسألة اللغة بسيطة يمكن آن نقضى الاجازة الصيفية كلها فى انجلترا لدراسة اللغة ٠

ــ فكرة ٠

وسافر الأخوان وتركا القصر العظيم يضم بين أحنائه تكبره وخيبته وجراحه وخيانته ٠ ولم يقدرا ٠٠ وكيف لهما أن يقدرا أن القلب المتكبر الكسير لذلك الرجل الذى استطاعا أن يكرهاه انصدع حطامه بسفرهما صدعا الموت آهون منه ولكن طول التكبر منه عوده تلبس الكبرياء فانحنى على صدوع قلبه الذى أمسى شظايا ٠٠ وصمت ٠

٢٢

لايستطيع أحد أن يقدر أثر الرواية المقروءة المعروضة على مسرح أو شاشة السينما أو التليفزيون أو المذاعة التقدير الصحيح ٠

فان هذه الروايات أفسدت حياة الناس ونغصت عليهم عيشتهم تنغيصا فريدا حتي لايجرؤ شيء آخر أن يسابقها في هذا المضار ٠

فقد ظلت هذه الأعمال التى نطلق عليها أعمالا فنية ترسم البيت السعيد رسما غاية فى السذاجة والعبط ٠ فالزوجة تطعم زوجها بيدها وتأتى له بالحذاء وتتولى شئون ملابسه وتحاول دائما أن تضحك معه ولا تطلعه على شيء يكدرها أبدا حتى لايمتد الكدر اليه وهى طبعا تطيع أوامره مهما تكن هذه

الأوامر سخيفة · وتحرص هذه الأعمال الفنية أن تجعل حياة الزوجين جميعا على هذه الوتيرة الواحدة التى يتخيلها الكتاب السذج سعادة لاتدانيها سعادة وهناءة لا يماثلها هناء ·

وأغلب الأمر أن هؤلاء الكتاب يلقون من زوجاتهم عنتا ورهقا يجعلهم يهربون من واقع دنياهم تلك التى يصطنعونها دنيا مهبولة تفيض سخافة وعبطا ·

ولو وقف الأمر عند هذا لأصبح مقبولا وأى خير أن يهرب كاتب أو أى شخص من واقع مرير الى حلم وهم سعيد مادام بهذا يقر عينا ويسعد ·

ولكن الكارثة الكبرى أن المنتجين والمخرجين يأخذون الأمر مأخذ الجد ويعرضون هذه الأعمال على الناس ·

وهكذا تقولب الحب فى حياتنا فى هذا القالب المضحك فالزوجة التى لاتطعم زوجها بيدها ولاتطيع كل سخافاته ولا تأتى له بالحذاء أو النعل ولا تطبخ له كل ماتهفو اليه نفسه تصبح عند الأزواج الذين شاهدوا هذه الأعمال أو قرأوها امرأة لاتعاشر وهى فى عرفهم تكرههم ولاتحبهم · ومن الزوجات من صدقت هذه الصورة وحاولت أن تنفذها فى أيام زواجها الأولى ولكن قليلا ماتستطيع أن تظل على حالها هذا ثم تعود الى طبيعة البشر · وهكذا تنقلب حياة الزوج الى جحيم وليس هذا منه بعجيب · فقد رسمت له الأعمال التى رآها الجنة بهذه المعالم المضحكة فحين يصطدم بغيرها يصبح من الطبيعى أن يرى حياته جحيما · فنقص أى معلم من معالم هذه الجنة الفنية هو عنده جحيم · وويل للزوجين اذا كانا تحابا قبل الزواج فان كلا منهما سيتوقع من الآخر أن يقتل نفسه وهو سعيد ليقدم لحبه كل مايمكن أن يخطر ببال هذا

الحب • حتى اذا تم الزواج وعاد كل من الزوجين الى طبيعة البشر انكشفت الحقيقة الرهيبة آن الرجل انسان بشر وان المرأة انسانه بشر وتصطرع الحياة على أنغام نفير الحروب بعد أن كانت ساجية بين المحبين على أنغام موسيقى الملائكة •

وفى أتون هذه الأوهام تحطم كثير من حب كان صادقا ولكنه كان مجنونا ودمرت زيجات كان يمكن أن يفوح منها عبير يانع عن أيام مخضله بندى الحنان والمودة ولكنها جهلت الواقع ولم تستطع الأيام أن تنقلب عندها الى أحلام وأوهام ورؤى •

ولكن أسامه كان محصنا ضد الأوهام فلو أن الحياة سارت بأبيه رخاء كلها ولو أنه ترك لأمه وحدها لواجه فى كل متجه من حياته ذلك الحلم الباسم المستبشر الذى ينقلب الى واقع كشر متجهم ذى أنياب ونصال ومدى •

لقد صاحبت نمو أسامه تلك الأزمه التى تعرض لها أبوه ووعى أبوه وهو يركب الموتوسيكل السيدكار وهو مايزال يذكر أمه وهى تعتذر عن عدم قبول الدعوات حتى لا تصبح مضطرة أن تردها بمثلها ورأى بيته والطعام فيه معدود بقدر الأشخاص بعد أن كان دائما موفورا لايحصيه حجما ولا عددا حتى لقد كان الخدم يدعون من يشاءون من خدم الجيران • ورأى أمه تمكث السنة بأكملها لاتدخل بيتها خياطة ورأىأباه لا يفكر فى شراء قماش جديد لنفسه سنوات ولكنه أيضا يذكر أن ملابسه هو دائما كانت تتجدد فلم يعد على مظهره اشارة من ضيق يد • وادرك كيف كان أبواه يجنبانه دائما ان يحس بما يمران به • وحسب الجانبان أن ابنهما لم يشعر بشىء وحنا هو عليهما فلم يشعرهما آنه أحس بشىء •

ومرت بهم هذه الأيام النكدة الماجدة واستطاع أسامة

بضربة حظ أفلس فيها أبوه أن يصبح هو من أغنى الناس نفسا واستطاع أن يعرف أن الحياة التى تعطى تستطيع أن تمنع وأن الانسان اذا لم يعرف من الحياة حالتيها صار فيها هشا هينا جاهلا أو أحمق تصرعه أى ريح من رياح الحياة ٠

ورياح الرخاء والغنى والدعة والهناء تحمل من طواياها نفس الأخطار التى تحملها رياح الفقر والحاجة والعوز والشقاء ٠

واذا كان الانسان يحتاج أن يكون قويا ليواجه الحياة وهى تطحن وتفترس بمخالب الفقر فهو محتاج أن يكون أكثر قوة ليواجه الحياة وهى تبتلع وتمحو من الانسان انسانيته حين تفرش الذهب والماس تحت الأقدام ٠

استطاعت هذه الفترة النكدة أن تجعل من أسامة انسانا يعرف تقلبات الحياة الأمر الذى لم يستطع المسكين يحيى أن يعرفه ٠ فلو كان يحيى قويا فى لقاء الغنى لما انهدمت به الحياة ولما تصدعت جوانب نفسه ولما خلت الحياة عنده من كل معنى للحياة ٠

فى هذه الأيام النكدة التى شهدها قصر راشد باشا كانت أسرة فهمى عبد الحميد من الأسرات النادرة التى تأتى للقصر أغلب أيام الأسبوع ٠ وتوطدت علائق الصداقة بين خديجة وبين نعمات زوجة فهمى ٠٠ وفى فناء القصر لعبت جميلة مع أسامة كانت تصغره بعام وبعض عام ولكنه لم يكن رآها قبل أن تصبح أمها صديقة لأمه ٠

لم يكن حبا ذلك الذى نما بينهما وانما كان ألفة وكان يأنس اليها وكان يخيل له أنها تأنس اليه ٠ ولم يكن يدرى

يومذاك شيئا عن الصلات التى تجمع بين أبيها وأبيه • وماكان يستطيع أن يعى هذه الصلات ولا أن يفهمها •• وكيف لمثل من كان فى سنه أن يفهم هذه الحرب وهذا العداء ثم هذا الحب وذلك الايثار وكيف يستطيع أن يعى فى براءته الانسان يسفل الى هذه الخسة ثم يعلو هو نفسه الى هذه السمو •

لم يكن يدرى شيئا دائما كان يأنس الى جميلة وكان يألفها • وكان يحب أن تاتى ويحب أن يلعب معها طفلين ثم أصبح يحب أن يحكى مايجرى له فى المدرسة ثم أصبح يحب حين باكرته الرجولة ونهدت هى الى الأنوثة أن يحادثها عن كل شىء ويستمع منها عن كل شىء •• وكانت تحس أن مايقوله لها لايقوله لسواها وكانت تعرف أن ماتقوله هى له لاتقوله لسواه على براءة مايقول وماتقول •

وحين تزوجا كانت بينهما هذه الألفة الحنون التى تكون بين الزوجين ، ولم تكن الناحية المالية تشكل لهما أى عقبة فقد استعاد راشد ثروته وكتبها جميعا باسم أسامة ولو أن هذا لم يكن يعنى شيئا بالنسبة لأسامة فى حياة أبيه فقد كان راشد هو الذى يتصرف فى كل دخله •

وقد تزوج أسامة وراشد مازال على قيد الحياة وكان راشد سعيدا بهذه الزيجة أشد السعادة كما سعدت بها أيضا خديجة • وحين استقر الزوجان ، الصغيران بالمنزل تنازلت خديجة عن سيادة البيت وجعلت لجميلة اليد الطولى والوحيدة فى ادارة البيت وحلا لها أن تأخذ المكان الذى أخذته منها هانم أفندى حين تزوجت هى راشد وسعدت خديجة بمكانها هذا الجديد وقد استطاعت جميلة فى ذكاء أن تجعل خديجة دائما فى مكانة عليا أوامرها مقدسة وراحتها موفورة قبل أن تتوافر لزوجها أو حتى لحميها •

وحين مات راشد كان أسامة قد عمل فى المحاماة ووجد نفسه فى مهنته فاستطاع أن يكون حكيما فى تصرفاته المالية يعيش عيشة كريمة ولكنها بعيدة عن السفه .

وكان من الطبيعى أن تختلف خديجة وأسامة فى أيام زواجهما الأولى ولم يكن أسامة يدهش أن يجد أباه وأمه يقفان الى جانب زوجته حتى وان لم تكن محقة فقد وجدا عندها طاعة الأبناء وحبهم هذه الطاعة وذلك الحب الذى يصبح موضع اكبار ان جاء من غير الأبناء .

وحين مات راشد ظلت جميلة التى أصبحت ست البيت فعلا لا تفضلا أكثر عناية بحماتها وأكثر رعاية لها وحدبا عليها .

وحين تتابعت قوانين الاصلاح الزراعى ابتلعت الغالبية العظمى من ثروة فهمى عبد الحميد فلما مات كان ماتركه من مال يكاد لايقوم بشأن أولاده فكان أسامة يعوضهم عما أصابهم كلما سنحت فرصة لاتجرح كرامتهم . وأصبح يحث زوجته أن تعطى أخويها كل مايحتاجان اليه حتى لايحسا بعنت الحياة الا أن الأخوين ، وجدا أن الأمر لايمكن أن يستمر على هذا المنوال فكتب كل منهما توكيلا لأسامة ليدير مابقى من أرضهما واتجه الأكبر جميل الى الكويت واتجه الأصغر صبحى الى السعودية ومرت الحياة بالزوجين أسامة وجميلة طيبة لايشوبها الا مايشوب البيوت السعيدة من خلافات يمحوها الحب أو شجار يعصف به الحنان .

وأنجبا راشد وفهمى وراحت الحياة تكرر نفسها مع الطفلين ليدرجا فى طريق درج فيه أبواهما من قبل قد تختلف تفاصيله ولكن المعالم الأساسية فيه واحدة .

وحين كسدت سوق المحاماة المدنية وفكر أسامة أن يتجه كما اتجه كثير غيره الى البلاد العربية جاءته أم مرسيلة لتغير متجه حياته جميعا ٠

فمنذ ذلك اليوم الذى قصدت فيه الى مكتبه أصبح أسامة من أكبر المحامين فى القضايا السياسية ولم تكن هذه القضايا وحدها تكفى مكتبه ولكن ذيوع اسمه فيها جعله بعيد الصيت فى القضايا الجنائية وانتعش المكتب واستقر أسامة وأصبحت الحياة أمامه هانئة سعيدة ومن أسعد من رجل بارع فى عمله يعترف الجميع ببراعته ؟٠

وهل هناك اعتراف أعظم من تلك الدعـوة التى جاءت اليه عن طريق ضابط دخل الى مكتبه بغير اذن ليقول له فى محاولة فجة للتلطف ٠

ـ سيادتك مطلوب ٠

ـ أنا ؟

ـ نعم ٠

ـ من الذى يطلبنى ؟

ـ ستعرف حين تذهب ٠

ـ اذهب ؟

ـ سأذهب معك ٠

ـ الى أين ؟

ـ ستعرف ٠

ـ لماذا ؟

ـ ستعرف ذلك ايضا ٠

ـ أهو قبض ؟

ـ لا المسألة لن تصل لهذا ٠

ـ لقد وصلت فعلا ٠

ـ انها مجرد دعوة ٠

ـ هل أستطيع الاعتذار ؟

ـ طبعا لا ٠

ـ فهى أمر بالقبض وليست دعوة ٠

ـ سيادتك تستطيع أن تسميها كما تشاء ٠

ـ ألا أخبر البيت ٠

ـ لاداعى ٠

ـ مجرد مشورة أم هو أمر ألا أتصل ؟

ـ لاداعى والسلام ٠

ـ ومن أين يأتى السلام ؟

ـ تفضل ٠

ـ حاضر ٠

٢٣

حين وقعت هزيمة ٥ يونية كان باسل وشهاب فى باريس وشاهدا الفضيحة العالمية على شاشات التليفزيون وراح كل منهما ينظر الى الآخر تحجب صورة كل منهما عن الآخر دموع غزار لاتريد أن تنضب · ولم يكن عجيبا أن يفكر كل منهما أنهما كأنما يواجهان حادثة أمهما مرة أخرى ولكنهما فى هذه المرة أحسا أن العالم أجمع يعرف السر الذى ينطويان عليه بل أحسا أن التاريخ أيضا أصبح يعرف هذا السر الذى لم يصبح سرا ·

لم تصبح علاقة أمهما الآثمة حادثة يخفيها جدار بيت وانما أصبحت مثار اهتمام العالم أجمع ·· التليفزيون والسينما والاذاعة والصحف لاحديث فى العالم لها الا عن أمهما ·· وتتكسر النصال على النصال ·

لقد كانا يغفران للحكم المصرى كل مايسمعانه من قهر الآدمية وقتل الأبرياء وخنق الكلمات ومحق الرأى وهدم الانسان فى سبيل أن يكون هناك جيش قوى يواجه العدو ٠

ثم وفى ساعات تصبح مصر والعروبة جميعا أهزوءة التاريخ على يد الجيش المصرى ٠

قلبانا عليك يامصر ٠٠ عرفا أن أمهما أصيبت بالسرطان وأنها تنتظر الموت فى أية لحظة ٠

ـ نذهب ٠

ـ أتريد أن نذهب ؟

ـ أمام الناس ٠

ـ وأمام نفسينا كيف سنراها ؟

ـ وأبى ٠

ـ هل نستطيع أن نصنع له شيئا ؟

ـ الكثير ٠

ـ سيتجهم ٠

ـ ولكن قلبه سيفرح حين يرانا ٠

ـ هل رأيت قلبه ؟

ـ لا ٠٠ لم أره ٠

ـ كل الأبناء رأوا قلوب آبائهم فى ابتسامة ، فى فرحة لقاء ، فى اهتمام بمرض ، فى سعادة بنجاح ٠٠ هل رأيت قلب أبيك ٠

ـ ولكن له قلبا ٠

ـ كيف نعرف ؟

ـ لقد ستر على أمنا ٠

ـ يخشى على كبريائه ٠

ـ كان يستطيع أن يطلقها ولايبدى الأسباب ٠

ـ لقد تعود أن تكون بجانبه ٠

ـ وهى لغيره ؟!

ـ انه مشغول دائما بنفسه ٠

ـ لعله خاف أن يذكرنا أحد بسوء ٠

ـ تحاول أن تجعل لنا أهمية عنده ٠

ـ اننا جزء منه ٠

ـ شهادة الميلاد فقط ٠

ـ انه يخفى مشاعره ٠

ـ كان يستطيع أن يجعل مشاعره تخونه مرة واحدة مادام استطاع أن يجعل زوجته تخونه دائما ٠

ـ اننا لانستطيع أن نعرف مابداخله ٠

ـ مادمت لم أر له ظاهرا كيف أعرف داخله ٠

ـ هو الآن جازع ٠

ـ مرض زوجته قاتل ٠

ـ مصر كلها تعانى نفس المرض ٠

ـ فهو يعانى مرض مصر ومرض زوجته ٠

ـ أتريد أن تسافر ٠

ـ لا أعرف ·

ـ فكر ·

ـ أريد أن أرى أمي وأريد أن أرى مصر ولا أريد أن أرى أمي ولا أريد أن أرى مصر (*)

ـ لم يبق لنا الا نفسانا ·

ـ أخشى أن نقتل أبانا بما نفعله ·

ـ وأنا أخشى أن نقتله اذا رآنا ونحن على هذه الحال ·

ـ لانذهب اذن ·

ـ لعلنا نكون أشفق عليه لو لم نذهب ·

ـ ومصر ·

ـ سنكون أشفق بنفسينا اذا لم نذهب ·

ـ لعل مصر تحتاج الينا ·

ـ انما تحتاج للمنافقين والدجالين والهتافين والهازلين ·

ـ لعلها الآن تحتاج للجادين ·

ـ لو كانت ماسمت الهزيمة نكسة وكأنها أنفلونزا ·

ـ اذن ·

ـ نبقى ·· فما بقى لنا الا أنفسنا ·

ـ معك حق نبقى ·· فما بقى لنا الا أنفسنا ·

٢٤

استطاع وجدى أن يغرى زوجته بالاكثار من الحفلات يدعو لها كل صاحب سلطة ٠٠ وهذه الحفلات لاتكلف المأكل والمشرب فقط وما هو بقليل وانما تكلف معهـا ملابس لكل حفل وقد استطاعت ناهد فى غمرة هـذه الحفلات أن تبيع أملاكها جميعـا وراحت تشترى بأثمـانها مجوهرات لايعرف زوجهـا عنها شيئا ودبرت ناهد امرها أحسن تدبير وراحت تفحص الأشخاص الذين تعرفت بهم فى حفلاتها واختارت أخطرهم شأنا وساعدها الحظ فكان أيضا أشدهم غباء فألقت عليه شباكا قناصة لاتفلت صيدا ٠

وكان من الطبيعى أن يظن نفسه ساحر نساء ، وهادم قـلاع ، وفاتح حصـون ٠ وما كان ذا فكر ليمعن به النظر

وليتبين أن التى يتوهم أنه سحرها انما هى التى سحرته وأن القلاع التى هدمها كانت بلا جدران الا بابا على الصحراء فهى مفتحة من جميع جوانبها ومن ثم فلا حصون هناك لتفتح ٠

أغرته ناهد وقبل الاغراء وأعد لها ــ وماكان أيسر هذا بالنسبة اليه ــ شقه كانا يلتقيان بها ٠٠ وما هى الا لقاءات قليله حتى واجهته ناهد ٠

ــ لايمكن أن يستديم الحال هكذا ٠

ــ لماذا ؟

ــ أتحسب أن أمرنا لن يعرف ؟

ــ لا يمكن ان يعرف ٠

ــ اذن اطمئن ٠٠ لقد عرف فعلا ٠

ــ كيف ؟

ــ انت فى نومه ٠

ــ أنت التى تتوهمين أشياء لا ظل لها من الحقيقة ٠

ــ ياحبيبى فكر ٠٠ أنت شخصية مهمة جدا ٠٠ كيف يمكن أن تكون تنقلاتك مطلقة هكذا من غير عيون حواليك ٠

ــ ماذا ؟

ــ أتشك فى هذا ؟

ــ انتظرى ٠٠ انتظرى ٠٠ يظهر أنك على حق ٠

ــ كيف ؟

ــ بالأمس ٠٠ نعم لك حق ٠٠ فعلا ٠

ــ ماذا حدث بالأمس ؟

ـ قال لى كلاما مبهما فيه هذا المعنى ٠

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل ماذا ؟٠ مثل ٠٠ كل واحد منكم حـر ٠٠ وأنا عارف أن كثيرين منكم لهم ليلى يهيم بها ٠

ـ أرأيت ولكن ماذا يعنى بليلى ؟

ـ لعله يقصد ليلى المجنون ٠

ـ أو غيرها ٠

ـ سأله أحدنا أى ليلى تقصد ؟

ـ قال ٠٠ لك حق ٠

ـ ماذا قال ؟

ـ قال ليلى ٠٠ ناهد ٠٠ أو جواهر ٠٠ لايهم ٠

ـ أرأيت ؟

ـ فعلا ٠

ـ اذن ماذا ترين ؟

ـ طالما أنا فى مصر لا أمان لنا ٠

ـ وماذا تريدين ؟

ـ أسافر ٠

ـ الى أين ؟

ـ الى الخارج ٠

ـ وأنا ؟

ـ أنت ستجد أن الاتصـال بى فى الخارج أسـهل من

الاتصال بى هنا . الطيارات كلها تحت أمرك .. أقيم فى فرنسا أو سويسر اوانجلترا .. وكل شهر تأخذ أسبوعا أو أكثر أو قل أجازة ونكون على حريتنا .

ــ متى تستطيعين السفر ؟

ــ الآن اذا استطعت أنت .

ــ ووجدى ؟

ــ أتركه لى .

ــ سأسافر .

ــ مع السلامة .

ــ الى الأبد .

ــ ماذا ؟

ــ وهل تعتقد أننى أصرف هذه المبالغ لأبقى فى مصر .

ــ وأنا ؟

ــ أنت حر .

ــ أنا مستقبلى فى مصر .

ــ مع من .

ــ مع هؤلاء الذين نعرفهم .

ــ انت مستقبلك الحقيقى فى بيع رجولتك .

ــ ماذا تقولين ؟

ــ لاتدعى الدهشة .. أنا عارفاك وأنت تعرف أننى عارفاك .

ـ وافرضى ٠

ـ الستات اللواتى يشترين رجولتك تركن مصر ٠

ـ بعضهن مازال هنا ٠

ـ هؤلاء لايدفعن مايكفيك ٠

ـ مع وظيفتى فى الاتحاد الاشتراكى ٠

ـ والمخابرات ٠

ـ وتعرفين هذا أيضا ٠

ـ أنت لايكفيك هذا جميعه ٠

ـ اذن ٠

ـ سافر ٠

ـ وأرضى هنا ٠

ـ وماذا سيجرى لها ٠٠ ستبقى وستظل تدخر ريعها وتنفق من ريع أعمالك ٠

ـ أسافر معك ٠

ـ لا ٠٠ فى الخارج لايمكن ٠

ـ لايمكن ماذا ٠

ـ كنت هنا أشتريك لتكون ستارا أما فى الخارج أنا لا أحتاج لهذا الستار ٠ والنقود فى الخارج لها قيمة أخرى ٠٠ انها فى الخارج عملة صعبة ٠

ـ ماذا تعنين ؟

ـ العقد بيننا انتهى ٠

ـ ولكنك لاتستطيعين السفر من غير اذنى ٠

ـ وجدى هل أنت جاد ٠

ـ طبعا لا ٠

ـ اذن ٠

ـ تكلمين الذى سهل لك السفر يرفع درجتى ٠

ـ فى المخابرات أم فى الاتحاد الاشتراكى ٠

ـ المخابرات أهم ٠

ـ لامانع ٠٠ العشرة على كل حال لاتهون ٠

ـ تظاهرى أننى لن أوافق على السفر ٠

ـ تقصد الطلاق ٠

ـ كله واحد ٠٠

ـ هناك فرق ٠

ـ لم نختلف قولى اننى لن أوافق علـى الطـلاق الا اذا أرضانى هو وضحك على بترقية ٠

ـ أتظن أننى أحتاج لدروسك ٠

ـ آسف ٠٠ نسيت نفسى ٠

ـ فعلا ٠

***

وسافرت ناهد وحمل حقيبة المجوهرات صـديقها ذو السلطان وسلمها لها فى الطائرة ٠٠ وكانت التذكرة الى لندن ٠٠ وكانت هذه التذكرة هى نهاية العلاقة بينهما فقد قدر

لصاحب السلطان أن يفقد سلطانه فلم يعد يستطيع السفر والشيء الذى مات دون أن يعرفه هو أنه باليقين والقطع كان لن يجدها فى ذلك العنوان الذى اتفقا على اللقاء فيه بلندن .

لم يكن عجيبا اذن أن يستقبل أسامة عند اعتقاله وجدى جالسا على مكتبه فى مبنى المخابرات العامة .

ولما كان أسامة يعرف وجدى ويعرف قصته جميعا البادئة بمولده والمارة بزواجه والتى لم تنته بعد لم يجد أسامة أى غرابة فى هذه الابتسامة الفاجرة التى لاتبالى بشيء والتى فى نفس الوقت توضح أى درك من الوضاعة ابتدع صاحبها .

ـ أهلا أسامة بك .

ـ أهـلا .

ـ ألا تذكرنى .

ـ آسف .

ـ أنا وجدى .. وجدى عبد المحسن .. والدى ووالدك كانا صديقين ونحن تقابلنا كثيرا ولكنك تنسى .

ـ فعلا كثيرا .

ـ أم تراك تنسى حين تحب أن تنسى .

ـ المؤكد أن طريقة الدعوة أو الاستدعاء التى تفضلت بها على تجعل الانسان ينسى أشياء كثيرة حتى التى لايحب أن ينساها وهل كثير علينا أن تعطينا بعض وقتك .

ـ ياأستاذ ..

وأدرك وجدى أنه يصر على تجاهله ولكنه لايعنى كثيرا برأى الآخرين فهو يكمل فى ابتسامته الفاجرة .

ـ وجدى ٠٠ وجدى ياأخي ٠

ـ المؤكد أن هذا ليس هو موضوع الحديث الذى تريدنى فيه ٠

ـ طبعا هناك ماأريد أن أكلمك فيه ٠

ـ أنا تحت أمرك ٠

ـ أصبحت المحامى الأول فى كل القضايا السياسية ياأسامة بك ٠

ـ وهل هذا ممنوع ٠

ـ المظهر لايليق ٠

ـ ما المظهر الذى لايليق ٠

ـ كأنك تأخذ من العهد موقفا مضادا ٠

ـ ياسيدى أنا أترافع فى القضايا التى يرى العهد أن يسمح للمحامين بالترافع فيها والقضايا الأخرى لايترافع فيها أحد فماذا يضير أن أكون أنا المحامى أم غيرى ٠

ـ خفف من قبول هذه القضايا ٠٠ يكفيك قضايا الجنايات وخصوصا قضايا المخدرات ٠

ـ يكفينى من أى جهة تقصد ٠

ـ القضايا الجنائية وخاصة قضايا المخدرات آتعابها كبيرة ٠

ـ سيادتك شهادتك فى القانون ؟

وأوشك وجدى أن يغضب بهذا التجاهل الكامل من أسامة فهو واثق أنه يعرفه كل المعرفة ٠٠ ولكنه تماسك ٠

ـ فى القانون ·· أنا خريج دفعة ··

ـ لايهم ·· المهم أنك خـريج حقـوق ·· أترى أن المحاماة أتعاب فقط ·· الا ترى فيها أى شىء آخر ·

ـ طبعا ·· طبعا ·· هذا لاشك فيه ·· واجبك نحو العدالة ونحو موكليك ·

ـ الذى تقوله صحيح ولو خلا من رنة السخرية يصبح هو الحقيقة ·

ـ أنا لا أسخر أستغفر الله ·

ـ المهم ·· المطلوب منى الآن آلا أقبل قضايا سياسية ·

ـ والله يستحسن ·

ـ أهذا كل شىء ·

ـ ألف شكر ·

ـ تسمح لى ·

ـ تفضل ·

وقام أسامة وأوصله وجدى الى باب الغرفة وصافحه مرة أخرى وأغلق الباب وأخذ أسامة طريقه الى الباب الخارجى · ولكن ماهى الا خطوات قلائل حتى وجد نفسه محاطا بقوة من الشرطة ثم أغلقت عليه أبواب السجن ·

***

مكث أسامة فى السجن لايعرف شيئا عن تهمته ولاتعرف أسرته عنه شيئا ·

كان الذى رآه أسامة فى السجن بعضا مما كان يسمعه · لم يقع عليه هو تعذيب جسـمانى فهو لم يكن يخفى شـيئا يريدونه أن يبديه ولكنه عومل كما تعامل الكلاب الجـرباء

وكانت هذه المعاملة مع مايرى الآخرين يجرعونه نوعا من التدليل والرفاهية ٠

انصب عذاب الآخرين على نفس أسامة حتى لقد كان يخيل اليه أنه يعذب عذابهم أجمعين ٠٠ ولم يكن يشعر بنسمة فرح الا حين يموت أحد المسجونين فيحس أسامة أن انسانا أنقذه الله من براثن الغيلان المتشحة بجلود الآدميين والعجيب أن أسامة كان يحس أن الذين يقومون بالتعذيب فى حاجة الى الشفقة لأنهم هم أنفسهم ماهم الا أصابع الحاكم يفترس بها آدمية البشر وانسانية الانسان ٠ ويتمنى الموت للمسجونين جميعا ولنفسه قبلهم ويذكر قول المتنبى ٠

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا ان يكن أمانيا

وكان يعجب ٠٠ أيستطيع الحاكم أن ينام ٠٠ أتستطيع أصابعه هذه أن يهدأ لها ضمير ٠٠ وماهى الا أيام حتى رأى فى وجوه الذين يقومون بالتعذيب علامات لم يكن قد تعرف عليها أول الأمر ٠ وكيف لانسان أن يرى على وجه وحش قسمات آدمى ويتعرف عليها ٠ علامات لم يشهدها على وجوه بشر قبل اليوم ٠

لقد تغيرت ملامح البشرية فى وجوههم ٠٠ انقلبوا الى جنس من المخلوقات غريب عن الأجناس التى يعرفها الكون ولا يألفها الناس ٠٠ نوع من المخلوقات لا هو انسان ولا هو حيوان ولم يستغرب هذا الذى تبينه ٠ فالانسان لايستطيع أن يصب هذا العذاب جميعه على مخلوق آخر انسانا كان هذا المخلوق أو كان حيوانا ٠

والحيوان حين يهاجم الفريسة لايقدر أنها انسان أو هى

حيوان وانما يرى فيها طعامه وهو يريد أن يأكل أو يرى فيها عدوه وهو يدافع عن نفسه فالحيوان المفترس المتوحش طبيعى ومعقول فى كل هجوم يقوم به وعمله جميعه له مبرره ومعقوليته • فما هذا الجنس اذن الذى يعمل فى هذه السجون وأين صنعه العهد وكيف ركبه ومن أى مادة تكون هيكله وضميره • ان المتفرس فى وجوههم يرى مادة جديدة من المخلوقات يشك كثيرا أن تكون يد الرحمن قد مستها •• انما هم كالحاكم الذى يأمرهم سرطانات بشرية •• خلايا تفجرت من طين بلا روح •• ومن شر بلا خير ومن مادة متوحشة عجنها ابليس وخلا تركيبها من ضمير أو قلب أو شعور •

مر بأسامة شهر وثان وأوشك الثالث أن يكتمل فاذا لغط يشب فى السجن وهمهمات وجمجمة وهمس يفضى الى همس ورؤوس تميل فى براءة وتعتدل فى أسى وجزع •• انها حرب يونية •• وفتحت أبواب السجون لا لتخرج أحدا وانما لتبتلع آخرين عرف منهم أسامة كثيرين •• ورآهم وهم يجلسونهم القرفصاء فلا تحتمل سيقانهم فأغلبهم جاوز الشباب وأصبح يتوكأ الى الشيخوخة وما تحتمل سيقانهم مايريدونهم عليه ولكنهم جلسوا القرفصاء ورفعوا أيديهم فوق رؤوسهم كقرود يدربها عفريت من الجن •

الوجوه غير البشرية وغير الحيوانية فيها رعب وفيها حيرة وفيها جزع •• انها تخاف من المسجونين •• المسجونون عزل وبلا سلاح وهاهم أولاء جالسون القرفصاء وأيديهم فوق رؤوسهم والسجانون بيدهم الأسواط وبيدهم أدوات التعذيب الكهربائية والحديدية وبيدهم دائما الأسلحة النارية والمدافع السريعة الطلقات •

ولكن المسلحين بآلات التعذيب وبالأسواط وبالبارود

والمدافع يخافون من هؤلاء العزل الجالسين القرفصاء والواضعين أيديهم فوق رؤوسهم .

أهو موقف الحق الأشم أمام الظلم الخسيس .. أم أن الخلايا السرطانية من أعوان السرطان الأعظم قد أصابتها روح من البشرية ألقتها الى نفوسهم أنباء الحرب .. لاأحد يدرى .

***

مرت أسابيع قلائل بعد الخامس من يونية وأفرج عن بعض المسجونين وكان أسامة من بينهم ..

خرج فوجد أمواله جميعا تحت الحراسة والبقية الباقية من أموال زوجته . بل ان أموال خديجة وضعت تحت الحراسة وصدر الأمر الخاص باسم حرم المرحوم راشد برهان . ولست أدرى هل ارتجفت يد المارد الرعديد وهو يضع تحت الحراسة أموال ميت أصبح فى ذمة الله أم أنها كانت ثابتة متبجحة . أغلب الأمر أنها لم ترتجف فالرجفة لايبتعثها الا بقية من آدمية .. وهيهات . ولو عرفوا الحق لتبين لهم أن خديجة لم ترث عن زوجها شيئا وانما كان مالها هو مابقى لها عن أبيها ولكن ما الفرق ؟! والعجيب ولو أن أى شىء لم يكن عجيبا فى ذلك الزمن أن أمر الحراسة يقول حرم المرحوم .. كيف تجرأ مصدر الأمر وخط كلمة توحى بالرحمة ليوقع بها قرارا لايتصل بأى رحمة . ان أغلب مواد القانون تقضى بأن يعاقب المذنب بغرامة قدرها كذا من المال أو بسجن قدره كذا من الشهور أو السنين .. فالغرامة المالية اذن تستوى عند القانون مع العقاب الجسمانى وهكذا يصبح الاستيلاء الكامل على مال شخص ما حكما بالاعدام المدنى . وبلا محاكمة .

ومن عجب أن يصدروا حكما بالاعدام المدنى على شخص

مات فعلا ·· كيف يريدون أن يقتلوا من مات ، القانون يسمى هذا الجريمة المستحيلة لأن القتل لايكون الا لحياة ولا سبيل لأحد أن يقتل ميتا ·· ولكن ذلك العهد لم يكن شيء مستحيلا عنده ·

لم يأبه أسامة وانما عاد الى مكتبه وواصل طريقه فى الحياة وواصلت الحياة طريقها الى جانبه ·· صعبة عنيفة ولكنها شريفة ·· وتسير ·

***

حين تفجر الحق فى مصر ، وحين أعاد الحكم أموال الناس اليهم وحين انشرخ الظلام عن الصباح وحين عادت الحياة الى الحياة أحس أسامة أنه استطاع أن يجتاز الأزمة الطاحنة ·· ربما استطاع أبى أن يركب الموتسيكل السيدكار وربما عجزت أنا أن أجد فى بعض الفترات دراجة أتنقل عليها ·· ولكن أبى استطاع أن يسير فوق الأزمة على موتسيكل واستطعت أنا أن أسير عليها بقدمى ·

ولم ينكس أبى رأسه ولم أنكس أنا رأسى للطغيان ·· عجبا ألم يكن هو أنا وأنا أربأ بشرفى أن يدنسه ذهب الطغيان أو يذله تعذيبه ·· من يدرى لعل روحه تلبستنى ·· أو ربما ·· لاأدرى ·· ربما كنت أنا شجاعا ·· من يدرى ·· من سيذكر أننى لم أنحن ·· لم أنافق ·· لم أذل ·· وماذا يعنينى أن يذكر ذلك أحد ·· يكفى أننى أنا أذكر هذا لنفسى ·· وحسبى وفوق الحسب أننى أستطيع أن أواجه نفسى لا أخافها ولا أستخزى ·

٢٥

قال شهاب ٠

ـ اليوم نعود ٠

ـ نعم نعود ٠

ـ لقد انتصرت مصر ٠

ـ انى أحس أن أمى التى ماتت ذهبت الى الأبد وعادت لى أم جديدة شريفة مثل هذا الانتصار ٠٠ أم لا صلة لها بتلك التى تشردنا لنبتعد عنها ٠

ـ هناك أبونا ٠

ـ لعلنا نجده قد تغير ٠

ـ لا أظن ٠

ـ وهل كنت تظن أن مصر ستنتصر ٠

ـ اسمع لماذا لانتغير نحن ٠

ـ كيف ٠

ـ ان أبانا لم يشعرنا أنه يحبنا ٠

ـ فهل أشعرناه نحن أننا نحبه ٠

ونظر باسل الى أخيه طويلا وراحت ابتسامة تنداح على شفتيه لتعلو الى وجنتيه ثم الى جبهته وخيل اليه وهو ينظر الى أخيه أنه كأنما ينظر الى مرآة ولف الأخوين عبير مصرى له ذلك الأريج الخاص الذى لايعرفة الا من نبت فى أرض مصر ومن ماء النيل ترن فى أذنيه منذ ولادته الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠٠ لا اله الا الله ٠

(تمت)

خيوط السماء

خيوط السماء

١

بكالوريوس التجارة .. ! ثم ماذا .. ؟ من أين له بعمل ؟ مصر تعانى والحكومة لاتعين أحدا فاذا فعلت فبمقدار . وهذا المقدار لا يناله الا من يعرف صاحب نفوذ .. صاحب نفوذ ..

أن أباه عامل التلغراف بمحطة الديميرية . وأقرب عزبة لمحطة الديميرية هى عزبة الباشا .. وليصحب معه صديقه نديم .. نديم .. لابد أن نديم يعرف الباشا . فنديم من عائلة فيها أغنياء ولاسمها طنين لا تخطئه الأذن .. نديم الطوبجى .. أكان جده طوبجيا فى جيش محمد على .. لابد أنهم فى العائلة يدعون هذا على الأقل فكل عائلة تحاول أن تجعل بينها وبين عائلة محمد على صلة .. أى صلة .. حتى الشماشرجى لم تغير عائلته اسمها على ضآلة الوظيفة التى كان

يشغلها جدها فى عهد محمد على لقد كان مجرد خادم فى حشم الوالى ومع ذلك يتشرف أحفاده بهذا العمل المهين ٠٠ وأغلب الظن أن هذا الطوبجى كان خادما لأحد الضباط ورافقه فى حرب من حروب ابراهيم وعاد ليدعى أنه كان طوبجيا ٠٠ ياعم ٠٠ وانا مـالى ٠٠ المهم أن أجد نديم وأجد والده على معرفة بهذا الباشا الذى يعمل أبى بجوار عزبته ٠٠ انه يعرفه لاشك وقد ذكره لى فى بعض احاديثه وعلى كل حال فاننى حتى اذا لم أسافر لأجعل أبى يتوسط لى عنـد الباشـا فلابد لى أن أسافر لأخبر أبى أنى حصلت على الشهادة وأحاول أن أقيم هناك بضعة أيام حتى يتأكد أبى اننى مفلس فلو علم أن معى مالا لانقض عليه ٠ هـو لايحب أن أقيم معهم ولايحب أن يرانى وكذلك أنا ولكن فى هذه المرة لابد مما ليس منه بد ٠

معذور أبوه فهو كلما رآه تذكر ما صنعته به أمه ٠٠ ويل له من أمه وأبيه معا ٠٠ ولكن هذه قصة أخرى ٠٠ فماذا علينا اذا رويناها ٠٠ وهل وأمتع من التسلية بأحاديث الناس وأخبارهم وأسرارهم ٠٠

أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ٠٠

ولكن القرآن ينهى عن كل المتع ٠٠ والنبى كان يعرف هذا فليس عجيبا أن يقول أن الجنة حفت بالمكاره ٠

وعلى أية حال أتظنون انكم ستعرفون عمن أحكى ماهى الا أسماء سميتها فاذا أنت عرفتها وفككت عنها طلاسمها وأمتد بك عقلك الى حقيقتها فالذنب عليك يقع فانا لن أذكر أسماء ولن أتحمل وزر النميمة فاذا ساء منك الظن بالناس ورحت أنت تحمل أسـمائى مالم أصرح به أنا فانت وحدك المسئول ٠

وعلى كل حال فانت تعرف أن هوايتى وحرفتى فى الحياة أن أحكى فاذا لم احك فماذا أفعل ٠٠ والحكاية فى ذاتها لا تعترض عليها الأديان فكل الكتب السماوية لها قصصها وكل الكتب السماوية تتخذ من هذه الحكاية وسيلة لتضرب بها الأمثال لعلهم يعقلون ٠

فأى بأس على أن أحكى أنا أيضا ٠ وأن كان القرآن لا يحكى الا صدقا فان الذين مثلى لا يحكون الا ماتؤلف الحياة ٠

أحكى أذن لك حكاية أمه ٠٠

من البداية ؟

لا بأس من البداية ٠٠

ولكن البداية بعيدة تتحجب بالسنين الطوال وبالاحداث ٠

وماذا وراءنا ؟

على رأيك ٠٠ ماذا وراءنا ٠

كان ذلك فى مولد الشيخ السمالوطى بالصعيد وكان فهيم الحوت حديث التعيين فى مصلحة السكة الحديد وكان يعمل خفير مزلقان يومذاك فما كاد ينتهى من عمله حتى سارع الى المولد ٠٠ كان الترك وهو المسرح الرسمى للمولد واضعا صورة ضخمة فخمة على واجهته ٠٠وكانت الصورة تمثل امرأة رآها فهيم جميلة غاية الجمال ٠٠ واذا عرفت أن فهيم هذا لم ير فى حياته أمرأه الا أمه وهى أمرأة غاية فى القبح تزوجها أبوه دون أن يراها وأختيه وهما أقبح من أمهما لادركت سبب اعجابه بالصورة وصاحبتها ٠

وهذه قصة أخرى ولكنها قصيرة ٠٠ كان أبوه خفيرا وكان

حريصا على وظيفته كل الحرص فلم يجد وسيلة خيرا من أن يخطب ابنة شيخ الخفراء دون أن يسأل عن شيء من حقائقها فالحقيقة الوحيدة عنده انها ابنة شيخ الخفراء ·

ولم يكن يتصور انها بهذا القبح كله حتى لقد كان كثيرا مايرى انهـا أجـدر من أبيها بالوظيفـة من حيث الرجولية والأخشوشان · ولكنه رضى مرغما بما وقع فيه ·· وولدت له فهيم أول ما ولدت ثم اتبعته بثلاث رجـال وبنتين جمعـوا جميعا أقبح ما فى الأم وأقبح ما فى الأب ·

اذا عرفت هذا جميعه استطعت أن تتصور نوع الجمال الذى يمكن أن يعجب فهيم ·

كانت أمه وأختاه عجفاوات كأنهن عصا الخفراء وكانت الراقصة توحة سمينة مفرطة السمن · كانت أمه وأختاه ذوات أنوف فطساء وكان أنف توحة واثبا من الصورة كأنه نفير من فم نافخ وأستقر عند الأنف · كانت أمه وأختاه ·· أرانى سأطيل المقارنة ·· كل هذه تفاصيل لا تعنيك ولا تعنينى فى شيء المهم أن فهيم اشترى التذكرة ودفع المليمين ودخل الترك ·

وأنتهى العرض وخرج فسأل ·

ــ أهذا آخر عرض ·

ــ بل أول عرض ·

ــ وكم مرة ستعرضون ·

ــ خمس مرات ·

ــ فأعطنى لكل عرض تذكرة ·

ودفع قرشا صاغا كاملا ·

كيف السبيل الى توحة • كان هذا هو السؤال الذى أنفجر فى كيانه ولم يكن هذا مجرد سؤال وانما خيل اليه فى لحظته تلك أن الوصول الى توحة يمثل له كل الآمال التى يمكن أن يتعلق بها مستقبله •

وبماذا يمكن أن تتعلق آمال مستقبله •• خفير مزلقان أقصى ما يحلم به علاوات ثم تتوالى الأيـام عقيمـة مكرورة حاسرة الوجه لا تستطيع أن تحجب فى ثنايا خفاياها أى جديد تجعل من الانتظار متعة ومن الغد توقعا ومن السنوات أمنيات • اذا لم يتزوج من توحة فما الحياة •• توحة هى الابتسـامة المشرقة التى تستطيع أن تجعل فى حياته الترتيبة الضـجرة شيئا يتوارى خلفه من ملل الأيام • قد تسخر منه القرية أنه تزوج راقصة ولكن ما القرية وماذا يلقى منها أو من أهلها • ستصبح توحة هى حياته جميعا •

ظل يتردد على الترك كل يوم وكانت توحة تمر بالجالسين بعد كل رقصة تجمع النقطة • ومن هذه النقطة وجد فهيم وسيلة اليها • كان يشهد كل العروض وكان الجميع يلقون فى منديل توحة قرشا أو نصف قرش وكان هو يلقى خمسة قروش • وكان حريصا أن يريها القروش الخمسة قبل أن يلقى بها فى المنديل وكان طبيعيا أن تفرج توحة فمها عن ابتسامة من فئة الخمسة قروش • وحين تكرر الذهاب من فهيم أصبحت الابتسامة تزداد • حتى كان يوم أحس فهيم من غمزة عين مدربة أنها تدعوه • فدعى • وفي كواليس توحة عرض عليها الزواج وقبلت توحة •• فقد كان مثل هذا الزواج هو المصير الذى تعرف انه ينتظرها فسارت اليه مدركة أنه قدرها الطبيعى لا عجب فيه ولا غرابة ولا يحتاج حتى أى تفكير • عادت توحى الى أسمها تحية الملوانى •

ولم تهتم القرية بالتعليق على هذا الزواج فلم يكن فهيم ذا شأن يحتاج الى تعليق وسواء عنــد القرية أن يتزوج من «غزية أو يتزوج من غيرها • كل مايستطيعون أن يفعلوه هو أن يمنعوا نســاءهم عن بيت فهيم •• وقد فعلوه وكان فهيم يتوقعه •

وتفرح الأيام وتتألق فى عينى فهيم •• ثم يخبو الفرح وينطمس التألق شيئا فشيئا وتعود الى الحياة ملالاتها وتروح الأيام تدفع بعضها بعضــا فى فتور وتكاسل • عــادت الأيام تتثاءب وهى تمضى مثقلة بالضيق ولولا أن اليوم الحالى يدفعه اليوم القادم ما مضى يوم ليحل آخر •

قد يومض يوم أو بعض يوم ثم تســترخى الأيام بعــد ذلك • فقد أومض مثلا اليوم الذى أتم فيه تعلم الضرب على آلة البرقيات وأصبح عامل تلغراف وأومض اليوم الذى عرف فيه أن توحة حــامل •• ولكن ماهى الا لمعــة برهة ثم تذكر ماسيكلفه الولد من عنت وجهد فراحت الفرحة تتراجع بين ظهور واستخفاء فما جاء الليل حتى استقر رأى الفرحة على التوارى والاختفاء لتترك وراءها قلقا وخوفا لم يستطيعا حتى أن يبددا الملالة وتحجر اللحظات وكان هذا الملل أشد وطأة على تحية بعد أن انسلخت من ملابس توحة •

وكانت وهى تعمل فى المولد تنظر الى المستقبل فى ذعر يرادفه الأمل وكان العمل الذى يفرض عليها الفرح يفرض معه نسيان الخوف • وكانت الأيام عندها متجددة •• سواء عندها ان كان هذا التجديد بخير أو بشر فهو على كل حال خير من هــذه الوقفــة الغبية التى تراها من أيام زواجها بخفير المزلقــان أو حتى عامل التلغراف • كان التصــفيق يوقظ لياليها وكانت الوجوه المتغيرة ترد عنها الملالة • وكان الصراع

بينهما وبين أفراد الترك يجعلها مشغولة وكانت بهذا الشغل تستطيع أن تنسى الذعر من الغد والقلق من المستقبل وهكذا كانت تستطيع أن تنسى ماشـهدته من نهـاية الراقصـات اللواتى سبقنها فى هذه الحلبة وكيف زحف جليد الشيخوخة على نضارة الشباب فيهن فانطمرت حياتهن وهن مازلن على قيد الحياة ٠

وللنفس أمام الحياة سراديب وطرق خفية تمكنها من قبول هـذه الحيـاة واحتمال لحظاتها البطيئة الثقيلة العاتية والسريعة الرعناء والعابثة فى آن ٠ تمر السـنوات سريعة وامضـة وتمضى الأيام بطيئة وكأنهـا لاتمضى ٠ وينشـغل الانسان باليوم عن السنة وبالحاضر عن الآتى وتلهيه اللحظة عن الدقيقة والدقيقة عن الساعة والساعة عن اليوم واليوم عن العـام ٠ ويمضى العمر وأيامه جامدة كأنهـا لاتتحرك وسنواته كأنها خفقة طائر أو طرفة عين أو سراب ماظهر حتى أمحى ٠

والانسان فى لوثة الحياة ينظر الى الآخرين وكأنه ليس منهم وكأنهم ليسوا منه فهـو دائما يرى نفسـه فصيلة غير الفصيلة وجنسا غير الجنس فتجارب الآخرين عنده متعة وليست عبرة ومايحدث للانسان الذى ليس أنا لا أتصور أنه سيحدث لى ٠ وهكذا استطاعت الحياة التى يواجهها الانسان بالسراديب والطرق الخفية أن تحاربه هى أيضـا بسراديبها وطـرقها الخفية ٠ وانها لأشد مكرا وأعظم حيلة فتجاربها معلنة مشهورة يعرفها الناس جميعا ولكن الحياة تقنعهم بسحر لها عجيب أن هذا الذى يحدث للآخرين لايمكن أن يحدث الا لهؤلاء الآخرين ٠ ولهذا لم يكن غريبا أن تضيق تحية بحياتها الجديدة ولم تعد تفكر فى الأخريات من زميلاتها راقصات المولد حين عبرتهن

الحياة دون زواج فانتهى بهن الأمـــر وقد اجتمع عليهن ذل الحاجة وذل الرفض من المجتمع ٠

ولم يستغرق انقلابها من قبول الزواج الى الضيق به غير بضعة أشهر ولولا أن فاجأها هذا الجنين لربما كان لها تفكير آخر ٠

ولكن الجنين جثم على ارادتها ورضخت له وخضعت لسنن الزواج ٠

ومرت الأيام الثقيلة فولدت ومرت الســنوات الجارية فشب الطفل وبدأ يذهب الى مدرسة القرية ٠ ويل له من تلك المدرسة ٠٠ انها اليوم بالنسبة اليه نوع من الماضى عبر به ولا يريد أن يذكره ولكنه يفرض نفسه عليه فرضا محموما لا نجاة منه ٠٠ طفل هو فى السنوات الخضر وفى الأيام البله الساذجة من حياته خرج من حصار البيت الى سعة المدرسة طفرة واحدة كحيوان حبيس لم ير الى الحيــاة ولم يعاشرها وانما كل دنياه غرفات البيت وكل مراحه هذه الباحة تشب فيها معــه الكتاكيت تتوالى عليها الألوان حتى اذا اســتوت فراخا اختفت لتأتى بدلا منها كتاكيت آخرى وليس يدرى من مصير الكتاكيت الذاهبة شيئا فهو حتى لايكاد يربط بينها وبين هذه الفرخة التى يظل يأكل جزئيات منها أياما ٠

ومعه فى هذه الباحة جاموسة تبقى أحيانا بالبيت اليوم بأكمله وفى فترات أخرى تخرج مع أبيه فى الصباح الباكر وتعود معه والشمس تميل نحو المغيب ٠

وفى صدر هذه الباحة حجرة ليس بها الا فرن مبنى تخبز أمه فيه العيش وقد يصيب فى يوم الخبيز رغيفا عليه بيضتان وقد لايصيب ٠

تلك هى دنياه . لايدرى هو أن الأطفال تخرج الى القرية وتلعب بها وتجوب الشوارع والحوارى والأزقة وتقفز على أكياس القطن فى موسم القطن وتركب النورج فى موسم القمح أو موسم الأرز . حبيس البيت هو تمنعه أمه أن يرى الى الدنيا . وان خرجت هى لبعض شأنها فهى تصحبه مرتبطا بيدها لا تفلته حتى يتم لها ماتشاء من عمل خارج البيت وتعود به ويسأل هو أمه ويلحف فى السؤال لماذا لايجرى فى الطرقات مثل هؤلاء الأطفال الذين يمر بهم وتروعه أمه بالاجابة القاسية حينا أو تلاينه أحيانا ولكن الاجابات دائما عمياء لايبصر منها سببا يقنعه أو سببا يرتاح اليه .

وماذا يمكن أن تقول له أمه انها أيضا معذورة . لقد كانت تجاهد أن تؤجل لقاءه بقدرة قدر ما تتيح لها الحيلة أن تؤجل .

لم يعد يذكر ان كان قد عرف السبب الذى جعل أمه تخفيه عن الحياة فى أول يوم ذهب الى المدرسة أم لم يعرف . ولكن الشىء الذى لم ينسه ويحاول دائما أن ينساه أنه لقى هولا .

أحس فى الوهلة الأولى أنه من فصيلة أخرى غير فصيلة هؤلاء التلاميذ لم تأته الكارثة من أنه لم يكن يعرف أحدا من التلاميذ فهذه السن عند البشر لاتفصل بين الكائن البشرى والكائن البشرى الآخر وانما الأطفال جميعا كتلة واحدة متعارفة وان لم يسبق بينهم تعارف كتلة تحتويها الصداقة وان لم يسبقها لقاء كيان بكيان ومتى يبدأ التعارف تبدأ الصداقة وان لم تسبقها البواكير الأولى التى تسبق أنواع الصداقات الأخرى فعدم معرفته بالأطفال الآخرين وعدم معرفتهم به لم يكن أمرا ذا بال فى حد ذاته فقد كان يمكن أن

يكون صديقا لهم جميعا فى لحظة اللقاء الأولى • ولكن الكارثة أنه وجد نفسه كيانا مستقلا وهم جميعا كيانا مستقلا آخر •

ودخل الى الفصل وهذا الشعور بأنه منطقة منبوذة من الحياة يملأ نفسه ويهشمها تهشيما • وفى الحصة الأولى بدأ المدرس يقرأ أسماء التلاميذ حتى بلغ اسمه •

ـ فرغلى فهيم الحوت •

ـ نعم •

ـ انت •

ـ نعم •

ـ تشرفنا •

وانفجر الضحك •

ـ اسمع انت هنا تنسى البيت تماما •

ـ وماله البيت •

ـ لاشأن لنا به المهم أن تنساه تماما • المهم أن تكون تلميذا مضبوطا •

ـ على الواحدة ••

وسارع المدرس يقول للتلميذ الطويل الذى ألقى القنبلة الأخيرة •

ـ أخرس ياخليل •

ولكن التلاميذ لايخرسون وانما هم يضحكون لايريد أن يسكت وهو واقف مكانه لا يدرى ما هذا الذى يحيط به وينقذه المدرس أخيرا •

ـ أقعد يا فرغلى ٠

وقعـد ٠٠ ولكن ما هذا الذى يجرى حوله ٠٠ ما هـذه الواحدة التى ضحكوا منها ٠ ظل ذاهلا طول الدرس وما تلاه من دروس ٠ وفى الفسحة ظل يحاول مرة أخـرى أن يكون قطعة من هذا النسيج الذى يكون تلاميذ المدرسة لكنه أحس أنه قطعة مستقلة عن قماش التلاميذ ٠ شىء لا ينسجم معهم ولا ينسجمون معه ٠ انتبذ مكانا قصيا أمن اليه وأطمأن انه مخفيه عن الآخرين وراح يفكر فيما حدث له فى يومه الأول هذا فى المدرسة ٠ أى شىء فيه يجعله كيانا لا يلتئم مع كيانات الآخرين ٠ أية عجينة تجعل منه صنفا منفردا غير مقبول من ابناء مدرسته ٠ أنه طفل مثلما هم أطفـال ٠ له أب وله أم ولا شك أن لكل منهم أبا وأما أيضا ٠ لابد من خافية لايدريها وهم يدرونها ٠

ماهى ؟ لماذا ينقبض عن كل أمثاله ليصبح مادة معزولة غير صالحة أن تذوب فى الكل كما يذوب جميع هؤلاء الأفراد فى كل واحد ٠

هو لايدرى ٠ أنما كل الذى يدريه أنه عجينة آخرى أو أنهم جميعا من عجينة مغايرة لطبيعته ٠

أكمل اليوم وأنتهب الطريق الى آمه وأرتمى على ركبتها وبكى كما لم يبك من قبل ورفعت الأم وجهه اليها ٠٠ ونظرت الى عينيه ٠ رأت ذلة وانكسار ودهشـة حائرة وآلما عاصـفا وطوفانا من الأسئلة يتفجر فى رأسه وقلبه ومشاعره ولكنه لا يدرى كيف يبدأ وبمـاذا يبـدأ ٠٠ ترك الدموع والبكاء العالى الضجيج يتولى عنه السؤال وصمت هو ٠

وحين ألتقت عيناه بعيني آمه وجدها قد فهمت عنه مالم

يقله فتخافت صوت البكاء شيئا شيئا فشيئا ثم آنتحى من البيت جانبا وتكوم فيه وألقى برأســه الى ركبتيه فى ذلة وهوان لا يدرى مأتاهما ولكنهما يعصفان به عصفا آخيذا وينتاشان قلبه فى عنف صاخب وبيل ٠

ما أن دخل فهيم من باب البيت حتى سارعت تحية تقول له فى حسم ٠

ـ فهيم ٠٠ فرغلى من بكرة يروح مدرسة البندر ٠

كان فهيم يقفل باب البيت حين انفجرت هذه القنبلة حتى أذا استدار ورأى وجه تحية جال بعينيه فى الحجرة ورأى فرغلى فى كومته البشرية ورآه وهو يرفع اليه فى جهد رأسا تجاهد الذل لترتفع ورأى عينين تجاهدان الهوان يطل آصرار ساطع لا لبس فيه ٠

ولم يســأل فهيم لماذا فقد كان ينتظر هذا اليوم ويكاد يوقن أنه ملاق فيه ما يلاقيه فى لحظته تلك ٠٠ ونكس فهيم رأسه ٠

ـ حاضر ٠

وكان فى هذه اللفظة أشياء كثيرة تتعاوج فى حروفها القليلة ٠٠ كيف استطاعت كلمة واحدة آن تحمل كل هــذه المعانى ٠٠ معجزة هذا الانسان كيف يستطيع فى تلوينة صوت أن يجعل كلمة واحدة تحمل كل هذا الألم والشعور بالذنب والخضوع والأسف لابنه ، والضيق بزوجته ، والهلع لمستقبل أبنه والامتثال لقدر هو نفسه الذى قدره على نفسه ٠

٢

مدرسة جديدة

كان وجود فهيم بالسكة الحديد يجعل ذهاب فرغلى الى مدرسة البندر أمرا ميسورا فقد كان الكمسارية جميعا يعرفونه وكان من الطبيعى أن يركب فرغلى القطار مجانا فكان أبوه يصحبه فى باكر الصباح الى القطار الأول وكان ينتظره حتى يعود فى قطار الخامسة من بعد الظهر .

وكان القطار فى ذاته مصدر متعة لفرغلى والعجيب أنها متعة لم تنل منها الأيام أو ينقصها التكرار .

وفى الأيام الأولى استطاع فرغلى أن يصادق التلاميذ وصادقوه وفرحوا بهذه السذاجة التى طالعتهم منه فقد تكشف لهم عن انسان لا يعرف شيئا من المعلومات التى يعرفها الأطفال

فى هذه السن الباكرة • أنها تلك المعلومات التى جعلت أحد الفلاسفة الكبار يقول لست صغيرا لدرجة اننى أعرف كل شىء •

كان الأطفال يعرفون كل شىء أو خيل لهم ذلك على الأقل فى حين لايعرف فرغلى شيئا على الاطلاق وكما ينبت الخير من الشر فى كثير من الاحيان أصبح هذا الجهل من فرغلى هو أهم العناصر التى تجعل صداقته محببة لزملائه •

وأن يجد التلاميذ فرصة مثل هذه الفرصة التى يهيؤها لهم جهل فرغلى • لقد أصبحوا جميعا له أساتذة فى علم الحياة فعرف منهم خفايا الجنس واللفظ الجارح قبل أن يعرف منهم لعب الكرة أو لعب البلى •

وأصبحت المدرسة عند فرغلى متعة بعد أن كانت وبالا عليه • وأصبح التلاميذ يقبلون عليه فى لهفة يضحكون من سذاجته ثم يمارسون عليه أستاذية لا يتيحها لهم تلميذ آخر • ولكن أتترك الأيام فرغلى ينعم بهذا الاقبال •• ولماذا وماذا يكون هو حتى لا يواجه من الحياة ما يواجهه أمثاله •• وكيف يمكن أن ينشغل عنه مجتمعه ولا يصيب منه ما يصيبه من الآخرين ألما وعنتا •

حين أنقضت الشهور الأولى لأيامه فى المدرسة بدأت تتضح أشياء لم يكن من الممكن أن تتضح الا اذا مر بها الوقت • فالملابس التى دخل بها الطلبة الى المدرسة كانت جديدة فى بدء العام الدراسى • ولابد لكل جديد أن يصيبه القدم •

والملابس بالذات تتأثر بالاستعمال اكثر مما تتأثر بالزمن •

وضحت الفوارق بين التلاميذ وعرف الأغنياء بعضهم بعضا . وعرف الأغنياء الفقراء والفقراء الأغنياء .

وفي هذه السن لا ينظر التلاميذ الى هذه الفوارق . حتى اذا عرفوها فانها لا تعنى شيئا بالنسبة اليهم . فعلاقاتهم بعضهم ببعض في هذه السن النضرة النقية الشفيفة لا تعترف بالفقر والغنى . وحين استبانت حقائق كل تلميذ لم يكن لهذه الحقائق أى أثر عند الأغلبية الكاثرة منهم ولكن فرغلى بالذات كان من هذه القلة الضئيلة التى عرفت مامعنى أن يكون الانسان غنيا وما معنى أن يكون الانسان فقيرا . وما معنى أن يملك التلميذ اكثر من بدلة يأتى بها الى المدرسة ومامعنى الا يملك الا بدلة واحدة ماتلبث أن يحيط بها القدم فتتمزق وترتق أو يزداد بها القدم فتظل رائحة جائية من الرفا الى البيت ومن البيت الى الرفا .

ادرك هذا جميعه وأحس فى نفسه لذعة ألم ونار غيظ وبدأت براءته التى آتى بها الى المدرسة ساذجة نقية تنتابها القتامة شيئا فشيئا ووجد نفسه ينأى بعيدا عن مواطن التجمع من التلاميذ التى تسبكهم جميعا فى كل واحد لا يعرف الفقر ولايعرف الغنى ولايعنى بأمره .

فى هذه المرة فرض هو الوحدة على نفسه . وكلما سعى اليه زملاؤه يلتمسون منه هذه السذاجة التى عرفوها فيه وأحبوها منه أجابهم تلك الاجابات التى تغلق عليهم مسالك الحديث وتقفل دونهم دروب المسامرة .

وقد كان فرغلى فى وحدته هذه أشبه بنواة خلية . وكما تنقسم الخلية فى نظام ربانى فريد لا يدرك سره الا خالق

النفوس كذلك تتكون خلايا متقاربة متشابهة متماثلة بطبيعة الاخلاق التى جلبت عليها الطبائع .

وبسر هذه الجاذبية الخفية تكون حول فرغلى اربعة طلاب لم يكونوا اصدقاء فى بداية دخوله المدرسة وهم بطبيعة الحال ليسوا من قريته فالمدرسة ليس بها أحد من قريته والا لذاع السر الذى لا يعرفه هو والذى يعرفه أهل القرية جميعا والذى من أجله ترك مدرسة القرية الى مدرسة المدينة .

وهم أيضا يضحكون من سذاجته فهم أنفسهم كانوا قريبين من هذه السذاجة حين جاؤا الى المدرسة أول ماجاؤا . فقد كان آباؤهم أو كانت أمهاتهم يمنعونهم أن يختلطوا بابناء القرية ومايرد على ذلك المنع استثناء .

تكون هؤلاء الأربعة حول فرغلى وأصبحوا وحدهم فريقا فى المدرسة .

ما الذى جمعهم حوله ولماذا لم يكن هو واحدا من الأربعة ليجتمع هو معهم حول آخر ؟ لماذا كان هو النواة وليس جزئية من الجزئيات التى تتجمع ولا تجمع .

كان فرغلى جامد الوجه صموتا قاسى القسمات لم تعرف عضلات وجهه استرخاء الطفل وليانه وطراوته . لقد كان ذلك من مكوثه فى البيت لا تطالع عيناه الا وجه أمه وقد فرضت ولادته على أمه أن تمكث في البيت لا تبارحه الى ماكانت تهفو اليه نفسها من مرح الموالد وانطلاقة الغوازى فاذا قسماتها تتطلب وتتشنج لهذا الذى فرض عليها فاذا بهذا التشنج يلتصق بوجهها واذا ابنها ينمسخ وجهه على نمط وجهها . واذا هو يفقد ما يكسب الطفل جمال الطفولة . وكانت عينا أمه بعد ولادته قد انقلبتا الى كراهية فيهما عينان

يحقدان على ميلاده الذى حرمها من تحقيق ما ارادت أن ترجع اليه من حياة • فلم ير فى عينى أمه ما يراه الأطفال الآخرون من حب أو أشفاق أو وداعة أو هناء أو رضى •

لم يكن يرى الا عينين تقدحان شررا لا يعرف لغته أهو شرر الحقد أم شرر الغيظ أم شرر السخط•• لم يكن يعرف• وكذلك لم تعرف عيناه الا هـذه النظرات التى تجمدت على شعاعها ألوان شتى من الكراهية والحقد والغيظ والسخط لاتتيح فسحة من مكان لبصيص عطف أو رضى •

وكانت أمه لا تثرثر بالحـديث مع أبيه أو معـه فهى لا تتكلم الا لتقول شيئا يحتـاج الى كلام • لم يسـمعها فى حياتها تتكلم لمجرد الكلام لمجرد هـذه الثرثرة الفارغة التى يستمتع بها النساء وكثيرا ما يستمتع بها الرجال أيضا •

كانت أمه فى عيشـها التى أجبرها ميـلاده عليها ترى نفسها سجينة فى سجن منفرد لا يدرك أحد مقدار الغضب الذى يغتلى فى نفسها • ولاسبيل للغاضب أن يثرثر وغضبها هذا من نوع خاص فهى لا تستطيع ان تبين عنه أو تكشف خوافيه بل هى تخشى أن يطلع عليه أحد ولهذا لم يكن عجيبا أن تزم شفتيها كضلفتى باب لسجن تغتلى بين جنباته ألوان من عذاب •

وهكذا أنغلقت شفتاه مشـدودتين كأوتار من آلة من آلات التعذيب تأبى أن ترن بغير أصوات الحقد والكراهية والألم والهوان •

هذا التركيب الذى صنعته طبيعة الحيـاة التى يحياها فرغلى جعلت منه تلك النواة التى اجتمع عليها عمران الفوال وشلبى المبوع وعطية سيد أحمد وفرحات عبد الباسط •

ودون أن يتم بينهم اتفاق ودون تعاقد تكشف عنه الألفاظ ثم التعاهد · لقد تقاربت أرواحهم وتمازجت وأحسوا أنهم يستطيعون هم الأربعة أن يكونوا نسيجا متميزا عن هذا النسيج الضخم الذى نسجت خيوطه من كل التلاميذ الآخرين ·

انهم يكرهون هذا النسيج الآخر فى تكوينه الكامل وفى خيوطه التى صنعته · انهم يكرهون التلاميذ الآخرين جماعة وأفرادا · ويشعرون أنهم هم ·· وهم فقط فى خمستهم الجديرين بالحياة حين ينبغى أن يحرق جميع هؤلاء التلاميذ · فهؤلاء التلاميذ ماهم الا أبناء الأغنياء الذين يستطيعون أن يلبسوا أكثر من حلة وأكثر من حذاء وما الآخرون الذين يصادفونهم الا الأغبياء الذين يسمحون لهم بهذا الغنى ولا يحاربونه كما يجب أن يحارب كل شىء لايملكونه ·

وما هى الا أيام حتى راح هؤلاء النفر الأربعة بزعامة خامسهم فرغلى يصنعون مايعتقدون أنه الواجب الأول لمن كان فى مثل حالهم ·

ودهش ناظر المدرسة والمدرسون والفراشون والتلاميذ حين جاءت فسحة الغداء فاذا هم يجدون صنابير الشرب جميعها مكسورة والماء يتدفق فى شكل سيل ويأمر الناظر فتقفل محابس المياه ويبحثون عن الفاعل ولكن هيهات · ولا تمر أيام كثيرة حتى تتواتر الشكاوى الى الناظر من طلبة بعينهم أنهم حين أقاموا عن مقاعد ادراجهم كانت بنطلوناتهم مليئة بالحبر الذى كان ملقى على المقاعد بشكل خفى لا يلحظ ولو كان عند الناظر أى فكرة عن عصبة فرغلى لاستبان أن هذا لم يحدث الا فى الفصول التى كان هؤلاء الخمسة من بين تلاميذها ولعل

أسوأ ما صنعته العصـابة هو ذاك الذى تولاه فرغلى شخصـيا بمساعدة شلبى المبوع فقط · لأن الفرصة لاحت حين كانا هما فقط أمامهما ولم يتسع لهما أن يستدعيا الآخرين ·

كانا يمران أمام مصلى المدرسة وفجأة استرعت نظرهما كمية الأحذية المرصوفة أمام الجامع ·

ــ معك مطواه ·

ــ معى ·

وفى لحظات سريعة حاسمة شقا فردة واحدة لكل زوج من الأحـذية والفكرة بقـدر جرأتها تدل على عمق التجربة فى الأيذاء فان شق فردة واحدة يستغرق نصف الوقت وهو مع ذلك يقضى على الأحذية جميعا قضاءا مبرما ·

وبقدر الذكاء الذى تنكشف عنه هذه التجربة نلمح الغباء فى ثنـاياها · خرج التلاميذ من الجـامع وجابهتهم الجريمة فاغرة الافواه بشعة تدعو الى الحيرة والغيظ فى وقت معا · وكان ناظر المدرسة بين المصلين · ترك حذاءه الذبيح وذهب الى غرفته وأعلن الأحكام العرفية · كلف المدرسين أن يفتشوا جميع التلاميذ بحثا عن موس أو مطواه ·

وشاع الخبر وبدأت فرق التفتيش عملها ·

وفجأة أدرك فرغلى أنه وقع على فرصة لا تعوضها الأيام كثيرا ــ تسلل من الفصل فى هرج تناقل الأخبـار والتعليق عليها وقصد الى غرفة الناظر ·

ــ انا أعرف ذابح الأحذية ·

ــ من ؟

ــ شلبى المبوع ·

ــ كيف عرفت ؟

ـ أرانى مطواته فى الصباح وقال انه سيصنع بها انقلابا فى المدرسة ٠

ـ ولماذا لم تأت قبل الآن ٠

ـ كنت متعبا ولم أترك الفصل فى فسحة الظهر وحين عرفت الخبر سارعت أقول لحضرتك ٠

وجاء شلبى المبوع واعترف ولكنه وقد وجد الاتهام موجها اليه من فرغلى أفشى الأسرار كلها والكلمات التى تبادلاها وهما يقومان بمهمتهما وأتضحت الحقيقة أمام الجميع حتى أصبحت لا تحتاج الى شك ٠

وفصل شلبى وفرغلى من المدرسة ٠

كان فرغلى فى السنة النهائية من المدرسة الالزامية وكان الدخول الى المدرسة الابتدائية لا تحتاج الى شهادة تدل على بقاء التلميذ بالمدارس الالزامية فترة معينة لأن دخول المدرسة الابتدائية كان لا يتم الا بامتحان فلم يكن لهذا الفصل وقع على فرغلى أى أثر عدا أنه ذهب مرة أخرى الى منعزله ببيت أمه ولكنه طمأن نفسه أنه كان على آية حال عائدا الى هذا المنعزل فقد كانت السنة الدراسية موشكة على الانتهاء ٠ وكان قد أعد لاجازة الصيف عدة ٠

ـ أمه ٠٠ لماذا لا أخرج الى قرية ٠

ـ وما الداعى ٠

ـ أنا الوحيد من أبناء القرية الذى لا العب مع الأطفال

ـ البيت بعيد عن القرية ٠

ـ وهل هذا ذنبى ٠

ـ لقد بنى أبوك بيته بجانب عمله ٠

ـ وما ذنبى انا ؟

ـ لو لم تعمل عملتك المهببة لكنت الان فى المدرسة ٠

ـ المدرسة لم يبق على آجازتها الا بضعة أيام ٠

ـ أحسن من قعدتك فى البيت ٠

ـ ولو كنت مثل كل الأمهات ماكنت آنا فى البيت ٠

وأحست تحية كأن طعنة خنجر حاد الشفرتين قد أصابتها من لسان ابنها ٠ واختلطت فى نفسـها حميا الألم مع رعب القلق ٠٠ أيكون قد عرف أنها ليست مثل الأمهات ٠

ـ وله ٠٠ انت شايفنى اختلفت عن كل الأمهات ٠

ـ طبعـا ٠

ـ فيم أختلف عنهن ٠

ـ أولادهن جميعا فى الطرقات يلاعب بعضهم بعضا الا أنت ٠٠ فهل مثلهن أنت ٠

وانهدمت جالسة ٠

تبدد ألمها وزال قلقها الى اطمئنان واستطاعت بلسـان جاف أن تقول :

ـ من خوفى عليك ٠

ـ وهن ألا يخفن على أبنائهن ٠

ـ كل شيخ وله طريقة ٠

ـ الا شيخك فطريقته عجيبة ٠

وكأن ريقها أصبح دمعا وهى تقول :

ـ ولكنك لاتعرف شيئا يافرغلى ٠

ـ بالتأكيد هناك شيء لا أعرفه ٠

ـ بل أنت لاتعرف شيئا على الاطلاق ٠

ـ أنا على وش الدخول الى المدرسة الابتدائية وأعرف القراءة والكتابة والحساب ٠

ـ ومع ذلك لاتعرف شيئا ٠

ـ عرفينى ٠

ـ ستعرف ٠

ـ قولى ٠

ـ ستعرف ٠٠ من المؤكد أنك ستعرف ٠

ـ ومادمت سأعرف فلماذا لاتقولين أنت ٠

ـ سيأتى الوقت ٠

ـ والى أن يأتى الوقت الذى أعرف فيه سأبقى محبوسا هكذا فى البيت ٠

ـ ليس الأمر بيدى ٠

ـ فالأمر اذن بيدى أنا ٠

ودقت صدرها فى عجب ٠

ـ كسر يدك ٠٠ أتريد أن تخالف أمرى ياوله ٠

ـ من غير مخالفة ٠

ـ ماذا تريد أن تفعل ؟

ـ رأيت من فى سنى يعملون فى المركز ٠

ـ ماذا يعملون ؟

ـ أعمالا كثيرة ٠

ـ مثل ماذا ؟

ـ صبى فى قهوة مساعد بقال أى شىء ٠

ونظرت اليه مليا ٠٠

ـ ألست صغيرا على هذه الأعمال ٠

ـ رأيت زملاء لى كثيرين يقومون بهذه الأعمال ٠

ـ اذن فأنت تستطيع أن تعمل ٠

ـ مادمت لاأستطيع أن ألعب مثل العيال فلماذا لا أعمل مثل الكبار ٠

ـ الحكاية هذه لابأس بها ولكن ٠

ـ لاتكملى ٠٠ أعمل وأساعد أبى على المعيشة ٠

وأطرقت تحية وصمت فرغلى وتوهجت حكمة الله العلى القدير فى صمتهما ٠٠ فقد شاء سبحانه أن تلتقى العيون وتتقارب الأرحام ولكن أحدا لايستطيع أن يكشف مايفكر فيه الآخر ٠

فلو أن فرغلى رأى مايدور برأس أمـه لرأى عجبا ولما صدق ماتهمس به نفسها الى نفسها ٠ ولو أنها هى رأت مايدور بعقل ابنها لهالها أن يجتمع كل هـذا الجشع فى كيان هـذا الطفل الصغير ٠

***

استطاع زملاء فهيم أن يجدوا لفرغلى عملا بسهولة ٠ فهم

منتشرون ولهم أصدقاء كثيرون وميسور عليهم أن يجدوا لابن زميلهم عملا هزيلا وقد شاءت الصدفة أن يكون عمل فرغلي في مقهى الحرية بميدان الساعة • وقد كان موقع المقهى عظيما وكان زبائنها يملأونها أغلب ساعات النهار •

ونشط فرغلي في عمله الجديد وكان البقشيش الذي يناله أعظم من مرتبه بكثير • فقد حدد له صاحب المقهى ستين قرشا مرتبا شهريا ولكنه يحصل على ضعفي هذا المبلغ من الزبائن • والعرف في المقاهي أن يضع العاملون في المقهى كل ماجمعوه من بقشيش في وعاء خاص ثم يقسم بينهم وقد أضطر فرغلي أن ينفذ هذه القاعدة في الأيام الأولى من عمله بالمقهى فقد كان كبيرهم يفتشهم جميعا عند فتح المقهى في الصباح ويستولى على ما معهم من نقود لتكون أمانة في ظرف خاص يحمل اسم كل منهم على حدة حتى اذا أنتهى العمل في المقهى فتشهم جميعا وتقاسموا البقشيش وكان مسموحا لفرغلي أن ينهي عمله مبكرا بعض الشيء لصغر سنه وليتمكن من اللحاق بآخر قطار يعود به الى القرية • فالقطار وحده هو الذي يستطيع أن يركبه مجانا بوصفه واحدا من أسرة المصلحة •

بعد أيام من العمل بالمقهى وجد فرغلي أنه ينال الكثير ولكنه لا يحصل بهذه القسمة الا على القليل •

ذهب الى صانع أحذية وأشترى منه أبرة أحذية وخيطا فكان يفتق الحذائين في الصباح وهو ذاهب بالقطار • وكان يضع بهذا الجيب السرى العجيب الكثير من القروش التي يحصل عليها وفي المساء كان يخيط الحذاء سرا ويعود بجزء كبير من البقشيش وهكذا أستطاع أن يخفي القروش على كبير القهوة حسنين ولم يكن حسنين يتصور أن هذا الطفل

الذى لا ينفتق وجهه عن ابتسامة يستطيع أن يفتق حذاء عن جيبين ٠

ولم يكن أبوه يسأله عما أصــاب من مال مكتفيا بأنه هو الذى يقبض مرتبه جميعا آخر الشهر ٠

أما أمه كانت منــذ عمل فرغلى مشــغولة بأشياء ألهتها تماما أن تسأله عما يربح ٠

الشيء الذى لا يعرفه فرغلى ولا يملك أن يعرفه أن هذا الذى يناله سواء بالتهرب أو بالحق أقل كثيرا مما كان يستطيع أن يحصل عليه لو أنه عرف فقط كيف يضع على محياه ابتسامة تكسب وجهه براءة الطفولة وجمالها ٠ ولكن هذه الابتسامة كانت بعيدة عن تفكيره كل البعد ٠ ومن أين يأتى بها وقد عاش عمره مع أب يأتى الى البيت وقد طحنه العمل وأم لم تر فى ميلاده الا حبالا قاسية تكبل آمالها ٠ حتى اذا ذهب الى مدرسة القرية واجهته السخرية والضحك فى يومه الأول والأخير بها فجعلته هذه السخرية السريعة يكره الضحك لأنه لم يصــدر عنه ابدا وانما صــدر عليــه ودون أن يعــرف السبب ٠

وحين ذهب الى مدرسة المركز لفت به الأيام لفة كان فيها مصدرا يضحك الآخرين ثم كان زعيما لحزب الحاقدين والحقد للضحك فزع وهيهات لمن عرفت نفسه الحقد أن يعرف وجهه أو قلبه الضحك أو حتى الابتسام ٠

مسكين فرغلى لقد حرمته الحياة الضياء الوحيــد الذى يستطيع به الانسان أن يشق طريقه فى ظلام الأيام ٠ ولكن الحياة العظيمة التى تستطيع دائما اذا منعت أن تهب والتى اذا حرمت انسانا نعمة من أنعمها أمدته فى خفية وفى كرم

بما يغنيه من هذه النعمة · هذه الحياة الرؤف الرؤوم حرمته متعة الاشراق أو الضحك أو الابتســام وفى نفس الوقت وهبت له نعمة الجهل بأنه فاقد لأجمل مقومات الدنيا وأحلى مافيها والشيء الذى يجعل من الدنيا فى كثير من الأحيان عليا قريبة من مسابح السماء ·

٣

نقلة

انتهت أجازة الصيف وفى اليوم الأول من المرحلة الابتدائية كان فرغلى قد لبس حلة جديدة اشتراها له أبوه وأكمل الحلة بكل مايحتاج اليه صاحبها من رباط عنق وقميص وحذاء ونظر فرغلى فى المرآة التى لايوجد غيرها فى البيت والتى تكاد تنطبع عليها صورة أمه من كثرة ماتقف أمامها • رأى في الملابس الجديدة انسانا غريبا عليه بل رأى فى المرآة وجها أوشك ألا يتعرف عليه فلم يكن هو أو أبوه يقفان أمام المرآة الا لمناسبة وما أقل هذه المناسبات فى حياته أو فى حياة أبيه •

أحس فرغلى وهو واقف أمام المرآة ينعم النظر أنه لأول

مرة يجد في نفسه انسانا ينبغى أن يحترمه الآخرون أو على الاقل أحس انه ليس عجيبا أن يحترمه الآخرون · فقد كانت ملابسه تشعره دائما أنها من أهم الأسباب التى تدعو الآخرين الى احتقاره · وأحس فرغلى أنه يجب أن يكون كذلك دائما · وحينئذ خيل اليه ان صورته فى المرآة تزداد تقطيبا ترادفه دهشة موصولة باليأس وتنتهى به هذه المشاعر الى نوع من الاصرار لايدرى من أين هبت عليه رياحه بل هو حتى لايدرى ما الذى يهدف اليه اصراره هذا · انه مصر ولكنه لايعلم على ماذا يصر وتوهجت عيناه فهما شرر وبريق شرس وصرفت أسنانه يضغط بعضها على بعض وفى حركة مفاجأة عنيفة لوى وجهه عن المرآة وذهب الى السرير حيث كانت تنتظره الحقيبة الجديدة وأمسك بها وتهيأ للخروج مع والده ليركب القطار ·· الى المدرسة الابتدائية · والمدرسة الابتدائية فى البندر بطبيعة الحال · ففى ذلك الحين لم يكن فى القرية أو فى أى قرية مدرسة ابتدائية ·

حين بلغ القطار أركبه أبوه وتركه وحده يسير الى مصيره الجديد · ألم يكن من المناسب أن يركب معى ويذهب بى الى المدرسة الابتدائية انها مرحلة جديدة من حياتى ولاشك أننى سأحس بعض الرهبة وأنا أخطو هذه العتبة لأول مرة ويلى · ماهذا · ان تلاميذ كثيرين من البلدة يركبون القطار · أنا بينهم الوحيد الذى لايرافقه أبوه ·

والتقت العيون وتعرف أبناء القرية على فرغلى بل وتعرف عليه أيضا آباؤهم · ماذا أصابهم · لماذا صرفوا عنه عيونهم لينظر بعضهم الى بعضهم · وما هذه الابتسامة الصارخة بالتهديد التى ترتسم على أفواههم · وما هذا التجاهل الذى يلقى به عليه آباء التلاميذ · أى شىء عجيب فيه يعرفه أبناء القرية ولايعرفه الآخرون ·

لم يلتق بهذه المشاعر فى مدرسة البندر الالزامية ولا التقى بها فى رواد المقهى أو من زملائه بها أو من صاحب المقهى • ربما التقى بالظلم أو بالضرب من صاحب المقهى أو بالسخرية المعلنة من خطأ ارتكبه أو ملبس متهرأ يرتديه • ولكن هذا النوع العجيب من التفاهم الصامت على الهزء به لم يعرفه الا من أبناء قريته هؤلاء •

وصل القطار ونزل متباعدا عن تلاميذ القرية • ولم يكن محتاجا الى دليل ليعرف الطريق الى المدرسة الابتدائية فقد عاش شـهور الاجازة بالبندر ومن الطبيعى أن يعـرف المدرسة الابتدائية التى سيتعلم بها ••

ودخل المدرسة وفى لحظات وجـد التلاميذ قد أصبحوا جماعات متفرقة ووجد أبناء قريته جماعة وحدهم ومالبث أن وجد الكثيرين من أبناء مدرسته الأولى ولم يفكر أن ينضم الى أى جماعة وانما بقى وحده منفردا لايجد أحـدا يأنس اليه • فهو غريب عن أبناء قريته غربته عن أبناء مدرسـته السابقة •

كانت فى مدارس ذلك الحين مقاعد طويلة أشبه بمقاعد البوابين متناثرة فى فنـاء المدرسة • اختـار مقعدا مواجها للباب يرقب منه التلاميذ الداخلين •

كان شلبى المبوع أول من دخل من جماعته القديمة • نظـر اليه مليا ولم يره شلبى وان كان فرغلى ظن أن شلبى رآه وصرف عنه عينيه ولم يعجب فرغلى من هذا التصرف بل ان مافعله بشلبى فى معركة الأحذية هو الذى موه عليه صدق النظرة وجعله يظن هذا الظن • أسقط شلبى من تفكيره وظل محملقا للباب ينتظر أن يرى عمران الفوال أو عطيه سيد أحمد أو فرحات عبد الباسط جماعته القديمة •

وقبل أن ياتى أحد منهم أحس يدا تربت كتفه والتفت ولم يصدق هنيهة ثم مد يده لشلبى الذى رآه فجأة يحييه . لم يكن فرغلى يدرك بعد ان السفلة يغفرون لبعضهم البعض التصرفات السافلة عن طبيعة مواتية وغريزة لاتدبير فيها ولا منطق لها .. او هم على الاقل لايحاولون البحث عن هذا المنطق . فالحقيقة أنهم يلعبون فى أرض واحدة ينعدم فيها الخلق وينمحى ماتعارف النـاس عليه من أخـلاق أو مثل . وأسلحتهم التى يتعاملون بها واحدة لايختلف سلاح أحدهم عن سلاح الآخر وفى هذه الظلال من انعدام الخلق الذى اتفقوا عليه دون عقد شفهى أو تحريرى كل شىء مباح . فشلبى لم يغفر لفرغلى لانه طفل طيب يعـرف معنى الصـفح عن خطأ الصديق وانمـا غفر له لانه لو كان فى مكانه لصنع نفس الصنيع .

وجلس التلميذان متجاورين ، ومالبث أن جاء فرحات عبد الباسط وأعقبه عطية سيد أحمد وجلس أربعتهم على الدكة .

وبدأ بينهم الحديث عما صنعه كل منهم فى الاجازة ولكن قليلا مادار الحديث بينهم . فقد فوجئوا جميعا بحركة غير عادية فى الفناء . انفرطت الجماعة التى كانت تضم أبناء القرية وتفرقوا فى أنحاء شتى يقف كل واحد منهم مع جماعة ثم ماتلبث عيـون هـذه الجماعة أن تلتفت الى حيث يجلس الأربعة ثم يضحكون ونظر الأربعـة بعضهم لبعض لايدرى أحد ماوراء هذه التحركات الا فرغلى . فقد أيقن فى رهبة زلزلت كيانه أن السر الذى لايعرفه والذى لوى حياته كلها عن طريقها الطبيعى هو الذى ينشر الآن على هذه الجماعات . هو يعرف أن الأمر متعلق به ولكنه لايعرف ماهو . كانت

لحظات ربما اكتملت دقيقة أو دقيقتين لم يدر وانما كانت اللحظة عمرا مديدا كريها متراخيا متهرئا مقيتا كان يعرف أن شرا يلقى عليه شباكه ولكن لم يكن يدرى أى نوع من الشر ذاك الذى يكيدونه له ، لايدرى مداه ولا عمقه ولا لونه ولا مدى الدمار الذى يتغشاه ٠

أصبح القـدماء جميعا عيـونا تحيط به من كل متجه ويسفلها ابتسامة فيها سخرية وفيها احتقار وكانت الوجوه المتجهة اليه تحمل سمات الوحش وقد وجد فريسة هو واثق من افتراسها فهو يسعى أليها فى غير جهـد فيضيف الى لذة الافتراس لذة التمتع بذعر فريسته ٠

وراحت الجماعات تسعى الى حيث يجلس وكأنهـا على التباعد بينها قد تواعدت على اللحظة التى تتحرك فيها فى نظام عفوى منسق وكأنه مرتب فى دقة ومهارة ٠

حتى اذا أحاط تلاميذ المدرسة بالدكة ومن عليها خلع أحد التلاميذ رباط عنقه وربطه حول وسطه وصاح ٠

ــ على وحدة ونص ياواد ٠

وسحب لفظة الواد هذه فى ميوعة فاجرة فاذا التلاميذ جميعا وفى لحظة واحـدة يصفقون تصـفيق المتفرجين على الرقص واذ تلميذ آخر يتحزم برباط عنقه ويدخل الى الحلبة مع التلميذ الأول ٠

وينظر أربعة الدكة بعضهم الى بعض ويدرك فرغلى أنه المقصود ولكن لايدرى ما تحمله هذه الرقصات وهذا التصفيق ويقوم شلبى المبوع ويتبعه عطية ثم فرحات ويبقى فرغلى وحده ، وقد أنهدم كيانه فالرقص مستمر الآن له وحده وهو لا يدرى ماذا يعنيه هذا الرقص ٠

لم يجد شيئا يفعله الا أنه يتابع اصدقائه الثلاثه وقد اندس كل منهم فى ناحية من نواحى التجمع وراح يرى على وجه كل منهم معالم دهشة ثم سخرية لم يختلف واحد منهم عن الآخر فى هذين الانفعالين • ولم يعد أحد منهم الى مكانه من الدكة ولكن لم يشترك أحد من الثلاثة فى التصفيق الا شلبى المبوع وقد انفرجت شفتاه عن ضحكه عريضة فيها كل الشماتة والسخرية ولم يكن غريبا الا يشعر نحو شلبى بشعور يختلف عما يحس به نحو التلاميذ جميعا ولم يحاول طبعا أن يعجب من نفسه انها أخذت فى موقف شلبى مأخذا طبيعيا وكأنها لا تنتظر غيره •

وضرب جرس البدء لليوم الدراسى وصاح التلاميذ مرة واحدة فى أتفاق وعلى غير أتفاق •

ـ هيييه •

واخيرا تمكن فرغلى أن يخلو الى فرحات •

ـ ماذا يقصدون ؟

ـ الا تعرف ؟

ـ ابدا •

ـ كيف ؟

ـ لا أعرف • لقد حصل مثل هذا تقريبا حين ذهبت الى مدرسة القرية ولهذا جئت اليكم فى المدرسة الالزامية •

ـ تريد أن تقول أنك لا تعرف •

ـ مطلقا •

ـ لاتعرف ماذا تعمل أمك ؟

ـ أعرف ٠

ـ ماذا ؟

ـ تعمل أمي وزوجة أبي احيانا ٠

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ قبل أن تكون أمك وقبل أن تكون زوجة أبيك ٠

ـ كانت بنتا مثل كل البنات ٠

ـ فأنت أذن لا تعرف شيئا عن أمك ٠

ـ كيف ؟

ـ البلد كلها عندكم تعرف ٠

ـ كانت تمنعنى أن ألعب مع أحد ٠

ـ معذورة ٠

ـ لماذا ؟

ـ حتى لا تعرف الحقيقة ٠

ـ وما هي الحقيقة ؟

ـ أمك كانت غزية ياأستاذ ٠

ـ ماذا ؟

ـ كانت راقصة فى الموالد ٠

وتجمد فرغلى يعجز كيانه عن التحرك ٠ لقد جاءت اليه الحقيقة التى تفسر سنوات عمره الماضى جميعا ٠٠ كان يمكن أن تكون الحقيقة أى شىء الا هـــذا ٠٠ وصـــاح به فرحات :

ــ هيـــا ٠

ولم يلتفت الى نداء فرحات ٠ وعاد فرحات يصيح ٠

ــ ألم تكن تعرف أم لم تكن تريدنا أن نعرف ؟

وفي وجوم شبه أبله هز فرغلي رأسه ويمنة ويسرة ولم ينطق ٠

ــ لا يهم ٠

ونظر اليه فرغلي في دهشة ولم يقل شيئا ٠

ــ لايهم فكل حقيقة ســتعرف في يوم من الأيام لايغير من الأمر شيئا انك كنت تعرف أو لم تكن تعــرف المهم أنك عــرفت وعليك أن تدبر مستقبلك على أنك تعــرف وعلى أن كثيرا من الناس سيعرفون صدفة أو يبحثون حتى يعرفوا ٠٠ وجذبه فتحرك معه لأنه لم يكن يملك أن يقود نفسه أو يتحكم في تصرفاته ٠

ســار ذاهلا ولم يسمع شيئا من الأســماء التي يلقيها المدرس ليحدد لكل تلميذ الفصل الذي سيكون فيه وحتي حين سمع اسمه لم يعن بأن يعرف فصله وجره فرحات وذهب به الى الفصل فهو زميله فيه وأختار فرحات المكتب وجلس اليه وأجلسه معه ٠ وأحس فرغلي أخيرا أنه يستطيع أن يخلو الى نفسه وأن يفكر ٠

أن الأم والأب من الأمور التي لا يختارها الأبناء ٠٠٠ ما ذنبه بل وما ذنب أمه ٠٠ الذنب كله ذنب أبيه ٠٠ ولكن أكان يتصور هذا الذي يحدث لفرغلي الآن ؟

كل هذا لايهم ٠٠ لا يهم الآن الا شيء واحد كيف سأظل في هذه المدرسة أربع سنوات ٠٠ كيف سأواجه الطلبة ٠٠ وكيف أعيش بينهم ٠٠ غزية ٠٠ راقصة موالد ٠

وطبعا المدرسون سيعرفون وطبعا سيحاول بعضهم ان يسخر مني وأين يجد فرصة كهذه حتى يظهر خفة دم أمه وسيحاول بعضهم أن يجعل منه مشكلة اجتماعية وويل لفرغلي من هذا الذى سيحاول أن يساعده على حل عقدته فان فرغلي لا يدرى أن هؤلاء فى أغلب الأمر يضيفون الى العقدة الواحدة عدة عقد لا سبيل الى حل واحدة منها . وسيحاول بعضهم أن يشفق عليه ويرد عنه الطلبة وهذه الشفقة هى شر ما تلاقيه نفس فيها ما فى نفس فرغلي من الحقد .. ستكون وبالا عليه أى وبال .. وسيحاول بعضهم ممن يدعى الترفع والكبرياء أن يتجاهل الأمر وكأنه لا يعرفه وربما كان هذا أخفهم وطأة . طبعا لم يفكر فرغلي فى هذه الأشكال من المدرسين ولم يصنعها ولكنه كان يفكر فى الكارثة ككل .. فى الكارثة برمتها بكل ما تحويه من خزى وذلة وامتهان وألم دون أن يكون له يد فى ذلك جميعا .

كان المدرس يشرح الدرس . وبين كل حصة وحصة لم يخل الأمر من غمزة أو نكتة من طالب أو أكثر . وفى فسحة الظهر لها عنه التلاميذ كجماعات ولكنه لم يفتقد بعضا قليلا منهم يمر عليه فيلقيه بكلمة أو هزة وسط أو تصفيقه .

وتحسس أصدقاؤه الثلاثة الموقف فحين وجدوا تحمس الصباح قد خف عادوا يلتفون حوله والعجيب أنه أحس أنه لم يفقد بين هؤلاء الثلاثة مكانته وكأنهم ينتظرون أن يكون زعيمهم مختلفا عن الآخرين حتى ولو كان هذا الاختلاف متمثلا فى زقص أمه .

وحين انتهى اليوم الدراسى أحس فرغلي احساس الذى كان ينتظر نتيجة امتحان وتكشفت عن سقوطه فمشاعره مزيج من الشعور بالاطمئنان الى اليأس والراحة من القلق

وشعور بالمهانة والخجل أنه صنف آخر غير أصناف التلاميذ أجمعين . كانت نهاية اليوم الدراسى أخف وطأة من بدايته وأصبح هو يتحرى ان يبتعد ما وسعه الجهد عن تجمعات التلاميذ فيما عدا أصدقاؤه الثلاثة . وعند الانصراف ذهب الى المحطة ورأى من بعد العربة التى يركب فيها تلاميذ القرية فأختار أبعد عربة عنها وأنزوى فيها صامتا مطرقا وقد عاوده أصرار الصباح الذى أجتاحه والذى لم يستطع أن يتبين منه الأمر الذى ينبغى أن يصر عليه . هو أصرار على مجهول ولكنه يحس به الآن يزداد عنفا وضراوة ومع هذا كان كيانه منسحقا لايدرى لنفسه ذنبا فى هذا الهول الذى يلاقيه ولا يدرى أيضا أى أنسان يستحق أن يوجه اليه اللوم فيما يصرخ فى جنباته من أنين محموم مجنون يتفجر به الجنون ويكتمه لا يظهر ولا يبين ولا يعرفه أحد . فكفاه خزيا أن يكون ابن راقصة ولاداعى بعد ذلك أن يكون مجنونا أيضا .. أو لا داعى على الأقل أن تظهر عليه أعراض الجنون .

ألم يكن أبوه يقدر هذا حين تزوج أمه . واذا كان قد أساء الاختيار وتزوجها أكان لابد لها أيضا أن تلد . ماذا ينتظر هذان الأحمقان لابنهما أن يكون . باشا ؟! ألم يعرفا مصير أبناء الغوازى بين أبناء النسوة الأخريات . قد يكون بشأن هؤلاء النسوة شرا من شأن أمه . وربما كانت الغالبية العظمى فهن غير شريفات . ولكنهن لم يعرضن أنفسهم فى الموالد ولم يوصمهم قدرهن بأنهن غوازى تلك الوصمة التى لاتترك المرأة حياتها جميعا بل وتلاحقها أيضا فى أبنائها وان كان الأبناء أبرياء .. نعم وان كان الأبناء أبرياء .

وصل القطار الى القرية وتسلل فرغلى من طريق بعيد

عن طريق التلاميذ وبلغ البيت . كانت أمه وأبوه ومعهما عمته تفيدة فى مدخل البيت . حاول أن يدخل الى حجرته مباشرة ولكن كيف ؟ سلم على عمته وقبلته ثم أمسكت كتفيه ومدت بهما ذراعيها الى أقصى مايمتدان ونظرت اليه مليا .

ــ وله .. مالك ؟

وأطرق ولم ينطق .

ــ هل زعلك أحد ؟

وهز رأسه نفيا .

ــ لم أستطع أن أشترى لك شكولاته فقد تركت مصر فى عجلة خذ نصف الريال هذا واشتر أنت مايحلو لك .

واختطف نصف الريال الورقى وجرى الى حجرته .

والتفتت تفيدة الى أمه .

ــ ماله الولد ياتحية ؟

ــ لاأعرف .. ساعات كثيرة أجده كشر هكذا بلامناسبة .

ــ كان بودى أن أشترى له الحلويات التى يحبها ولكن عمك حسين لم يعرف أنه مسافر للتفتيش الا قبل السفر بساعة فاقترح أن أجىء معه لأراكم وأنتظره فى محطتكم وهو عائد . ياترى هل فرغلى زعلان لأنى دخلت بيدى فاضية ؟

وقال فهيم الحوت :

ــ يا أختى تفيدة لاتشغلى بالك . ماذا يمكن أن يزعل منه عيل الا شغل عيال مثله .. ولايهمك .

ولكن زوجته تحية بخبرتها وأمومتها معا أدركت أن الأمر ليس بهذه الضآلة وانما جارت زوجها فى الحديث .

ـ على رأيك . اذن فلن تبيتى معنا الليلة .

ـ ياليت .. كان مناى . ولكن عمك حسين من يخدمه . لقد كبر الأولاد كما تعرفين وأصبحت أنا وهو وحدنا فى البيت فاذا عاد من العمل لم يجد غيرى وأظل أخدمه حتى يخرج ليقعد على المقهى وهذه الفترة هى التى أستطيع فيها أن أزور صديقاتى أو أولادى لكن حتما أكون فى البيت قبل رجوعه فان عاد ولم يجدنى غضب كأنه عيل صغير .

ـ ربنا يخليك له .

ـ ويخليك ياختى العقبى لك حين تفرحين بفرغلى وتزورينه فى بيت عدله ان شاء الله .

ـ سلمت ياحبيبتى .

وانبعث صوت من حجرة فرغلى كأنه أنين .

ـ أمه .

وحاولت تحية أن تتجاهله ولكن تفيدة قالت لها :

ـ قومى ياحبيبتى شوفى ابنك .. يمكن أن يكون جائعا .

ـ سأعد له الأكل حالا . أنا أريد أن أجلس معك لى زمان لم أرك .

ـ ياأختى ربنا يجبر بخاطرك . أنا ميعادى قرب .

وقالت تحية لتغير الحديث :

ـ وعم حسين أفندى مرتاح فى الشغل .

ـ له أربعون سنة فيه .. ليس فى مصر من يعرف

الأرشيف مثل عمك حسين وهو اسم النبى حارسه ذكى وشاطر ٠

وقال فهيم :

ــ أتراه متضايقا لقرب خروجه على المعاش ٠

ــ ياأخى يافهيم انت تعرف حسين يرضى بكل شىء وهو عامل حسابه على يوم المعاش ومبسوط فى أمان الله ٠ كل الذى سيتغير انه سيجلس على المقهى فى الصباح والمساء بدل أن يجلس عليها فى المساء فقط والماهية تقريبا لن ينقص منها شىء ٠

ــ على رأيك ٠

وجاء الصوت المطحون مرة أخرى ٠

ــ أمــه ٠

ــ قومى ياحبيبتى شوفى فرغلى ٠٠ وانا فتك بعافية ٠٠ تعالى معى يافهيم وصلنى المحطة تركبنى القطار وتسلم على حسين أفندى ٠

ــ أى والله لى زمان لم أره ٠٠ هيا بنا ٠

حين دخلت تحية الى فرغلى وجـدته جالسا على حـرف السرير ينظر الى فراغ ٠٠ باهت العينين جامد الوجه وحين توسطت الحجرة نظر اليها طويلا وفهمت هى كل شىء وكأن شيئا يتكلم فى داخلها ٠٠ شيئا غير انسانى ينطلق عن حطام مدمر كل التدمير ٠

ــ أصحيح ياامه ٠٠

ولم يكمل ٠٠

ـ أمك أشرف واحدة فى هذه الدنيا كلها ٠

ـ اذن فهو صحيح ٠

ـ وماذا فى الأمر ان كان صحيحا ٠

ـ لو لم يكن فيه شىء لتركتنى ألعب مع عيال البلد ولتركتنى أروح المدرسة فى البلد ٠

ـ خفت عليك ٠

ـ والآن ٠

ـ ماله الآن ؟

ـ ماذا أفعل ؟

ـ ضع اصبعك فى عين أعظم عظيم فيهم ٠٠ الفقر ليس عيبا وانا كنت آكل لقمتى بعرق جبينى ولو لم آكن شريفة ما أبقانى أبوك فى بيته كل هذه السنوات ٠

ـ لافائدة من كل هذا ٠

ـ اذا كنت تريد أن تغيظ من يسيئون اليك ذاكر وانجح واطلع الأول عليهم ٠

ـ أتظنين هذا ينفع ٠

ـ لاينفع غيره ٠

ـ أمه ٠٠ أنا اتبهدلت قوى ياامه ٠ اتبهدلت قوى ياامه ٠

والعجيب أنها وجدت نفسها تلقفه فى حضنها مع أحزانه وكلاهما لايدرى ماذا يقول للآخر ٠

***

لم يكن أمام فرغلى شىء يعمله فى البيت الا أن يذاكر ، أما فى المدرسة فقد أصبحت عصابته المكونة منه ومن الثلاثة الآخرين هى مصدر تحطيم كل شىء جميل يملكه الآخرين . ان كان قلما سرقوه ، أو كان حلة حرصوا على أن يلطخوها بالحبر . وكان من الطبيعى أن يبيعوا مايسرقوه ويتقاسموه ولكن فرحهم بالتخريب كان أعظم .

ولم يكن عجيبا أن يكون أربعتهم من الذين ينجحون فى امتحانات الفترة وامتحانات آخر العام ولم يكن عجيبا أيضا أن يكون فرغلى من المتقدمين لأن الثلاثة الآخرين يستطيعون طبعا أن يلعبوا مع أصدقاء . ولو لم يكن فرغلى قد حثهم على المذاكرة حتى لايفتقدوا عطف المدرسين لما أصابوا هذا النجاح الذى يصيبونه دائما .

ووصل فرغلى الى السنة الثالثة الابتدائية ولم تكن سنه متناسبة فى سنته الدراسية فقد بدأ التعليم متأخرا ولكن السن لم تكن ذات شأن فى هذه الأيام من حياة التعليم فى مصر . كان فرغلى حينذاك يقترب من الرابعة عشرة .

٤

انطلاق .. أم قيود

كان فرغلى فى الأيام الأولى من السنة التى سيحصل فيها على الابتدائية ، والابتدائية فى هذه الفترة من الزمان .. معناها أن يذهب التلميذ حين ينالها الى المرحلة الثانوية .

وكان فرغلى قد انفصل تماما عن منزله . وقد استطاع أن يكتفى بصداقة الثلاثة الذين قبلوه على ما به من هذه الأمومة التى أثارت عليه سخرية التلاميذ ، وكان حريصا دائما ألا يتعرض للعب أو مناقشة مع تلاميذ آخرين . وأصبحت حكاية أمه الراقصة حقيقة لاتثير الحماس فى المدرسة ، ولكنه مع ذلك كان دائما يشعر بالقوة التى تهدده من الطلبة وكأنما تحذره هذه العيون ألا يتعدى المكان الذى وضعته فيه أمومته .

والعجيب ان التلاميذ لايعرفون ولايهمهم أن يعـرفوا شيئا عن مهن الآباء ولا يتناقل الطلبة شيئا عن هؤلاء الآباء الا اذا كان الأب ذا وظيفة ملحوظة فى المديرية كالمدير أو وكيل المديرية أو رئيس فى مصلحة · أو اذا كان الأب صاحب سوابق من خريجى السجون أو من المقيمين به ولم يكن فى المدرسة أحد من هؤلاء · أما الأمهات فطبيعة الأمر تقضى أن يكن جميعهن غير عاملات · والفلاحات على مايبذلن من جهد وجهاد فى الحياة لايعتبرون فى نظر التلاميذ عاملات ·

وهكذا شاءت الأقدار أن ينفرد فرغلى باهتمام التلاميذ بعمل أمه الذى تركته والذى لايريد أن يتركها · وعلى كل حال فقد ساد التلاميذ ركود من الاهتمام بفرغلى أو أم فرغلى وساعد هو على أن ينسى التلاميذ أو يسكتوا على الأقل عن ذكر أمه أو تذكيره بها ·

وفى بداية الربيع كان فى منطقـة قـريبة من قـرية الديميرية مولد · وأحب الأب والأم أن يصحبا ابنهما الى هذا المولد فرفض رفضا مطلقا · ولم يناقشه أحد منهما فقد كان كلاهما يعرف تمـاما الأسـباب التى تجعله يصر على هـذا الرفض ·

وذهب فهيم مع تحية ودخلا الترك مسرح المولد ·

ماهذا الشعور الذى تولى تحية ·

انى أعيش ·· هـذا هو مكانى · كأنى كنت فى قبر وعدت الى الحياة · بل كأنى كنت فى بلد غريبة وعـدت الى حيث يجب أن أكون · أو حيث أحب أن أكون ·

وجدت تحية الكثيرين والكثيرات من الزملاء وأحست من تحيتهم أن مكانتها عندهم لم تزل كما هى وتحسرت · فقد

أصبح من الصعب عليها أن تترك ابنها اليـوم • فاذا كان ماضيها قد جعـل منه هـذا الفتى التعيس فكيف اذا انضم الحاضر والمستقبل الى هذا الماضى •• لا •• لاسبيل •• وداعا ايها المسرح •• وداعا ياليـالى السعادة أيام كنـا نمرح فى شقائنا ونستلذه وتخفق القلوب منا بهذا التصفيق ، وذلك الصفير ، وتلك القروش المعدنية أو الفضية أو الورقية وهى تلقى الى مناديلنا • كنا فى هذه الأيام نحس أننـا فى قلب الحياة وفى شرايينها نصنعها كما تصنعنا ونطحنها كما تطحن كياننا ونفوسنا وكرامتنا •

أحس اليوم أننى واقفة على جسر الحياة وهى تمر لاتشعر بى وأشعر أنا بريحها الخاطفة تعصف بلحظات حياتى وتحيلها الى غضون على وجهى وشعرات بيض فى رأسى وملالة تملأ كل أيامى ونفسى • ولكن هيهات لا مكان لى اليوم الا هذا الجسر •

كان فهيم جالسا الى جوارها فى كواليس المسرح ينظران الى الراقصة التى حلت مكانها • وأحست تحية أن الرؤية الى المسرح ليست جديرة بها • فما هذامكانها • انها لاتستطيعأن تكون متفرجة فى الحياة ومتفرجة فى المسرح أيضا • أحست شيئا خفيا يشدها أن تقف وأن تذهب حيث يتجمع زملاؤها وزميلاتها وقالوا ولكن هى لم تقل شيئا فجميعهم يعرف أنها أصبحت أم فرغلى فأى جديد أو جديدة يمكن أن ترويه لهم بعد ذلك • انهم هم وحدهم وهن وحدهن الذين يملكون أن يقولوا ويحـكوا فهم يرون فى كل ليلة مايصـلح أن يكون موضوع رواية وحكاية •

اقترب منها الحاج وهدان أبو نار •

ــ توحة •

وتخلجت لحظة ثم أفاقت . انها هى التى يقصدها .

ــ يوه ياحاج فكرتنى بالذى مضى .

ــ تعالى .

ــ عينى .

ــ لماذا لانعيد الذى مضى ؟

ــ وزوجى وابنى .

ــ الولد كبر وهذا الزوج يستطيع أن يجد غيرك ولكن مكانك هنا ..

ــ وكيف ياحاج .

ــ من غير كثرة كلام .. نحن قدامنا أسبوع .. فكرى وطبعا لن تنضمى الينا الا ونحن مسافرون حتى لايحاول زوجك أن يجدك ويضايقك ويضايقنا .

ــ ياليت ياحاج .. كان من عينى .

ــ فكرى .. ياستى وهل سآخذك الآن .. قدامك أسبوع فكرى .

ــ لا أظن ..

ــ أنا منتظر على كل حال .

ــ ربنا يخليك .. يعنى مازلت أنفع .

ــ وهل شفتنى أرمى فلوسى .

ــ فشر .. أنت سيد من يعرف أين يحط قرشه .

ــ ناصحة .. فكرى وأنا منتظر .. مع السلامة .

اسبوع .. عادت الى البيت وخلا بها الصباح . فهيم فى المحلة وفرغلى فى المدرسة . وهى وحيــدة . ولا عمل .. لا تنظيف للبيت الا أن يكنس ويعاد الى السريرين ما أشاعه فيهما النوم من اضطراب . ثم لا حــاجة الى طبخ الطعام . فالطبخ لايكون الا فى ايام قلائل من أيام الأسبوع . واطعام الطيور لايحتاج الى وقت كثير فما هى الا الساعة أو بعض الساعة ثم يصبح اليوم كله خاليا بلا عمل . الملالة تملأ وقتها جميعا . ولو كان زوجها يعوضها عن هذه الملالة اشراقا أو حديثا يجعل حياتها سائغة بعض الشىء لكان من الممكن أن تتحمل هذا الفراغ القاتل .

ان فراغ الوقت وحش يكشر لها عن أنيابه فى كل أيامها . وهو على قســوته رحيم اذا هى قارنته بالفــراغ الذى مزق مابينها وبين ابنها . انه يحاول كل جهده آلا يكلمها . يحاول أن ينسى أنها موجودة فى البيت فى اللحظــات القليلة التى يقضيها قبل النوم فهو لايأتى من المركز الا قبيل موعد نومه بساعة أو ساعتين على الأكثر . فقد أصر أن يعمل بالمقهى بعد خروجه من المدرسة وحين جادلته أمــه ازداد اصرارا وحين قالت له :

ـ ألا تخشى أن يعيرك زملاؤك بأنك تعمل فى المقهى .

أطرق وقد عض طرفه فى غيظ كظيم .

ـ هذا أبسط كثيرا مما يعيروننى به .

ولم تكمل الحوار وعمل بالمقهى .

ما بقاؤها اذن ؟

فهيم لم يكن بالنسبة اليها الا زوجا تزوجته لأنها تصورت يومذاك أن كل أنثى لابد لها أن تتزوج وان كان هو آحبها

فهذا شأنه • ان كان هناك تردد فلا أثر لفهيم فيه • انما هى تخشى على ابنها ولكنها وهى تعمل الفكر يزداد اليقين فى نفسها أن بقاءها شر لابنها من ذهابها • فهى فى بقائها تذكره دائما بانها راقصة وتذكر زملاءه بنفسها وتلح فى تذكيرهم بصورة لاتسمح لهم بنسيان هذا الأمر او التغاضى عنه أو غفرانه • أما ان ذهبت فلابد أن ينسوا أمرها بعد حين • قد يكون فى ذهابها فضيحة ولكنها فضيحة مؤقتة ماتلبث أن تبتلعها الأيام الطوال أما بقاؤها ففضيحة مستمرة • ومن وجهة نظر اخرى اى فضيحة فى أن تعود راقصة سابقة الى الرقص مرة اخرى • أى جديد فى هذا • انها تكون فضيحة حقا لو كانت ستا محجبة فى بيتها وخرجت الى الرقص • أما الراقصة تعود الى الرقص فأمر لا غرابة فيه •• ومادام لاغرابة فلا فضيحة •

***

حين تركت تحية البيت وهربت أو ذهبت اختر ايهما شئت مع مسرح المولد فجع فهيم •• فقد كان بسذاجة فائقة يظن أنه أنقذها من التشتت والضياع وتيه الليل وتناثر الحياة ومذلة اليد الممدودة والوسط المتلون ليوفر لها حياة البيت والزوجية والأمومة • ولم يفكر مطلقا أن مجتمع القرية رفضها أو هو أبى أن يفكر هذا التفكير مع أنه حين باع نصف الفدان الذى كان يملكه وبنى بيته منعزلا عن القرية هذا الانعزال كان يفعل ذلك بعد أن أيقن أن مجتمع القرية يرفض زوجته ولم يشأ أن يجعلها تواجه هذا الرفض فى بيته الذى كان داخل القرية مع سائر بيوتها • كان يدرك تماما أن انعزال بيته انما هو فى الحقيقة انعزال زوجته عن

القرية جميعا وقد أبقى على بيته فى القرية حتى لايقال انه باع البيت الذى تركه أبوه فنصف الفدان قد يهون ولكن البيت لايهون .. ترى اكان هذا هو السبب أم أنه كان فى دخيلة نفسه يخشى ألا يدوم زواجه .

ولكن اليوم وبعد هذه السنوات الطوال وقد دام الزواج فعلا كان قد نسى فى زحام الأيام بعضها ببعض هذه الافكار . ولم يعد يتصور انه يمكن أن يعيش بغير تحية . وحين فكر قليلا وجد أنه مطعون ولكن فى شىء آخر غير الحب فنوع الحب الذى أحبه لتحية كان من شأنه أن ينتهى فى الأيام الأولى من الزواج . وقد كان يحس دائما أنها بعيدة عنه وأنه بعيد عنها فانفرادهما بالحياة جعل كلا منهما يحس العزلة عن الآخر فان الألفة لاتتواصل الا فى مناخ المجتمع العام الذى يشيع الدفء فى النفوس ويجعل الزوجين يحسان أنهما جزء من هذا المجتمع مستقل ومتصل . مؤتلف كل منهما مع الآخر ومؤتلفان كلاهما مع المجتمع حولهما .

يحسان بأنهما يعيشان الحياة فى تحية صباح من جار فى طلب أداة من صديق فى مشاجرة يشتركان فيها فى حديث يدور عنهما ويبلغهما به مستمع أو فى حدث يدور بينهما وينتقل عنهما الى أصحابه فى اشتباك الحياة وفروعها بالفرع الذى يمثلانه منها . أغلب الأمر أن آدم وحواء دبرا قصة التفاحة ليبحثا عن مجتمع يعيشان فيه وليكن مجتمعا الشر فيه غالب على الخير وليكن مجتمعا القبح فيه أكثر من الجمال ولكنه وهو هكذا وبحالته تلك أحب الى نفس الزوجين من الوحدة والانفراد والعزلة . فهنا فى ظل هذا البعد تصبح الحياة جميعها جليدا هيهات فيه لألفة أن تنشأ أو تتواصل . هو طعين لا من حب تحطم ولا من ألفة تبددت وانما من شعوره أنه

لايساوى شـيئا . حتى الراقصـة التى جعل منها ست بيت تركته وذهبت ولم تحفظ جميله ولم يمنعها الوفاء بل ولم تمنعها الأمومة بل ولم يمنعها الستر أن تظل فى بيتها ست بيتها .

انه طعين . وحائر . ومنهار .

أما فرغلى فكان أمره عجبا . وكان أمر زملائه أعجب .

قد احس أن شيئا كان يدهمه ويضع انفـه فى الرغام ويضغط عليه فى قسوة شرسة قد رفع عنه وأن رأسه تستطيع الآن أن تشعر بالحرية وان كانت لاتستطيع ان تشعر بالكرامة . لم يخش أن يعيره أحد أن امه تركت البيت لتعود راقصة مرة أخرى فماداموا قد عرفوا أنها راقصة فكل شىء هين بعد ذلك فليس هناك أى بأس أن تتكسر النصال على النصال وقد عرف المهانة فى أبشع صورها ولم تعد مهانة تخيفه بعد ذلك .

عجيبة هذه الحياة لقد خيل لفرغلى يوم أعلن عليه أمر أمه فى المدرسة أن أعمدة الحياة قد تهاوت وأن الحياة لاتستحق أن يحياها . بل طالما تمنى أن تنخسف به الأرض فلا يبقى منه فى الوجود شىء ولا حتى ذكرى فى قلب أبيه أو فى نبض أمه . بل انه كان يتمنى أن ينمحى هذان الاثنان بالذات . وكراهيته لأبيه كانت أشد من كراهيته لأمـه . فهو لايعلم لماذا أصبحت أمه راقصة ويقدر أنها ربما فرض عليها هـذا الطريق فرضا ولم تختره . أما أبوه فهو وحده الذى اختار أمه تلك من بين نساء العالمين وجعل منها أما له . ولكنه مع الأيام تعود المهانة ثم هو بقدرة الهيه عجيبة استشعر من هذه المهانة قوة فلم يعد يخشى شيئا مما يخشاه التلاميذ . انه ينجح فى المدرسة لا لينال الشرف فهو يعلم أنه لاسبيل له الى هذا

الشرف أبدا . ثم هو ينجح لأنه لايجد سببا يسقط من أجله وانما كان يقول لنفسه انه يكفيه سقوط أهله فلاداعى لأن يسقط هو نفسه أيضا . اصبحت هذه المهانة مصلا فى دمائه يحميه من الشعور بمهانة أخرى . لابأس عليه أن يشتم المدرسون والتلاميذ أمه وأباه . طظ . وماذا فى هذا ؟ . انه هو نفسه يتمنى أن يشتم أمه وأباه . لابأس أن يحتقروه بل لابأس أن يحتقره الفراشون . لابأس لابأس . لابأس بأى شىء فكل شىء مقبول ومحتمل والانسان أقوى مايكون اذا وطن نفسه على قبول كل اهانة وليس يهم من قريب أو بعيد أن يكتسب هذه القوة من العزة والكبرياء أم من الذلة والمهانة مادام الطريق من أعلى الجبل والطريق من سفحه يلتقيان عند مكان واحد من الجبل حصين .

وهكذا وجد فى ترك أمه للبيت خيرا . وان كان هو سيقوم بغسل الهدمات القليلة فلا ضير فى ذلك عليه فقد تعود أن يغسل كل شىء فى المقهى . أما الطعام فقد كان يأكله خارج البيت أغلب الأمر فهو يشترى نصف رغيف أو رغيفا فى الصباح ليكون فطوره . وكان يتناول غداءه فى المدرسة فقد كانت المدارس فى هذه الأيام تقدم طعام الغداء . وكان يتعشى بالمقهى . وعلى أبيه أن يبحث عن وسيلة لاطعام نفسه فان هذا أمر لايعنيه فى شىء .

لأمه أن تذهب من هذه الدنيا حينما تريد وكلما ابتعدت عنه ازداد هو شعورا بالأمان .

أمر واحد كان يشغله ولكن ما أقل ما كان يشغله لقد خشى أن يجدد هرب أمه زياط التلاميذ حوله ويذكرهم بما نسوه من أمره . فهرب أمه عرف فى القرية جميعها فى ساعات معدودات وللقرية فى المدرسة تلاميذ . والتلاميذ شأنهم

شأن قريتهم بل شأن الناس اجمعين يحبون أن يلقوا الانبــاء الى من لايعرفها أو حتى لمن يعرفها ليروا هذه الدهشة التى قد لاتبقى على الوجوه اكثر من هنيهة . ولكن هكذا الناس يحبون أن يروا هذه الهنيهة وان كان الخبر يحطم قوما آخرين ويدمرهم ويجعلهم جذاذا ورمادا منسحقا وهبــاء وعدما . لايهم .. المهم هو هــذه الهنيهة البلهاء وهــذا الادهاش ثم التعليق .

كان هذا مايخشاه فرغلى ولكن امر الناس عجيب . لقد انتقل الخبر الى المدرسة وذاع بين أرجائها وشاع ولكن التلاميذ الذين داسوه كحشرة يوم عرفوا أن أمه كانت راقصة التفوا حوله هذه المرة يواســونه فى عطف وحب واشــفاق بل فى حساسية رقيقة عجيب أن تصدر ممن هم فى مثل أعمارهم . لم يذكروا عن هرب أمه شيئا وانما كل مافعلوه أن جماعاتهم كانت تناديه ليشاركهم اللعب أو يشاركهم الحديث .

والعجيب الأعجب أن أبناء قريته أصبحوا يزورونه دائما فى المقهى بعد الفراغ من المدرسة . ويصرون أن يذاكر معهم اذا عاد الى القرية ويلازمونه أو يرغمونه على أن يلازمهم فى أيام الجمع والأجازات .

من يستطيع أن يحلل هذا المجتمع . كيف يرفض ابنا لراقصة سابقة ويقبل هذا الابن نفسه حين تصبح أمه راقصة عاملة . ترى هل بعدها عن البيت هو الذى صنع هذا التناقض أم شعورهم بأن الابن أصبح من غير أم . أم هو مجتمع هوائى يميل حين يميل ويشيح حين يشيح بغير منطق فى الميل أو الاشاحة . كابن عمار الذى يذكره البيت الشهير يعطى ويمنع بخطرات من هواجسه لا عن بخل ولا عن كرم .

عجب فرغلى واستقبل حياته هذه الجــديدة وسرعان

مانعم بها ولكنه مع ذلك مطلقا لم ينس أنه يتلقى الصداقة عن شفقة لا عن حب وانها تكال له بمكيال المهانة لا بمكيال المساواة · لم تكن نفسه من هذه النفوس التى تنسى فهو يستقبل هذه المشاعر الجديدة فى استسلام لها ولكنه فى العميق العميق من دخائله لايكن لكل هؤلاء الأصدقاء الجدد الا الكراهية والحقد الدفين المستعر ·

٥

البحث عن كرامة

كان فهيم ايام كانت زوجته فى بيته ينتهى من عمله ثم يذهب من فوره الى البيت مقـدرا أنها وحيـدة ظانا أنه يؤنس هذه الوحدة التى تعانيها ٠

فحين تركت تحية البيت ظل أياما يعود الى البيت فيجد نفسه منفردا فيه فابنه فرغلى لايعود الا فى الساعات الأولى من الليل ليذاكر ثم لينام ٠ وحتى اذا وجـد فرغلى فليس هناك من حديث بينه وبين فرغلى ٠ ان فرغلى بالنسـبة اليه كتلة صماء لاترسل ولاتستقبل وهو لايدرى من أمره شيئا أو يكاد ٠

ولكن الوحدة جعلته يبحث عن فرغلى فى أيام الأجازات ٠

وعرف أنه بالقرية · وتبين لأول مرة أن فرغلى لم يذهب الى القرية الا بعد أن تركت أمه البيت · ودهش لهذه الحقيقة · وأعمل فيها فكره · ولم يستطع ان يتصور أن زمـلاء فرغلى ولداته كانوا يرفضون صحبته وأمه ست فى بيتها وقبلوا هذه الصحبة وأمه راقصة فى الموالد · ولكنه على كل حال وجـد مهربا من وحدته · لماذا لايذهب هو أيضـا الى القـرية · ويجلس على مصطبة الحاج هنداوى · فقد طالما جلس اليها ·

واستقبله الرجال اسـتقبالا طيبا فهـو وان كان قد انقطع عن مجالستهم الا أنهم هم لم ينقطعوا عنه · فجميعهم كان يأتى الى المحطة لشأن أو لآخر ·

وفى الرجال غلظة قد لاتكون عند الصغار أو ان شئت الدقة فى التعبير فان القسوة عند الرجال تختلف عن القسوة عند الصغار فما كان الرجال مثلا ليصنعوا ماصنعه الأطفال بفرغلى حين عرفوا أن أمه كانت راقصة · ولكن الصغار أيضا لم يصنعوا مع فرغلى ماصنعه الرجال بفهيم ·

ـ فرحنا لك والله يافهيم ·

ـ وفيم الفرح ياحاج هنداوى ·

ـ لقد أسأت الاختيار من أول الأمر ·

ـ قسمة ·

وقال آخر :

ـ ولكنك تبدو حزينا ·

ـ العشرة لاتهون الا على ابن الحرام ·

وقال آخر :

ـ والله ما ابن حرام الا هى التى جعلت منها ستا وأما لابنك ثم تركتك ·

وقال آخر :

ـ فى ستين داهية ·

وقال فهيم :

ـ أنا الغلطان ·· تزوجتها وأنا لا أعـرف عن أصلها شيئا ·

وقال آخر :

ـ وهل لمن ترقص فى الموالد أصل ، لابد أن أمها كانت مثلها ·

وقال آخر :

ـ ولابد أن أباها ديوث يلم النقطة على زوجته وابنته ·

وقال هنداوى :

ـ كانت تقول ان أباها عمـدة ولكنها كانت غـاوية الرقص ·

ـ وصدقتها ؟

ـ لم أفكر فى تصديقها أو تكذيبها ·

ـ لو كان ماتقوله صحيحا · وهو طبعا غير صحيح · لكان عليك أن تفارقها قبل أن تأتى لك بفرغلى · ان من تترك بيت العمـدة لتعمل راقصـة ستترك حتما بيت العدل لتعود الى الرقص ·

ـ فى أول الأمر لم أكن أفكر الا فى الزواج بها ·

ـ المهم ماذا تنوى أن تعمل ٠

ـ العمل عمل ربنا ٠

ـ أيبقى بيتك بغير مرة تنظفه لك وتطبخ أكلك وتليف ظهرك ٠

ـ والولد ٠

ـ ماله ؟

ـ تكون له زوجة أب ٠

ـ وهل هو أول ولد له زوجة أب ؟

ـ أتعرف لى أحدا ياحاج هنداوى ؟

ـ واشمعنى تسألنى أنا ٠٠ على كل حال النسوان على قفا من يشيل ٠

وقال آخر :

ـ طبعا انت يلزمك عزبة ٠

ـ طبعا وهل يمكن لمن هو فى سنى أن يتزوج بكرا ؟

وقال آخر :

ـ من ناحية السن يمكن انما البكر كما تعلم تحتاج مهرا كبيرا ٠

ـ ونحن مالنا ولهن ٠٠ نتكلم عن العزباوات أحسن ٠

ـ تعجبنى ٠

ـ الحقيقة يامتولى أنى أريد أن أتزوج بأسرع مايمكن ٠

ـ عجيبة ٠٠ كنت من دقيقة تقول الولد وزوجة الأب ٠

ـ كلام تعودنا نسمعه على من يعرض عليه الزواج وهو أب · قلته كما يقوله الناس ·· ياسلام يامتولى لازم تحاسبنى على كل كلمة ·

ـ المقصود ·

ـ المقصود أن أتزوج بأسرع مايمكن حتى تعرف بنت الكلب أننى أقدر أتزوج ست ستها ·

ـ وأنا عندى طلبك ·

ـ صحيح من ؟

ـ شهاوى بنت سليمان أبو منصور ·

وقال هنداوى :

ـ ناصح والله يامتولى ·

وقال فهيم :

ـ ونعم ما اخترت بنت منكسرة ولا تقول العيب وليس عندها الا ولد واحد وهو كبير ويروح المدرسة فلن يضايقك ·

وقال فهيم :

ـ زوجها الله يرحمه كان صاحبى ·

ـ ماذا قلت :

ـ نتوكل على الله ·

***

لم يكن هذا الزواج ذا أثر على فرغلى الا أنه أعفاه من

غسل هدومه . فهو لم يكن يلم بالبيت الا لينام أو ليـذاكر ووجود امرأة أو عدم وجودها أمر ليس ذا أثر عنده . وهو لايهمه أن يكون أبوه مستريحا أو غير مستريح . فالهوة التى تفصل بينه وبين أبيه أكبر من تلك التى تفصـل بينه وبين الحياة .

ولكنه فى خبث شديد اتخذ من وجـود هـذه المرأة فى البيت وسيلة لينفذ أمرا كان يتوق اليه منذ سنوات ولكن لم يكن يجرؤ أن يهمس به الى نفسه وانما كان يكبته فى بئر عميق تعود أن يلقى فيها بآمال وأحلام كثيرة يعلم أنها قد تكون مستحيلة ولكنه فى نفس الوقت مصمم على تنفيذها .

فى نفس اليوم الذى حصل فيه على شهادة الابتدائية علم أن زوجة أبيه حامل . وترك آباه يفـرح بخبر زوجته ولم يشأ أن يخبره آنه حصل على الشهادة . لقد بخل على آبيه آن يعرف خبرين مفرحين فى يوم واحد . فهو مع كراهيته لأبيه يعلم أن أباه يحب أن يتفاخر بنجاحه بين صحبه واخوانه .

فى اليوم التالى أيقظه أبوه من الفجر :

ــ فرغلى .

ــ نعم ياآبا .

ــ نتيجة الابتدائية ظهرت البارحة .

ــ نعم أعرف .

ــ وأنت هل سقطت ؟

ــ لا .

ــ لا .. لا ماذا ؟

ـ أنا نجحت ·

ـ ماذا تقول ؟

ـ نجحت ·

ـ ولماذا لم تخبرني ؟

ـ كنت مشغولا بخالتي شهاوى ·

ـ وهل يمنع هذا أن تخبرني بنجاحك ·· النهاية ·· هات قبلة وخذ خمسين قرشا مكافأة لك ·

ـ كثر خيرك ·

ـ واغسل وشك وتعال ··

ـ حاضر ·

***

ـ ماذا تنوى أن تعمل ؟

ـ فيم ·

ـ كثيرون يستطيعون آن يتعينوا بالابتدائية ·

ـ تعيين أغبر ·

ـ فأنت تريد أن تكمل ·

ـ نعم ·

ـ توكلنا على الله ·

ـ لن أكلفك شيئا ·

ـ كيف ؟

ـ وهل كنت أكلفك شيئا ؟ ألم أكن أعمل ؟

ـ أنت تعرف أن الحمل سيكون ثقيلا فأنا الآن أنفق على سيد أحمد بن شهاوى كما سأنفق على المولود الجديد ٠

ـ ياآبا لاتخف لن أكلفك شيئا ٠

ـ على كل حال أنا اتفقت أن أبيع هذا البيت ٠

ـ ماذا ٠٠ وأين نعيش ؟

ـ فى بيتنا فى البلد ٠٠ ليس هناك داع أن يكون لنا بيتان ٠

ـ ولكنى أريد شيئا آخر ٠

ـ ماذا ؟

ـ أريد أن أذهب الى مصر ٠

ـ الى مصر ٠٠ ماذا تعمل هناك ؟

ـ أتعلم فى مدارس مصر وأعيش مع عمتى تفيدة ٠

وصمت فهيم وحملق فى ابنه ٠٠ الفكرة حسنة من كل الوجوه فتفيدة تحبه وحالتها المالية منتعشة بمرتب زوجها وبما يعطيه لها أبناؤها من معونة فأحدهما طبيب والآخر مهندس وهما وان كانا فى أول حياتهما الا أنهما يستطيعان دائما أن يبرا أمهما وأباهما ٠ ولكن ٠

ـ الفكرة لابأس بها والله يافرغلى ٠

ـ اذن فأنت موافق ٠

ـ ولكن ألم تلاحظ شيئا ؟

ـ ماذا ؟ ٠٠ أولاد عمتك ممدوح ويحيى لم يزرني أحد منهما أبدا ولا حتى حسين ٠٠ منذ تزو ٠٠٠

ـ أكمل ياأبي ٠٠ نعم منذ تزوجت أمي لم يزرك أحد منهم ٠٠ لهم حق ولماذا يزور ناس محترمون مثلهم بيتا الست فيه رقاصة ؟

ـ اخرس لاتقل هذا عن أمك ٠

ـ أمي ٠٠ الأم ياآبا لاتترك ابنها ٠

ـ اخـــرس ٠

ـ حفظت بيتا في المحفوظات ٠

ـ تكلمني بالشعر ؟

ـ حفظته بعد أن تركتنا زوجتك بأيام قليلة ٠

ـ ترفض أن تقول أمي ٠

ـ البيت لشاعر عربي يعتبر أعظم الشـــعراء وربمـــا سمعت عنه اسمه المتنبي ٠

ـ لايهم ٠

ـ البيت يقول :

اذا ترحلت عن قـــوم وقد قـــدروا

ألا تفـــارقهم فالراحـــلون هـــم

فهمت ياآبا ٠

ـ لا ٠

ـ أحسن فالحال معنا مقلوب وهي التي رحلت وليس نحن ولكن تعرف ياآبا أن ذهاب أمي أحسن شيء عملته في حياتها لتصلح ماعملته أنت ٠ المهم أريد أن أروح لعمتي ٠

ـ افرض أنها رفضت ·

ـ لايهم ·

ـ أخاف ان تخجل وتنكسف ·

ـ ليس هناك شيء أصبح يخجلني أو يكسفني ·

ـ لماذا ؟

ـ أنت فرضت على هذا ·

ـ أنا ؟

ـ ألست أنت من اختار لي أمي ؟

ـ اخـرس ·

ـ لقد قلت ماأريد وليس يهمني أن أخرس الآن · أنا ذاهب الى عمتي تفيدة ولاتنس أنها هي لم تنقطع عن زيارتنا مطلقا ·

ـ ألا تنتظر على الأقل حتى تنتهي الأجازة ؟

ـ لايجوز لمثلي أن تكون له أجازة ·

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني أنني يجب أن أذهب من الآن حتى أبحث عن عمل أعيش منه ·

ـ عمل ؟

ـ نعم ·

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل قاه في مقهى أو فـراش في شركة أو ماسـح أحذية أي شيء ·

ـ تكون حامل ابتدائية وتعمل ماسح أحذية ·

ـ أنا لاأحمل الابتدائية وحدها ولكنى احمل معها رقص أمى وفقر أبى ·· ألم أقل لك ان شيئا فى الوجود لايستطيع أن يكسفنى ·

ـ أعوذ بالله ·· هل أنت بنى آدم أنت ؟

ـ أنا البنى آدم الذى صنعته أنت ياآبا ·

ـ اذهب حيث تشاء ·

ـ أنا فعلا ذاهب ·

ـ غـدا ·

ـ بل اليوم ·

وهكذا لم يتح لفرغلى أن يكون واحدا من القرية مطلقا· فقد عاش طفولته الأولى فصيلة واحدة لايخالط أحدا ؛ وحين عرف السبب أصبح يتمنى أن يزداد انعـزالا حتى اذا قبله مجتمع القرية لم يدم هذا القبول أكثر من شهور كان اجتماعه فيها بأبناء قريته لسـاعات نادرة لاتكاد تحصى · فحين أذن القدر أن يصبح بيتهم من بيوت القرية وتتمازج أسرته مع أسراتها فى هذا النسيج البشرى الذى يعرفه الناس كل الناس فى كل القرى · فصل هو نفسه عن هذا النسيج ليذهب الى القاهرة هناك حيث كل بيت نسيج وحده لاتلتحم خيوطه مع أنسجة البيوت الأخرى فقد أصبحت القاهرة منذ ذلك الحين تمثل المجتمع الذى لايجتمع فأبنـاء العمارة الواحـدة قد لايتعارفون فكيف بأبناء الشـارع أو أبنـاء الحارة ، وان تعارفوا فزيارة تجيبها زيارة ليس فى القاهرة هذا المجتمع الذى تتداخل الخيوط فيه لتكون ثوبا واحـدا هو القـرية المصرية ·

في القرية كل انسان جزء من كل انسان . في المدينــة الانسان له حدوده ومعالمه الواضحة البيئة المساحة بلا تمازج ولا مشاركة الا اذا ائتلف صديقان او التأم بضعة أفراد ولكن هذا الائتلاف أو ذلك التآخي يكون وليد وحـدة مشاعر او وحدة تفكير وكثيرا بل كثيرا جدا مايكون وحدة منفعة وليس من أثر لوحدة المكان مطلقا في هذه الصلات .

وفرغلي وهو في طريقه الى القاهرة لم يكن ينوى أن يقيم صلات أو ينسج علاقات وانما كان ذاهبا وهو يعرف تماما الى أين هو ذاهب ولماذا وكيف ؟

بل كان يعـلم أنه يستطيع أن يصـل الى الهـدف أو الأهداف التي يتغياها ويعرف اليها بدلا من الوسيلة عـدة وسـائل . وكان مطمئنا أنه يملك شـيئا لايملكه الا القلة النادرة من الناس ان أمه راقصة ومن كانت أمه راقصة في المجتمع المصرى فهو يملك شيئين لايتاحان لغيره .

يستطيع أن يلح وأن يقبل أى حذاء وأن يضع رأسه حيث تأنف الأحذية أن تضع نفسها هذه واحدة .

وأما الأخرى أن الناس لن يستغربوا هذا منه اذا عرفوا أنه ابن راقصة .. وأنهم يحبون من يجعل منهم آلهة ، ومن أكثر مقدرة من ابن الراقصة على أن يجعل عباد الله آلهة .

انه عملة نادرة يحب كثير وكثير جدا من الناس أن تكون في حوزتهم .

٦

وحيد فى الزحام

كان استقبال عمته له ترحابا وسرورا ، الأمر الذى لم يكن يتوقعه بل الأمـر الذى لايتوقعه من أحـد فقد كان يعتقد أنه لن يكون موضع ترحاب أبدا . انه لم يسمع هذه الأهلا الممتدة التى يحمل امتدادها الشوق والسرور برؤية القادم موجهة اليه منذ وعى الأشـياء وعـرف ذهنـه معنى المقارنة . كان يسمع هذه الأهلا بين التلاميذ بعضهم وبعض أحيانا وكان يشهدها من صديق فى المقهى الى صديق آخـر وربما كان افتراقهما لم يمض عليه أكثر من سـحابة نهار وكان يراها فى القرية من حين الى آخر . أما الأهلا الموجهة اليه فقد كانت اما مقتضبة قصيرة لاتحمل السخرية ولاتحمل

أيضا السعادة برؤيته وكانت تلك خير آهـلا يقابل بها أما الأهلا التى تعودها ولم يعد يضيق بها من كثرة ماتعـودها فهى تلك التى يلحق بها كلمة ياسيدى تحمل فى نغماتها اما الضيق أو الاحتقار أو هى تحمل فى خير حالتها معنى الواجب الذى يقوم به من يقوم به كصدقة أو زكاة واجبة لايستطيع منها فرارا ٠

أما عمته فاستقبلته بهذه الأهلا المرحبة وزاد من فرحه بها أن عمته كانت تعلم أنه قادم ليقيم معها فقد أرسل اليها خطابا قبـل أن يفاتح أباه وأجـاب عنها زوجهـا بالموافقة والترحيب فهى اذن ليست أهلا عفوية تستقبل بها ابن أخيها الذى «طب» عليها فجأة بدون انذار والذى تتوقع اقامته ليوم أو بعض يوم ٠ هى تعلم أنه قادم قدوم اقامة لانزوح ، وبقاء لا زيارة ٠ فهذه الأهلا اذن أهلا واعية تدرى تمـاما معنى مجيئـه ومع ذلك فهى طويلة مرحبـة فيها سـعادة وفيهـا فـرح ٠

وحين جـاء زوج عمته حسين أفنـدى تكرر الترحاب بصورة ربما كان فيها كثير من المبالغة أو هكذا تخيل فرغلى على الأقل ٠

وحين نزل الى القاهرة أصابته تلك الرعشة التى تصيب أمثاله من الزاحفين الى زحام القاهرة من حقول الريف ٠ هذا التركيب الهندسى والبشرى ووسائل المواصلات المتقاطرة هذه تبدو له جميعا عالما بغير معالم كناظر لقادم عليه والشمس فى عينيه لايتبين الوجوه وانما يتبين الشخوص ٠ بل انهـا تمثلت فى ذهنه كصور الشخوص عند انسان ولد أعمى فهو يتخيلها ولكنه لايستطيع أن يتمثلها أو يتصورها ٠ كانت الشخوص تمر أمامه كأنهار أفـكار يزحم بعضـها بعضـا

فلا تتميز فكرة عن فكرة ولاتتحدد معالم شخص بذاته انما كلهم يزاحم الحياة ويرتضيها وكأن سياطا من الزمان تلهب حياتهم ٠

تلك هى الدار الجديدة ٠ مسبحه الذى ينوى أن يغوص فيه ويصبح على الأقل فى أول الأمر ـ مثل واحد من هؤلاء ثم حين يمكن أقدامه من الأرض الجديدة لابد أن يخرج من بحر الآمال والنوايا محتوياته ٠ ولكن هل ستتيح له هذه الأرض الخالية من الطين والتى لاتعرف المحراث والتى استوى سطحها وأصبح ناعما أن يمكن أقدامه فيها ٠

ان له أظافر حادة سنها على مسن الكرامة الضائعة وهو واثق أنها أقوى من أى أظافر أخرى تكسوها العزة أو يكسوها الغنى أو يفسك بها الخير أو الخوف ، غريق هو فى بحر اللاكرامة فما خوفه من البلل ٠

مرت أيام كان يترك فيها بيت عمته من الصباح الباكر بعد أن يخبرها أنه لن يأتى الا فى المساء وينزل الى المدينة ومعه هذه الجنيهات التى استطاع أن يدخرها من عمله بالمقهى وكانت تمده بنوع من الطمأنينة على قلتها ٠ فهو لن يحتاج لغير قروش فهو يركب أى ترام يصادفه ويتركه يمضى به لا يتغيا غاية محددة وانما يهدف الى هدف كلى واسع ضخم ٠ انه يريد أن يبتلع فى ذهنه وفى كيانه هذه المدينة التى تبتلع من فيها ٠

وما أسرع ماتبين فى هذه الأيام أنه هنا هباءة لايراها أحد ولايعنى أحد أن يراها ٠ انه هنا كيان آخر غير الكيان الذى عرفه لنفسه فى القرية أو المدرسة أو حتى المركز كان فى القرية محتقرا ومعنى هذا الاحتقار أن زملاءه يحسون

بوجوده ويحتقرونه ويأذنون أن يشاركهم في اللعب .. حتى اذا تركته امه قبلوه معهم . نهم على الحالين يحسون به ويدركون وجوده وليذفوه عن مجتمعهم أو يقبلوه .. لايهم .

وكذلك كان شأنه في المدرسة . فكل تلميذ في المدرسة يعلم أن بينهم تلميذا امه راقصة والقدامى يبلغون الجدد . وليحتقره منهم من يحتقره وليشفق من يشفق وليرفضه من يشاء أن يرفضه ولكنه على أية حال من هذه الأحوال موجود عند تلاميذ المدرسة أجمعين .

وكذلك كان شأنه في المقهى يحسون بوجوده حين يوجد وبغيابه حين يغيب .

ولكن هذه القاهرة العريضة لم يشعر انسان فيها أن فرغلى قدم اليها من الذيميرية الا عمته وزوج عمته . أما كل هؤلاء فلا يدرون من امره شيئا وهم أيضا لايدرون أنه ابن تحية الراقصة التى تعمل حاليا فى الموالد والأفراح .

موقف جديد لم يتعود عليه ولم يدر اسعيد هو به أم غير سعيد . لعله كان أكثر استمتاعا بمشاعره فى القرية أن المجتمع يحس به ويعلم بوجوده حتى وان صاحب هذا الاحساس وذلك العلم احتقار أو اشفاق أو اذلال ..

لعله يحس الآن أن اهمال شأنه أشد وقعا على نفسه من المهانة . ولكنه مع الأيام أدرك شيئا لم يكن قد أدركه أن أبناء القاهرة جميعا لايحس أحد منهم بالآخر فكل انسان فى القاهرة عالم قائم بذاته وحين وصل الى هذا الادراك أحس راحة وهدوءا ، وحين ألقى نظرة الى المستقبل داخله الرضا فما يلبث أن يكون قريبا عالما هو أيضا بذاته له أصدقاؤه

وله محيطه من زملائه التلاميذ أو من فى العمل يحادثهم ويحادثونه ويظل كل منهم مستقلا عن الآخر بآماله وطموحه ومسالك حياته ودروب مستقبله ٠

جلس الى عمه حسين ٠

ــ عمى أنا تفرجت على مصر ٠

ــ كلها ٠

ــ أغلبها ٠

ــ وأعجبتك ٠

ــ لا أستطيع أن أحكم الآن ٠

ــ ومتى تحكم ٠

ــ لا عجلة ٠٠ فأنا باق بها سواء أعجبتنى أم لم ٠٠ ولكن ٠

ــ ولكن ؟

ــ أريد أن أعمل ٠

ــ ماذا تريد أن تعمل ؟

ــ كنت أعمل فى مقهى بالمركز ٠

ــ ولكن هذا عمل لايليق هنا ٠

ــ بالعكس ٠ فى المركز كانوا يعرفوننى ومع ذلك لم أجد غضاضة فى أن أعمل بالمقهى ٠

ــ لانهم هناك يعرفونك لا غضاضة ٠٠ أما هنا فهم لايعرفونك ولايعرفون شيئا عن ٠٠ عنك وسيكون عنوانك الوحيد أمامهم جرسونا فى مقهى ٠

ـ ابن الكلب يشير الى أمي مرة أخرى .. طبعا سأجدها أمامى دائما وهل فى هذا شك .

ـ ليس من الضرورى أن تكون المقهى قريبة من بيت حضرتك فى أى مكان غير المنيرة والسيدة .

ـ اسمع أتريد أن تعمل أى عمل أم لابد أن يكون عملك فى مقهى ؟

ـ أى عمل طبعا .

ـ اترك هذه المسألة لى .

ـ بعد الظهر طبعا .

ـ ياسلام ياسى فرغلى .. وهل أحتاج الى ذكر هذا أتظنني أرضى أن أجعلك تترك المدرسة من أجل العمل؟

ـ ربنا يبقيك لنا ياعمى حسين أفندى ويطيل عمرك .

***

لم ينجز حسين أفندى وعده سريعا . ومرت الأيام وأدرك فرغلى أخيرا وبكثير من المرارة الحقيقة التى كانت خافية عليه وراء الترحيب الذى استقبله من عمته وزوج عمته . لقد كان الزوجان منفردين فى المنزل وقد خلا بهما بعد أن تزوج ولداهما المهندس المعمارى ممدوح والطبيب الباطنى يحيى . لم يكن مرتب حسين أفندى يتيح له أن يستأجر خادمة الا اذا كانت طفلة صغيرة سرعان ماتترك البيت ضيقا بكثرة العمل وضآلة المرتب . فكان فرغلى يستطيع دائما أن يوفر على عمته البحث عن بواب ليشترى لها لوازم البيت ولا بأس أيضا أن يعاونها فى عمل البيت ما استطاعت الى ذلك من سبيل .

وبنفس تعـودت ان تقبل كل شيء أصـبح فرغلي هـو المسئول الرسمي عن شراء الأطعمة وغيرها من الأسواق وحتى اذا وجدت الخادمة الصغيرة فهو الذى يقوم بهذا العمل • ولم يجد في ذلك مايضيق به بل لعله احس بشـعور من الراحة حين حاول أن يتعمقه • عندما تقدمت به الأيام أدرك أنه كان يريد أن يحس ان بقاءه ليس صدقة وأنه هو يقدم شيئا ذا فائدة فى البيت الذى يأويه •

وحين بدا العام الدراسي بدأ يذهب الى مدرسة الخديوى اسماعيل القريبة كل القرب من حارة البابلى التى تسكن فيها عمته فلم يكن شراء مايلزم للبيت يكلفه أكثر من يقظة مبكرة بعض الشيء •

ولكن اهمال حسين أفندى لمطلبه أسخطه غاية السخط وخيل اليه أنه يريد أن يستصفيه لعمل البيت فى الصـباح والمساء وقدر فرغلى أنه بذلك يكون مايقدمه من خدمة أكثر كثيرا مما يناله من أجر • فقد كان يتناول غداءه بالمدرسة فلم يكن يكلف عمته الا لقمة وقطعة من الجبن والحـلاوة فى الصباح ومثلها فى المساء الى جانب المبيت ولايساوى هذا أن يكون خادما لليوم كله • ولكنه أدرك على كل حال أن عمه حسين لن يحاول أن يجد له عملا حتى لايخسر فيه الخادم الذى يقوم بطلبات البيت •

وفى صمت راح هو يبحث فى السيدة زينب وفى شارع خيرت عن مكان يمكن أن يعمل به بعد الظهر • فهو يعلم أن أباه لن يقـدم له الا مصـاريف المدرسـة التى تجهده جهدا شديدا •

فكر أول مافكر أن يعمل فى مقهى ولكنه خشى أن يلمحه

بالمقهى تلميذ ممن يعرفونه بالمدرسة . والمقهى عمل علنى لا سبيل فيه الى الاستخفاء . وفكر ولكنه سخر من نفسه وهو يفكر .. انما يفكر من يملك الاختيار وهو لايزيد عن سلعة تعرض نفسها على من يقبلها دون حتى أن تملك المساومة فى السعر . انه سلعة لاتختلف عن الشىء الذى يجرى عليه البيع والشراء الا أنه هو الذى يبيع نفسه بل هو فى الحقيقة أحط من ذلك انما هى الحاجة التى تبيعه ولايملك لسيطرتها بها دفعا ولا لأمرها مناقشة .

والعجيب أو ربما لم يكن عجيبا أن يشعر بالتحرر وهو يبحث عن وظيفة يصيب منها بعض المال ، هذه الحرية التى يحس أنه ينعم بها وحده دون سائر الناس . انه لايملك شيئا يضيعه وربما ضاق بعض الشىء حين ثناه عن عمل القـاهى خوفه أن يراه تلميذ زميل له . فهم فى مدرسة الخديوى اسماعيل لايعرفون أنه ابن راقصة موالد وربما استطاعت الظروف أن تخفى عنهم هذه الحقيقة الى أن يترك المدرسة . على آية حال كان بحثـه عن الوظيفة يشغله عن كل شىء وقد اسـتطاع اهتمامه أن يجعل جوبه للقاهرة من أقصاها الى أقصاها أمرا له مبرره بعد أن كان يجوبها للتعرف عليها فقط .

وكان ينزل الى الحى فيمشى فى شوارعه على غير هدى حتى اذا وجد مقهى جلس اليها وحاول أن يتقرب الى القاهى بوسيلة أو بأخرى حتى اذا أحس أن الأنظار بدأت تلتفت اليه قام وراح يضرب فى طرقات الحى .

ولم يستطع انشغاله هـذا أن يبتعد به عن توقع قيـام الحرب العالمية حتى اذا أعلنت الحرب لم تأخذه على غرة . ولكن الحرب لم تكن ذات أثر فى القاهرة أول الأمـر ولم يفرض

الاظلام على القاهرة فور قيام الحرب ولكن الأمر كان منتظرا بين يوم وآخر ٠

واستطاعت الحرب ان تدير بين الناس حديثا لاينتهى وكانت المفاجآت الحربية التى تحدث تجعل الناس فى مصر يشعرون أنهم فى حفلة سينمائية لفيلم لا نهاية له ولا معنى له أيضا ٠ وكطبيعة الشعب المصرى كان لابد أن يتحمس لفريق من الفريقين وكانت الأغلبية العظمى ضد بريطانيا ولا أقول مع ألمانيا ٠ فهم يكرهون الانجليز ويحبون كل من يصيبهم بالضرر والأذى ولاشأن لهم بعواقب انتصار المحور انما يهمهم أولا أن تهزم انجلترا وكان المصريون يحسبون أن مجرد هزيمة انجلترا فى ذاتها غاية لا وسيلة للحرية وكانوا يقدرون أنهم يستطيعون أن ينالوا الحرية من هتلر مادام ليس انجليزيا وهكذا كان الشعور ضد انجلترا جارفا ماحقا ٠

ولكن فرغلى لم يكن يفكر فى انجلترا ولا فى هتلر وانما هو يسمع من السامعين ويوافق المتحدث اليه فى كل رأى فما كان يحس أن مصر هذه تعنيه فى شيء فهو لايعرف معنى الانتماء لمصر لانه لم يعرف معنى الانتماء الأصغر لأبيه أو لأمه فليس غريبا ألا يعرف معنى الانتماء الأكبر لقد عاش لاينتمى الا لنفسه ٠

ولهذا لم يكن عجيبا بل كان من الطبيعى جدا أن يرمى الحرب وراءه لايفكر فيها باحثا لنفسه عن عمل ٠٠ أى عمل ٠

ولم يكن عمه حسين غافلا تغيبه عن البيت كل يوم بل انه أيضا لم يغفل أن هذا التغيب لم يكن عبثا فقد كان يدرى

أن فرغلى ليس من الناس الذين يألفون ويؤلفون فلم تكن عنده خلجة شك أن فرغلى كان يبحث عن العمل • وحين مرت فترة طويلة دون أن يصيب اليأس فرغلى أدرك حسين أنه لابد له أن ينجز وعده وقد كان يستطيع أن ينجزه منذ وعده به ولكن زوجته أثنته عن ذلك رغبة منها أن يظل فرغلى خاليا لأعمال البيت ولكنه بعد هذه الفترة •

ـ هيه ياتفيدة ألا ترين أنه من الأفضل أن أجد أنا العمل لفرغلى •

ـ ماتشوفه •

ـ اننا بهذا سنجعله يشعر بالجميل ويظل عندنا بدلا من أن يجد عملا فى مكان بعيد ونفقده ولا نجد أحدا يساعدك مجانا فى شغل البيت •

ـ معقول وخصوصا أنه لايكلفنا شيئا فهو يتغدى دائما بالمدرسة •

ـ على بركة الله •

كان لحسين أفندى أصدقاء كثيرون من كثرة ما مر به من أيام • وقد تكون هؤلاء الأصدقاء من شتى نواح فى الحياة بعضهم أمدته بهم الوظيفة وبعضهم أمدته بهم القهوة وبعضهم أمسك به المسجد •

وكان من بين أصدقاء المسجد الشيخ سمهان عبد الغنى وهو رجل يملك مكتبة دينية قريبة من الحرم الزينبى وقد جمع التديين بين حسين أفندى وبين الشيخ سمهان فقامت بينهما صداقة وطيدة أقرب ماتكون الى الأخوة وحين وعد حسين أفندى بايجاد وظيفة لفرغلى لم يكن يفكر الا فى الشيخ سمهان • وفعلا لم يخذل سمهان صديقه •

ـ أين كنت ياسى فرغلى ؟

ـ أتمشى فى مصر ياعم حسين أفندى ٠

ـ أما زهقت مشيا ؟

ـ أرحم من البقاء محبوسا ٠

ـ والمذاكرة ٠

ـ ألا أنجح دائما ٠

ـ فعــلا ٠

ـ لاتخف على المذاكرة فأنا مصمم على النجاح ٠

ـ قل باذن الله ٠

ـ لابد أن أنجح ٠

ـ كله بأمره يافرغلى ٠

ـ أنا أذاكر تماما ٠

ـ ولــكن أخشى اذا اشتغلت بعــد الظهــر أن تضعف مذاكرتك ٠

ـ لايمكن ٠٠ أنت تعرف أنى لم أسقط مطلقا ٠

ـ أخشى أن يشغلك العمل عن المذاكرة ٠

ـ وأين هو العمل ياعم حسين أفندى ٠

ـ موجود ٠

ـ حقــا ٠

ـ حقــا ٠

وانكب فرغلى على يد حسين أفندى يقبلها وهم أن يقبل

قدمه الحافية المسترخية على الكنبة ولكن حسين آفندى سارع واحتضنه وأجلسه الى جانبه ٠

ـ أستغفر الله يابنى ٠٠ ألهذه الدرجة كنت تريد عملا ؟

ـ وهل كان خروجى ولفى فى الشوارع الا من أجل هذا ؟

ـ خلاص ياعم ٠٠ من هنا ورايح لن تحتاج الى لف ولا دوران ٠

ـ ربنا يطيل عمرك ٠٠

ـ أتعرف المكتبة الاسلامية ٠

ـ طبعا فى جوار جامع السيدة ٠

ـ صاحبها صديقى ٠

***

حين ذهب فرغلى للقاء الشيخ سمهان رآى فيه رجلا رقيق الجسم رقيق القسمات ذا لحية متناثرة الشعر ذات عثنون مدبب يلف على طاقيته عمامة لها عدبة تنسدل على قفاه فى وجهه صدق وفى سمته طمأنينة وفى عينيه هدوء وثقة ٠ ورأى سمهان فى وجه فرغلى شابا قاسى القسمات فى وجهه تصميم وفى عينيه ايمان بشىء لايدريه الشيخ ولايعرف كنهه وأحس الشيخ سمهان أن هذا الفتى يعرف مايريد ولكنه لايعرف الطريق اليه ٠ وأحس أنه يريد أن يعمل معه لأن الفترة التى يمر بها لاتتيح له الا أن يعمل هذا العمل البسيط وفى نورانية المؤمنين أحس سمهان أن هذا الفتى النحيف المنفتل

كأنه ثوب اعتصرته يد الزمن يريد أن يخرق الأرض بعوده الملولب ويريد أن يبلغ الجبال طولا بتلك العـزيمة الصلبة المتمثلة فى فمه المتشنج وفى ذقنه المتحدية وفى أنفه الذى يثب الى المستقبل كأنما يريد أن يسبق الحياة والزمان ٠

أحس سمهان من الفتى رهبة ولكنه لم يجد مايمنعه أن يلحقه بالعمل فقد تأكد لديه أن كل ماتراءى له فيه سيجعل منه عاملا نشيطا ٠٠ وبحسبه منه فى فترته تلك أن يكون عاملا نشيطا ٠ أما ماتوحى به مكوناته الأخـرى فشأنها به والزمان ولتكن الحرب بينهما ماشاء الله لها أن تكون فقد كان الشيخ سمهان يتوقع أن رحى هذه الحرب لن تدور الا بعد أن يتركه الفتى بأيام وشهور وربما بسنين ٠

وتسلم فرغلى عمله ٠

٧

هل المكتبة كتب

عالم آخر انفتح أمام فرغلي · ازداد احساسه بالغربة فى هذا لدكان · ارتصت على جوانبه كتب لم يتصور أنها تستطيع أن تخلق هذا الجو العجيب من الأسرار · ليس بين هذه الكتب كتاب واحد قرأه وما أقل الكتب التى سمع عنها بينها · لقد دخل مكتبات قبل هذا مرات قليلة فما كان يلتفت الى أمر هذه الكتب انما هى لحظات يسأل فيها عن الكتاب الذى جاء من أجله ثم ينصرف · ولكنه اليوم يعيش بين هذه الكتب ساعات طويلة وقد انفردت به وانفرد بها · ولم يخطر له على بال أن يمسك كتابا ليقرأ فيه وانما قصارى مافعله مع بعضها اطلالة عاجلة يقلب فيها الصفحات عشرات عشرات دون ريث من قراءة أو تمهل من تدبر · وقد استغرق

أياما كثيرة حتى عـــرف أماكن الكتب التى يكثر شراؤها ليستطيع أن يبيع اذا ماغاب الحاج سمهان عن المكتبة وماكان يفعل ذلك الا ليقيم صلاة العصر أو المغرب فى مسجد السيدة زينب المجاور للمكتبة ويصلى العشاء بعــد أن يقفل المكتبة ٠ وهكذا لم يكن فرغلى محتاجا أن يعرف مواقع الكتب كلها ٠ والحقيقة أن الحاج سمهان عينه لسبب كان خافيا عنه ولكنه عرفه بعد فترة قصيرة من بقائه فى المكتبة ٠

كان للمكتبة غرفة داخلية لاحظ فرغلى أن الحاج سمهان يستقبل فيها أغلب الأيام بعد صلاة المغرب فتى فى شباب العمر طويل القــامة عــريض الكتفين كث اللحيــة يرتدى الملابس الأفرنجية عرف فرغلى أن اسمه آمين ثم عــرف أن اسمه أمين الشبراوى وكان دائما يأتى بعد صــلاة المغرب بفترة قصيرة وماهى الا مصافحة سريعة ثم يدلف ســمهان وصديقه الى الغرفة الداخلية ٠

ومع الأيام تأكد فرغلى أن تعيينه كان من أجــل هــذا اللقاء وحده حتى لايظن أحد أن المكتبة خالية اذا قصدها فى فترة هذا اللقاء الذى لم يكن فرغلى يعرف من أسراره شيئا ٠ وليس فرغلى بالذى يعنى فى كثير أو قليل بالسبب الذى عين سن أجله ٠ وحسبه أنه وجد هذا المكان الذى لم يكن يطمع أن يجد خيرا منه ٠

وهكذا حرص فرغلى أن لاتقوم بينه وبين أحد من زملائه صداقة فهو يرى أن الصــداقة صلة مقيتة تجعل الصــديق يتسلل الى خفايا صديقه فيعرف من أبوه ومن آمه آين ولد وأين ربى ومقدار فقره ٠ وهذه كلها أشياء لايحب فرغلى أن يعرفها عنه أحد وهو آيضا لايحب أن يعــرفها عن آحد لأن النفس بطبيعتها تميل الى المقارنة ٠ فاذا عرف آصدقاء

أصبح حتما عليه أن يقارن بينهم وبينه وهو يجزع من هذه المقارنة لأنه دائما سيجد نفسه الخاسر فيها • وأين يجد فتى أمه راقصة موالد وأبوه عامل وهو يقيم عند عمته شكله ابن أخ وحقيقته خادم بلا أجر ولا يمس القرش يده الا عن طريق عمل اضافى عند رجل يستأجره ليكون ساترا للعيون • المقارنة قاتلة بالنسبة اليه فهو لايريد أصدقاء وقد نجح فرغلى أن يقتل كل صداقة تحاول أن تمد خيوطها بينها وبين غيره من الزملاء ولكن نجاحه لم يكن كاملا فالصداقة ان كانت اتفاقا غير مكتوب فى أغلب أمرها الا أنها كثيرا ماتفرض فرضا على أحد طرفيها حتى لايستطيع منها فكاكا أو عنها منصرفا •

من هذه الصداقات ماتقوم عمدها على القرابة وهذه الصداقة قبلها فرغلى غير ساخط وغير راض فى وقت معا • فابنا عمته كثيرا ماكانا يزوران البيت فكان لابد أن يسلما عليه وقد كان يقبل التحية منهما فى امتعاض شديد لايستطيع أن يبديه فقد كان يحس فى الكلمات القليلة التى يلقيها اليه كل منهما الكثير من المعانى تتخفى فى خبث مقيت مسموم فى نغمة الكلام • كان يحس أنهما لم ينسيا شأن أمه وكان يحس أنهما يحسان أن أباهما ينفق عليه لوجه الله ولو عرف أبناء الكلب هؤلاء أننى لا أكلف أباهما شيئا لما غير هذا من لهجتهما المتعالية السمجة فقد كان يطيب لهما أن يكون فرغلى فى مكان المفضول ويكون أبوهما فى مكان المفضل وأبناء الكلب لايحبان أباهما ولا يحبان أمهما فقد يمر الشهر وأكثر من الشهر ولا يزور أحدهما بيت أبويه ولكنهما مع ذلك كانا يحبان أن يستمتعا بهذا الشعور •

أكانت صداقة تلك التى تصل بين فرغلى من ناحية وبين

ابن عمته الطبيب ممدوح أو ابن عمته الآخر المهندس يحيى . هو لايجدلها اسما انها قرابة مفروضة لا قبل له بالتخلى عنها . وفارق السن بينهما لايسمح بصداقة حميمة . ولكن فرغلى مع ذلك كان يحس بصلة قوية تربطه بهما . أيمكن أن تكون الكراهية الشديدة صلة أم تراه الحقد أم تراه السخط على نفسه وعلى الحياة أن جعلته مضطرا أن يقبل تحية هذين الحقيرين اللذين يظنان أن الحياة خلت من أمثالهما نبوغا وعبقرية ؟ أم تراه حين ينفذ الى دخيلة كل منهما ويرى صورته هناك يراها صورة زرية تحيط بها هالة العار من أمه والفقر من أبيه والذل من مكانه فى بيت أبيهما ؟ هل هذه الصلة القوية هى واحدة من هذه المشاعر أم هى هذه المشاعر جميعا ؟ ليس يدرى وليس يريد أن يدى . هى صلة ولكنها ليست صداقة . أما الصداقة التى فرضت عليه وقبلها مضطرا وأظهر أنه قبلها راغبا فهى تلك التى قامت بينه وبين نديم الطوبجى .

هو زميله فى الفصل وفى الدرج ولم يكن هذان وحدهما يكفيان أن تقوم الصداقة هى زمالة . وهو قد درب نفسه على الصمت الطويل وهو يصغى للمدرس اذا تكلم لأنه يعلم أن الكلمة اذا عبرت ولم يسمعها فهو لن يسمعها مرة أخرى . ومن أين ؟ هو لايستطيع أن يستقدم مدرسا خاصا وهو أيضا لايستطيع أن يسقط وهكذا فرض الصمت التام على نديم أثناء الدراسة حتى لأوشك نديم أن يضيق به ذرعا لولا أن شهاداته فى النجاح كانت تجىء فى صورة ترغم على احترام هذا الصمت .

وهكذا استطاع الصمت الذى لا غنى عنه لفرغلى أن يعفيه من صداقة زميله اللصيق له فى المكتب وهكذا كان

يمكن أن تظل هذه الصلة زمالة لاتعدوها الى الصداقة · ولكن الأيام شاءت غير هذا · فقد فوجىء فرغلى وهـو جالس فى المكتبة بنديم قادم اليه مقتحما المكتبة اقتحام الباحث عن شىء وحين رأى فرغلى جالسا غير واقف فوجىء مرتين ·· مـرة لوجود فرغلى فى المكتبة ومرة لجلوسه ·

ـ فرغلى ؟! ·

ـ نديم ؟!

ـ ماذا تفعل هنا ؟

ـ لا شىء ماذا تفعل أنت ؟

ـ أريد كتابا ·

ـ أنت ·

ـ نعم ·

ـ لك ·

ـ لأبى ·

ـ أى كتاب تريد ؟

ـ شرح البيضاوى ·

ـ أحضره لك ·

ـ أذن فأنت ··

ـ أنا أعمل هنا بعد الظهر ·

ـ صحيح ·

ـ وما الغرابة ؟

ـ لم تقل لى ·

ـ لم تأت مناسبة ٠

ـ ومن أين تأتى المناسبة لقد فرضت على الصمت فى الفصل وأنت فى الفسحة تذاكر ٠

ـ اذا سمحت لك بالكلام مانجحت ٠

ـ والفسحة ٠

ـ أنا أعمل بعـد الظهـر ولابد لى آن أستغل كل دقيقة لأ ذاكر ٠

ـ ولكنك تذاكر هنا كما أرى ٠

ـ المذاكرة هنا غير مضمونة ٠

ـ ولكن الدنيا بالنسـبة لك كلها عمـل ٠٠ هذا غير معقول ٠

ـ وما هو المعقول ؟

ـ ساعة لربك وساعة ٠٠

ـ هذا تقسيم يعرفه الأغنياء آمثالك ٠٠آنا كل ساعاتى لعملى ٠

ـ ألا تصلى ؟

ـ ولماذا أصلى ؟

ـ وقعتك سوداء ٠

ـ أنا ليس من حقى هذا الدلع ٠

ـ هل العبادة دلع ؟

ـ كل لحظة تصرف دون مكسب دلع ٠

ـ حتى عبادة الله ٠

ـ خصوصا عبادة الله ٠

ـ انها تأتى بمكاسب كما تعلم ٠

ـ مكاسب موهومة ٠٠ وعود لم يثبت أحد أنه حصل عليها ٠

ـ لكن الانسان لا يستطيع أن يعيش بغير رب ٠

ـ لقد عاش أقوام كثيرون بغير رب ٠

ـ أين هؤلاء ؟

ـ قبل الرسالات ٠

ـ كانت لهم أربابهم صنعوها بأيديهم ٠

ـ أمثال هؤلاء يصلحون ليكونوا قدوة ؟

ـ وجاءت الرسالات ٠

ـ وأنا ما شأنى ٠٠ أنا لم أر من هذه الرسالات شيئاً ٠

ـ ألم تر القرآن ؟

ـ كلام ٠

ـ يخرب بيتك ٠٠ أنه كلام لا يمكن أن يقوله بشر ٠

ـ وأنا ماشأنى به ٠

ـ لمن تلجأ اذا ضاقت بك الحياة ؟

ـ أنا لم أر من الحياة الا ضيقا ولم أعرف لنفسى ملجأ الا نفسى ٠

ـ أبوك ؟

ـ هو فى حاله وأنا فى حالى ٠

ـ وأين تقيم وكيف تدفع أجر بيتك ؟

ـ أقيم عند عمتى ٠

ـ اذن فهى ملجأ ٠

ـ ان أحدا لايقدم الخير مجانا أبدا ٠ تعلم هذا ٠ مهما يكن غناك وغنى أبيك تعلم أن أحدا لايقدم الخير مجانا أبدا ٠

ـ وهل تقاضيك عمتك مالا على إقامتك ؟

ـ تقاضينى ٠

ـ مالا ؟

ـ بل شرا من المال ٠٠ أنا الذى أشترى حاجات البيت وأنا الذى أنظفه فى أيام الأجازات ٠ أنا أدفع أجر اقامتى مهانة وذلا وانكسارا ٠

ـ أول مرة تفتح لى قلبك ٠

ـ لقد رأيتنى أعمل فكان لابد لك أن تعرف الباقى ٠

ـ لنا زملاء كثيرون يعملون ٠

ـ نديم اسمع ٠٠ اسمع ولاتسألنى تفصيلا فى كل زملائك ٠٠ كلهم ٠٠ ليس هناك من هو أتعس منى ٠

ـ أنت طفل ٠٠ كنت أحسبك رجلا ٠

ـ أنت دلوعة كل شىء يفسر لك ولا تعرف أحوال الآخرين

ـ ولا أنت تعرف أحوال الآخرين وماكان لك أن تحكم قبل أن تعلم ٠٠ ربما كان فى فصلنا نفسه من هو شر منك حالا ٠

ـ محـال ٠

ـ لايستطيع انسان أن يعيش بهذا السواد جميعه فى قلبه ٠

ـ ومن قال لك انه كله سواد ؟

ـ كلامك ٠

ـ لقد كلمتك عن حالى ولم آكلمك عن آمالى ٠

ـ لك آمال ؟

ـ أضخم بكثير من سوء حالى ٠

ـ وبها تعيش ٠

ـ ولها أعيش ٠

ـ وهل تعيش ؟

ـ كل لحظة من حياتى ٠

ـ ليست هكذا العيشة ٠

ـ لمثلى لاتكون الا هكذا ٠

ـ ألا تذهب الى السينما ؟

ـ جربتها ٠

ـ كم مرة ٠

ـ مرتين ٠

ـ ألم تضحك أبدا ؟

ـ من همى ٠

ـ لو عرفت الله لانفتح قلبك للسعادة ٠

ـ ياعم أنا مالى وماله أنا لست قده ٠

ـ فأنت تعرف قوته ٠

ـ قدر ما أعرف قوة آمالى ٠

ـ فرغلى لقد أصبحت أخاف منك ٠

ـ لك حق ٠

ـ أعوذ بالله ٠٠ أنت نار ٠

ـ لم تر منها الا جذوة أو قبسا ٠

ـ قد تحرق نفسك ٠

ـ أو قد أحرق الآخرين ٠

ـ أخاف أن أكون أول من تحرق ٠

ـ ولماذا أنت ؟

ـ لأنه يخيل الى أننى أنا أول من عرفت أسرارك ٠

ـ أنت لم تعرف عنها شيئا ٠

ـ أنا مصمم على أن أغيرك ٠

ـ وأنا مصمم على أن أغيرك ٠

ـ ولماذا تغيرنى ؟

ـ لتصبح صلبا ٠ قد تكون غنيا ولكن الغنى وحده لن يكفيك فى الحياة ٠٠ لابد أن تكون فى قـوة الصراع الذى ستواجهك به الدنيا ٠

ـ لماذا هى صراع فى عينيك ؟ لماذا لاتكون حبا ومتعة وسعادة ورضا وهناء ٠

ـ لأنها ليست كذلك ٠

ـ ألم تعرف النساء أبدا ؟

ـ حين نزلت الى القاهرة اشتريت ٠

ـ كم مرة ؟

ـ لا أذكر ٠

ـ اذن فأكثر من مرة ومرتين وثلاث ٠

ـ ربما ولكن الفلوس لم تجعلنى آذهب كثيرا ٠

ـ ألم تجلس مع امرأة أبدا ؟

ـ ولماذا أجلس ؟٠٠ أنا آدفع وآمشى ٠

ـ ألم تعرف لذة حديث بينك وبين فتاة ٠٠ ألم تعرف الحب ؟

ـ فما هذا الذى كنت أفعله ؟٠

ـ يابنى آدم أنا أتكلم عن الحب ٠

ـ وعنه أتكلم أنا أيضا ٠

ـ اسمع لا فائدة ٠٠ فى أى يوم اجازتك ٠

ـ يوم الأحد ٠

ـ عجيبة ٠

ـ وأى عجيبة ؟

ـ كان المفروض أن تكون الجمعة ٠

ـ يوم الجمعة يكثر هنا الزبائن ٠

ـ يوم الأحد القادم لاترتبط ٠

ـ ماذا تعنى ؟

ـ سأريك جانبا آخر من جوانب الحياة ٠

ـ ومن قال لك أنى أريد آن آرى لها جانبا آخر ٠

ـ وماذا تخسر ؟

ـ وقتى ٠

ـ لن تخسره ٠

ـ وهو كذلك ٠

ـ أين البيضاوى ؟

ـ لحظة ٠

وقبل أن يحضر فرغلى الكتاب خرج الحاج سمهان ومعه صديقه وقدم فرغلى نديما الى الحاج سمهان فوجده يعرف والده ويحمله له السلام وينصرف نديم ويلتفت سمهان الى فرغلى :

ـ تستطيع أن تذهب مع صديقك فسأظل أنا فى المكتبة حتى موعد عودتي ٠ وينصرف فرغلى ولكن لايحاول اللحاق بنديم فقد أراد أن يعود الى نفسه يسائلها لماذا قالت كل هذا الذى قالته لنديم ؟٠٠ عجيبة هذه النفس لماذا تتكلم على الرغم من صاحبها وعلى الرغم من أنه عودها أن تكون صوتا كتوما لاتلين ؟ ولكن الأعجب أنه لم يشعر بتعاسة لأنه قال ماقال ٠٠ بل لقد أحس لذة عجيبة لم يحسها قبل اليوم ٠٠ فالقول فى ذاته لذة ٠٠ لم يكن فرغلى يعرفها ٠٠ ولكنه فى حزم يرد نفسه لقد قلت مرة فليس هناك مايدعو أن تقولى دائما ٠٠ لابد أن نختار المكان والزمان والشخص الذى نقول له ٠٠ وقد كان يعلم أن نفسه تخشاه ولاتجرؤ أن تعصى له أمرا ٠

***

كان نديم وفرغلى فى تلك السن الخضراء التى لم تشب الى النضج ولا تقف عند الفجاجة ٠٠ تلك الميعة من العمر فى

تلك الملاوة من فترات الحياة التى تختلط فيها الأحلام الوردية الشفيقة بالجنس المستنسر الكاسر · فالهوى يتخلل بهم ناى الطبيعة لتصدر عنه هذه النغمات المتكسرة كعيون العذارى الحالمة كأوهام تلوح من عالم مجهول فيهاالجمال ، وفيها الدعوة وفيها الاستدعاء وفيها الخوف الذى تبثه شخوص تكونت من دخان أو سحاب ، أو سعت تحت عباءة فضفاضة من نسـيج فيه الشفافية والاعتمام وفيها الابهار والاغراب ·

ولو كان فرغلى شأنه شأن غيره من الشباب لاستمتع بتلك الفترة من حياة الشباب كما يستمتع بها نديم · ·ولكن نفسه أعتمت منذ طالعته الحياة بحجرة مغلقة ان فتحت فالى بيت يغلق حتى اذا فتحت الأبواب تقاذفته الحياة وراحت تمخضه وتصفعه بعار أمه أو تدكه وتسفعه بفقر أبيه ·

كان نديم يحيا حياة الشباب فى مثل سنه وكانت له صديقة تخرج معه ولكنها أخبرته فى آخر مرة لقيته فيها أن خروجها وحدها أصبح مستحيلا لأن أباها يرفض هذا كل الرفض وحين احتالت عليه بأنها بعد المذاكرة تحتاج أن تستعيد نفسـها بمشية تسترد فيها بعض الانسام أمرها أبوها أن تصحب أختها معها · وكانت أختها فى مثل عمرها وكان نديم حائرا فى تلك الأخت فقد كان حين يخلو بسهام يستطيع أن يقبلها بل كان يستطيع فى أغلب الأحيان أن يذهب الى أبعد من ذلك حريصا دائما كما كانت هى حريصة ألا يصل الأمر الى اثارة عميقة ·

وهكذا وجد فى فرغلى بغيته فانه يستطيع أن يبعد الأخت عن أختها وهـو حـر معها وليس يعنى نديم ان كان فرغلى سيستطيع أن يتقرب من قدرية أو هو سيكون معها ذلك الكيان المتحجر الذى يعرفه · وخرج أربعتهم · وكانت قدرية ذكية

والعجيب أنها أعجبت بفرغلى فشكله يمكن أن يكون مرضيا للنساء • هذا الطول فى القوام وهذه النظرة العازمة النافذة الحديدية وهذا القلب الصلب المصمم وهذا الوجه النحاسى الذى لاتجـرؤ ابتسامة أو غضبة أن تعلوه وهـذا الشـعر الخشن الذى أرغمـه صـاحبه فى اصرار ألا ينفر الى أعلى لا يهتاج الى يمين أو شـمال • فرغلى بهـذه المعـالم أعجب قدرية • ومع أن فرغلى لايحتاج الى جرآة فانها هى التى بدأته بالحديث • ووهمت أنه صامت عن خجل ولو عرفته وماكان لها أن تعرف لاستبان لها عن شخص ألغى شـعور الخجـل من كيانه الغاء تاما وأى خجل يمكن أن يعرف ابن راقصـة فى الموالد • لو أنه عرف الخجل لاستحالت أمامه الحياة الى ضروب مغلقة وسكك مسكوكة وهو يريد أن يبلغ من الزمان ماليس يبلغه الزمن من نفسه لنفسه • ولكن من آين لها أن تعرف أن فرغلى طحن الخجل من نفسه منذ سنوات وسنوات وأنه ذراه فى الهواء فأصبح الخجل عنده هباء وأصبح هو كيانا بلا حياء •

ــ اسمك فرغلى •

ــ فرغلى •

ــ ألا ترى أن بقاءنا هنا مع هذين الاثنين غير مرغوب فيه •

ــ والله هذه أول مرة أخرج فيها مع ••

ــ مع بنات •

ــ أقصد •• أقصد •• مع نديم والآنسة •

ــ نعم •• الآنسة •• وآنسة أيضا •

ــ أليست آنسة ؟

وردت سهام فى تحد :

ـ آنسة طبعا غصبا عنك .

وقالت قدرية :

ـ وهل لأنها آنسة لابد أن تقول لها ياآنسة .

ـ هذه أول مرة أخرج ..

ـ وافرض أنهـا أول مرة .. اذن فأنا الآنسة قدرية طبعا .. وأنت الأستاذ ..

ـ ياستى غلطة لسان .. الحق على .. المهم .

ـ المهم أن نترك الآنسة والأستاذ نديم .

ـ وماله .

وتقول سهام :

ـ لا تغيبا .

ويقول نديم :

ـ بل غيبا كما شئتم .

وتقول قدرية فى ضحكة خبيثة :

ـ والله هذا يتوقف على الأستاذ .

ـ ياستى الحق على .

ـ تعـال .

ـ جئنـا .

ـ ألم تخرج مع فتيات أبدا ؟

ـ وهل خرجت أنت مع شبان ؟

ـ سأقول لك وانما أريد أن أعرف عنك أولا .

ـ أتريدين الحقيقة ؟

ـ لا يهم ٠

ـ فلماذا تسألين ؟

ـ لنتكلم ٠

ـ ولماذا نتكلم ؟

ـ فكر لحظة على أى صورة تصبح هذه الحياة اذا لم نتكلم ٠

ـ جميلة ٠٠ جميلة كأنها ٠٠ كأنها الجنة التى يقولون عنها ٠

ـ الجنة أيضا فيها كلام ٠

ـ هل ذهبت الى هناك ؟

ـ لا ٠٠ ليس بعد ولكننى أتصورها ٠

ـ خيالك واسع ٠

ـ وأنت ألا خيال لك ٠

ـ كل هذه الأشياء التى أراها خيال بالنسبة لى ٠

ـ فما الحقيقة عندك ؟

ـ هى التى أصنعها بيدى ٠

ـ ياستار ٠٠ أنت مخيف ٠

ـ ربما ٠٠

ـ أتريد أن تخيفنى ؟

ـ الآن أريد أن أقبلك ٠

ـ وما الذى يمنعك ؟

ولأول مرة عرف فرغلي كيف يصنع كل شيء مع فتاة بكر وتظل مع ذلك بكرا ٠

كان فرغلي في الأجازة لايذهب الى الديميرية ولم يكن أبوه يطلب اليه أن يجيء فقد ازدحم البيت بزوجته وبأطفاله الذين يتوافدون تباعا ٠

وفرغلي لم يكن يشتهي أن يرى أباه ولا يعنيه أن يرى زوجة أبيه ولا أولاده ٠ وان كان شعوره بكره أبيه عميقا الا أنه لم يكون أية مشاعر قبل زوجة أبيه أو أولادها فهم لا يمثلون عنده عائلة بل لا يشكلون عنده شيئا على الاطلاق٠

كان يراهم حين يأتي بهم أبوهم من حين الى آخر مدعيا أنه يزوره ويرى أخته ولكنهم كانوا بالنسبة اليه عدما من العدم ٠ عرف أسماءهم لانه وجد أنه لابد أن يحفظ أسماءهم ٠٠ كانوا فاروق ويحيى ومسعود ونبوية ٠ ولم يكونوا عنده الا هذه الأسماء ثم هم بعد ذلك بلامعالم فهو لايعرف من فاروق ولا من يحيى ويميز نبوية بضفيرتيها ولكنه يعرف مسعود أنه الطفل الذى مازالت أمه تحطه على كتفيها ٠ ومع ذلك فهو لا يرى أو هو لا يهمه أن يرى أى فارق في الملامح بين أحدهم والآخر ٠

وقليلا ماكانت تدوم زيارة الأب وزوجه وأبناؤه ثم تعود الحياة الى طريقها الذى تعود أن يسير فيه ٠ وقد كان اعتذاره عن عدم الذهاب الى البلدة في الأجازة حاضرا عن قريب ٠ فهو يقول لأبيه انه لايستطيع أن يترك مكانه في المكتبة وكان أبوه وزوجته يصدقانه وكانا يريدان أن يصدقاه ٠

كان جالسا بالمكتبة فى ظهيرة يوم من ايام الأجازة حين جاء أمين الشبراوى على غير موعد وكان الشيخ سـمهان قد ذهب الى الجامع ٠٠ الحـر شـديد وأمين الشبراوى يبـدو وكأنه امتص أشعة الشمس كلها فالعرق يسيل على وجهـه ويقطر من لحيته وحين يصل الى عتبـة المكتبة يقفـز اليها مستجيرا بظلها من حر الطريق ٠

ـ الحقنى بكوب ماء ٠

ـ أحضر لك حاجة صاقعة ٠

ـ احضر ماتشاء فقط الحقنى أولا بكوب ماء ٠

وحين شرب وطفر الماء عرقا الى جبهته ووجهه راح يجفف البحار المنبجسة منه ثم أخذ يهفهف بالمنـديل حتى اسـترد أنفاسه وراح ينعم النظر فى فرغلى وعلى جبينه حديث يكاد يطفر مثل العرق ٠ ورأى فرغلى الحديث ولكنه لم يقرأه ٠٠ كهمهمة تلوح فى خلجات ولاترتعش بها شفاه ٠ كمعنى يعرف أنه موجود ولكنه لايستطيع أن يغوص الى مداه ولايستطيع أن يستبين منه لمحة ٠

وحين أصبح فرغلى على يقين أن حديثا خطيرا فى طريقه اليه من أمين رأى فى عينيه وميضا ثابتا فهو شعاع نافذ فيه نور وفيه اصرار وفيـه توقع وفيـه ارادة وتتجمع هـذه المشاعر لتكون لونا من التصميم ٠

ـ ألم تفكر مطلقا لماذا أزور الحاج سمهان ؟

ـ أنا لا أفكر فى شىء أنا واثق أننى لن أصل فيه الى نتيجة ٠

ـ على الأقل حاولت ٠

ـ ولم أحاول ٠

ـ ولا تريد أن تعرف ٠

ـ ياأستاذ آمين أنا هنا لأستعين بمرتب الحاج سمهان على المعاش ٠ والذى يحتال على المعاش لايصرف فكره الى شيء

ـ هذا كلام ظاهره العقل ٠

ـ وباطنه أيضا ٠

ـ لا ٠٠ أما باطنه فشيء آخر ٠

ـ أتعرف علم الباطن ياأستاذ آمين ٠

ـ أعرف الناس ياأستاذ فرغلى ٠

ـ لماذا لاتقول ماتريد ؟

ـ لكل كلام مقدمة ٠

ـ أطلت التقديم ٠

ـ لعل الموضوع يحتاج الى هذا ٠

ـ ولكنك تعرف الناس ٠

ـ ومع ذلك أحتاج الى تقديم طويل ٠

ـ أنت أدرى بما تخفى ٠

ـ ألست مؤمنا بالله ؟

ـ أيبدو على عدم الايمان ؟

ـ ولايبدو عليك الايمان أيضا ٠

ـ أمن علم الباطن هذا ؟

ـ من الشواهد ٠

ـ مثل ماذا ؟

ـ أنت لاتصلى ٠

ـ وكيف عرفت ؟

ـ أنا .. أنا أعرف .

ـ المفروض أن تكون صلاتى لله وليس لك .

ـ أستغفر الله انما أقصد آنى لم أرك تصلى .

ـ وكيف يمكن أن ترانى ؟

ـ لى سنوات وأنا أعرفك .

ـ انك قلما تجىء الا بعد صلاة المغرب فأى فرض يمكن أن ترانى أصليه ؟

ـ فأنت تصلى اذن .

ـ هذا بينى وبين صاحب الصلاة .

ـ يهمنى أن أعرف .

ـ لايمكن أن تعرف .

ـ سأصدقك ان قلت .

ـ هبنى أصلى .

ـ فأكمل دينك .

ـ بالزواج ؟

ـ بل بالجهاد .

ـ أهناك حرب اسلامية ؟

ـ الحرب الاسلامية لاتنتهى .

ـ أنا لا أعرفها .

ـ عملى أن أعرفك بها .

ـ فى أى ميدان ؟

ـ فى الوطن .

ـ وما الوسيلة ؟

ـ هذا عملى أيضا ٠

ـ ولكن الحرب أى حرب تحتاج الى أدوات ٠

ـ نعرف ذلك ٠٠ كيف نكون فى حرب ولانعرف آن لكل حرب أدواتها ٠

ـ وماذا عندكم من آدواتها ؟

ـ كل أدواتها ٠

ـ أتعرف أهم عنصر فيها ؟

ـ الروح الاسلامية ٠

ـ هذه مفروضة فى كل من يشترك معكم ٠

ـ فأى عنصر تقصد ٠

ـ لابد أنك تعرفه ٠

ـ ان جهادنا حتى اليوماللقاءات والأحاديث والمنشورات

ـ وهذه جميعا ميسورة ٠

ـ لعلك تقصد ٠٠٠

ـ المال ٠

ـ موجـود ٠

ـ اذن فقد اكتملت عندكم أدوات الحرب ٠

ـ هى مكتملة ٠

ـ وأنا معكم على بركة الله ٠

ـ ستدخل فى اختبارات كثيرة ٠

ـ وأنا مستعد باذن الله ٠

ـ اذن نلتقى اليوم بعد آن تقفل المطبعة ٠

ـ أنكتم الخبر عن الحاج سمهان ؟

ـ المفروض أننى الوسيط بين كل العاملين وليس من المفروض أن يعرف أحد منهم الآخر ٠

ـ ولكن العلاقة بينى وبين الحاج سمهان ٠

ـ لا شأن لهذه العلاقة بما ستقوم به ٠

ـ ربما غضب ٠

ـ أولا هو لن يعلم وثانيا ما أهمية غضبه ٠

ـ يقطع عيشى ٠

ـ لايستطيع انه لن يفعل ذلك ٠ وهو من أهم جنودنا ٠

ـ ولكننى أعرف أنه منكم وهو لايعرف ٠

ـ لقد عرفت هذا بحكم عملك فليس من المحتم أن يعرف هو ٠٠ مادمنا نستطيع أن نخفى الأمر عنه فلابد أن نخفيه ٠

ـ أين نلتقى ؟

ـ فى جامع الرفاعى ٠

ـ وهو كذلك ٠

وهناك عرف فرغلى أن دوره فى أول الأمر سيقتصر على توزيع المنشورات وبث الدعوة بين اخوانه ومن يعرفهم وأن أول مرتب له سيكون عشرة جنيهات شهرية يستعين بها على التنقل واكرام الأصدقاء ٠

٨

فى الجامعة أشياء غير العلم

حين دخل فرغلى كلية التجارة حرص أن تكون علاقاته مع زملائه أكثر تباعدا من علاقاته بالمدرسة . فالكلية فيها سعة من الابهاء والمدرج يستطيع أن يستوعب مئات الطـلاب قد يبلغون الألف والصداقة بين بعض الطلاب والبعض الآخر تأتى جاهزة من المدرسة الثانوية وهكذا كان نديم وحده هو الصديق الذى يعرفه فرغلى أما التلاميذ الآخرون الذين كانوا زملاء لهما فى مدرسة الخديوى اسماعيل فقد يكون بعض منهم صديقا لنديم ولكنهم بالنسبة لفرغلى معـارف وليسوا أصدقاء وظل فرغلى حريصا ألا تزيد العلاقة بينه وبينهم عن هذا .

نديم وحده هو الذى كان يخرج معه ويشاركه صلاته بالبنات • وبطبيعة الأمور كانت سهام وقدرية قد تزوجتا ولكن نديم دائما كان قادرا على اجتذاب مثيلات لهما وكان يحرص أن يكون فرغلى رفيقه فى مغامراته • فقد أدرك نديم أن صمت فرغلى وهذا الجمود الرابض على وجهه يجعل الفتيات يغرمن به ويحاولن أن يخرجنه من القفص الحديدى الذى يستوى بداخله • وكانت هذه المحاولات تجعل الجلسة مليئة بالحياة وهو أمر طبيعى يحدث دائما حين يكون بين الحاضرين شخص لايشبه الناس فى مألوف مايصنعه الناس وأى شذوذ أكثر من شاب فى ريق العمر لايبتسم ولاتصفو نفسه فى جلسة أنس وهو فى الوقت نفسه يغازل ويتقرب من الفتاة التى يوزعها عليه نديم •

وهكذا تعود نديم أن يكون معه فرغلى دائما • ولم يكن غريبا أن يرى طلبة الكلية فرغلى وهو لايخلو الا الى نديم •

ونظام الأقسام الذى تسير عليه الكليات ويطلق عليه كلمة السكشن التى أصبحت عربية لانفرادها فى التعبير عن هذا النظام لم يستطع أن يجعل فرغلى يصادق أحدا آخر من زملاء السكشن • فهم بالنسبة اليه معارف ويظلون كذلك لا أكثر • وظل فرغلى ونديم على علاقاتهما النسائية • ولم يمنع الاتفاق الجديد الذى تم بينه وبين أمين الشبراوى استمراره فى خروجه مع نديم ومصاحبته للفتيات اللواتى يتكفل نديم وحده بالحصول عليهن •

ولكن نديما يفاجئه يوما بشىء جديد • وكان فرغلى قد اختلط بالحياة اختلاطا يصعب معه أن يواجه الدهشة • ولكن هذا ميدان جديد •

ـ ماذا تقول ؟

ـ كبرنا على شغل العيال هذا ٠

ـ ماذا تقصد ؟

ـ اسمع لابد لنا من شقة ٠

ـ ماذا ؟

ـ شقة ٠

ـ طبعا أنت تعرف أننى لاأستطيع المشاركة فى ايجارها ٠

ـ كيف ؟

ـ أنت تعرف ضيق مواردى ٠

ـ انها شقة صغيرة لاتكلفنا أكثر من ثلاثة جنيهات أو أربعة كل شهر ٠

ـ ولا مليم واحد ٠

ـ لا عليك أدفعها ولكن تأثيث هذه الشقة لابد له من مبلغ ٠

ـ ولا مليم ٠

ـ يانهارك أسود ٠

ـ ما أوله شرط آخره نور ٠

ـ لاتكن باردا واشتر سريرك على الأقل ٠

ـ ان كان على قد السرير أشتريه وأمرى الى الله ٠

وتم المشروع فى سهولة ويسر ٠ فما أسرع ماوجدا شقة بمنطقة باب اللوق ٠ وما أسرع مافرشت فقد كان فرغلى منذ اتفاقه مع أمين الشبراوى فى حالة مالية منتعشة استطاع بها

أن يصبح ذا مبلغ مدخر • ثمن السرير بالنسبة اليه زهيد لاينقص من شأنه • ولو عرف الحقيقة لتبين له آنه آكثر يسرا من نديم ومن أبيه ولكن أسماء العائلات طالما سترت حقائق البيوت التى يتكون من مجموعها هذه الأسرات •

***

كان فرغلى حين استأجر الشقة مع نديم ينتوى فى نفسه أمرا لم يطلع صديقه عليه • الا أمرا واحدا كان يقف عقبة بينه وبين ماينتويه • ولذلك لم يكن عجيبا آن يقول لنديم فجأة :

ـ ياأخى أمرك عجب •

ـ وما العجب ؟

ـ أنت دائما تعرفنى بالنساء ولا تعرفنى بالرجال •

ـ عجيبة ؟!

ـ العجيبة منك أنت •

ـ ياأخى لقد مرت على صداقتنا سنوات وأوشكنا آن نصل الى السنة النهائية وأنت لاتفكر فى صداقة آحد من زملائنا منذ كنا فى الثانوى • فماذا حدث ؟

ـ الناس تتغير •

ـ حتى أنت ؟

ـ آلست من الناس •

ـ فيها شك •

ومنذ ذلك اليوم أصبح فرغلى يصحب نديما فى الجلسات الرجالى أيضا وتعرف بأصدقاء نديم الذين كانوا دائما

مندهشين أنه يتباعد عنهم • كان أصدقاء نديم كثيرين ولكن ثلاثة منهم كانوا يجتمعون أغلب أيام الأسبوع فى مكانين محددين لايتغيران قهوة بوديجا شتاء وكازينور صيفا وكانت هذه اللقاءات تتوقف دائما عندما تقترب الامتحانات • وحين انضم فرغلى الى هذه الجلسات كان يذهب دائما متأخرا وكان نديم وحده يعرف السبب وكان الثلاثة الآخـرون لايهتمون بهذا السبب • كان الشباب هم فتحى الرويعى وفاضل مبروك ومنصور ممتاز وكان ثلاثتهم فى كليـة التجارة • وكانوا جميعا يعاملون فرغلى معاملة زميل يوشك أن يصبح صديقا الا فتحى الرويعى فقد لاحظ فرغلى منذ أول يوم جلس اليهم فيه أنه يحاول أن يتقرب منه ويوثق صلته به •

حرص نديم منذ اليوم الأول لتأثيث الشـقة أن يعلن البشرى لأصدقائه ودعاهم فى اليوم التالى الى تناول العشاء بهـا •

ـ عشاء فقط •

ـ عمى فى عينك وماذا تريد غير هذا ؟

ـ يجب أن يستعمل الشىء لما خلق له •

ـ اعملوا حسابكم هذه أول مرة تدخلون فيها الشـقة وهى باذن الله الأخيرة •

ـ لابأس ولكن اجعل القعدة مقبولة بعض الشىء •

ـ هو العشاء فقط يافتحى موافق أم آلغى العزومة كلها •

ـ موافق • • موافق • •

والواقع أن فتحى وحده هو الذى كان يهمه أن يستخدم هذه الشقة أما فاضل ومنصور فكانا فى غـير حاجة اليها •

وتمت العزومة ونسى الأصدقاء بعد أيام قليلة أمر الشقة وعادوا الى مألوف حديثهم وكان الحديث فى هذه الأيام يدور بين الشباب فى كل شيء • فمنهم من يحب الأدب ويقرأه بينهم وكانوا الآخرون لاينصرفون عن هذا الحديث اذا بدأه فاضل مبروك فيهم أيضا هواة وليس بين خمستهم من لم يقرأ كتابا لطه حسين أو توفيق الحكيم أو العقاد أو هيكل فالحديث فى الأدب غير ثقيل عليهم وكان المتحدث لبقا يعرف متى يميلون الى الحديث ومتى يميلون عنه وقد يأخذ منه منصور طرف الحديث فيتكلم عن صراع الأحزاب وعن أغلبية حزب الوفد وعن صمود الحزب ضد السراى وأحزاب الأقلية كما يحب الوفد أن يسمى الأحزاب الأخرى • ولابد أن يتكلم فتحى عن وجوب القضاء على كل هذه الأحزاب وقتل زعمائهم حتى يحكم الشعب والشعب عند فتحى هم الفلاحون والعمال الذين لن تحل الأمور الا على أيديهم •

فالحديث متنوع لا أثقال فيه على أحد وكل شخص منهم مشارك فيه لايضيق بالاستماع ولايضيق به اخوانه ان تحدث وكان نديم باشتراكه فى هذه الأحاديث يكون دون أن يدرى ثقافته العامة فهو لم يكن من هواة القراءة وقد كان أمثاله كثيرين الا أن الجو العام الذى يعيشون يرغمهم أن يكونوا على قدر لابأس به من الالمام باليسير من كل شيء وكان جميعهم مشاركا فى سياسة مصر بالحديث ان لم يكن بالانتماء الى الأحزاب أو التجمعات •

وكان فرغلى خيرا من نديم فى هذا الشأن فقد مكنه اتصاله بأمين أن يكون على صلة وثيقة بكثير من الأحداث كما استطاع أن يتعرف منه على أسماء الشخصيات التى تحرك السياسة المصرية وكان حكمه عليها هو حكم أمين وحده ولم يعن أن

يحاول التعمق فى حقائقهم ولا فيما يقف وراء كل منهم من ماض مكن له أن يكون ذا شأن فى سياسة مصر ٠

لم يكن الاصـدقاء يتأخرون فى جلستهم الى أكثـر من العاشرة والنصف أو الحـادية عشرة على أكثر تقـدير ٠ ثم ينصرف كل منهم الى بيته ٠

وفى ليلة انتهت بهم الجلسة وأراد فرغلى أن ينصرف مع نديم فاذا فتحى يقول له فجأة :

ـ فرغلى هل لابد لك من دادة ؟ ٠

وضحكوا وارتبك فرغلى ٠

ـ تعال ياأخى معى الليلة نتمشى قليلا على النيل فأنا قد نمت اليوم بعد الغداء ولا أحس أنى أريد أن أروح ٠

ـ وهو كذلك ٠٠ هيا بنا ٠

وأجرى فتحى الحديث فقد كان أكثر الخمسة حبا للحديث وكان يجد متعة لا تماثلها متعة وهو يستمع الى نفسه وكان فرغلى خير من يستمع له فقد علمته حياته الصمت وأصبح ذا قدرة عليه قل أن تتوفر لآخرين ٠ وكان يطلق من حين لآخر تلك الأنة التى يطلقها دائمـا المستمع الذى لاينوى الكلام فيدرك فتحى أن صاحبه يستمع ويستوعب ٠ تكلم عن كثير ٠ عن حكم البروليتاريا وعن الجنة المنتظرة وعن فسادالرأسمالية ومازال ينفذ من موضوع الى موضوع حتى :

ـ قل لى يافرغلى لماذا لا تنضم الينا ؟ ٠

ـ ماذا ؟ ٠

ـ ماذا يعمل أبوك ؟ ٠

ـ موظف بالسكة الحديد ٠

ـ ما درجته ؟ ٠

ـ ليست عالية على كل حال ٠

ـ فهو كادح ٠

ـ وفــلاح ٠

ـ وفلاح أيضا ٠

ـ زوجته عندها أرض وهو يزرعها لها ٠

ـ زوجته ٠٠ تقصد أن أمك ليست معه ؟

ـ ماتت ٠

قالها فى حسم ودون أى تردد أو تفكير ٠

ـ فمن ينضم الينا اذا لم تنضم أنت ؟ ٠

ـ ولكن هذه الجمعيات آلا تحتاج الى مصاريف ٠

ـ على ذكر المصاريف هل أنت بايخ مثل نديم وترفض أن أستعمل شقتك ؟ ٠

ـ هذا اتفاق بينى وبين نديم ٠

ـ ومن سيقول له ؟

ـ ولكن ٠

ـ أسمع سأعطيك جنيها فى كل مرة استعملها فيها ٠٠ أنا رجل عملى ٠

ـ أخاف أن ٠٠

ـ جنيه ٠٠ جنيه كامل ٠

ـ لا بأس ٠

ـ اتفقنا ٠٠ ماذا قلت بشأن انضمامك لنا ٠

ـ كنت أسألكم من أين تنفقون ؟

ـ لا شأن لك ٠

ـ كيف ؟

ـ أنت تريدنى أن أصبح واحدا منكم ٠

ـ الاشتراك معنـا له درجات ٠٠ فى البداية لن تعـرف الا القليل أو ماهو أقل من القليل ثم تتدرج ٠

ـ ولكن أنت تعرف أن مواردى لا تسمح أن ٠٠

ـ موارد ماذا ياأستاذ ٠٠ اننا سنعطيك مرتبا ٠

ـ كم ؟

ـ على حسب ٠٠٠

ـ كيف ؟

ـ أقدمك الى المسئول عنى وهو يقرر ٠

ـ ماذا تعنى يقرر ٠٠ ؟

ـ يقرر ماتستحق من مرتب ٠

ـ يعنى كم ؟

ـ لن يقل عن سبعة جنيهات مثلا للتحرك ٠

ـ قليلة ٠

ـ لعلها تكون أكثر ٠

ـ أفكر ٠

ـ وفيم تفكر ؟ ٠٠ ان المستقبل لنا وستلعب بالفلوس لعبا الى جانب أشياء أخرى ستنبسط على الآخر ٠

ـ وهو كذلك ٠

ـ موافق ٠

ـ على بركة الله ٠

ـ عود نفسك على تعبيرات أكثر تقدمية ٠

ـ وهو كذلك ٠

ـ والشقة ٠

ـ متى تريدها ؟

ـ أهى خالية باكر ؟ ٠

ـ نعم ٠

ـ هاك الجنيه ٠٠ أين المفتاح ؟

ـ هذا هو ولكن اياك أن تصنع مفتاحا مثله لأن نديما لو عرف ستكون قطيعة بيننا ٠

أنا سأعطيك المفتـاح عنـدما تطلب وكل ما عليك أن تخبرنى بالموعد قبله بفترة لأعرف لك ان كان مناسبا أم غير مناسب ٠

ـ وهو كذلك ٠

ـ مع السلامة ٠

***

منذ ذلك اليوم أصبح فرغلى كثير الصلات والغريب أو ربما ليس غريبا أن المنفى الذى فرض على طفولته مكنه أن يشكل هذه الصلات فى الصورة التى يريدها ٠ يسمع كثيرا ويتكلم قليلا والغريب أو ربمـا ليس غريبا أيضـا أن أمين واخوانه عرفوا أنه يعمل مع فتحى واخوانه كما عرف فتحى ومن معه أنه متصل بأمين وزملائه ٠ والغريب أو ربما ليس غريبا أن هذه الصلة المزدوجة قد أكسبته عند كل فئة قدرا

من الأهمية غير متاح للآخرين الذى ينتمون الى جهة واحدة من الجهتين •

وكلا الجانبين عرف صلة فرغلى بالجانب الآخر عن طريقه هو فقد أبلغ أمينا باتفاقه مع فتحى فى أول لقاء له بعد هذا الاتفاق • كما أنه أعلن فى يوم تقديم فتحى له الى المسئول صلته بمسعود وهكذا استطاع أن يحمل من خيانته للتجمعين ولاء لكل تجمع فأولاه كل تجمع على حدة ثقة كاملة واستطاع فرغلى بما يكسبه من مبالغ تعتبر خيالية بالنسبة اليه فى هذه الأيام أن يضفى على هندامه الكثير من الأناقة •

لم يكن فرغلى يعلم أن فتحى بؤرة تجتمع عندها وعند زملائه عيون أخرى ولم يكن يعرف أيضا أن أمين ومن معه ملتقى عيون ان اختلفت فى شخوصها فهى تصدر عن نفس مصدر العيون الأخرى •

واستطاعت تقارير هـذه العيون أن تلتقى واستطاع المصدر الذى يبثها أن يدرك الدور الذى يقوم به فرغلى •

وكان هذا المصدر على قدر كبير من الذكاء •

كان فرغلى جالسا فى المكتبة ، وكان الشيخ سمهان جالسا معه ينظر الى ساعته المرة تلو الأخرى يريد ألا تفوته صلاة المغرب جماعة • ولم يكن اليوم من الأيام التى تعود أمين أن يأتى فيه الى المكتبة • ولم يكن أيضا هناك موعد بين أمين أو فتحى مع فرغلى • فكأن فرغلى متوقعا أن تنفرد به المكتبة حين يذهب الشيخ سمهان الى الصلاة •

ويقوم الشيخ سمهان :

ــ سأظل فى الجامع حتى أصلى العشاء فلاتترك المكتبة •

ـ وكيف أتركها وأنت الست هنا ٠

ـ سلام عليكم ٠

ـ مع السلامة ٠

ولم تمر لحظات على ذهاب الشيخ سمهان حتى دخل المكتبة شاب متوسط القامة ممتلىء الجسم فى غير ترهـل يبـدو من وجهه الشاب أنه لايتجاوز الثلاثين ولكن فى عينيه نفاذا حادا يحاول هو باغضائة يتقنها أن يكسر الشعاع المتدفق منهما فى قوة عاتية ٠ فى وجهــه جـرأة يسترها بابتســامة خجلى فلا تنستر ٠ قال فى صوت خفيض قوى ٠

ـ السلام عليكم ٠

كان فرغلى جالسا وظهره الى المكتبة وعيناه الى الطريق ولم ير الشاب وهو يدلف الى المكتبة ٠ حين انقض عليه الصوت خيل الى أنه ينبعث من فضاء ٠ وانتتر فى حركة تلقائية وهو يصيح فى صوت مخضوض :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ٠

ووضع الشاب يده على كتفه وقد أحس خوفه ٠

ـ ياه ٠٠ كنت أظنك شجاعا ٠

ـ أهلا وسهلا ٠

ـ أقعد ؟ ٠

ـ تفضل ٠

ـ طبعا مادمت سأقعد فأنا لن أشترى كتبا ٠

ـ لاتريد كتبا ؟ ٠

ـ أنا اقرأ الناس ولا أقرأ الكتب ٠

ـ أهـلا •

ـ ماكل هذا الفزع •• خيبت ظنى •

ـ أى ظن ؟ •

ـ ظنى فيك •

ـ أتعرفنى ؟ •

ـ كما لاتعرف نفسك •

ـ وهل يعرف أحد نفسه ؟

ـ جواب ذكي •• فأنا أعـرفك كما لايعـرفك أبوك فهيم •

ـ أبى •• انه لايعرف عنى شيئا •

ـ أعرف ذلك •• وأعرفك كما لاتعرفك أمك تحية أو توحة •

ـ من أنت •• كيف ؟

ـ اقعد واهدأ واسمع ولايعلو صوتك •

ـ أهو أمر ؟

ـ نعم ••

ـ ممن ؟

ـ من هذا •

وقرأ البطاقة المجلدة وخفق قلبه كما لم يخفق أبدا حتى ولا يوم أحاط به التلاميذ فى فناء المدرسة الابتدائية وجف حلقه وراح يجمع الكلمات •

ـ أهناك شيء ؟

ـ هناك أشياء •

ـ أنا تحت أمرك ٠

ـ غصبا عنك ٠

ـ ومن غير غصب ٠

ـ فى هذه الحالة سنصبح أصدقاء ٠٠ صداقة لم تعرفها فى حياتك ٠

ـ أوامرك ٠

ـ هناك طريقتان ٠ الأمر واحدة منهما ٠

ـ والأخـــرى ٠

ـ الاتفاق ٠

بدأ فرغلى يسترد شيئا من كيانه المحترق وأحس الجفاف وقد أصبح رطبا بعض الشىء ٠ واسترد أنفاسه المتلاحقة ٠

ـ من المؤكد أنك لاتعرفنى كما تظن ٠

ـ هل أنت سريع الأحكام دائما هكذا ؟

ـ لو كنت تعرفنى لعرفت أننى لا أمانع فى الاتفاق أبدا ٠

ـ ولكنك ان تمكنت قتلت ٠

ـ هذه صفة جديدة فى نفسى ٠

ـ والأحذية التى مزقتها فى المدرسة ٠

ـ مجرد أحذية ٠

ـ الآن يمكن أن تستبدلها بأرواح ٠

ـ أعوذ بالله ٠

ـ هذا صوت أمين الشبراوى ٠

ـ أتعرفه ؟

ـ ان لم أكن أعرفه ماقلت أنك لاتمانع فى تمزيق الأرواح ٠

ـ أنت تعرف الكثير ٠

ـ وأعرف الذين تعرفهم عن طريق فتحى ٠

ـ أيضا ؟! ٠

ـ هؤلاء يمزقون الحياة كلها ٠

ـ ولكنك تعرف ٠٠

ـ أعرف أنك مع هؤلاء ومع هؤلاء وأنك فى نفسك لست مع أحد الا نفسك ٠

ـ أنت تعرفنى اذن ٠

ـ ونفسك هذه أشد خبثا وجبروتا من هؤلاء وهؤلاء جميعا ٠

ـ لا أعرف هذا فى نفسى ٠

ـ ألم تقل ان أحدا لايعرف نفسه ٠

ـ فكيف عرفت أنت هذا عنى ؟

ـ هذا عملى ٠

ـ أوامرك ٠

ـ تعمل معنا ٠

ـ وماله ؟

ـ نحن يمكننا أن نقتل اذا غشنا من يعمل معنا ٠

ـ والجماعتان اللتان أعمل معهما يقتلان أيضا ٠

ـ القتل عندهما جريمة نتولى نحن ضبطها ويعدم الفاعل ٠ أما نحن فنقتل قتلا شرعيا ٠

ـ شرعيا ؟! .

ـ هو قتل قانونى على الأقل .

ـ أى قانونى هذا ؟

ـ اذن فقل هو قتل رسمى لا عقاب عليه .

ـ هذه هى الكلمة السليمة .

ـ ماذا قلت ؟

ـ أنت تعرف ماأريد أن أقول .

ـ ستأخذ منا قدر ماتأخذ من الجماعتين .

ـ وأين يكون اللقاء .

ـ لاشأن لك بهذا ..

ـ والمرتب .

ـ من المؤكد أنك ستجده فى جيبك كل شهر .

٩

عود على بدء

كان وجود فرغلى فى الكلية يسكب عليه هـذا المرتب الضخم ولولا خوفه أن تكشف عمته وزوجها أمـره لاستقل بالسكن ولكنه أراد أن يظل فى بيتهم ليستر دخله ومنابعه فى وقت معا · فهو لاينسى دهشتهم كلما اشترى ملبسا جديدا · وهكذا استطاع فرغلى أن يدخر مبلغا من المال لم يتصور أنه سيكون فى حيازته فى يوم من الأيام ·

وحين ظهرت النتيجة وحصـل على بكالوريوس كليـة التجارة تولاه نوع من القلق فقد كان يخشى أن تستغنى عنه جهة من الجهات الثلاث التى يعمل فيها وهو بعد فى أول الطريق ولهذا لم يكن غريبا أن يفكر فى هذا الباشا بجانب قريتهم

ليضمن له الوظيفة • وكان يريد أن يوطد علاقته بنديم وان كانت في غير حاجة الى توطيد الا أنه اليوم أصبح يحس أن أهل نديم سيفتحون له الطريق في أول الأمر على الأقل • وحين فكر أن يعيش مع أبيه كان يريد أن يبالغ في اخفاء ما ادخره من مال • فالأطماع من أبيه متكالبة فلو علم أن ابنه يملك مالا ما أعتقه أو ينال من هذا المال كل ما يستطيع أن ينال • وكان وصوله الى القرية قبيل غروب الشمس وكان نديم غائبا عن القاهرة فذهب فرغلي وحده وكان دخوله الى بيت أبيه محوطا بكثير من الشعور بالغربة فلا البيت بيته ولا سيدة البيت أمه ولا هؤلاء الاخوة أخوته الا بانتسابهم الى أبيه • بل ان أباه ليس أباه • فالأبوة ليست مجرد نقطة من دم تصبح انسانا وانما هي صلات عميقة تلقي بذرتها الى قلوب الآباء روح الله ليرعاها الآباء بالعطف والحب والاشفاق الذى لا اشفاق مثله والتفاني الذى يصل الى منزلة التنازل عن الحياة في سبيل سعادة الأبناء • وتنمو تلك الشجرة المقدسة الوريقة الخضراء في كل الفصول لتصبح الأبوة التي يعرفها من الآباء أغلب الآباء ويعرفها من الأبناء أغلب الأبناء •

فاذا لم يزرع الأب هذه البذرة الربانية فليس عجيبا ألا تكون هناك أبوة وليس عجيبا ألا تكون هناك بنوة • بل وليس عجيبا أن يشعر الأب أمام ابنه بالخزى الذى يذكره دائما بهوان عواطفه ويشعر الابن أمام أبيه بالكره لذلك الكيان البشرى الذى كان يلتمس من قلبه الرحمة فوجد القسوة وينتظر الحب فوجد الانصراف ويتوقع العطف كل العطف فلم يجد الا الجمود كل الجمود •

كان أبوه جالسا بصحن الدار والى جانبه زوجته وقد ارتسمت على وجهيهما تلك الملالة التي يعرفها أهل الريف اذا

انقطع بهم الليل ووهنت الأقدام عن السير وشعر الناس كل الناس أنهم لن يجدوا من الحديث جديدا اذا هم تزاوروا • لحظات تهبط فيها الملالة على جو القرية كضباب ينتشر ويتجمد ساعات أو أياما ثم ينقشع ثم يخف الناس الى بعضهم البعض يسمرون بحديث فارغ أغلب الأمر أو بحديث جاد أحيانا •

كان ذلك اليوم الذى دخل فيه فرغلى الى البيت من أيام الملالة تلك • وكانت تلك الأيام عجيبة فى شأنها فأنت تجد الناس فى القرية كل الناس وقد اتخذوا قرارا يبدو فى ظاهر أمره فرديا وهو فى الحقيقة اجماعى أن يصيب الزهق نفوسهم كأنها تصعد فى السماء •

وحين دخل فرغلى ابتسم الأب فان تكن بذرة الأبوة لم ترتو ولم تصبح شجرة الا أنها موجودة على رغم أنفه • وان له الى ابنه حنينا وان حاول أن يقمعه وان له عندما يلقاه لهفة وان تكن خجولا •

ـ أهـلا •

قالها صادقة صاعدة من أعمـاقه كأنما كانت مغلقة وانفتحت فجأة وقامت شـهاوى عن مكانها لتلتقى به فى منتصف الطريق الى الكنبة التى كانا يجلسان عليها •

ـ أهلا مرحبا •• اسم النبى حارسك وضامنك •• أهلا •• أهلا بك فى بيت أبيك يافرغلى •

لم تكن المرأة كاذبة فى مشاعرها فان فرغلى لم يكلفها من أمرها عنتا ولا رهقا طول هـذه السنوات التى عاشتها مع أبيه وهى واثقة أنه مادام لم يكلفهم وهو تلميذ فهو الآن وهو فى ريعان شبابه أكثر بعدا عن ارهاقهم •• ومشاعر شهاوى مثل أغلب نسوان القرية تتشكل بالمكسب والخسارة•

فليس غريبا أن ترحب شهاوى بابن زوجها وأن تفرح بأنه جاء الى زيارة بيتها ٠

واستقبل فرغلى الترحيب بابتسامة يكاد يكون قد صنعها بيديه ليضعها على شفتيه ٠ فانه منذ زمان بعيد قتل فى نفسه كل المشاعر الانسانية التى لاتعود عليه بربح مادى سواء عليه تمثل هذا الربح فى مال يكسبه أو قوة يبطش بها ان استطاع بطشا ٠ وكان يعلم أن رغبته فى البطش عارمة وكان يختزنها وينتظرها لتزداد عنفا على الأيام ٠

قبل أباه وقبلته شهاوى وزعقت ٠

ـ ياأولاد تعالوا شوفوا أخاكم ٠٠ فرغلى جاء ياأولاد ٠

وكأنما انتفضت الأرض عن عفاريت أقزام وطوال وتحلق حوله أخوته يسلمون عليه ثم يتحلقون حوله وكأنه أعجوبة لم يروا لها شبيها ٠ فهم لم يروه فى بيتهم قط فكأنما وجوده فيه معجزة ٠

وقالت شهاوى لابنتها :

ـ قومى يانبوية نذبح ذكر البط لأخيك ٠٠ رجل عزيزة يافرغلى ٠

ـ لا لزوم ياخالة شهاوى ٠

ـ والنبى أبدا ٠٠ الا هذا ٠٠ أقل من ذكر بط ٠٠ أهلا ٠٠ أهلا بابننا البكرى ٠

قليلا ماتحلق الأولاد حول أخيهم ثم تسللوا واحدا بعد الآخر فان هذا الملل الذى يسيطر على القرية يعفى دائما الأطفال من بأسه بأمر من علي رحيم قادر دائما أن يجعل

الحياة عند الطفل ضاحكة متجددة · ولم لا واللحظات التى تمر عليه كلها جديدة لم ير اليها ولم يعرفها فهو يتلقفها فى ترحاب من لهو الطفولة ومن شعورها الدائم بأمل فى الغد أن يكون أمتع من اليوم ·

قال فهيم :

ـ طبعا مبروك من غير سؤال فأنت لم تسقط طـول عمرك ·

ـ الحمد لله ·

ـ يا ألف سنة بيضاء يا ألف يوم هنى ياشهاوى اذبحى ذكر البط وزوجته أيضا · ابننا آخذ الشهادة الكبيرة ·

وكان الجواب أمرا لم يتوقعه فرغلى ولا مر به بخيال · انبعثت فى أرجـاء البيت وانطلقت الى القـرية الصامتة زغرودة مرحة طويلة فـرحانة وما آن انتهت حتى انبعثت أخرى من ورائها كانت زغرودة نبوية وعاد الأطفال أو قل الصبية ان شئت يتحلقون وعرفوا الأنباء وماهى الا لحظات حتى انقشعت الملالة عن الجيران فجيران الجيران فالقرية جميعا ·· فرغلى نال الشهادة الكبيرة ·· انها جديدة فى القرية كفيلة أن تبدد ضـباب الملل وآن تقشع عن زهق النفوس سحائب السأم ·

وصاح فهيم لفاروق ابنه :

ـ خذ اذهب فاشتر لنا زجاجتين من الشربات وأسرع ·

ـ ما كل هذا ؟

شعور جديد لم يعرفه فرغلى قبل اليوم واختلطت المشاعر فى نفســه حتى لايدرى ماهى ·· أتكون هـذه النفس

المنشرحة وهذا الخفق الوانى سعادة • مهما يكن اسمها فهى شىء جميل يتمنى أن يبقى طويلا وتقاطر الناس آلى بيت أبيه وكان بينهم زمــلاؤه وهم يحتضنونه فى فرح وكأنما نالوا بما نال الشهادة الكبيرة هم أيضا •

هذا الدفء المتناغم الذى يعزف أعظم موسيقى عرفتها الانسانية العازفون هم البشر حين يؤلفهم الحب فيؤلف بينهم وتنبعث فى جنبات الدنيا أحلى ماوهبه الله للانســان وهم يحبون بعضهم بعضا بلا حقد •• بلا حسد •• بلا ضغينة • حتى تنسى البشرية عنصر الحيــوان فيهــا فلا يرفرف فى أجوائها الا شفافية الانسان ولا يدف فى سمائها الا أجنحة المودة يتخطى الانسان العقبة ليصبح انسانا ثم يسمقون الى السماء ليصبحوا ملائكة •• لحظات هى قليلة فى حياة كل انسان ولكنها كافية أن تجعله على اليقين أنه كما يستطيع أن يكون حيوانا فى بشريته الترابية يستطيع أيضــا أن يكون ملاكا فى نورانيته السماوية •

كانت شهاوى فرحة حقا • وكان فرحها فى هذه المرة غير خاضع لمقاييس المكسب والخسارة بقــدر ماهــو متأثر بالزهو بأن فى بيتهم فتى نال الشهادة العليا •

حين خلا البهو بفهيم وفرغلى آخر الليل •

ــ آبا أنت تعرف عثمان باشا زكى •

ــ ومن لايعرفه ؟!

ــ وهو يعرفك •

ــ أرجو ذلك •

ــ أنت لست متأكدا •

ــ والله الرجل طيب • وكلما ذهبت الى هناك أكرمنى •

ـ مارأيك أن تكلمه لأتعين بأى شركة أو مصلحة ٠

ـ أنا وأنت على الله يابنى ٠

***

كان فرغلى سائرا الى جانب أبيه متجهين الى بيت الباشا أو السراية كما تعودوا أن يقولوا ٠

كيف سألقى هذا النوع الجديد من الناس ؟ باشا ٠٠ الذى لاشك فيه أنه نوع فريد أو هو على الأقل نوع لم أر له مثلا الا فى صور الجرائد ٠ نعم ٠٠ ولكن أين الصورة من الأصل ؟ ٠

أتراه يقبل أن يستقبل أبى وان فعل فكيف يلقاه ؟ ٠٠ ولماذا هو باشا وأبى هو الأب الساعى الى جانبى يرزح تحت ألوان شتى من الهوان منها الفقر ومنها تصرفات الزمان ومنها كثرة العيال ومنها الذكريات المهينة ومنها الحياة المقيتة ؟

أيكون لهذا لباشا أيضا متاعبه ؟ أهو انسان له الآمال التى قد تبلغ الحقيقة أو تنزوى خزيانة منكسرة مهينة ؟ أيخشى على أبنائه من الزمان أن يتركهم ليربيهم غيره كما فعل أبى وهل يفعل أحد مثلما فعل أبى ؟

أطويل الباشا أم قصير ؟ أيكون باشا وقصيرا أظن لايمكن ؟ ٠٠ باشا ٠٠ باشا ٠٠ انظر الى الكلمة تجد الحروف كلها ممدودة بالألف با ٠٠ شا ٠

بماذا سيقدمنى أبى ؟ ٠٠ ابنى فرغلى ٠٠ ماذا ؟ ٠٠ فرغلى ٠٠ عجيب أمر هذا الرجل ٠٠ ألم يستطع أن يحسن الى فى شىء أبدا ؟ يتزوج لى أما من السيرك ٠ وراقصة ٠ وتهرب ٠٠ هذا خير مافعلته ثم حين يختار لى اسما يختار فرغلى ٠٠

من أى مصيبة أتى بهذا الاسم ؟٠٠ فرغلى ٠٠ فرغ لى ماذا ؟ ٠٠ ماذا أفرغ لك ؟٠٠ أفرغ لك ماذا ؟ سما هريا ان شاء الله فرغلى ٠٠ هل يمكن أن يوحى هذا الاسم الا بفراغ المسمى به وغباء المسمى له ؟٠ حتى الاسم استخسرت أن تختاره لى يا آبا الله يسامحك ٠

لم يكن الباشا طويلا بل كان قصيرا مبالغا فى القصر فكان هذا أول خيبة أمل لفرغلى ٠ ثم هو نحيف كخيال العصا ٠ ولكنه أنيس بشوش أحسن لقاءهما وكان الحديث منه سمحا رضيا وانقلبت عند فرغلى كل الموازين ٠ وحين نال التوصية هجم على يد الباشا يريد أن يقبلها فاذا الباشا يختطف يده اختطافا من يدى فرغلى المصممتين ٠٠ أستغفر الله يا ابنى ٠٠ أستغفر الله ٠٠ لقد صنعت مستقبلى يامعالى الباشا ٠٠ المستقبل لايصنعه الا اجتهادك وصلتك بربك ٠٠ ياأولاد الكلب تشترون دماءنا وذلنا بالكلام المنمق وتدعون أيضا طاعتكم لله ٠٠ أطال الله عمرك يامعالى الباشا وجعلك دائما نصير أمثالنا الذين يعيشون بين الناس بحسكم ٠٠ أستغفر الله ياابنى ربنا يوفقك ٠

***

ـ لماذا سافرت من غير ابلاغى ٠
ـ أنا لا أعرف كيف أتصل بك ٠
ـ كان عليك أن تنتظر ٠
ـ خفت أن يطول الانتظار ٠
ـ وماذا عليك لو طال ؟
ـ كنت أريد أن ٠٠
ـ نعرف السبب الذى سافرت من أجله ٠
ـ ألم يكن من الطبيعى أن أتعجل ؟

ـ اخوانك ينتظرون سنوات حتى يحصلوا على وظيفة ٠

ـ ولكنهم يسعون منذ أول يوم لتخرجهم ٠

ـ هذا اذا كانوا فقراء ٠

ـ ألا ترانى فقيرا ؟

ـ الآن ٠٠ وأنت تعمل مع ثلاث جهات كل جهة منها كفيلة أن تغنى أسرة ٠٠ ما المرتب الذى تتوقعه ؟

ـ المسألة ليست مسألة مرتب ٠

ـ قلت فى نفسك اننا كنا محتاجين اليك وأنت فى الجامعة وخفت بعد أن تخرجت أن نستغنى عنك وخفت أيضا أن تستغنى عنك الجهتان الأخريان ٠

ـ فلماذا تعجب من سفرى ؟

ـ المفروض ألا تترك القاهرة الا بعد اخبارنا ٠

ـ ها أنت قد عرفت دون أن أخبرك ٠

ـ هذا طبيعى ٠

ـ ومادام ورائى من ينقل أخبارى ٠

ـ لاتحاول أن تعرف شيئا عن وسائلنا ٠٠

ـ المهم أن تعطينى الفرصة أن أكلمك اذا أردتك ٠

ـ لابأس ٠٠ اكتب هذه النمرة ٠

ـ وأسأل عن اسمك ٠٠ أقول وصفى أم ٠٠

ـ تسأل عن اسمى طبعا ٠٠ ولقبى أيضا ٠٠ الملازم أول وصفى الحديدى ٠٠ أتظننا نعمل فى خلية ؟

ـ وأقول اسمى ٠

ـ نعم ·· اسـمك الحقيقى فرغـلى ·· لا نبيه الذى يطلقونه عليك عند فتحى ·

ـ مفهوم ·· مفهوم ·

ـ لمن أخذت التوصية ·

ـ لوحيد بك عفيفى ·

ـ شركة الأثاثات المنزلية ·

ـ نعم ·

ـ خيرا فعلت كنـا سنبحث لك عن الوظيفة فى شركة كبيرة لتكون عينا لنا على أصدقاء آمين وأصدقاء فتحى ·

ـ وهذه الشركة فيها أصدقاء لأمين ·

ـ ولفتحى أيضا ·

ـ هايل ·

ـ طبعا ·· ضمنت بقاءك فى الجهات الثلاثة ·

***

حين بدأ فرغلى عمله فى الشركة كان مسلحا بأسلحة لاتتوفر لأحد فيها ولايستثنى من هذا الاطلاق رئيس مجلس ادارة الشركة نفسه · فقد يكون رئيس مجلس الادارة غنيا بالمال قويا بتأييد أعضاء مجلس الادارة وبالمساهمين أيضا· بل هو مسلح أيضا بمعرفة الشخصيات الهـامة فى الحيـاة العامة · ولكن أين هؤلاء جميعا من شخصية وصفى وحده · فكيف اذا انضم اليه أصدقاء فتحى وهم على قلتهم النادرة فقد كانا اثنين فقط الا أنهما يملكان تأثـيرا قـويا على العمال · وكيف اذا انضم اليهم أصدقاء آمين وقد وجد منهم

فرغلى فى الشركة اثنى عشر · كل هؤلاء أصبحوا أصدقاءه منذ اليوم الأول · فما هى الا بضعة أسابيع حتى أصبحت أسرار الشركة كلها بين يديه · ومن يستطيع أن يلعب بهذه الأسرار فى مهارة فائقة مثل فرغلى ·

عـرف فى خبره أنه اذا لم يشرك وصفى فى هـذه الأسرار فانه لايستطيع أن يستعملها فى حرية كاملة · وكان فرح وصفى بهذه الأخبار التى تجمعت بين يديه لايقدر ولم يكن ساذجا فى هذا الفرح فما هى الا بضعة أشهر حتى رقى الى رتبة يوزباشى ·

وحين علم بالترقية طلب فرغلى وقال له فى صراحة لم يعهدها منه فرغلى أبدا :

ـ أنت السبب فى هذه الترقية ·

ـ بل أنت السبب ·

ـ أنت الذى جئتنى بكل هذه الأخبار ·

ـ وأنت الذى أخترتنى ·

ـ الغداء عندى باكر ·

ـ وهو كذلك ·

ـ اتفقنا ·

ـ على شرط ·

ـ اشرط ·

ـ تتغدى عندى بعد باكر ·

ـ عندك ·· وهل لك عند ·

ـ طبعا ·

ـ تقصد عند عمتك ·

ـ تركت بيت عمتى منذ توظفت ٠

ـ وطبعا قطعت علاقتك بها ٠

ـ لا والله ٠٠ على العكس ٠٠ جملتها هى التى تفرش لى الشقة ودعوتها للغداء هى وعم حسين وممدوح وزوجته ويحيى وزوجته ٠٠ مارأيك ؟

ـ أردت أن يروا العز الذى أصبحت فيه ؟

ـ ممدوح وعزت يملؤهما التكبر ٠

ـ وماذا قالوا ؟

ـ وجوههم قالت أشياء كثيرة ٠

ـ طبعا الفرش جديد وعندى راديو وعندى أيضا ٠٠ لن تصدق ٠

ـ منك أنت أصدق أى شىء ٠

ـ أحزر ماذا عندى ؟

ـ طباخ أسمه عبد الشافى الملوانى ٠

ـ يانهار أسود ٠٠ لا مؤاخذة ٠٠ نسيت أنى اكلمك ٠

ـ لاتنس هذا أبدا ٠

ـ نتغدى عندى بعد باكر ٠

ـ وعندى باكر ٠

١٠

دنيا جديدة

أيمكن أن تكون هذه آنسة ؟٠٠ كيف ركبت هذا التركيب ؟٠٠ كيف استطاع وجهها أن يكتسب كل هذه الرجولة ؟٠٠ الرجولة الصارمة فى عنف ٠٠ وجهها يقول لا دون أن يسأله أحد شيئا ٠٠ ابتسامتها تشنج مزمن التصق بشفتيها لايبارحهما الا اذا تحدثت واذا تحدثت فى تودد كان توددها نوعا من العنف والزجر ٠٠ ووجهها الأسمر الأخضر الذى يذكرك بالنحاس لم ير الجلاء ولا عرف اللمعة يضيف الى الزجر البادى فى توددها رنينا من التهديد فى نغمات صوتها حين تريد هذه النغمات أن تكرمك بعزومة على مأكل أو مشرب ٠٠ فى أى مصنع ركبت هذه الآنسة؟٠٠ لابد أنها

كانت بروفة للمـرأة صنعت خـارج مصنع النسـاء مثـل كاريكاتير امرأة أو خطوط خارجية غير دقيقة لأنثى فاذا هى رجل عنيف ٠

طويلة أطول من أخيها وصفى ٠٠ نحيفة ولكن لابد أن تصبح سمينة فى يوم من الأيام ٠ فقد شاء باريها سبحانه أن يجعل الانبساط الذى كان ينبغى أن يكون فى وجهها يترك الوجه ليرتمى على أطرافها واستدارة جسمها دون حاجة من الأطـراف أو الجسـم اليه فاذا هي مخلوق مترهل الأطراف والصدر ومابعـده فنازلا الى الأقدام ، جامدة الفم والأنف والعينين وشعر الرأس ٠ كأنما أرادت السماء لحكمة لايعلمها الا علام الغيوب أن يقلب كل الأوضـاع فى هـذا المخلوق فينسرح مايطيب أمره اذا أصبح دقيقا ويعنف مايجمله شكله اذا مسته السماحة ويغلظ ماينبغى أن يدق ويتجمد مايليق به أن يلين فهى سمينة حيث يجب أن تكون نحيفة وهى نحيفة حيث يجب أن تكون مليئة وكأنما سحب الله الشعاع من عينيها فلايدرى من يرى أهى نائمة مفتحة العيـون كالأرانب أم يقظى مخدورة العينين كالحشاشين ٠

هذه المرأة خلقت لتكون زوجتى ٠٠ أنا لن أجد من هذه الطبقة أحدا يتزوجنى الا هذه الآنسة أو هـذا المخلوق ٠ أخوها يعرف كل شىء عنى ٠٠ وهو يدرك تماما أن أخته هذه لن تتزوج أبداً فأين يجد لها زوجا مثلى ؟٠٠ستاره بكالوريوس تجارة وموظف فى شركة يعـرف كل أسرارها فهو يعـرف الطريق فيها الى عليا مناصبها ٠ وحقيقته فتى ضائع أبوه عامل بالسكة الحديد وأمه غزية هاربة من أبيه منذ عشرين عاما وهاربة من الزمن حاليا ٠ ان قيل لأسرته من العريس قفزت وظيفته لتكون الجـواب وان قيل من أبوه قيـل من

الأرياف وهذه الأرياف الرحبة التي تستوى فيهـا الحقول ويشمخ نبات الفقير بجانب نبات الغنى وتجاور القراريط القليلة اليسيرة العدد آلاف الأفدنة فلا يدرى المار لمن الأفدنة ولمن القراريط . هذه الأرياف تستطيع أن تخفى فى حنايا اسمها المتسع الجوانب المترامى الأرجاء الأعيان والعـامة والأسرة المستورة والأسرة المتهرئة وكذلك تستطيع أن تخفى شأن أبيه وماضى أمه مع ماتستره من حقائق لايعـرفها الا حليم ستار .

وأخـوها وصـفى فى المكان الذى أتوق أن يكون فيه نسيبى فعلى يديه ومن شعاع عينيه النافذ ومن ذكائه الوقاد تصنع سياسة مصر فى كل العهود ..

هو خير من نديم ألف مرة .. صـديقى الوحيد الذى ينتمى الى الطبقة العليا من المجتمع ولكنه بالنسبة لى حلية أتحلى بمعـرفتها ولا أنتفع منهـا الا بالقليل أو بالأقل من القليل . فأبوه ينتمى الى حزب والحزب فترة.. وأبوه ينتمى الى طبقة .. وأى طبقة استقرت بها الحياة على حال واحدة . أما وصفى فرجل كل الأحزاب والمرتجى فى كل العصور حتى اذا انقلب المجتمع فأصبحت رأسه مكان قدميه وقدماه مكان رأسه فسيظل وصفى فى مكانه يزداد رفعة مع كل تغيير ويبلغ أقصى قيمة مع كل أنقلاب .

لماذا أكفر بالله ؟.. هل أكفر ؟.. ان معنى كفرانىأننى أفكر فى ذات الله . والحقيقة أن ذاتى هى التى أفكر فيهـا ولا وقت عندى لأى تفكير آخر حتى فى الله ومالى لا أقول خصوصا فى الله ؟!

ولكننى أجد نفسى اليوم مضطرا أن أفكر فيه . فقد

ثبت عندى أنه موجود لاشك وآنه واحد لاشك فيه آيضا ٠ وقد كنت قرأت فعلا لأحد الأدباء العلماء يقول أن الذى خلق الشمس لابد أن يكون هو الذى خلق العيون لترى بها والنبات ليعيش من ضوئها والأرض لتنبت من شعاعها ٠ والذى خلق البلح والعنب لابد ان يكون هو الذى خلق الانزيمات التى تهضم هذه الفواكه ٠ ويسير صاحب المقال فى اثباته بطريقة علمية وأدبية ولم أكن حين قرأت المقال أفكر فى مناقشته وانما كانت فترة فراغ فى المكتبة ووجدت المجلة الى جانبى فتصفحتها فكان هذا المقال وقد ثبت فى ذهنى لا اقتناعا منى به ولكن المقال وجد خانة الثقـافة فى عقلى خاوية تمـاما فاستقر غير مزاحم وبقى فى ذهنى وأتاح لى أن أتذكره الآن وانى أعرف تماما لماذا أتذكره ٠ فالذى خلق الشمس هو الذى خلق العيون التى يرى فى ضوئها والنبـات الذى يحيا فى شعاعها والذى خلق الفاكهة وما يهضمها من الجسم هو ٠٠ هو نفسه الذى خلق الآنسة حياة وخلقنى لأكون زوجها لها٠ الله خلق هذه التركيبة البشرية آو غير البشرية وأهلها هم الذين أسموها حيـاة ولكن الذى لاشـك فيه أنهم لم يكونوا يدركون يوم أطلقوا عليها هذا الاسم آنها ستثب لتصبح هذا الكيان فان لكل غش وخداع أمـدا يقف عنده ٠ واسم حياة لهذه المخلوقة يتجاوز كل مدى ٠

والذى لاشك فيه أيضـا أنهم حين استبان لهم أمرها وظهر من خلقتهـا ما كانت تخفيه الطفـولة لم يفكروا أن يغيروا الاسم ويقلبوه لأن اسم ممات غير شائع فى الأسماء ٠

وصفى يعرف عنى كل شىء ولكنه آيضا يرى آخته فى كل لحظة يقضيها بالبيت وهو أيضا يعلم أنها لا يمكن آن تتزوج من حامل شهادة عالية طبيعى لا عيب فيه ٠ لابد أن

يكون هذا الزوج مشوبا بكثير من النقصان حتى يتزوجها ·
وفرش البيت واضح لاشك فيه أنهم أسرة مستورة ··
ومستورة بالعافية فمن هذا الذى يمكن أن يتزوج حياة الا
ابن غزية وعامل تلغراف ·

وتم الزواج

١١

الحسابات

حسابات الشركة فى يد فتحى • والموظفون القدامى يحبون أن يستغفلوا الموظف الجديد فألقوا اليه بالدوسيهات لايفرقون بين مايجب أن يعرفه ومايجب ألا يعرفه وهو يعمل فى صمت ويرى ماوراء الأرقام ويتتبع المشروعات فيسير فيها الى الوراء حتى يعرف كيف بدأ كل مشروع وكيف سار حتى يلم الماما كاملا • وان أحدا من موظفى الحسابات لم يفكر هذا التفكير أبدا لان أحدا من هؤلاء الموظفين لم يكن فرغلى • وكل مشروعات الشركة موزعة على القسم كله ثم هى بعد ذلك موزعة على الأقسام جميعا • فالعقود فى ناحية وأوامر الشغل فى ناحية والمتصرف فى ناحية والايرادات فى ناحية •

واستطاع فرغلي بحذق المتفرغ والمستهدف أن تصبح كل هذه المعلومات بين يديه ٠

والعجيب أنه استطاع في أناة وصبر وتدبير من واجه الحياة بأم غازية وأب غير مبال أن يصور كل المستندات التي يريدها ٠ فتجمعت بين يديه عشرات المشروعات لو قدم واحدا منها الى النيابة العامة لانفتحت أبواب السجون لتستقبل عدة أشخاص ثم تنتقل عليهم لسنوات وسيكون على رأس هؤلاء الداخلين سعادة وحيد بك عفيفي رئيس مجلس الادارة ٠

دهش حين تقدم اليه السفرجي في بيته وبيده طبق فضى ليس فيه الا بطاقة مكتوب عليها فرغلي فهيم ثم بخط صغير شركة الأثاثات ألمنزلية ٠ نظر الى البطاقة نظرة سريعة ثم نظر الى لسفرجي ٠

ــ ماهذا ؟٠

ــ منتظر على الباب ٠

ــ الباب الخارجي ٠

ــ داخل البيت ٠

ــ باب الحديقة ٠

ــ قل له يقابلني في الشركة اذا أراد وحين يحدد له السكرتير موعدا ٠

وانصرف السفرجي ليعود مرة أخرى وبيده نفس الطبق ونفس الكارت فنظر وحيد بك الى خادمه مندهشا وخشى الخادم أعقاب هذه الدهشة ٠

ــ كتب لسعادتك كلاما ٠

وقرأ وحيد بك ٠٠ من مصلحة سعادتك أن ألقاك بالبيت ومزق وحيد بك البطاقة فى غضب وقال للسفرجى قل له من مصلحتك أنت ألا تقابلنى مطلقا هنا أو فى الشركة امشى ٠

***

قلب السكرتير الظرف الكبير بين يديه وقرأ ٠٠ حضرة صاحب السعادة واحيد بك عفيفى رئيس مجلس ادارة شركة الأثاثات المنزلية ٠ سرى ولايفتح الا بمعرفة سعادته مع تحيات فرغلى فهيم بحسابات الشركة ٠ وازدادت دهشة السكرتير حين وجد الظرف مغلقا بالشمع الأحمر فى ثلاث مواضع من غطائه وابتسم فى استخفاف ونظر الى فرغلى ثم عاد فنظر الى الظرف ٠

ــ ماكل هذا ياأستاذ ٠٠ أهى أحراز نيابة ؟

ــ حين يطلع عليها سعادة البك سيعرفها ٠

ــ أليس من المفروض أن أعرفها أنا قبل أن أدخلها الى سعادة البك ٠ وقال فرغلى فى أدب شديد أقرب الى الذلة ٠

ــ ياسعدون بك لو كانت الشركة تريدك أن تعرف كل مايعرفه سعادة رئيس مجلس الادارة لعينتك أنت رئيسا لمجلس الادارة ٠

ــ أستاذ فرغلى أنت قليل الأدب ٠

ــ ياسعدون بك هذه صفة لا أستحقها فلو كنت كذلك لقلت لسعادتك يلعن أبوك ولكننى ٠٠

ــ اخرس امشى اخرج من ٠٠٠

ــ كما ترى أنا رجل مؤدب ولم أقل لسعادتك يلعن أبوك ٠

ـ يلعن أبوك أنت ابن ستين كلب ٠

ـ وهكذا ياسعدون بك يتضح لسعادتك أنه لست أنا من يمكن أن يقال عنه قليل الأدب ٠

ـ أنا ياولد ؟!

ـ ياسعدون بك كلمة أخرى وستجد حذائي على نافوخ سعادتك ٠

ـ ماهذه المصائب ٠٠ من أى بلوى قذفت علينا ٠ ياادريس ياابراهيم والله لأخرب بيتك ياصايع يا ٠٠ سعادة البك ٠

كان وحيد بك قد أصبح فى وسط حجرة السكرتير ورأى سعدون وهو فى حالة هياج شديد وأمامه شاب يرتدى حلة جديدة متنافرة الألوان سيئة التفصيل ورباط عنق يصرخ بأنه خلق ليلبسه من لايعرف عن الأناقة شيئا والشاب هادىء وعلى فمه ابتسامة تؤكد أنه يمكن أن يكون أى شىء الا طرفا فى هذه الخناقة التى يكاد أن يموت فيها سعدون من الغيظ ٠

وانكتم سعدون أو انغلق فمه أما وجهه فمازال يصرخ ومازال يقول كلاما كثيرا ٠ وأقبل السعاة وامتلأت الحجرة بموظفى الحجرات المجاورة وراح وحيد بك يقلب نظره فى الواقفين جميعا ثم قال ماذا جرى ؟

وتقدم فرغلى فى خطى ثابتة الى مكتب سعدون وأمسك الظرف وقدمه فى استحياء وأدب الى وحيد بك ٠

ـ سعادة البك هذا الظرف لك ٠

وأمسك وحيد بك الظرف وراح يقلبه بين يديه وكلما قلبه ازدادت دهشته وصاح في اهتياج :

ـ ياأفندى أنت ألم تأت أمس الى بيتى وأرسلت لك أمرا ألا تجعلنى أراك فى البيت أو الشركة ·

ـ حصل ياسعادة البك ·

ـ فلماذا جئت الى مكتبى ؟

ـ أنا ياأفندم لم أطلب من سعدون بك أن يستأذن لى عليك تنفيذا لأوامر سعادتكم ·· كل ماطلبته أن يوصل هذا الظرف الى سعادتك ·· والآن وقد وصل الظرف فأنا آسف ان الظروف جعلت سعادتك ترانى ولكن سعادتك تأكد أن هذا لن يحدث مرة أخرى الا اذا أمرت سعادتك ·· عن اذن سعادتك · شكرا ياسعدون بك آسف ياعم ادريس ياعم ابراهيم آسف ·· آسف يابكوات ·· عن اذنكم ·

وخرج فرغلى من الحجرة بطريقة تمثيلية عجيبة فقد راح يتراجع بظهره الى الباب وعيناه على وحيد بك الذى تولاه الذهول الذى تولى جميع الآخرين وحين أحس فرغلى أنه قريب من الباب استدار فى هدوء ولم تفت أذنيه أوامر وحيد بك كل واحد يروح لشغله ·· مع السلامة ·

***

لم يدر وحيد ماذا يفعل ·· هل يستدعيه فورا فينكشف كل الذى يريده أن يختفى ؟·· هل ينتظر ؟·· لايستطيع ·· دق جرس السكرتير ودخل سعدون وآثار حمرة غاضبة مازالت على وجهه ·

ـ أريد ملف هذا الأفندى ·

ـ لابد من رفته فورا ياسعادة ··

ـ هات ملفه وبطل غلبه ·

ـ أمرك يا أفندم أمرك ·

كانت الســاعة تقترب من الرابعة حين وقفت ســيارة رئيس مجلس الادارة على باب العمارة التى يقطنها فرغلى • ولم تكن الساعة قد تجاوزت الرابعة حين كان فرغلى جالسا الى وحيد فى غرفة مكتب وحيد بفيلته التى لم يستطع فرغلى فى أمسه أن يتخطى باب حديقتها •

ـ أوامرك •

ـ مكاسب هذه السرقات مائة وخمسة وعشرون ألف جنيه •

ـ نعم ؟!

ـ أنا خريج تجارة يا سعادة البك •

ـ ربما كان المبلغ قريبا من هذا •

ـ ليس قريبا يا سعادة البك •• المبلغ هكذا تماما •

ـ ليس هذا نصيبى وحدى •

ـ هذا نصيب سعادتك وحدك •

ـ هل جننت ؟

ـ نصيب مدير الشركة ستون ألف جنيه والسكرتير العام خمسة وعشرون ألفا ورئيس العقود ورئيس الحسابات عشرة آلاف لكل منهما •

وهوم الصمت تماما على الحجرة ولم يفتح فرغلى فمه • واضطر وحيد أخيرا أن يقول •

ـ النهاية •• طلباتك •

ـ عشرون فى المائة •

ـ هل جننت ؟

ـ من كل واحد فيكم ٠

ـ هذا مستحيل ٠

ـ من أين ؟

ـ حساب سعادتك فى البنك مائتان وخمسة وعشرون ألف جنيه ومائة وخمسة مليمات وانتفض وحيد واقفا ٠

ـ هى حصلت حسابى فى البنك ٠

ـ أنا لى وسائلى ٠

وبينما انعقد لسان وحيد أخرج فرغلى من جراب ابن الغزية ابتسامة فيها فرح وفيها خبث وفيها تظاهر بالسذاجة وفيها شكر لأخى زوجته وصفى الذى مكنه أن يقف هذا الموقف المسيطر الذى لو كان أنبأه به أحد يوم التف حوله تلاميذ المدرسة الابتدائية يهزون له أوساطهم لرماه بالجنون والعته ٠ وهاهو ذا اليوم يعتصر رئيس مجلس ادارة اعتصارا حتى لم يبق منه الا نفاية منضنة لا تصلح أن تكون بشرا ٠

ـ أتظن أننى أستطيع أن أدفع كل هذا المبلغ ؟

ـ المؤكد أنك تستطيع والباقون أيضا يستطيعون ٠

ـ أترى الأمر سهلا ؟

ـ هو أكثر من سهل ٠ فليس فى مصر أحد لا يعرف طريق النيابة العامة ٠

ـ ألا نتفاوض ؟

ـ لابأس ٠

ـ تكون شريكنا ٠

ـ هذا كلام عن المستقبل أم عن الماضى ٠

ـ الماضى راح لحاله ·

ـ وخلف عشرات الآلاف ومئاتها ·

ـ لتكن شريكنا فى المستقبل ·

ـ هذا أمر أفرضه ولا يحتاج الى اتفاق معكم ·

ـ من الواضح أنك ستطلب أشياء آخرى ·

ـ أنتهى أولا من المبالغ المطلوبة ·

ـ خفض النسبة ·

ـ لامانع فان الصلة بيننا ستستمر ولا أحب أن أجعل نفوسكم شديدة المرارة ·

ـ أنت شديد الذكاء ·

ـ أعرف ذلك وستنتفعون أنتم بهذا الذكاء نفعا كبيرا ·

ـ كم تريد ؟

ـ خمسة عشر فى المائة ·

ـ موافق ·

ـ اكتب الشيك ·

ـ ألا أعرف أولا بقية الطلبات ؟

ـ أنا وحدى الذى أحدد متى تعرف هذه الطلبات ·

ـ هاك الشيك ·

ونظر فيه فرغلى فى هدوء وثبات وكأنه تعود أن يمسك بمثل هذه المبالغ ·

ـ والآخرون ؟

ـ شأنك واياهم ·

ـ بل شأنك أنت ·

ـ أمرك .

ـ غدا يصدر قرار بأن أصبح سكرتير عام الشركة .

ـ ماذا ؟

ـ والسكرتير العام يصدر قرار بترقيته الى نائب رئيس ويفصل القرار بحيث يصبح بلا عمل على الاطلاق .

ـ اهذا ممكن ؟

ـ وحيد بك أنا أعرف تماما كل ماهو ممكن وكل ماهو غير ممكن .

ـ وماذا يقول الناس وماذا يقول الموظفون ؟

ـ أى قول سيكون أبسط مما لو رأوا المستندات منشورة بالجرائد .

ـ أمرك .

ـ شيء آخر .

ـ لا أملك المناقشة .

ـ العقود التى تربحون منها بعد ذلك توقعها أنت ونشاركك نحن فيها أنا الشريك الجديد وشركاؤك السابقون .

ـ وأنت ما شأنك بشركائى السابقين .

ـ ألا تفهم ؟

ـ لا تريد أن يفشوا الأسرار .

ـ مادمت فاهما فلماذا تسأل ؟

ـ وما الحصة التى تقدرها لنفسك ؟

ـ نفس الحصة التى كان يأخذها السكرتير العام وعليك أنت أن تتنازل عن جـزء من حصـتك لسـعادة النـائب الجديد ٠

أطال وحيد بك النظر الى فرغلى وراح يتوقف ببصره عند كل ثنية من وجهه وذعر عندما طالع عينيه وتبين فيهما أنهما يفضيان الى فراغ عميق آسود قاتم مخيف وازداد ذعره وهو يرى فرغلى يصمد لنظراته وكأن أحدا لاينظر اليه ٠٠ جرأة لاتتأتى الا لابن فهيم وتحية ٠

١٢

« افراج عن حبيس »

لم تعرف الشركة بل لم تعرف أى شركة شخصا سريعا فى اتخاذ القرارات حاسما فى تنفيذها صارما فى العقاب وكريما فى المكافأة مثل فرغلى ·

فى مدى شهر واحد ·· انقلبت الشركة رأسا على عقب · وأضاف الى اسمها كلمة جديدة ·· كلمة واحدة قلبت موازين الشركة جميعا فبعد آن كانت شركة الأثاثات المنزلية أسماها شركة البناء والأثاثات المنزلية · وحين حاول مجلس الادارة أن يعترض بأن الشركة ليس بها جهاز هندسى للمقاولات قدم الجهاز كاملا مبتدأ بالمحاسب نديم الطوبجى والمهندس يحيى حسين ابن عمته بل وطبيب الشركة أيضا ممدوح حسين ابن عمته الثانى وصدر القرار ·

وأحس فرغلى أنه فى ربيع حياته . نديم ويحيى وممدوح يعملون جميعا تحت رئاسته .

وهو الآمر الناهى فى الشركة والرئيس واحد من أتباعه هذا هو الربيع الذى اخترق اليه المهانة والذلة والأسى والحزن والفقر فاغرا فاه كوحش أصابه الجنون وأمومة ممزقة السمعة كخرقة بالية قذرة متهرأة متهتكة ملعونة وأبوة كالعدم أو أشد حقارة .

فى هذا الربيع الذى تحيط به انفاسه أراد أن ينسى كل شيء والناس الذين يكونون أسرته أشياء لاتصلح لتكون عائلة أو تكون آدميين .

وكلما ألحت عليه جروح الذكرى استدعى يحيى أو استدعى ممدوحا فأحس أنهما بوجودهما تحت رئاسته يمحقان الماضى جميعا .

كان جالسا بمكتبه حين دخل السكرتير مرتبكا خائفا :

ـ سعادة البك .. تسمح .

ـ قل .

ـ فقط .

ـ قل .

ـ شخص يقول أنه والد سعادتك .

ـ من ؟

ـ يقول هذا ياسعادة البك .

ـ قل له يذهب الى البيت .

ـ ممكن أن يدخل وأمنع أى أحد بعد ذلك ..

ـ امش قل له يذهب الى لبيت .. اخرج .

آكرمت حياة ضيافة حميها فهيم وقدمت له التحايا من حلوى الى قهوة الى مشروبات باردة وأبدت له من الاهتمام ما استطاع به أن يبتلع طرده من مكتب ابنه ·· وماله ·· أنا أبوه ويجب أن تكون زيارتي له في بيته لا في شغله ·

وجاء فرغلي ودون أن يبدى ترحابا ولو كاذبا بأبيه ·

ـ لماذا جئت الى الشركة يا آبا ؟

ـ أردت ياابنى أن أراك في مكتبك ولك سعاة وسكرتير وحجرة خاصة ·

ـ كل هذا لا يبرر مجيئك الى مكتبى ·

ـ معلهش يابنى ·· ربنا يخليها حياة قامت بالواجب ·

ـ ماذا تريد ياآبا ؟

ـ لاشىء ياابنى ·

ـ بل تريد ·

ـ ومادمت تعرف فلماذا تسأل ؟

ـ لأنى أريد أن أناقشك ·

ـ الحكمة ياياابنى لاتحتاج الى نقاش فليس فيها شك ·

ـ كل شيء فى الدنيا يحتاج الى نقاش وفيه شك ·

ـ ليس فى الله شك ياابنى ·

ـ دع الله ولاتدع التصوف · هذا موضوع لا أناقشه ولا أناقش حتى اذا كان يحتاج الى نقاش أم لا يحتاج ·

ـ ياابنى الحالة ··

ـ صعبة ·

ـ طول عمرك ذكى وتفهمها وهى طايرة ٠

ـ متى عرفت ذلك ؟

ـ ألست أباك ؟!

ـ متى كان هذا ؟

ـ أهذا أيضا يحتاج الى نقاش ؟

ـ بل هذا هو موضوع النقاش ٠

ـ من أبوك اذا لم أكن أنا ؟

ـ اذا كان معنى الأبوة أنك قضيت لحظة هانئة مع زوجتك أصبحت أنا نتيجتها فأنت أبى ولكن أهذه هى الأبوة ؟

ـ هل قصرت فى شىء ؟

ـ هل فعلت شيئا ؟

ـ فكيف تعلمت ووصلت الى ما أنت فيه ؟

ـ تعلمت بالصدقة ووصلت الى ما أنا فيه بالرغم من أنك أبى وليس لأنك أبى ٠

ـ لماذا تكرهنى كل هذا الكره يافرغلى ؟

ـ كل هذا الكره وهل رأيت ؟٠٠ يكفى أنك سميتنى فرغلى ٠٠ الم تجد الا هذا الاسم ٠

ـ يابنى كان يتهيألى أنه اسم طيب ٠

ـ أمعقول أن يختار أب لابنه اسم فرغلى ٠

ـ وكيف كان يمكن أن أستشيرك فى الاسم ؟

ـ وهل هذا الاسم يحتاج الى استشارة ؟٠٠ وهل كان يمكن أن تجد اسما أسوأ منه ٠

ـ شحات مثلا ٠

ـ له معنى على الأقل ٠٠ ثم شحات هذا صفة مرت على أوقات طويلة كنت أتمنى أن أحصل عليها ٠ وحين كنت أعمل بالقهوة ماذا كنت ؟ شحات ٠ كان سيكون اسما على مسمى على الأقل ٠

ـ على قدر جهدى ٠

ـ أنا أضرب لك مثلا قد يبدو بسيطا ولكنه مجرد مثل ٠

ـ أهناك أشياء أخرى تريد أن تقولها ؟

ـ وهل قلت شيئا ؟

ـ كل هذا ولم تقل شيئا ٠

ـ لم أقل شيئا مطلقا ٠

ـ ماذا فعلت لك ياابنى ؟

ـ هل أنت حقا لست تدرى ؟

ـ كان يتهيأ لى دائما أنى كنت أبا طيبا ٠

ـ خطأ ٠ الطيب هو الذى يعرف الخبث والذكاء واللؤم ويختار أن يكون طيبا ٠ ولكن أنت مخلوق هكذا تدمر كل ماحولك ولاتحس أنك أسـأت فى شىء ويكفيك أن تقـول لنفسك أنك طيب وهل تستطيع أن تكون غير طيب واخترت الطيبة ؟ هذا النوع من الطيبة له أسماء أخرى كثيرة لا أحب أن أقولها لأننى واثق أننى نقطة من دمائك ٠

ـ وهل أبقيت من هذه الدماء شيئا ؟

ـ بل انها هى التى تمسك بى فلا أصفك ٠

ـ وصفتنى ياابنى لاشك فى ذلك ·

ـ لا أنا لم اقل شيئا ·

ـ بل قلت يابنى ·· قلت على الأقل أننى أهبل خيبة خبق ·

ـ لم أكن أتصور أنك تستطيع آن تفهم كل هذا ·

ـ أنت حكمت على من غير محاكمة يافر ·· يابنى ·

ـ قل فرغلى لقد تعودت عليها ·

ـ لماذا لم تسألنى ؟

ـ آرى نفسى قتيلا وآسأل قاتلى وهو أمام عينى ·

ـ يابنى هذا القاتل تسأله المحكمة انما أنت صنعت من نفسك المجنى عليه والشرطة والنيابة والمحكمة وزدت فحكمت دون أن تسمع منى حرفا كما تفعل الشرطة أو النيابة أو المحكمة ·

ـ لا داعى لهؤلاء جميعا ·

ـ أهكذا تصنع فى الشركة ؟

ـ هكذا أصنع وهكذا سأصنع طول عمرى ·

ـ فأنت ظالم ·

ـ لايهم ·

ـ ان كنت ذقت الظلم حقا ما ظلمت ·

ـ ما دمت ظلمت فلا يعنينى أن أظلم كل الناس ·

ـ حتى أبوك ؟!

ـ وخصوصا أبى ·

ـ أجريمتى كبيرة الى هذ الحد ؟

ـ يكفى أنك ٠٠ يكفى أنك ٠٠

ـ ماذا ٠٠ يكفى أننى ماذا ؟

ـ اخترت أمى من السيرك ٠٠ يكفى أنك جعلت أمى غزية ٠

ـ أتحاسبنى على هذا ؟

ـ ألم تفكر ماذا سيلقى ابن الغزية من الحياة ؟

ـ أما كفانى مالقيته من أمك ؟

ـ الذى لقيته أنت أمر كان يمكن أن يحـدث أولا أما ما لقيته أنا وما ألقاه وسأظل ألقـاه فأمر كان مؤكدا منذ كتب كتابك عليها ٠٠ ألم تدرك هذا ؟

ـ لا حول ولا قوة بالله ٠

ـ بل ان لى أيضا القوة التى وصلت بها والتى سأصل بها رغم كل ما صنعته بى ٠

ـ وكفرت أيضا ٠

ـ ومن قال لك أنى آمنت يوما حتى أكفر

ـ تكفر بالله ؟

ـ التفكير فى الايمان والكفر أمر يشغل من لا تشغله نفسه ٠

ـ أما أنا فحسبى الله ونعم الوكيل ٠

ـ ليكن حسبك كما تشاء ٠

ـ لن ترانى بعد اليوم ٠

ـ هذا شىء لم أفتقده يوما ويسعدنى اليوم أن أفقده ٠

ـ تجبر ما شئت ولكنك ستحتاج الى الله وستحتاج الى ·

ـ أفضل أن أموت قبل أن أحتاج الى أحد منكما ·

ـ ومن قال لك أنك تعيش ؟

ـ انه أنت الذى لا تعيش ·

ـ كنت أظن ذلك أما اليوم وبعد أن رأيتك فقد تبين لى أننى أعيش ·· أعيش ملء الدنيا وملء العليا ·· ملء الحياة وملء الآخرة ·· أنا أسعد بضحكة من ابن لى ، ببسمة من زوجتى ، وأهنأ بصلاتى وأسعد وأنا أرى أن الطريق بينى وبين الله مفتوح واضح منير أنا أعيش · وسأحاول أن أنساك تماما لأنك أكثر موتا من الميتين · لا سلام عليك يافرغلى وأرجو ألا يجمعنى بك بعد اليوم طريق ·

ـ أمنية أتمناها أنا أيضا ·

وسمع الأب توديع ابنه وهو يقفل باب الخروج وارتمى فرغلى على الأريكة الوثيرة وقد انقسمت نفسه أقساما بعضها مرتاح وحجته أنه قال ما تمنى قوله طول حياته وبعضها مرتعد لأنه سمع وعيدا لم يسمعه وسمع من أبيه وصفا لوجوده فى الحياة شك قلبه بحربة مسنونة وشق أمنه بسيف باتر · وفكر وما أطول ما فكر ثم مالبث أن أطلق بسمة سخرية وطلب من حياة طعام الغداء ·

١٣

«سواتر»

نديم الطوبجى ابن أسرة عريضة الاسم ضامرة الثروة شأنها فى ذلك شأن كثير من الأسرات المصرية التى اضطرت أن تحافظ على الاسم العريض بالانفاق الذى لايتوائم مع حقيقة ثروتها . وهذه الأسرات تصبح مع الزمن ذات مظهر خادع يظن من لايعرفها أنها على ثراء حين تعلم هى والمقربون اليها أنهم يتسترون بالكبرياء ولا أقول الكبر. فهذه الأسرات فى أغلب أمرها يتمثل غناها الحقيقى فى صلاتها بالناس من جميع المشارب والدرجات فهم أصدقاء لكثير من الفلاحين ولأعيان الفلاحين وللوزراء الذين ينتمون جميعهم بلا استثناء الى الفلاحين أو أبناء الطبقات المتوسطة

والذين وصلوا الى مناصبهم الوزارية بالعلم وبصلاتهم وصلات آبائهم بالقرى وبلغوا من المجتمع المصرى هذه المكانة المرموقة . ولولا أننى الآن أكتب لك رواية ولا أروى لك تاريخا لذكرت لك أسماء مئات الوزراء الذين ينتمون فى أصولهم الى الفلاحين وتنتمى قلة منهم الى العمال لأن المدينة لا تعرف الروابط الأسرية التى يعرفها أهل الريف .

وهذه الأسرات ذات الرنين فيهـا الفقير وفيها الغنى وأغلب بيوتها مستورة لا فقيرة تستجدى ولا هى غنية تسرف فى الانفاق . وهنـاك أسرات تلتئم عنـاصرها فيعين غنيها فقيرها فيبدو الفقير مستورا حتى ليظنه أصدقاؤه غنيا وكان نديم وحيد أبويه . وكان أبوه من هؤلاء المستورين ولكنه شـأن الكثيرين من هذا الجيـل أراد أن ينمى ثروته فقضى عليها . وأصبح لزاما على أفراد الأسرة الآخرين أن يخصصوا له مبلغا شهريا يمكنه أن يعيش فى منزل معقول وأثاث نظيف ويمكنه أيضا أن يكمل تعليم نديم .

وكان من الطبيعى أن ينقص هذا المبلغ حين يتخرج نديم ويحصل على وظيفة . ومن ميزات هذه الأسرات ومن بينها أسرة الطوبجى أنها تستطيع دائما أن تجد وظيفة لابنائها ولغير أبنائها بما لها من صلاتها الكثيرة المتباينة التى قد تصـل أحيانا الى رئيس مجلس الوزراء نفسه . وهكذا عين نديم يوم تخرجه موظفا بمجلس النواب وفى الدرجة السادسة ولم يكن تعيين المتخرج فى الدرجة السادسة أمرا محتما فى ذلك الحين وانما كان بحسب المتخرج أن يحصـل على أى وظيفة ولتكن فى الدرجة الثامنة أو السابعة مادامت هذه الدرجات هى المتاحة . وكانت الحياة كما يعرف الجميع رخيصة غاية

الرخص فى تلك الأيام وكانت المرتبات على ضآلتها تقيم أود البيت ·

ومع الصلة الوطيدة التى كانت تربط فرغلى بنديم فان فرغلى لم يعرف بل ولم يتصــور أن نديما يعيش من نفقة أسرته لا نفقة أبيه بل ان وصفى الذى لاتخفى عليه خافية لم يكن يعرف هذه الحقيقة عن نديم على الرغم من الصداقة التى اتصلت بينهما على يد فرغلى ·

وهكذا كان نديم يمثل عند فرغلى أسرته باسمها العريض ولا يمثل مطلقا عائلته بدخلها الذى تناله صدقة لا ريعــا وتفضلا لا حقا ·

وهكذا أيضا حلا لفرغلى أن يرى نديما يعمل عنــده بالشركة وحين بدأ يساومه كان يساوم فيه اسم الطوبجى ذا الرنين ولم يتصور أنه يستطيع أن يســاوم فيه نديما الذى يعرف أنه أكمل تعليمه على نفقة أسرته ·

ـ هل معقول أن نديم الطوبجى بحاله يعمل موظفا باثنى عشر جنيها ·

ـ وهل وجدت خيرا من هذا ورفضت ·

ـ موجود ·

ـ ياعم أنا فى وظيفة مضمونة درجة سادسة لا يحصل عليها الا أصحاب الحظ العظيم ·

ـ أو الأسرة العظيمة ·

ـ ياعم خلها على الله ·

ـ لا على أنا ·

ـ أستغفر الله العظيم ·

ـ اسمع ولا تخرف ·

ـ أعوذ بالله أشيطان أنت ؟

ـ الشيطان لا يعرض عليك مرتبا ثلاثين جنيها ٠

ـ كم ؟ قلت كم ؟

ـ ماسمعت ٠

ـ سمعت وقبلت ٠

وعمل نديم رئيسا للعلاقات العامة بالشركة ٠ ولم يمض الا شهر وبعض شهر حتى وجد نديم نفسه فى حجرة سكرتير عام الشركة الذى أمر ألا يدخل أحد اليها ٠

ـ مبروك ياعم ٠

ـ الله يبارك فيك ٠٠ علام ؟

ـ الصفقة التى أتممتها مع شركة ليوتى للاستيراد والتصدير ٠٠

ـ مارأيك ٠٠ أليست صفقة عظيمة سنقوم ببناء الشركة ومخازنها كما سنقوم بتأثيثها ٠

ـ لم تخيب ظنى يانديم باشا فلا يمكن أن تجد الشركة رئيسا للعلاقات العامة فى مثل نشاطك وهمتك ٠

ـ البركة فيك ٠

ـ ولكنك خيبت ظنى فيك من ناحية اخرى ٠

وامتقع وجه نديم وأكمل فرغلى ٠

ـ وخيبت ظنى فى الأسر العريقة ٠

وازداد الامتقاع على وجه نديم وتاه لسانه فى فمه وهو يقول :

ـ لماذا ؟ ماذا صنعت ؟

ودون أن يعنى فرغلى بالاجابة قال :

ـ وخيبت ظنى أيضا فى الصداقة التى بيننا ٠

ـ ماذا ٠٠٠ ماذا ؟

ـ خمسمائة جنيه عمولة من مهندس الشركة ٠

ـ ولكن ولكن ٠

ـ اقرأ هذا ٠

لم يكن نديم يعلم أن صديقه فرغلى أوصى نسيبه وصفى أن يراقبه وقد استطاع وصفى أن يرغم المهندس على كتابة اقرار بالرشوة التى تقاسمها مع نديم ٠

وتشنجت اصابع نديم على الورقة وقال فرغلى فى صوت هادىء متزن حنون ٠

ـ مزقها فأنت تعرف طبعا أنها صورة فوتوغرافية ٠

ـ أستقيل ٠

ـ ما هذا الكلام الفارغ ٠

ـ أوامرك ٠

ـ اكتب ورقة مثلها ٠

ـ أمرك ٠

وحين أتم نديم كتابة الورقة أخذها فرغلى وفتح درجا وأخرج دوسيها بعينه ووضع فيه الورقة بهدوء ثم أغلق الدوسيه وأعاده الى لدرج وأدار فيه المفتاح ووضعه فى جيبه كل هذا ببطء شديد حتى اذا استقرت المفاتيح فى جيبه نظر الى نديم ٠

ـ كم أنفقت من الخمسمائة جنيه ؟

ـ أنا ·· أنا ··

ـ مبلغ بسيط · فأنت لم تستلم المبلغ الا أول أمس ·

ـ أنا ·· أنا ··

ـ تدفع لى ثلاثين فى المائة من المبلغ ·

ـ تحت أمرك ·

ـ وتظل هذه النسبة سارية المفعول بيننا دائما وفى مقابل ذلك سأساعدك فى عقد الصفقات ·

ـ أنت أعظم انسان عرفته فى حياتى ·

ـ هذه النسبة أراعى فيها الصداقة والزمالة كان المفروض أن تكون المبالغ مناصفة ·

ـ أعرف ذلك ·

ـ وفى كل مرة ستكتب ورقة كهذه ·

ـ ورقة ؟!

ـ طبعا ·

ـ وما لزومها ؟

وفكر نديم قليلا وعاد اليه جأشه واطمأن ثم نظر الى فرغلى ·

ـ ولكن هناك أمرا يحيرنى ·

ـ لاتجعل شيئا يحيرك أبدا ·

ـ وجود ورقة واحدة من هذه الأوراق تحت يدك كاف بل ان وجود أكثر من ورقة سيؤكد أنك شريك لأنك سكت ولم تبلغ عن أول سرقه لى ·

ــ فى هذه المرة لم تخيب ظنى فى ذكائك ٠

ــ اذن فما داعى الورقة لكل عملية ؟

ــ لأختار أنا عند اللزوم الورقة التى تناسب ما أريد أن أنزله بك من عقاب ٠ وصمت نديم ولم يطل صمته وانما قال :

ــ أما أنا فلم يخب ظنى فيك أبدا ٠ أنت دائما فرغلى الذى عرفته فى المكتبة ٠٠ لم تتغير ٠

ــ أبعد كل هذا لم أتغير ؟

ــ تغيرت الحلة وتغير رباط العنق وتغير المنزل وتغيرت وسائل المواصلات وتغير المنصب ولكن فرغلى لم يتغير ٠

ــ ليس هناك أى داع ليتغير ٠

ــ معقول ٠٠ لك حق ٠٠ سلام عليكم ٠

ــ ألم تنس شيئا ؟

ــ لا ٠٠ لم أنس شيئا ٠٠ المبلغ فى البيت ٠٠ فى الغد سيكون عندك نصيبك كاملا ٠٠ المبلغ المطلوب موجود ٠

ــ طبعا موجود وموجود أكثر منه أيضا ٠

وابتسم ولم يجد نديم مناصا من أن يبتسم هو أيضا فقد انتهى اللقاء نهاية أجمل بكثير مما كانت تنبىء عنه بدايته ٠ وخرج نديم وأقفل الباب ونظر الى الحاجب وقال له فى هدوء :

ــ يستطيع البك الآن أن يقابل من يريد مقابلته ٠

***

أنا لست فى حاجة الآن أن أعيد عليك هذا المشهد وقد تكرر بين فرغلى وابن عمته ممدوح طبيب الشركة الذى كان

يتقاضى رشاوى عن الاجازات ويتقاضى رشاوى من الأطباء الذين يحول اليهم عمليات الشركة ٠

ولست فى حاجة أيضا ان أعيد المشهد ثالثة وهو يملى شروطه على ابن عمته الثانى المهندس يحيى الذى كان ينال مبالغ ضخمة عند استيراد مواد البناء وعند الاتفاق مع المقاولين الذين يعملون معه فى عمليات الشركة ٠

فكلاهما كان يكتب الاقرارات وكلاهما كان يقدم نصيبا يحدده فرغلى حسب ما يحلو له ٠

***

ليس غريبا أن يكون المال ذا أهمية كبرى عند فرغلى ولكن الحقيقة التى ينبغى لها أن تطفو هنا أمام عينيك هى أن المال لم يكن هو أهم ماكان يستمتع به فرغلى وهو يتم الصفقات مع صديقه وابنى عمته ٠٠ كان أهم ما يستمتع به أنه أصبح يمسك برقاب ثلاثتهم فى أصابعه ليصنع بهم مايشاء ٠ والأعظم من ذلك أن أحدا منهم لايستطيع أن يستقيل فالأمر لم يعد مجرد وظيفة وانما أصبح اختيارا بين الوظيفة ٠٠ هذه الوظيفة بالذات ومع فرغلى بالذات وبين السجن ٠٠ أصبح الأمر اختيارا بين الحياة أو الموت ان جاز أن يسمى هذا اختيارا ٠

وثار تناقض عجيب ربما اتفق ثلاثتهم أنهم الآن يلقون من المجتمع الاكبار والاجلال والاحترام وهم لصوص فاذا حاولوا أن يتوبوا انقلبوا أمام المجتمع الى مجرمين سفلة ٠

والأمر الأعجب وربما كان يثور فى نفوس ثلاثتهم أيضا أن الذين يرشونهم يقدمون لهم مع المال الاحترام والاجلال مثلهم فى ذلك مثل المجتمع الذى يجهل حقيقة أمرهم ٠٠ ثم ان

ثلاثتهم واثق أن هؤلاء الذين يرشونهم سيكونون أول من يرميهم بالسفالة والانحطاط لو حاولوا أن يرتفعوا بأنفسهم من الدنس الى الطهر ومن خيانة الأمانة الى الشرف .

وكان فرغلى يعلم أن هذا يثور فى نفوسهم .. كان يعلم ذلك من حوارات كثيرة بينه وبين كل واحد من ثلاثتهم على انفراد وكان يسعد بهذا التمزق الذى تصنعه مخالبه فى ابن العائلة ذات الشهرة العريضة وفى ابنى عمته الذين كانا ينظران اليه فى أنفة يوم كان خادما فى بيت أمهما .

فاذا ضم مجلس عمته أو زوجها أو كليهما ومعهما يحيى وممدوح انتشى فرغلى غاية النشوة بمديح عمته له متمثلا فى الدعاء أن يفتح الله له أبواب الرزق ويتم نعمته عليه جزاء وفائه لها وحرصه على رد جميلها .. سعيدة كانت العمة وسعيدا كان زوجها أن أثمر الخير الذى يتوهمان أنهما قدماه لفرغلى معتقدين أنه لايحمل لهما الا الشكران وانه قط لم يفكر أنهما اصتنعاه خادما بغير أجر لقاء فراش حقير ولقمة أكثر حقارة .

آمال فرغلى تسير فى الطريق الذى رسمه لها كما يريدها أن تسير محققة له المال والسطوة ومحققة قبل هذين الانتقام والتصرف فى مقادير أقرب الناس اليه ومصائرهم .

١٤

تاريخ

ما هذا ؟٠٠ آما آن لنا أن نذكر كلمة عن مصر فى هاته الأيام ؟! أنتحدث عن حشرات الأرض ولا نتكلم عن النبات والأشجار ٠

كان فرغلى مع كل من حوله حشرات هذه الفترة ٠ ولكن الناس الأشجار كانوا الملك والوزراء والشيوخ والنواب واصحاب الصدارة ٠٠ وكان النبات هو شعب مصر الطيب يحتقر الحشرات وينظر الى الأشجار نظرة أسف فى بعض الأحيان ونظرة غضب فى بعض الأحيان ونظرة اعجاب فى بعض الأحيان ٠

توالت الوزارات على مصر في أثناء الحرب العالمية العظمى وكانت بعض الوزارات تحاول أن تغاضب الانجليز باتفاقات سرية مع المحور بينما كانت، تحاول وزارات أخرى أن تهادن الانجليز أملا فى الحصول على الاستقلال اذا انتصر الحلفاء .. وكان الملك يلهو فيميل حينا مع الانجليز ويميل حينا مع الألمان فلا يرضى هؤلاء ولا أولئك .

ولم يكن الانجليز مستعدين أن يتحملوا الموقف غير الواضح من مصر جميعها من ملكها الى وزرائها الى نوابها الى شيوخها فقاموا بعملية ٤ فبراير الشهيرة ليحطموا بها كل ماكانت مصر قد حصلت عليه من مفاوضات تطاولت بضعا وعشرين عاما وانتهت بمعاهدة ٣٦ التى اعتبرها الأحرار الدستوريين خطوة واعتبرها النحاس ومن وراته الوفد فوزا مبينا وانشق بسببها وبأسباب أخرى حزب الهيئة السعدية برياسة أحمد ماهر وبجانبه النقراشي .

اندكت هذه المعاهدة فى حادث ٤ فبراير وقال أحمد ماهر للنحاس على مشهد من جميع زعماء مصر فى ذلك الحين ومعهم الملك :

ـــ اذا قبلت هذه الوزارة يا باشا فأنت تقبلها على حراب الانجليز .

ولم يأبه النحاس وشكل الوزارة واندمج الوفد مع الانجليز وأصبحوا أسرة واحدة تعلن عن ترابطها ورفع الكلفة بينها وبالصورة الصريحة فى صدور الجرائد المصرية وما للجرائد لاتفعل وقد استطاع الوفد أن يدبر مظاهرة فى يوم تأليف وزارته حملت السير مايلز لمبسون المندوب السامى البريطانى على أكتافهم . وأصحاب الشباب فى تلك الأيام

نوع من الأسى والاحباط أن يرى القتلى يهتفون باسم قاتلهم بل ويحملونه حيا ــ لا ميتا ــ على الأعناق ٠

واستمرت الحرب وبلغت بالنسبة للمتحاربين ذروتها فى معركة العلمين وكانت الأنباء التى تحيط بها تؤكد أن الألمان لن يلبثوا أن يصبحوا فى القاهرة بين عشية وضحاها وسمع الناس وأغلب الأمر أن ماسمعوا كان صحيحا أن القوات الانجليزية وأفراد البعثة الدبلوماسية فى سفارة انجلترا يحرقون الأوراق السرية الهامة ويستعدون لاستقبال جيوش روميل ٠

ولكن فجأة انقلبت موازين الأنباء فاذا بالمهاجمين يصبحون منسحبين وينتصر مونتجمرى وينتصر الحلفاء نصرهم التاريخى فى موقعة العلمين وتبدأ النهاية ٠

وتبدأ معها يد الانجليز المتكالبة على مصر تخفف من ضغطها ولم يعد يعنيها أن يبقى النحاس فى الحكم أو لا يبقى ويظل الملك متربصا بالأيام ولم يكن حتى ذلك الحين قد انحدر الى الحمأة العفنة التى تردى اليها بعد ذلك ٠

وكان أحمد حسنين رجل القصر على قدرة دائما أن يجعل الملك على صلة بأدق مشاعر الانجليز ورغباتهم ٠

وهكذا حين أصبح الملك على يقين أن النحاس لم يصبح ذا أهمية كبرى ولا صغرى عند الانجليز أقال وزارته ٠

وكانت هذه الاقالات لوزارات الوفد هى أعظم ماتعتمد عليه شعبية الوفد ٠ فقد كان الوفد مكروها طوال أيام حكمه حتى اذا أقيل عادت اليه شعبيته أعظم ما تكون العودة فالشعب المصرى يحب الكفاح لأنه عاش عمره جميعا كفاحا ورثه منذ

أيام مينا الى اليوم فاذا لم يكافح هو آحب المكافح لأنه يعبر عما يريد هو أن يفعله ٠

أقيلت الوزارة الوفدية وتألفت حكومة من الأحـزاب الأربعة المعارضة للوفد فى ذلك الحين ٠ ومن هذه الأحزاب اثنان لهما أنصارهما ولهما قوتهما الحقيقية وآخران لا جذور لها ٠٠ أحدهما يرفع شعارا فيه رنين الخطابة وليس فيه منطق والآخر تكون بما نال رئيسه من ظلم وكان الظلم غاية الظلم فى ذلك الحين أن يعتقل سياسى ٠ فأما الحزبان الحقيقيان فهما الأحرار الدستوريون والسعديون وقد كانت لهما الأغلبية الساحقة فى البرلمان توشك أن تكون مناصفة بينهما ٠ وأما حزب الشعار فهو الحزب الوطنى وكان أعضاؤه فى البرلمان قلة فى الوزارة قلة أيضا توشك أن تكون رمزية ٠ وأما الحزب الذى اشترك للظلم الذى لحق برئيسه وللكتاب الذى ألفه رئيسه فهو حزب الكتلة برئاسة مكرم عبيد وكان أعضاؤه فى البرلمان قلة توشك أن تكون رمزية ٠ أما فى الوزارة فقـد اشترك بعدد مساو لأعضاء كل من حزبى الأحرار والسعديين واستمر هذا الحكم بالوزارة خمس سنوات فكانت تلك أول مرة تكتمل فيها دورة لمجلس النواب فى مصر ٠

وجرت بعد ذلك انتخابات عامة وكان من الطبيعى أن يكتسح فيها الوفد ٠ وما ظنك بحكم استمر خمس سنوات كاملة ولم يفز حزب الأحرار والهيئة الا بما يزيد قليلا عن ثلاثين مقعدا لكل منهما ٠

تغيرت سياسة الوفد فى هـذه الوزارة عن سياسته التى لازمها فترات طويلة من حياته ٠ فقد رأى أن يهادن الملك فى وقت كان الملك فيه يحظى بكره شعبى شديد سعى هو اليه بكل الوسائل وعاونته عليه أسرته جميعا وخلصاؤه جميعا

أيضا • وأحس الوفد أنه فى مأزق حرج فلو أنه أرضى الشعب لأغضب الملك الذى كان فى ذلك الحين قد أصبح يتصرف تصرفات رعناء بغير مشورة الا من خدم أغبياء يكرمهم أن يتصفوا بصفة خدم بينما هم فى الحقيقة كانوا يقومون بمهام تعتبر من أحقر المهام التى يقوم بها بشر •

ومن ناحية أخرى لو استمر الوفد على مجاراة الملك والتماس رضائه السامى فقد شعبيته فقدانا تاما •

وشهد الشعب فى ذلك الحين نوعا عجيبا من السياسة فقرأ تصريحا لرئيس الوزراء يقول ان فى كابرى المدينة السياحية الايطالية قبلة يجب أن نتجه اليها جميعا وكان الملك فى كابرى فى ذلك اليوم •

ثم راح الوفد يسخن الدستور بسياط لم تعهدها مصر من أى حكومة حتى ذلك الحين فاذا بالوزارة تستصدر مرسوما من السراى بطرد مايقرب من عشرين عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ من بينهم رئيس المجلس فى ذلك الحين الدكتور محمد حسين هيكل رئيس حزب الأحرار الدستوريين والكاتب الاسلامى العملاق ومنشىء الرواية المصرية وكان معه جماعة كل اسم منهم يعتبر أمة فى ذاته •

وأحس الوفد أن مكانته عند الشعب راحت تتدهور فى سرعة فائقة فلجأ الى مفاوضة الانجليز الأمر الذى كانت تحاوله كل وزارة • والحقيقة أننا مهما نأخذ من مآخذ على الأحزاب السياسية فاننا لانستطيع أن نلوم أى حزب على صلته بالانجليز فان نكن فى ذلك الحين قد نلنا جزءا كبيرا من استقلالنا وأصبح لنا برلمان وممثلون سياسيون وحرية داخلية هى فى مأمن مادامت بعيدة عن المصالح الانجليزية

الا أن الحقيقة التى لا شك فيها أن الامبراطورية الانجليزية كانت تحتل مصر . وكانت تحتلها بقوة السلاح . ولو كانت مصرقوية مااستطاع الانجليز أن يحتلوها فقصارى مايستطيع رئيس الوزراء المصرى آلا يسلم للانجليز بكل مايطلبون ويحاول أن يجعل احتلالهم معقولا أو شبه معقول . والحقيقة أيضا أنه لم يكن بين رؤساء الوزارات أو الوزراء من تستطيع أن تقول عنه أنه خان بلاده حتى الذى كان يهادن الانجليز أشد المداهنة . كان يرى أن هذه هى السياسة المثلى التى قد تعود على مصر بالخير ويجعلها تنال نفعا ماديا مادامت فى ظل الاحتلال لاتستطيع أن تنال انتصارا أدبيا . وقد سمع الشعب النقراشى أثناء رئاسته للوزارة وهو يصرخ فى هيئة الأمم المتحدة صائحا بالانجليز : اخرجوا من بلادنا أيها القراصنة . وكانت هذه أول مرة يسمع فيها الانجليز مثل هذه الصرخة فى أعظم محفل دولى فى التاريخ ومن العجيب أن حزب الوفد يوم ذاك أرسل برقية موقعة باسم رئيسه أن النقراشى لا يمثل الشعب المصرى . لا علينا دخل الوفد فى مفاوضات انتهت الى فشل . ووجد رئيس الوفد أنه أصبح فى موقف يتحتم عليه فيه آن يتخذ موقفا . وكان رئيس الوفد بارعا فى ارضاء الشعب ولكن أغلب السياسيين لم يكونوا مقتنعين ببراعته فى السياسة .

فى هذه الفترة كانت سمعة الملك قد بلغت الحضيض فانتفض ثلاثون من زعماء المعارضة وكتبوا بيانهم الشهير ينبشون فيه الملك عاقبة ماتردى فيه من دعارة سياسية وخلقية وانتشر البيان وجن من الملك جنونه ووقفت وزارة النحاس عاجزة لاتستطيع أن تعارض البيان فهو حقيقة ولاتستطيع أن تؤيده فهى الوزارة المسئولة وكان واجبها هى قبل أن

يكون واجب المعارضة أن تنبه الملك الى مايأتيه وأهله من عهر يسيء أول مايسيء الى سمعة مصر ٠

وهكذا لم يجد رئيس الوزراء سبيلا أن يستعيد ثقة الشعب الا بأن يجعله يتجه وجهة أخرى لايختلف اثنان في أمرها ٠

وهكذا ألقى مصطفى النحاس بيانه التاريخي في مجلس النواب باسم مصر وقعت المعاهدة وباسم مصر ألغى المعاهدة ٠

وانقدحت الشرارة وذهل رجال الأحزاب ورأوا المستقبل أمامهم واضحا لا غموض فيه ٠

ولكن زعيما من زعمائهم أعلن الثورة على الانجليز وهم أبناء هذا الشعب فلابد أن ينضموا الى الثورة مهما تكن النتائج ٠

أيد الأحرار الدستوريون كماأيدت الهيئة السعدية الغاء المعاهدة والوقوف مع الوفد صفا واحدا وبدأت الجماعات في القتال حيث كانت تعسكر القوات الانجليزية ٠

وحدث الحدث الشهير لرجال الشرطة الذين كانوا يوزعون السلاح من مقر مركز الاسماعيلية فاذا بالقوات الانجليزية تحيط بالمركز وتوجه انذارا للضباط الذين في داخله أن يستسلموا في مدة حددوها أو هم سيهاجمون المركز ٠ ويتصل رجال الشرطة بوزير الداخلية ويأخذ قراره ٠

ــ ارفضوا الاستسلام ٠

وانقسم الناس في الحكم على قرار الوزير قائلين : لو

كان معهم ما أمرهم بالموت وقال آخرون : انه تحمل على ضميره في شجاعة منقطعة النظير مصير كل هؤلاء الرجال ليظهر العالم على فظائع الانجليز في مصر في القرن العشرين • وهاجمت القوات الانجليزية مركز الشرطة وقتلت عددا كبيرا أصبحوا اليوم جميعا شهداء معركة وطنية من أعظم معارك مصر •

وكان هذا لاستبسال في حرب الانجليز جديرا بأن يجعل مصر تنال جزءا كبيرا من حقها المضاع •

ولكن فجأه وبغير مقدمات فوجئت مصر وفوجيء العالم بالقاهرة الخالدة ذات التاريخ العريق تحترق • وراحت الأصابع ومازالت تشير في اتجاهات عديدة ومازلت أعجب لماذا لم تشر جميعها الى الجهة الوحيدة التى ستنتفع من هذا الحريق ؟

أستقالت الوزارة واتجه الملك الى حزبي الأحرار الدستوريين والسعديين ليؤلفا الوزارة فرفض كلاهما فقد كان ثلاثون منهما ومن شخصيات مصرية عامة قد كتبوا العريضة للملك التي يظهرونه فيها على الفساد المنتشر حوله والتي يحملونه فيهاوحده مسئوليته ما سينتج عنه وقد طالبوا باخراج الأسماء الدنسة التى تحيط به فحين أراد منهم أن يؤلفوا الوزارة كان رفضهم مبنيا على أنهم لن يشتركوا مادام الملك يتردى في الفساد متخذا سلمه في الانحدار من ظهور هؤلاء الحقراء الذين يزينون له الخطيئة والطغيان والفساد•

واضطر الملك أن يترك الأحزاب ويتجه الى المستقلين •

والمستقلون لا عـون لهم من الشـعب وراحت مصر تتخبط كالسكران المخدور الأعمى منذ حريق القاهرة ٠

أليس عجيبا أن تجد هذا التاريخ بين فصول رواية بطلها فرغلى بن فهيم والغزية ٠ ولكن الحقيقة أن أى انسان فى مصر حتى ولو كان فرغلى بن فهيم والغزية تأثرت حيـاته ومستقبله بهذه الفترة فهى ليست جزءا من تاريخ مصر فقط وانما هى أيضا جزء من تاريخ فرغلى بن فهيم والغزية ٠

١٥

طريق بلا نهاية

استطاعت المصاهرة التى جمعت وصفى وفرغلى فى اناء واحد أن تجعل فرغلى على صلات حميمة مع كل عهد ٠ وقد استطاع فى دربة الثعلب أن يعطى عطاءه بالقدر المناسب فى الوقت المناسب ٠

فحين يبدأ الهتاف يكون أول الهاتفين وحين تبدأ التنظيمات تصدرها بما له من صلات ربما مصاهرة أغدقت عليه ألوان النعيم فقد استطاع وصفى فى قفزة ثورية أن يصبح من أهل المناصب الكبرى فى الجهاز الذى يعمل به ٠

ومع الأيام توالت الأحداث ومع السنين أصبح فرغلى يثب الدرجات الوظيفية والسياسية فى آن معا ٠

ولم يكن كثيرا عليه أن يحتل مكان وحيد بك عفيفي منذ اللحظة الأولى وتمكن من كرسيه تمكنا استطاعت به يداه أن تغوصا أكثر فأكثر في أعناق قوم كثيرين على رأسهم بطبيعة الحال نديم وممدوح ويحيى ·

وحين بدأ الصراع مع الشيوعيين سمح له وصفى أن يقدم هو أسماء زملاء فتحي وفتحي نفسه وغيرهم ممن امتدت صلته اليهم مع الأيام · وازداد فرغلي تألقا ·

وفي هذا الألق وتحت هذه الأضواء زارته اسعاد فريد النجمة المتوهجة في سماء الفن والتي كان يراها على الشاشة فيبهت عن العالم أجمع وينكمش خياله أن يمتد ليتصور أنه يستطيع في يوم من الأيام أن يرى هذه الأعجوبة رأى عين ·

وحين جلست أمام مكتبه تدافع تاريخه كله الى كيانه · كيف استطاع ابن فهيم وابن الغزية أن يجلس هكذا وجها لوجه الى اسعاد فريد · وتذكر زوجته حياة وتساءل اذا كانت حياة حياة فالموت أمنية · انما الحياة الحقيقية هي تلك التي تجلس الآن أمامه وتحدثت وظل ذاهلا عن الحديث · ومضت في حديثها وظل هو على ذهوله وأدركت اسعاد في خبرة الفنانة التي تعرف مدى شهرتها وسحر الاشعاع المنبعث منها الحالة التي يعانيها فرغلي وفرحت لا كما تفرح عادة كلما رأت أثرها على الناس وانما كان فرحها أكثر عمقا فهذا الذي تجلس اليه نجم مضيء من نجوم كل العهود فاذا كانت تمكنت أن تصل اليه بهذه الصاعقة التي تلف كيانه فان لها اذن معه شأنا أي شأن وان لها مع المستقبل أيضا شأنا أي شأن · فالنجوم التمثيلية يعرفون دائما أنهم كلما صعدوا الى القمة

اقتربوا من الهاوية وأن تألقهم كأشتعال المغنسيوم شديد مبهر أخاذ ولكنه قصير الأمد سريع الأنطفاء ·

صمتت اسعاد · وضحكت · وظل على ذهوله فرغلى · وطال الصمت والذهول واسعاد بكليمها سعيدة منتشية كخمر تمشت فى أوصال عربيد ·

وحين دخل الحاجب بالقهوة والكازوزا صحا الذاهل وأبتسمت النشوة · واخذ الحاجب معه الذهول والنشوة وخرج بهما وأقفل الباب عن اثنين يتيقظ كل منهما من غيبوبة كان بها سعيدا ·· والعجيب أن كلاهما مع أفاقته ظل سعيدا ·

وعادت اسعاد الى الحديث دون أن تشير الى فترةالانصعاق منه ولا فترة الانتشاء منها ·

ـ سمعت عنك الكثير ·

ـ أرجو أن يكون كما أتمنى ·

ـ أنا هنا الست كذلك ·

ـ الذى لا أعرفه ان كنت أنا هنا أم لا ·

ـ ولكنى هنا ·

ـ وربما تشككت فى هذا أيضا ·

ـ تأكد أننا هنا ·

ـ فأرجو اذن أن أكون معك ·

ـ وأنا أيضا أرجو ذلك ·

ـ أريد أن أبنى عمارة ·

ـ واحدة ·

ــ كبيرة ٠

ــ ليس شيء بالنسبة اليك كبيرا ٠

ــ العمارة ٠

ــ نتغدى معا ونتكلم فى التفاصيل ٠

***

وبدأت العلاقة بريئة كل البراءة فقد أدركت اسعاد أنها تملك فرصة لن تعود ومن فى مثل خبرتها اذا تمكنت من فرصة أحسنت التعامل معها ويكفيها ذكاء أنها ألغت مسألة العمارة هذه لتتعرف به أما ما كان لديها فقــد يكفى لبناء حجرة ٠

عجيب ذلك القدر لقد كانت لاتجد شيئا تعطيه فمرت بمعرض الشركة وأعجبتها بضعة أشياء اشترتها وحين همت بدفع الثمن خطر لها أن تجرب شهرتها وتتعرف بهذا الفرغلى الذى راح صيته يدوى واخترعت حكاية العمارة دهليزا أن يخفض ثمن الأشياء التى اشترتها ٠ وقد أدركت أنها ملكت الرجل منذ أول وهلة وأزدادت يقينا حين أمر أن يضاف ثمن ما أشترته على حسابه الخــاص ٠ خيوط ممــا تنسج الأيام واهية لاتكاد ترى وماهى الا دورة أشهر قد لاتكتمل سنين فاذا هى خيط القدر نفسه تتغير الدنيا وماتنسجه لا يتغير ٠

***

فى هذه الاثناء بدأ الصراع بين العهد الحاكم وبين تجمع أمين الشبراوى ومرة أخرى تقدم فرغلى بالأسماء التى عنده، وفى هذه المرة كانت القــائمة التى قدمها وحده مئات من

الناس فقد كانت صلته بالشبراوى قد توطدت حتى عرف منه اسرارا لم تستطيع الاجهزة الأخرى كلها آن تصل اليها ٠ وقد استطاع هو أيضا أن يضيف الى كل من تربطه صلة بأى فرد من أفراد التنظيم سواء كانت هذه الصلة ذات شأن بأهدافهم أم لم تكن ٠ وازداد فرغلى تألقا ٠

تزوج فرغلى من اسعاد ٠ وتقدم اليها برجاء واحد أن يكتما خبر الزواج ، وقبلت بثمن باهظ ولكن ثروة فرغلى لم تعد تحس بأى ثمن يمكن أن يكون باهظا حتى ولو كان عشرة آلاف جنيه ٠ أثثا شقة كانت اسعاد تنتقى وكان هو يدفع وما أحس بسعادة فى الانفاق قدر سعادته بهذه الايام ٠

***

يستطيع الزواج أن يكون سرا ٠ وقد كان كذلك فملا الا عن أم حسين التى تعيش مع اسعاد منذ سنوات طويلة والتى لها فى البيت مكانة وكذلك لم يكن سرا عن فهمى عبد الموجود الطباخ وحسنين كرم السفرجى فكلاهما شاهد على العقد وكلاهما يعمل عند اسعاد منذ فترة ان لم تكن بعيدة الا أنها كانت كافية لتطمئن اسعاد اليها وتأنس لهما ٠

كان الزواج سرا أذن لا يعرفه الا هؤلاء النفر الثلاثة وماثلاثة نفر ؟ ولكن الجنين فى أحشاء اسعاد يد الله تكشف المستور اذا كان المستور خبيئا ٠ فالأصل فى الزواج الأعلان وقد أمر به النبى أن يعلن ولو بطبل يدق ليعرف من لا يعرف أن أختلاء فلان بفلانه أنما هو بشريعة الله وببركته ٠ والتخفى فى الزواج يجعله أقرب الى الحرام منه الى أشراق الحلال ووضوحه ٠

***

وازداد الأمر سوءا فقبل أن يعلن الزواج عن نفسه بظهور الجنين على قوام الأم كان وصفى قد عرف بأمر الزواج • وجن به الجنون أن استطاع فرغلى هذا الجلف الذى ألتقطه من دكة أحد الوراقين أن يستغفله طوال هذه الشهور •

ـ تطلقها •

ـ هل عرفت حياة ؟

ـ عرفت •

ـ وماذا صنعت ؟

ـ أنت معها كل يوم •

ـ لم أر منها تغيرا •

ـ لأنها أخبرتنى •

ـ وصفى ألست انسانا ككل الناس ؟

ـ لك أنت أن تجيب على هذا السؤال •

ـ ماذا أكون ان لم أكن أنسانا ؟

ـ قطعة بشرية مهلهلة كأوراق كتاب عفن أكله السوس لان أحدا لايشتهى أن يقرأه ، التقطتها أنا وجعلت منها شيئا ذا بريق فى الظاهر ولكن ما يخفيه البريق أعرفه أنا كل المعرفة •

ـ لم يعد أمر أبى ولا أمر أمي يهمنى •• لتذع ماشئت من أمرهما •

ـ فرغلى هل جننت ؟

ـ أتظن أننى أجن •

ـ هذا ما يدهشنى ٠

ـ فما سؤالك هذا ؟

ـ مجرد تعجب ٠ لقــد تزوجت أختى وقد عرفت يوم طلبتها منى كل مايدور بنفسك ورأيت فيك يومذاك طموحا جعلنى أتيح لك كل هذا الذى أتحت ٠

ـ وقد أتحت أنا لك أيضا بصلاتى ما وصــل بك الى مكانك ٠

ـ ما شأنك بى ٠٠ أنى أنا الذى بنيتك ٠

ـ كما ساعدت أنا أيضا فى بنائك ٠

ـ أغبى أنت أذن ٠٠ أكنت مخـدوعا فيك كل هــذه السنين ؟

ـ وفيم ترى غبائى ٠

ـ أتظن أننى وأنا أبنيك تركتك تبنى هكذا حرا طليقا دون أن أصور كل طور من اطوار حياتك ٠

ـ ماذا تقول ؟

ـ أتظن أننى حين أهددك اليوم أهددك بأبيك فهيم وأمك نجية أو الغزية ؟

ـ فما أمرك القاطع هذا ٠٠ طلقها ياأستاذ أن أمى وأبى يمكن أن يجعلا منى اليوم بطلا قوميا ٠٠ قل عنى ماتشاء لكنى لن أطلقها ٠

ـ ولكنك ستطلقها ٠

ـ بأمر منك ٠

ـ لقد خيبت ظني فيك ·· أنظر في هذه الورقات وهي جزء قليل جدا مما عندي عليك من سرقات ·

ـ طظ ·· هذه السرقات تخيف المرؤوسين فقط اليوم ·· تخيف نديم أو ممدوح أو ··

ـ أيها الغبي الا تعرف ماذا أستطيع أن أفعل ·

ـ ما أهون هذا الذي تستطيع أن تفعله ·· يبدو انك لا تعرف أهميتي اليوم · أنا عمود أساسي من عمد العهد ·

ـ ولأنك هكذا أستطيع في غمضة عين أن أمحوك ·· هذه المستندات ستذاع في العالم ليعرف العالم الاعمدة التي يقوم عليها النظام · ويومذاك لابد أن يتخلصوا منك ··

ـ ماذا تقول ؟ أجننت ؟

ـ من المجنون فينا ؟·· مهما يكن أمرك فأنت بالنسبة لي هاو أما أنا فمحترف ·

ـ الا تخاف مما قد يصنعونه بك ·

ـ أنا ·· وهل تظن أن هذه المعلومات عندي وحدي ؟·

وكيف يظنون أن وصفي يفضح زوج أخته ؟

ـ للأنتقام ·

ـ أنهم يعرفون تاريخي كله والانتقام ليس جزءا من اللعبة التي نلعبها ·

ـ الا تنتقم الآن ·

ـ ياعبيط ·· أتظن أنني أفعل ذلك من أجل أختي ··

ـ أذن ·

ـ انك تحاول الخروج من يدى · واللعبة تحتم على أن امحوك قبل أن تفعل ذلك ·

ـ فأنت أذن لست غاضبا من أجل أختك وأولاد أختك ·

ـ وماذا يضيرهم أن تتزوج ·· الموضوع الآن موضوعى أنا وصلتى بك وخروجك عن الطريق الذى أرسمه لك ·

ـ أترسم لى أنت الطريق ؟

ـ لقد رسمته لك من اللحظة الأولى وتركتك تظن أنك أنت الذى ترسم ·

ـ أنا لا أخاف ·

ـ أذن أنتظر ·

وقام الى تسجيل وأسمعه شريطا ·· أنه حديث بينه وبين اسعاد قال فيه رأيه فى كل صراحة وآماله أيضا وظل فرغلى يستمع وانقض عليه الذعر وراح يعود شيئا فشيئا الى ذلك الطفل فى المدرسة الابتدائية يحيط به زملاؤه ويتراقصون ويصخبون ويسخرون · أمحى الزمن جميعــه ولم يبق من حياته الطويلة هذه التى قطعها الا هذه الصورة فهى هو وهى ولا شىء آخر ·

ـ كنت أبقى هذا لأرى الى أى حد يصل بك الغباء ·

ـ ماهى المدة المتاحة لى ؟

ـ ساعات ·

ـ أنها ·· أنها ·

ـ حامل ·

ـ وتعرف هذا أيضا ·

ـ فى شهرها الأول ٠

ـ أنذرها الطبيب بالموت اذا حاولت الاجهاض ٠

ـ هذه مشكلتك ٠

ـ أمرك ٠

لم يذهب فرغلى الى بيت اسعاد ٠ ولم يذهب الى بيته ٠ وأنما أمر السائق أن يترك السيارة وينصرف وراح يقود السيارة الى غير هدف يتوقف ذهنه عن التفكير لحظات ثم يتوهج كحريق ولكنه فى توهجه لايثير ٠٠ مظلم هو حتى فى توهجه ٠ لقد كان رسم لكل شيء طريقا وأعد عدته لكل المفاجآت ولكنه نسى أنه بشر يمكن أن يحب ونسى أن البشر يعيشون فى الحياة مع بشر آخرين وأن الطريق بين كل البشر تتقاطع وتلتقى وتفترق وتصطدم وتلتحم وتنفرج وتضيق وتتباعد ويعبر بعضها من فوق بعض وتلف بهم الحياة ويلفون بها ويلفون فيها وتغلقهم وتعريهم ويختار الانسان ولكن أختياره مرتبط بأختيار الآخرين أيضا ولهذا قال قوم انها جبر ، وقال آخرون انها اختيار ولو آمعنوا النظر لعرفوا أنها الحالين معا ٠٠ الله يعلم والناس يعملون ٠٠ هو فى علياء سمائه يراهم أجمعين وهم لا يرى الفرد منهم الا نفسه ٠ ولهذا يقول قائلهم انها جبر وتقول الحقيقة آن العلم لا يعنى الجبر وأنما يعنى المعرفة ٠٠ الله يعرف ماسيفعلون ولكنهم هم يختارونه ٠ ولكن فرغلى لا يعرف الله ولا يريد ان يعرفه ويظن أنه يستطيع أن يبتعد عنه ويسير الطريق فهو اليوم يواجه نفسه عاجزا ولكنه أيضا لايفكر فى الله ولكنه يتمنى أن يرى أباه ويتمنى أن يسأله ٠٠ لقد تزوج أبوه وطلق ٠٠ انه خاض التجربة ٠٠ ولكن أين هو من أبيه ٠ لقد كان أبوه نكرة ٠٠ لا لقد كان نكرة بالنسبة

لمصر جميعا ولكنه فى قريته كان معروفا مثلما فرغلى معروف اليوم فى مصر والعالم ٠٠ المصيبة واحدة لقد تركت أمه أباه وهو اليوم مرغم أن يترك من يحب ٠٠ ان المصيبة مصيبة حجمها عند الشهير هو نفس حجمها عند المجهول ٠٠ لكم يتمنى أن يرى أباه ٠

اكان هباء كل هذا الذى سعى اليه ٠٠ أكل ما بذله من ذلة ومن خسة ومن نذالة ومن تمزيق لكل شىء جميل فى الحياة يضيع من أجل بضع كلمات أراد أن يظهر بها أمام من يحبها انه ذكى وانه يعرف الناس ٠

خسة ٠٠ نذالة ٠٠ كيف لم أفكر فى هذا ٠٠ أنا مازلت ممسكا بهذه المواهب ٠٠ أنا مازلت صاحبها ٠٠ كيف لم أترك مواهبى تعمل ٠٠ ماهذا الانهيار ٠٠ ففيم اذن كنت أمسك برقاب الناس ٠٠ أن بين يدى أصنافا من الناس شتى أحركهم كالدمى فيتحركون أو يموتون ٠٠ كيف غاب عنى هذا ٠٠ لابأس على ٠٠ لقد فوجئت بما لم أكن أنتظر وكنت احتاج الى هذه الساعات القليلة لأعود فرغلى العملاق وأنسى فرغلى الذى كان يزفه الأطفال بالسخرية والاحتقار ٠ ينبغى الا أذكر هذا اليوم بعد هذا لقد أمحى ٠ لقد مزقته وأنا أمزق كل ما يتصل بماضى ٠ لم يبق منى اليوم الا فرغلى العملاق المسيطر المتحكم الذى يمسك فى يديه مصائر آخرين ٠ اذن فلألقى بهم على منضدة مواهبى ولأنتظر ٠٠ وليمت الحب وليمت الابن الذى يسعى الى من ضمير الغيب اذا كان هذا أو ذاك سيقف بينى وبين القمة التى أعتليها ٠ ان الذى يمزق صلة الرحم بأبيه يستطيع أن يمزق صلة الحب بزوجته ويستطيع أيضا أن ينسى أن له فى أحشاء زوجة طفلا ٠

ان الذى يعرف كيف يكون ابنا بلا أب يستطيع أن يكون آبا بلا ابن ·

وماذا على هذا الجنين لو وجد لنفسه ابنا لغيرى ·· هو ربما حرم مالى ، وربما حرم سطوتى وجاهى ولكن ما أهون هذا اذا كان هو سيحرمنى المال والسطوة والجاه جميعا ·

***

ـ نديم

ـ أنت !؟ فى هذه الساعة من الليل ؟!

ـ أجلسنى أولا ·

ـ تفضل ·

ـ هل أجد عندك قهوة ؟

ـ لا بأس أوقظ الخدم ·

ـ لا ·· لا تفعل ·· أريدك وحدك ·· هل عندك خمر ·

ـ عندى ·

ـ هاتها ·

ـ أنت لا تشرب ·

ـ اتخبرنى عن عاداتى ·· الآن أريد أن أشرب أى شيء ·· أى شيء حتى ولو كنت فى العادة لا أشربه ·

***

ـ طعمها مر ·· لماذا يحبونها ؟

ـ أننا لا نحب طعمها وأنما نحب آثرها ·

ـ ألها أثر ؟

ـ سترى ·

ـ ستری ٠
ـ ماذا بك ؟
ـ أريدك أن تتزوج ٠
ـ من أنا ؟!
ـ نعم أنت ٠
ـ أتزوج ؟
ـ زوجتی ٠
ـ حياة ؟
ـ أنا لا أكرهك الى هذا الحد ٠
ـ ألك زوجة أخرى ؟
ـ ألم تكن تعرف ؟
ـ سمعت اشاعة ولم أصدقها ٠٠ ولكن الاشاعة لم تقل أنه زواج ٠
ـ ولماذا لم تصدقها ؟
ـ لم أصدقها ٠
ـ لماذا ؟
ـ هكذا ٠
ـ لابد من سبب ٠
ـ هل سكرت ؟
ـ ماذا تعنى بسكرت ؟
ـ أتحس دوارا ؟
ـ لا شأن لك ٠٠ أجبنى ٠٠ لماذا لم تصدق الاشاعة ؟
ـ أتأمرنى أن أقول ؟
ـ وهل بينى وبينك الا الأمر منى والطاعة منك

وأطرق نديم وصمت قليلا ثم قال :

ـ نعم فعلا ·

ـ طبعا ·· فعلا ·

ـ فاذا كذبتك ·

ـ سأعرف ·

ـ وهذا أيضا صحيح ·

ـ أذن لماذا لم تصدقها ·

ـ لأن معنى هذه الاشاعة انك أحببت انسانا ·

ـ وماذا في ذاك ؟

ـ لم أكن أظن انك تستطيع أن تحب ·

ـ في هذه المرة أنت محق ·

ـ فلماذا تزوجت اذن ؟

ـ كانت حلما وأردت أن أحققه ·

ـ وصحوت ؟

ـ أنا مرغم ان أصحو ·

ـ وأنا ما شأني ؟

ـ وزجتي حامل ·

ـ لا غرابة في هذا ·

ـ أريدك أن تكون أبا لهذا الطفل ·

ـ أنا ·· أنا ·· أهذا معقول ·· أنت سكران لاشك ·

ـ أنظر الى الكأس ·· لم أشرب منها الا جرعة أو اثنتين ·

ـ فكيف تجرؤ ؟

ـ كيف ماذا ؟

ـ كيف .. كيف .. كيف تفكر أن ترغمنى على زواج مثل هذا ؟

ـ أرغمك بما لى عليك من حق الارغام .

ـ أيبلغ الأمر الى هذا الحد .

ـ الطريق الذى سرنا فيه لا نهاية له ولا أحد منا يعرف ماذا سيلاقى فيه .. انه طويل ومظلم ومبهم قد نسعد فيه أحيانا وقد نشقى أحيانا أخرى .

ـ ولكنه دائما مخيف .. مخيف وأنا سعيد به ومخيف بشكل أكثر وحشية وأنا شقى فيه ولكنى كنت أتوقع منه أى شىء الا هذا .

ـ الا ماذا ؟

ـ أن أكون ستارا .

ـ أنت ستار لزواج شرعى .

ـ ما لم يعلن فهو والزنا سواء .

ـ ولكنك أنت تعرف وسترى عقد الزواج . ولكنك لست ملزما أن تنتظر شهور العدة .

ـ وهل أعلق شهادة الزواج بينك وبين زوجتى فى بيت الزوجية أم أخفيها ؟ والطفل لماذا أنسبه الى وهو من غير دمى ؟ أى فرق بينى وبين متستر على صلة غير شرعية .

ـ هذا مصيرك .

ـ انى أرفضه .

ـ أنت مضطرب وتواجه مفاجأة لم تكن تنتظرها وقد

تعرضت أنا منذ ساعات قليلة لمثل هذا فأصاب الشلل تفكيري.

.. انك ستتزوج زوجتي اسعاد .. ولكن عليك الآن أن تعود الى النوم أو القلق هذا شأنك وانما حتم عليك أن تفكر لأنه حتم عليك أن تفعل ماأريد .. تصبح على خير .

ـ انتظر .

ـ وفيم أنتظر .

ـ هذا الزواج لايمكن أن يتم .

ـ كيف ؟

ـ لايجوز زواج الحامل .

ـ أعرف ذلك . ألم أقل انك لست ملزما أن تنتظر العدة فأنا أعرف أن عدة الحامل نهايتها الوضع .

ـ واذا لم أتزوجها فورا فلا معنى للزواج .

ـ متى كان الحرام مانعا لك ..وهل السرقة والاختلاس والغش والتدليس حلال ؟

ـ وهي كيف توافق ؟

ـ لأنها مثلك لاتملك أن ترفض .

ـ والابن .

ـ فليحمل اسمك فهو اسم أسرة شهيرة لابأس بها .

ـ أترمى بطفلك الى اسم رجل آخر ؟

ـ لقد رمتني أمي ورميت أبي .. صلة الأرحام عندي لا قيمة لها .. من الغد تكون زوجا لاسعاد ..

ـ ولكن كيف ستكون صلتي بها ؟

ـ هذا أمر تدبرانه أنتما لا شأن لي به ..هذا شأنكما ـ تصبح على خير .

ـ خير .. النهاية .. مع السلامة .

١٦

الحـق ··· الحـق

حين وصلتها ورقة الطـلاق مع سـاع من مكتبه لم تصدق عينيها الا بعد آن قـرأتها مـرات ومـرات ورأت الشاهدين فأدركت لماذا آمر آن يخـرج فهمى وحسنين من خدمتها كانت الورقة عادية من آوراق مكتبه فالزواج العرفى يتم الطلاق فيه بورقة عـرفية ·· ورقة مثل كل الورق الملقى فى الطريق ولكنها بالنسـبة اليهـا دمار وان كانت تتوقعه منذ تم الزواج · وفى هذه المرة وقع على الورقة فهمى وحسنين أيضا · كيف عثر عليهما ·· انها لاتعـلم عنهما شيئا منذ أعطت كلا منهما مائة جنيه وصرفته من خـدمتها والدهشة تأكل وجهه · نفس الدهشة ارتسمت على وجـه كل منهما وكأنما كانا متفقين عليها · آين وجدهما وجعلهما

شاهدا الطلاق كما كانا شاهدا الزواج مضيقا بذلك دائرة العارفين الى أقصى حد أنها لاتعرف ومن أين لها أن تعرف أى شيء مما يصنعه فرغلى . لم تكن تتصور أن زواجهما به سيدوم فقد أدركت يوم طلب اليها أن يكون زواجهما سرا أن زواجها سينتهى بالطلاق ولكن الانثى قد تدرك أن الحريق حريق ومع ذلك تندفع اليه فى وعى واصرار وعلم وخطى ثابتة مدركة . فاذا أحاطت بهـا النيران واشتعلت بفؤادها والتهمت مشاعرها وكيانها أصابها انهيار من فوجىء بالأمر لم يكن يدريه . لم تسأل نفسها لماذا فان كان لابد من لماذا فقد كان ينبغى لها أن ترددها يوم قبلت الزواج أن يكون سرا . انها فنانة وليست فى حاجة الى مال ولا هى فى حاجة الى سلطان وهى لم تحب فرغلى ولم يجـذبها اليه الا بريق الجاه الذى أصبح يتمتع به ولكن فيم كانت تريد هذا الجاه . وكيف كانت ستنعم به والزواج سر لايعلمه أحـد الا أهل بيتها الثلاثة وكلهم لم يكن محتاجا لهـذه الورقة أو لهـذا الزواج حتى يزداد احتراما لها . لماذا هذه كان مكانها فى ذلك اليوم وليس الآن .

كانت فكرة انتهاء الزواج قد بدأت تضمحل وتتخافت فى نفسها منذ حملت وحين أرغمها أن تحـاول الاجهـاض وبلغ به اصراره انه كان يسـتدعى الأطبـاء ليروا رأيهم وهو من هو شهرة عاودتها خيبة الأمل حتى اذا أجمع الأطباء ان اجهاضها معناه أن تموت ثبت لديها أو كاد أنه لن يستطيع أن يطلقها وهى تحمـل طفلة فان مايخفيانه همـا لابد أن يذيعه ميلاد الطفل . كان آخر طبيب يستشيرانه يزورهما قبل أن تصلها ورقة الطلاق بأيام ثلاثة وفى هـذه الأيام الثلاثة كانت على شبه يقين أن الزواج سيدوم ولكنه يقين

المستنتج الا المتثبت وحين جاءت الورقة اندك شـبه اليقين ليسفر عن يقين كامل لاشك فيه ولا شبهة ·· لقد طلقت · والولد ·· والجنين ·

***

ـ لقد اتفقت مع نديم ·

ـ من نديم ؟

ـ ستعرفينه ·

ـ علام اتفقت ؟

ـ أن يتزوجك ·

ـ اتفقت ؟

ـ اتفقت ·

ـ وأنا ·· أليس لى رأى ؟

ـ اذا اتصل الأمر باسمى ومكانتى فلا رأى لأحد الا لى·

ـ أتتصور أن أوافق ·

ـ أنا لا أتصور ·· أنا واثق ·

ـ من أين جاءتك هذه الثقة ·

ـ أنا دائما أثق فيما أفعل ·

ـ الناس ليست حجارة ·· تستطيع أن تقول لا وتستطيع أن ترفض بل وتستطيع أن تنتحر اذا أرادت ·

ـ قد يستطيع الناس أن ينتحروا وهـذه نهاية تحل مشاكلى كلها معا أما ان الناس تستطيع أن تقول لا فهذا غير صحيح · وأمامك الناس آترين آحد يقول لا ·

ـ أنا فنانة ·

ـ طفل ٠

ـ أستطيع أن أستغنى عنكم ٠٠ العالم العربى كله سيهتم بأمرى ٠

ـ وفيم اهتمامه ٠٠ ان الفنانة أيضا تستطيع أن تموت ٠٠ وليحزن عليك المعجبون ساعة أو بعض ساعة وليعرضوا أفلامك اسبوعين أو ثلاثة ثم ينطبق عليك قانون البشر الذى لابد له أن يموت ٠

احتقن وجهها بدماء غضب وقهر ٠٠ كان التهديد واضحا ٠ وكانت تعرف أنه يستطيع دائما أن ينفذه ٠ وخافت فهى مهما تكن فنانة وشهيرة وقادرة الا أنها أيضا تخاف لأن الناس عادة يخافون ٠

ـ وابنك ٠

ـ نديم سيصبح أبوه ٠

ـ وكيف سأتزوج وأنا حامل ؟

ـ ومن قال انك حامل ٠

ـ ألا تعرف ؟

ـ وهل معرفتى تجعل هذا السر علنا ؟

ـ والأطباء ٠

ـ انه سر مهنة ولو أفشاه أحدهم فهو يعرف مصيره ٠

ـ وأم حسن وفهمى وحسنين ٠

ـ لقد رأيت توقيعى فهمى وحسنين ٠

ـ أنت تعرف مكانة أم حسين عندى ٠

ـ هذا لايهم ولكن وجودهما معك سيجعلها أكثر صمتا ٠

ـ ألا تخشى أن يفشى فهمى أو ٠٠٠

ـ دائما الذى يتعامل معى هو الذى يخشى أنت تعرفين مكانتى ٠٠ التى جعلت اسماد فريد تسعى الى التعرف بى مدعية بناء عمارة وهى لاتملك مايبنى عشة هذه المكانة تضاعفت عشرات المرات اليوم فهل مثلى يذيع سره طباخ أو سفرجى ٠

ـ ونديم ؟

ـ ألا ترين أن الاسئلة أصبحت تافهة ٠

ـ نعم أنت محق ٠

ـ اذن ٠

ـ لاشىء ٠

ـ مؤخر الصداق ٠

ـ لا أريده ٠٠٠

ـ هذا حقك ٠

ـ ماذا ؟

وانفجرت ضاحكة فى قهقهة عالية كلها بكاء يزلزل كيانها وهى تردد حق ٠٠ حق حق ٠٠ وتضحك وتتزلزل وتضحك ٠

ونظر اليها فرغلى مليا ٠٠ ووضع المؤخر ألفى جنيه على منضدة وتركها هى تواصل قهقهتها المزلزلة العالية النحيب وهم بالانصراف وفجأة صمتت كأنها آلة عالية الضجيج خربت فجأة ٠٠ صاحت به ٠

ـ نسيت شيئا ٠

ـ ماذا ؟

كان قد بلغ الباب الخــارجى فانتظــر دون أن يلتفت وقالت هى :

ـ ورقة الزواج ·

وأدار لها رأسه فطالعت نصف وجهه وعينا من عينيه وخافت ·· كيف استطاعت أن تعاشر عينين هذه احداهما ·· وسمعته يقول :

ـ أبقيها عليك · لن تجــرئى على اظهــارها ·· لمن ستظهرينها ؟ ·· للناس لتقولى لهم انك تزوجت زواجا باطلا أم لابنك لتقولى له انك نسبته الى غير آبيه بعقد مزور ·· ابقيها فقــد تكون ذكرى لك فى وقت تحتــاجين فيــه الى ذكريات ·

ـ ولماذا أحتاج الى ذكريات ومعى ابنك أو بنتك ·

ـ ابقى عليك الورقة وماتنتظرينه ·· سلام عليكم ·

وخرج ونظرت الى الباب يقفل من خلفه وعجيب أن تذكر كلمة السلام الآن ·

وظلت فى صمتها المروع وانطبق الصمت على الحياة جميعا ·· وساد البيت نوع من الصمت المفزع · وكيف له أن يهدأ وفى أجوائه ثلاث جثث أم زوجة ومشروع ابن أو بنت وصديق عمر ·

١٧

الزواج والجنين والمال

أنا أعرف ما ارتكبت · وأستحق ما أنال ولكن أنت ماذنبك ؟

ـ تزوجته ·

ـ ليس هذا ذنبا ·

ـ لقد أجرمت ·

ـ فى حقه ؟!

ـ فى حق نفسى ·

ـ لعلك أحببته ·

ـ أتظننى ساذجة الى هذا الحد ·

ـ ليس الحب سذاجة ٠

ـ انه لايعرف الحب ٠

ـ ربما عرفته أنت ٠

ـ الذى لايعرف الحب لايمكن أن يستطيع أحد أن يحبه ٠

ـ وكنت تعرفين هذا ؟

ـ كما أعرف اسمى وكما لا أعرف أصله ٠

ـ لاتعرفين أصله ٠

ـ كان بالنسبة لى نباتا شيطانيا يستطيع أن ينبت فى غير أرض ومن غير بذرة ٠

ـ ولم تحبيه ؟

ـ لقد أجبتك ٠

ـ فلماذا تزوجته ؟

ـ أغرانى وميض الجاه ٠

ـ أمثلك يغريه وميض الجاه ٠

ـ وخفت ٠

ـ وعرفت الخوف أيضا ؟

ـ الجاه يخيف ٠

ـ ما الذى أخافك ٠ انك فنانة ٠ انك مفـروضة على على المجتمع بأمر من السماء التى منحتك الموهبة ٠

ـ ولكن المجتمع لم يصبح حرا ٠ ولن يصنع شـئيا اذا حرمته السلطة هذه الموهبة التى يعجب بها ٠

ـ الآن فهمت ٠

ـ ألم تكن فهمت ؟

ـ فهمت لماذا أطعته و تزوجتني ·

ـ لقد ازداد سعارا وازددت خوفا ·

ـ انى أعذرك ·

ـ وأنا أحمل وليدا هو أملى وعلى أن أحافظ عليه ·

ـ أى وليد هذا الذى تحافظين عليه ؟

ـ لماذا تقول هذا ؟

ـ ألا تدرين ماذا فعلت بهذا الوليد ؟

ـ كل مافعلته أنا مرغمة عليه ·

ـ الا أنك حملته ·

ـ ألم أكن مرغمة على ذلك ؟

ـ كنت تستطيعين أن تمنعى الحمل ·

ـ كنت أحاول أن أترضى أباه وأضمن أن يظل حماية لى ·

ـ من أجل مصلحتك الشخصية اذن حملت هذا لوليد ·

ـ لم أكن أدرى ·

ـ كنت لاتريدين أن تدرى ·

ـ حاسبتنى وما حاسبتك ·

ـ المجرم لايحاسب ·

ـ فمن يحاسب ؟

ـ من يستطيع الا يكون مجرما ·

ـ فأنت معترف ·

ـ مختلس ،لص ، مشترك فىجرائم منها القتل فكم سكت على عمارات أعلم أن الأساس فيها سيؤدى الى قتل سكانها ·· ان مثلى يحمل على أكتافه جرما أعظم من الحساب ·

ـ وها أنت تدفع الثمن ٠

ـ أن أكون زوجا لك ٠

ـ أن ترغم على ما لا تريد ٠

ـ هذا أبسط كثيرا مما يجب أن أنال ومما سأنال فالوضع الذى نحن فيه لايمكن أن يستمر ٠

ـ أى نحن تقصد ؟

ـ أنا ونديم وممدوح ويحيى ووصفي وكثيرون وكثيرون ٠

ـ كيف تنوى أن نحيا ؟

ـ نحن لا نحيا ٠

ـ أقصد أنا وأنت ٠

ـ أمر هذا متروك لك تماما ٠

ـ أو لمن فرض علينا هذا الوضع ٠

ـ هو لايهمه الا أن يذيع أمر زواجك بى وقد تم هذا وأن ينتسب الطفل اليك ٠

ـ وهل ستقبلين هذا ؟

ـ القبول يكون مع الاختيار ٠

ـ ولكن الولد ماذنبه ٠

ـ ربما كنت على كل ماذكرته من جرائم اسما أخف وطأة على الطفل من اسم أبيه الحقيقى ٠

ـ ولكن انتساب الابن الى غير أبيه أمر فى ذاته يعتبر ظلما فادحا لهذا الابن ٠

ـ اذا عرفه ٠

ـ وهل أنت واثقة أنه لن يعرفه ؟

ـ سواء عندى آن آكون واثقة آو غير واثقة . آنا لاأملك الاختيار ٠

ـ اذن فسيبقى زواجنا حتى تلدى الجنين ٠

ـ ليس هذا ضروريا ٠٠ يمكن آن تطلقنى بعد شهر آو شهرين اذا شئت ٠

ـ وهل تزوجتك حتى أطلقك ؟

ـ أعرف أن الزواج باطل ٠

ـ وأنا ايضا أعرف ذلك ٠

ـ وأعرف أنك تعرف ٠

ـ كلانا ضحية وأنا أترك لك حرية التصرف ٠

ـ ليس مجال الاختيار واسعا على كل حال ٠ سيكون كل منا فى غرفة ٠

ـ أمــرك ٠

ـ فلا داعى لارتكاب خطيئات آخـــرى لســنا مرغمين عليها ٠

ـ والى متى تريدين الزواج ؟

ـ هذا اليك ٠

ـ أنا لايضيرنى أى وقت تشائين ٠

ـ اذا لم يكن عندك مانع فليكن بعد الولادة ببعض الوقت حتى يتأكد الناس انك أبوه ٠

ـ لابأس ٠

ـ انت رجل طيب ٠

ـ ولكنى مجرم ·

ـ يستطيع فرغلى أن يجعل الطيبين مجرمين ·

ـ السذاجة الفاضحة تستوى مع الاجرام الغريزى ·

ـ كنت تستطيع أن تكون خيرا من هذا ·

ـ ربما ·

ـ هل أساء اليك هذا الزواج اساءة أخرى غير غضب أسرتك ؟

ـ أسرتى أمرها هين ·

ـ اذن هناك ما هو أدهى ؟

ـ خطيبتى ·

ـ هل كنت خاطبا ؟

ـ وأوشكت أن أقدم الشبكة ·

ـ وهل يعلم فرغلى ؟

ـ لايمكن ·· لم يكن من الممكن أن أخبره ·

ـ لماذا ؟

ـ انها من أقربائى وأبوها رجل شريف ·

ـ أيغضب هذا فرغلى ؟

ـ فرغلى يكره أسرتى كما يكره كل أسرة اما أن يكون أبوها شريفا فهذا مالايمكن أن يحتمله ·

ـ فكيف أقدمت على الخطبة ؟

ـ توهمت أنه قد يغفرها لى مادمت سأظل سائرا بين الخطين الذين يرسمهما لكل واحد منا ·

ـ والآن ·

ـ لا أمل ٠

ـ أنا مستعدة أن اخبرها بكل شيء ٠

ـ تزداد الأمور سوءا ٠

ـ لماذا ؟ أنك مرغم ٠

ـ هل ستقولين لها سبب ارغامى ٠٠ مصيبة هل ستقولين لها أنى استر زواجا لم يعلن ٠٠ مصيبة أكبر ٠٠ سأصبح فى نظرها قوادا شرعيا ٠٠ هل ستقولين لها بأن الزواج بيننا ليس صحيحا ٠٠ مصيبة أكبر وأكبر محتال وزانى وقواد ٠

ـ فماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ لقد أخترت طريقى وعلى أن أسير فيه حتى النهاية ٠

ـ أترى له نهاية ؟

ـ لكل شيء نهاية ٠٠ حتى طريقنا هذا له نهاية ٠

ـ أنتظر ٠٠ خبرنى ٠

ـ ماذا ؟

ـ لقد ذكرتنى بالنهاية ٠

ـ بماذا ذكرتك ؟

ـ أنت طبعا تنوى أن تطلقنى ٠

ـ حين تأمرين ٠

ـ ليس هذا هو المهم ٠

ـ فما هو المهم ؟

ـ بالطبع لقد كونت ثروة ٠

ـ طبعا ٠

ـ ومن المؤكد أنك ستتزوج فى وقت من الأوقات ٠

ـ أظن ذلك ٠٠ لا أدرى ٠

ـ المهم ماذا ستصنع بثروتك هذه ؟

ـ طبعا تقصدين بعد موتى ٠٠ أظن ٠٠ أظن ٠

ـ وهل فى هذا ظن ٠٠ أنك طبعا لن تعطيها أو تعطى منها لابن فرغلى أو بنته ٠

ـ ماذا تريدين أنت ؟

ـ غير معقول أن تحرم ابناءك لتعطى وليدا الصلة بينك وبينه هى الأرغام والقهر والاذلال وقتل الأمل وقطع الصلات بينك وبين خطيبتك التى كنت تحبها لماذا تعطى ابن هذا الذى فعل بك كل هذه الأفاعيل مالا ؟٠٠ وماعلينا من هذا جميعا لماذا تعطى شيئا من ثروتك لطفل ليس طفلك على كل حال ٠

ـ وفرغلى أيضا لن يعطى أبنه أو بنته منك شيئا ٠

ـ فرغلى عنده أولاده الرسميون ولا يمكن أن يعلن أبوته التى فعل كل هذه السفالات ليخفيها لقد أذلنى وأذلك وزيف أبوة أبنه ٠ أبعد كل هذا سيعطيه ٠٠ طبعا لا ٠٠٠ طبعا لا ٠٠

ـ أذن ٠

ـ أذن لم يبق لهذا الجنين الذى أحمله طفلا كان أو طفلة الا أنا ٠

ـ أنك ثرية ٠

ـ انك واهم ٠

ـ تكسبين كثيرا ٠

ـ اننا نكسب كثيرا ولكننا نضطر الى نفـاق أكثر مما نكسب • لابد لنا من مظهر براق •• سيارة فاخرة •• أفخم ثياب •

ـ وفرغلى ؟

ـ اعطانى المؤخر •• قال أنه حقى وما آخذته منه فى مدة الزواج القصيرة أوشك أن ينتهى فأنا لم أعمـل أثناء الزواج الا أعمالا قليلة • فقد شغلنى عن العمل بمواعيده غير المنتظمة وأهم شىء فى عملنا المواعيد •

ـ وماذا ستفعلين ؟

ـ آه وأعطانى عشرة آلاف جنيه مقابل أن أجعل الزواج سرا •

ـ مبلغ كبير •

ـ ولكنه عاد وأقترض منه خمسة •

ـ أقترض •• فرغلى يقترض •

ـ كان قد تمكن منى وأرانى كيف يستطيع أن يمحو أسمى من دفاتر الفن وأقترضه

ـ تقصدين أغتصبه •

ـ لك أن تختار من الأسماء ما تشاء •• لا يهم •

ـ وأنفقت الآلاف الأخرى •

ـ اشتريت سيارة •• الموقف مرعب •

ـ أذن •

ـ ليس أمامى الا العمل •

ـ أظن ذلك •

ـ اننا نحن الفنانين حياتنا قصيرة ومستقبلنا فى يد الحظ وحده قد يقبل علينا الجمهور فتــرة ثم ما يلبث أن يزهدنا ، ونحن لانعرف لماذا أقبل ولماذا زهــد • والجمــال والشباب والنضارة فترة قصيرة فاذا اطمأن بنا القلق على دوام الجمــال خلت المرآة تخيفنا فى كل يوم لأن التجعيدة الواحدة فى وجهنا معناها النهاية •• أرأيت لابد أن أعمل فى هذه الفترةالمحدودة برغبة الجمهور وارادتهالمحدودة بشكل مؤكد بتقدم الزمن وانطفاء مصابيح التألق الالهى ماتعمله غيرى أضعافا مضاعفة لأضمن لهــذا الجنين أن يعيش بعــد موتى • فلن يجد أحدا له بعد موتى لم أكن أفكر فى هــذا اعطنى التليفون من فضلك •• لابد أن أبدأ فورا •• الآن •• فورا •

***

وبدأت وبدأت بجنون• ولم يعد يعينها ما يعنى الأخريات أن يكون اسمها بعرض الشاشة وأن يكون وحده عليها بلا مزاحم • ولم يعد يعنيها أطويل دورها أم قصير • ولم ترفض أى برنامج فى الاذاعة • أصبح المال هو هدفها الأول والأخير وربما قال قائل كلهن كذلك • وأنهن كذلك الا أن بعضهن يحببن أن يتظاهرن بالفن وبالفهم للاعماق تلك الكلمة التى يقولها كل من يعمل فى هذا الميدان دون أن يعنيه مدلولها وانما يعنيه أن يستمتع بنطقها • وبعضهن أيضا يحببن أن يبدين أنهن عازفات عن العمل وأن الملل أصابهن من سعة الشهرة •

استغنت اسعاد عن كل هذه المتع من التــدلل وادعاء الزهد فى العمل والتظاهر فى الرغبة عن الشهرة واندفعت كحريق تبحث عن المال •

وفى هذا اللهيب كانت تعرف أن مثيلاتها ينلن المال ايضا من طرق أخرى ولم تكن هذه الطــرق غــريبة عليها ولكنها لم تكن تبذل نفسها لمــال وانما حين يطيب لهــا أن تفعل • أما اليــوم فقد استطاعت أن تذمع هــذه النفس وأصبح المال هو الشيء الوحيد الذى يطيب لها أن تصل اليه وهى تأمل حين يكبر ابنها ألا يســمع عنها مايشين وأحس نديم أن هذا الطريق يجلب عليه خزيا مشهرا أمام الناس فان أحدا لايعرف العــلاقة الحقيقية بينه وبين زوجته الا فرغلى • وحاول أن يحتج فصرخت به •

ــ أنت تعرف حاجتى الى المال •

ــ وسمعتى •

ــ وهل لمثلنا سمعة ؟!

وأطرق خزيان وأنقذه ظهور الجنين معلنا عن قدومه •

اسعاد عفيفة ولكن هالها أن يمر وقت ولا تأتى فيه بمال ولم يطل بها التفكير فان مثيلاتها آيضا يلعبن القمار ولايخسرون فيه أبدا لأن اللاعبين يحبون أن يخسروا لهن مالا ••

ومادام ظهور الجنين قد منعها الحصول على المال من العمل فانه لايستطيع أن يمنعها من الحصــول على المال على موائد القمار •

١٨

مشروع العمر

كان فرغلي قد تعلم في معاملته لمن يمسك برقابهم أن يجعل ضغط يده يتوقف قبل أن يزهق الروح . وكان قد تعلم أنه حين يجعل واحدا منهم ينحني ويعفر رأسه في حمأة الذل ينبغي عليه بعد أن يجعله ينفذ مايريد أن يفتح له بابا يعود عليه بكسب يخفف الذل الذي أصابه ، فاذا لم يضمد جراح الآدمي فيه أتاح لشرة المال أن تجعله يهدأ الى بعض راحة .

ـ مشروع العمر يانديم .

ـ أي مشروع .

ـ وسأجعلك وحدك المسئول عنه .

ـ وحـدى ؟

ـ معى طبعا •

ـ لا أشك فى هذا •

ـ قد يستغرق منك عشر سنوات •

ـ عشر سنوات ؟

ـ بناء جامعة •

ـ جامعة ؟

ـ بأكملها على مساحة خمسمائة فدان •

ـ أين ؟

ـ ستعرف •

ـ ورأسماله ؟

ـ أكثر من مائة مليون جنيه •

ـ والشركة وحدها هى التى ستقوم به •

ـ أنا وأنت ويحيى ابن عمتى •

ـ متى تبدأ ؟

ـ الجامعة رسمت مع يحيى المعامل ومنازل الطلبة ومنازل الأساتذة بل ومنازل السعاة ومرائب السيارات • اثنتا عشرة كلية •

ـ دفعة واحدة ؟

ـ وأنا وأنت المسئولان فقط ومعنا يحيى •

***

وراح المال يتدفق على نديم وأعلن اسـمه على لافتات البناء انه المشرف المسـئول من قبـل الشركة وكان يعرف

الأظافر الحادة التى تنتاش رقبته فكان يعطى فرغلى نصيبه دون أى مناقشة .

ولما كان لابد للشركة آن تكسب علنا ولابد لنـديم آن يكسب لنفسه ولفرغلى سرا فقد كان من الطبيعى آن يكون ذلك على حساب نفقات البناء نفسها . والبناء جماد لايعرف السرقة ولايعرف الغش ولايحسن أيضا اخفـاء السرقة آو الغش .

ولكن يحيى حسين ابن عمة فرغلى والمهندس المسئول عن البناء قد أصبح خبيرا أى خبير فى اخفاء ما لا يستطيع البناء أن يخفيه .

١٩

حتى القمار

لم تجد اسعاد الا موائد القمار لتعوض بها الانحدار الذى أصاب الاقبال عليها • وبدأت تواجه تلك الفترة العصيبة التى تواجهها كل من تعمل فى الفن حين يصبح الفنانون فى سن لايصلحون فيها لأدوار الشباب ولا يصلحون أيضا لأدوار الكبار ، ومرحلة أدوار الكبار هذه ليست مؤكدة فليس كل الممثلين يصلحون لها لأنها تحتاج الى ممثل فنان أو ممثلة فنانة • فقد كان شبابهم يغتفر لهم ولهن سوء التمثيل أما اذا علت بهم أو بهن السن أصبح الفن وحده هو الذى يعتمدون عليه •

ولم تدرك اسعاد أن الاقبال الذى كانت تلاقيه على

موائد القمار يرتبط ارتباطا وثيقا بالاقبال الذى كانت تلاقيه على شاشة السينما • وبدأت تخسر على نفس الموائد التى كانت تكسب عليها دائما • وحين دخل معتز الى المدرسة كانت اسعاد فى حالة انتعاش مالى فراحت تنفق عليه فى غدق •

ولم يكن فى أول حياته يرى فيما ينفق عليه الا أمرا طبيعيا يتفق مع شهرة أمه ومع الغنى الذى تلاقيه •

ولكنه مع الأيام وجد هذا الغدق يتناقص فى حين بدأ هو يختار ملابسه ومأكله ويستحسن الأشياء ويستقبحها وتولاه نوع من العجب ولم يلتفت وأنى له أن يلتفت الى أن أمه لم تعد تعمل الا نادرا • ولم يلتفت وأنى له أن يلتفت ان التليفزيون هذا الأعجوبة الجديدة لم يطلبها فى سنوات الا مرات قليلة تكاد تحصيها أصابع اليدين أو اليد الواحدة • ولكن لم يغب عنه أن أم حسين هى الطباخة ولم يكن فى البيت غير خادم معها صغير ذى مرتب بخس •

***

اكتمل بناء الجامعة وافتتحها المسئولون وتصدر نديم ويحيى الداعين الى حفل الافتتاح مندوبين عن الشركة ولم يظهر فرغلى مطلقا • وبدأت الدراسة وتوافد الطلبة على قاعات الدرس وعلى مساكن الطلبة وعلت الطبول تحيى عصر العلم وعصر الثقافة وعصر الاشتراكية التى تتيح المستقبل المشرق لابناء مصر وأراد مدير الجامعة أن يقدم شكره للشركة التى أنجزت هذا الانجاز العظيم فاختار ممدوح طبيب الشركة ـ ولم يقل ابن عمة رئيسها ـ أستاذا غير متفرغ بكلية الطب وطبيبا للجامعة بجانب عمله بالشركة طبعا •

وكانت عمته قد ماتت كما مات زوجها ولكن بعد أن شهدا مطالع سعوده وشهداه وهو يأخذ بيدى ابنيهما فحنيا له الجبـــاه التى كانت تشـمخ بالابن الطبيب والآخـــر المهندس ٠

الوحيد الذى لم يمت هـو فهيم ٠ ماتت زوجته وكبر أبناؤه وتفرقت بهم الحياة فى كل متجه وهو باق يرقب الحياة فى مصر من مرقبه الخبىء هناك فى القرية ويعرف أنبـاء فرغلى كلها ويعـرف كل مايقف وراءها ولكنـه يصمت ٠ لايدعو لابنه بالفلاح فقد كان يرى فى فلاحـه حتفـه ٠ ولا يدعو عليه فالأب يدرك أن دعاءه الى ابنه يعـرف وهو فى طريقه الى السماء أنه انطلق عن لسان ولم يصدر عن قلب ويعرف الدعاء ان حقيقة طريقة ليست أن يستجاب ٠

واستطاع فرغلى بقوته الخـارقة أن ينسى آباه كمـا استطاع بقوته الأعظم آن ينسى ابنه ومضى طريقه يستذل كل من حـوله حتى لم يعـد اذلالهم يكفيه متخفيا أو معلنا اعلانا غير صريح وانمـا أصـبح يحس أن من الطبيعى أن يذلهم بكل وسائل الاذلال وكل وسائل الاعلان ٠

لم يكن يهمـه أن يسب نـديم ويحيى وممدوح أمام الجميع بل كان يجد أن من الطبيعى أن يحقرهم أعظم تحقير أمام أبنائهم كلما وجدهم آمام أبنائهم ٠

فقد كان من الطبيعى أن يتزوج نديم بعد أشهر قليلة من ميلاد معتز وتطليقه المعلن لأمه ٠

وكان أبناء يحيى وممدوح كبارا وقد وجدوا جميعا الوظائف التى لايصل اليها أمثالهم من أبناء عبيد الحجرات وسادة المجتمع ٠

وكانت نفوس يحيى وممدوح ونديم تفهق آلما وكمدا ولكنها نفوس ارتضت الطريق وهى تعلم من بدايته أن هذا الخزى من معالمه ولكن أكان هذا العلم يكفى لمنع الشعور بالمهانة خاصة حين تصل الى قمتها أو الى حضيضها هم يرون أنفسهم موضع اذلال أمام أبنائهم الذين كانوا يظنون أن آباءهم أعزة كرام . وكانوا كما كان جميع من حول فرغلى يدرون أن اذلال الناس هوايته التى أصبحت حرفته .. وكانوا يصمتون ولكن على أى ألم كانوا يصمتون .

٢٠

الحقيقة

فوجىء معتز وهو فى مطالع الشباب أن المال نضب عند أمه • فهى تحتـال على العيش احتيالا • راحت تبيع الأثاث الفاخر الذى كان يزين كل ركن فى شقتها الفاخرة المتسعة وتستبدله بأثاث حديث فيه ذوق لايعينه مال كبقية الجمال التى تخلفت على وجه آمه ولكن الأثاث الفاخر يزينه القدم ، والجمال الآدمى الدارس يشينه الزمن • وحاولت آمه ان تدعى آن هذا الأثاث الذى تبيعه لم يعـد يناسب ذوق العصر فكانت فى دفاعها عن البيع مثلها فى دفاعها عن فنها الذى مله الناس وتدعى هى أنها تواجه حربا خفية من عدو مجهول وأن المنتجين والمخرجين يريدون العاهرات ولايريدون الفنانات •

وجديد على معتز أيضا أن أمه أصبحت تؤجر شقتهم للعرب في الصيف وتقيم معه ثلاثة أشهر الأجازة في الاسكندرية بشقتها هناك وتقول في بساطة أليس هذا خيرا من أن تبقى خالية • ولا يحاول معتز أن يذكرها برأيها العنيف عن هؤلاء الذين يؤجرون مساكنهم ويقبلون أن ينام قوم لايعرفونهم في فرشهم • لقد أحس الفتى ومالنا لانقول أدرك أن أمه تعاني أزمة مالية وأدرك أن هذا الايجار السنوي يوشك أن يكون موردهم الوحيد •

واستمرت به سنوات الدراسة وهو على هذه الحال محاولا أن يخفف عن أمه ماتلاقيه مدعيا أن مايحدث أمامه أمر طبيعي لا غرابة فيه ، وتحس الأم بهذا الحنان من ابنها وتعجب من أين جاء به • لقد كبر وهو يعلم أن أباه نديم الطوبجي طلق أمه بعد ميلاده بعام أو أقل وأنه تزوج من أخرى وأنه يكتب ثروته الباذخة باسماء أبنائه مباشرة حتى لاينال هو شيئا •

وتفكر اسعاد كيف لمعتز ان يكون بكل هذا الحنان • بل كيف لم يفكر أن يرى أباه وكيف لم يفكر أن يلجأ اليه يطالبه بحقه فهو لايعلم أبا لنفسه الا نديم وهو لاشك قد عرف أن لكل ابن على أبيه حقا • كيف استكبر أن يلجأ اليه أو يقترح على أمه أن تطالبه • من أين أتى بهذا الكبر وهو ابن لهذه الخسة العظمى التي يمثلها أو ينشئها لأول مرة على أرض البشر أبو معتز الحقيقي فرغلي •

سبحانه هو الذي يسوي النفوس كما يشاء • وقد عاش معتز فترة طويلة من حياته في هناء مالي وفي ظل وريف من حنان أمه • ترى هل تكونت نفسه في هذه الفترة وهو بعد صبي يشب عن الطوق • أم ترى رأى في حنان أمه مايعوضه

عن أى شىء قد تهفو نفسه اليه . ام ترى ليس لهذا الخلق من سبب الا أن الله الرحيم فى علياء سمائه رأى أن يجعل من هذا الابن نفحة رضاء الى قلب الأم تعوضها عن مجد ضائع وجمال زال وحياة تحطمت وهى بعد فى البداية .

كانت اسعاد تشكر فى نفسها دائما هذه الرقة من ولدها وكانت كلما رآته يمد عينيه الى شىء يتمتع به غيره من الشباب ويقصر بها حالها أن تستجيب له تحس فى قبوله واقع أمرهما يدا قاسية تعتصر قلبها اعتصارا . وسبحانه بارىء النفوس فقد جعل القلب يخفق فى عنف عند الحنان مثلما يخفق فى عنف عند القسوة . يخفق من رضا كما يخفق من غضب . وقد كان هدوء معتز وصبره أشد على أمه وقعا لو أن معتز قابل فقرها بالسخط والغضب والاستنكار والتنكر . عاشت شباب ابنها الباكر وهى تعلم أن أشياء كثيرة تنقصه ولكنه لايبين عنها . فكثير من اخوانه يملكون سيارات ومن حقه أن يطمع فى أن يكون مثلهم .. ولم لا وأمه على هذه الشهرة وأبوه الذى يعرف أنه أبوه على هذا الغنى .. وقبل أن تؤجر شقتها أول مرة ألح الى هذه الرغبة ثم لم يعد اليها منذ بدأت أمه تأجير سكنها .

وهى تعلم أن ملابسه أقل كثيرا من أبناء اخوته الذين يراهم والذين لم يحاول أن يتعرف بهم بل لقد رفض محاولة أحدهم حين قدم نفسه اليه على أنه أخوه .. لقد أنبأها عن ذلك اليوم .

حين تقدم اليه فتى يكاد يكون فى مثل سنه .

ـ ألا تعرفنى .

وكان يعرفه فقد أخبره كثير من أصدقائه الزملاء عنه

وأشاروا له اليه فقال لهم انهم لايعيشون معا وأنه لايريد أن يعرفه أو يعرف أحدا من بيته فأقصروا منذ ذلك الحين ولم يعودوا اليها • ولكنه لم يكن يتصور أن يواجه أخاه هـذه المواجهة •• أتعرفنى •• أنعم فيه النظر وارتج عليه بعض الحين ثم قال :

ـ لا أظن •

ـ أنا سعد نديم الطوبجى •

ـ تشرفنا •

ـ ماهذا •• ألم تدرك أننى أخوك ؟

ـ من قال لك أننى أخوك •

ـ شهادة ميلادى وأبى •• أبوك •

ـ أبوك وحدك •

ـ ولكن أنا ماذنبى ؟

ـ ياسعد اننى آسف لموقفك وأسفى لموقفى أنا أكثر فقد قسوت عليك دون أن أشرح لك معنى كلمـة آخ التى أفهمها أنا وكلمة أب التى أعرفها والتى يجب أن تكون •

ـ أنا لم أقصد سوءا •

ـ وهذا مايجعلنى أشرح لك • ليست الاخوة وحدة فى آب وانما هى معايشة تنبت من الحياة لا من الاسم • وربما كنت فتى طيبا فيك ود وصفاء لكنى أنا أرفض الاخوة منك تلك الاخوة التى لا أخوة فيها الا انتسابى الى آب فى ظلم أبيك •• عن اذنك •

لقد سمعت اسعاد هذا الحديث كله وحفظته وتألمت له انواعا من الألم شتى فالكلام حـق ولكنه موجـه الى رجـل

لايستحقه بل هو لايستحق من معتز الا كل اجلال فحسبه أنه أعطاه اسمه حتى ولو كان قد أعطاه هذا الاسم وهو مضطر غير مختار ·

سمعت الحديث ولم تستطع أن تقول له الحقيقة فهى أبشع بكثير مما يظن أن نديم قد فعل ·

كانت الحقائق المختفية وشعور معتز بالفقر وهو يظن أنه جدير بالغنى واحساسه بالظلم لتنكر أبيه له وقصورها أن تجيب رغباته ورضاؤه بهذا القصور منها كان هذا جميعا يحمل قلبها أكثر مما يطيق قلب الانسان أن يحمل ، ولهذا لم يكن غريبا أن تصاب بنوبة قلبية حادة · ولم يكن غريبا أيضا أن يلازمها معتز بجانب سريرها شهرين كاملين · ومن يدرى ربما كان هذا البقاء سببا فى تفوقه فى هذا العام وان كان المؤكد أنه كان من الأسباب التى أبقت على حياة أمه ·

٢١

الجامعة تتكلم

كان حفلا سياسيا هاما فى الجامعة الجديدة وكانت قاعة الاحتفالات الكبرى التى تتسع لأربعة آلاف طالب وطالبة مليئة بالطلبة . فقد حشدت القوى السياسية ما استطاعت أن تحشد من الشهود فكلما كثر عدد المشاهدين تأكد لدى الجهات العليا حرص القوى السياسية بالجامعة على مناصرة العهد وتأييده .

وبدأ الخطباء الحفل وقصد القائمون بتنظيم الحفل ألا يفتتح القرآن الكريم حفلهم واكتفوا بآيات من الميثاق تغطى القاعة كلها . وكانت الأوامر أن يدوى التصفيق فى مواطن معينة وأن يبلغ مداه كلما ذكر اسم بذاته واستجاب

الطلبة للأوامر وما لهم لايفعلون وقد لقنتهم الحيـاة التى نشأوا فيها أن مصر لم توجد الا فى هـذا العهد وأنهـا لن توجد الا فى هـذا العهد وكاد أن يصبح من الثابت لديهم أنهم يشهدون عصر بعث جديد لدين جديد ونبى جديد ٠

واذا كانت عقول الطلبة قد اضطرت أن تصـدق هذا أو توشك أن تصدقه فان أبنية الجامعة ليس يعنيها من هذا جميعه شيء وانما يعنيها فقط أن تكون مقامة على الأسس العلمية الصحيحة ٠ فلا ينتقص احد من موادها الأساسـية مهما يكن هذا الشيء قد تمثل فى مـزيد من المال لفـرغلى ونديم ويحيى ٠

وأبنية الجـامعة تسـتطيع أن تتكلم واذا فعلت كان حديثها أحداثا مروعة تفتك بالأرواح والآمال وبالمستقبل وبأعمدة الحياة وقد شاءت قاعة الاحتفالات الكبرى بالجامعة أن تتحدث فى هـذا الوقت بالذات ٠ وربمـا كانت آيات الميثاق قد أثقلت جدرانها ٠ أو ربما كان الاسم العـريض الذى يتردد فى كل جملة شديد الوقع عـلى الأبنية ٠ ومن يدرى ربما كان التصفيق الذى ينطلق من آيد بريئة تنفيذا لأوامر غير بريئة قد جعل البناء يختار هذا الوقت بالذات ليتكلم أو ربما أراد البناء أن يقول كلمة فيسمعها العـالم أجمع ويصبح تكتم الأمر مستحيلا ٠ فقد كانت كل الأحداث الكبرى التى لاتشهدها جموع تنكتم أنبـاؤها كالموت الذى تصنعه ٠

سبب من هذه الأسباب أو كل هـذه الأسباب اجتمعت فاذا البناء الضخم ينهار على الشباب اليافع المخضـل بمـاء الحياة وان كانت حياة كلها غش وكذب وخديعة ـ وأضاليل هم من غشها وكذبها وخداعها وضلالها أبرياء بل هم ضحاياها

ولابد للتضحية أن تبلغ منتهاها فبلغت · ولابد للشهيد الحى الذى يحيا حياة واهمة صنعها له الأفاقون أن يصبح شهيدا فى كتاب الله ليحتسبه ربك ذو الجلال الصادق الوعد مع الصديقين ومع شهداء الحق على مدى الزمان ·

لم يكن الامر مجـرد مقتلة لآلاف من الأبنـاء والبنات وانما كان مقتلة لكل الشعارات المرفوعةعلى فراغ واللافتات المقامة على الهواء ·

وبدأت الاتهامات وبدأ كل مسـئول ينفى التهمة عن نفسه · واستطاع فرغلى في جـرأة عـريضة أن يقول انه رئيس مجلس ادارة · ومن كان فى مثـل مكانه لايسـأل عن التفاصيل وانما هو أناط نديم المدير العـام ويحيى كبير المهندسين بالشركة أن يقوما بتنفيذ البناء · ولم يكن عجيبا أن يكون صديق العمر وابن العمة هما أول حطب يلقى الى حريق الآلام الذى ثار عن الحادث فما عينهما فرغلى الا ليكونا حطبا اذا احتاج الى حطب ·

ومن يستطيع أن يكذبه وهو يتهم ابن عمته الذى لايجهل أحدا صلة الرحم بينهما وصديق العمر الذى لايجهل أحدا صلة الأيام الطويلة التى تجمعهما ·

وبدأ التحقيق · وويل لبعض الناس من هذا التحقيق لقد رأى نديم الموت الذى صنعه والذى لم يتصور أن ينتج عما فعل فقد عاش حياته كلها مع فرغلى واستطاع أن يرغم بقوة فرغلى الأيام أن تسـتر مايصنعان فما لهـا اليوم قد صنعت به ماصنعت · وكيف يلقى به فرغلى الى أتون العدالة وفجيعة الآباء والأمهات والأحباب وسخط الرأى العـام فى هذه السهولة وفى هذا اليسر · لم يكن ذلك غريبا على فرغلى

ولم تكن دهشة نديم لتبلغ مداها هذا الذى بلغته لو لم يكن يعرف مايعرف من أسرار فرغلى التى يستطيع آن يذيعها فى حماية المحكمة ولو لم يكن يعرف أن فرغلى يقــدر جسامة ما فى جوف نديم من أسرار عنــه · ونسى نديم الأهبل أن فرغلى يستطيع أن يجعل نديم يقــول مايشــاء وفى نفس الوقت لايسمعه أحد · نسى نديم الأهبل الأحابيل العديدة التى يمسك بها فرغلى ·

ولكن كلمة نفذت من آسرار فرغلى رغم أنفه الى الحياة فان للسماء طرقها الخاصة التى تجعل بها الحقيقة تفلت الى الحياة ·

٢٢

قـراءة

جلس معتز يقرأ لأمه أنباء التحقيق وفوجئت الأم فى أثنـاء التحقيق بجملة قـرأها معتز وهم أن يعـدوها الى ماوراءها ولكنها استوقفته ٠

ـ أعد ماقرأت ٠

ـ ولكن نديم قال ان لديه كثيرا من الأسرار وانه سيجد نفسه مضـطرا لافشـائها اذا لم يعترف كل مسـئول عن مسئوليته ٠

ورأى معتز الهول على وجه آمه هنيهة ثم تابع القراءة بينما انفصلت هى عما تسمع وفى لحظات أو ربما فى أقل

من لحظات مرت حياتها منذ دخل فيها فرغلي الى هذه اللحظة .
ماذا سيقول نديم .. انه سيذيع سر ابنها لاشك .. والأيام التي قاست وأملها هـذا الذى تحقق وشـقاؤها وعنـاؤها وما قبلته من طغيان فرغلي ، وما فقدته من كرامة ، وماأخفته من سر زواجها بنديم عن فلذة كبدها وكبد فرغلي معا .

أتنفجر القنبلة فى ابنهـا .. فى كيانهـا .. فى كل ماتقدمت به قربانا الى الحياة لتبقى لابنها الكرامة .. فى كل ماتعلقه على ابنها من آمال . لقد حمدت الله آن ابنها لم يشعر يوما بأبوة نديم فهو لم يحس أى أسى لما ألقى عليه من تهم وان كان يعلم أنه يحمل اسمه ولكنه قال لأمـه وربما اشفاقا بها الأرزاق بيد الله وان ضاقت بنـا مصر فان لك أصدقاء فى البلاد العربية ونستطيع أن نسافر معا . لقد هون عليها بل أزال ماشعرت به من خوف عليه يوم أعلن اتهام نديم . أيفجر نديم الأسرار فابنها اذن آول الصرعى بأسرار نديم . ولم تفكر فى قوة فرغلي الخفية وانما فكرت فقط فى فضيحتها المعلنة تنسب ابنا الى غير أبيه وتتزوج من زوج وهى حامل فهى فى زواجهـا الثـانى كانت على ذمة زوجها الأول ومن يصدق أن نديم لم يقربها ولم يمس منها يدا ان الناس تفتعل الفضـائح ان لم تجـدها فكيف وهى أمامها واضحة لايشوب وضوحها غش آو شك .

وما ذنب هذا الفتى .

لحظات اختلطت فيها كل هذه الأهوال فى كيان اسـعاد واختمرت وانفجرت وماتت اسعاد .

لحظات لم يجد فيها معتز الفرصة ليسأل آمه عما بها . وانما أعاد الجملة ورآى الهول على وجهه فراح يتابع القراءة

لعله يعدو بها عما أزعجها ولم يدرك أنه يقرأ لغير سامع الا بعد أن أكمل فقرة بأكملها تنتهى بأنه تم الافراج عن نديم بكفالة مقدارها ألفى جنيه وافراج عن المهندس يحيى بكفالة خمسة آلاف جنيه • ولم يسمع تعليقا • ونظر •• ولم يصدق ثم هو فى ذهول لايعرفه الا الابن فقد امه التى تتمثل حياته كلها فى حياتها • وفى حياتها هى فقط بلا آهل ولا قرابة من قريب كانت أو كانت من بعيد • ظل جامدا •• ثم صاح •• ماما •• ثم علا صياحه ماما •• ثم علا صياحه ••• ماما •

ودخلت أم حسين ومن ورائها صلاح الخادم الذى يعاونها فى البيت • ورأت أم حسين معتزا مرتميـا على ركبتى أمه يصيح بها • وفى ثبات الجبل التفتت الى صلاح •

ـ أذهب أنت الى المطبخ •

٢٣

وقراءة

ودخلت أم صلاح الى الحجرة وفى خبرة من علمتها الحياة أدركت السيدة العجوز أن الحياة تخلت عن اسعاد التى عاشت سنوات طويلة من عمرها وهى تعتبرها كابنتها . لم تكن فى حاجـة الى مايصطنعه الأطبـاء لتعرف .. كانت النظرة كافية .

أمسكت بمعتز ورفعته فأرتفع فى يديها كدمية كانت ملقاه وأقامتها يدان لا تحتاجان الى جهد .

ـ تعال .

وخرجت به من الغرفة وأدخلته حجرته وأغلقت عليه الباب وعادت الى مابقى من اسعاد فريد .

ولم يمر وقت طويل وذهبت أم حسين الى معتز ٠

ـ الوقت أمامك متسع لتبكى ٠

ـ ماما يا دادا ٠٠ ماما ٠

ـ ستبكيها العمر كله ٠

ـ ليس لى غيرها ٠

ـ وأنا أين رحت ؟٠٠ لاتخف أنا معك وأنا شديدة وان كنت عجوزا ٠٠ خذ ٠

ـ ما هذا ؟

ـ أمامك الكثير لتفعله ٠

ـ لا أريد مأتماً ٠

ـ وهل هذا بكيفك ؟

ـ طبعا ٠

ـ انت عبيط ٠٠انها اسعاد فريد انلها أصدقاء ومعجبين وماذا تريدهم أن يقولوا عنا أو عنها ؟ أنا قتلت أو انتحرت ٠٠ ولماذا لا قدر الله لايكون لها مأتم ؟

ـ هل عندنا مال ؟

ـ عندى ان لم يكن عندك وكله من خيرها ٠٠ وعلى كل حال هذه مفاتيحها ٠٠

انظر كم عندك واترك لى أن أتصرف ٠

***

وفتح الدولاب وكان مبلغ ايجـار العام لاينقصـه الا

ماأنفقاه فى المصيف فوجد قرابة الألفى جنيه · وضعها فى جيبه ونادى ·

ــ دادا ·

ولم يجبه أحد فقد كانت أم حسين تقوم بعمل آخر عند التليفون وهم معتز باقفال صندوق النقود ولكنه وجد فيه أوراقا يبين عليها القدم · أمسك بها · لم يكن الكلام فى الأوراق كثيرا ولكنه فوق الكفاية ·· فى دقائق معدودات تكشفت أسرار السنين للفتى اليافع · وانهد فى مكانه · أقدر عليه أن تموت أمه مرتين ويموت معها أبوه الذى يعرف أنه أبوه وينبت له من هذا الوحش المقيت السمعة أبا ·· كل هذا فى ساعة أو أقل من الساعة ·· أهذا معقول ·

ظل ممسكا بالأوراق عيناه الى فراغ وعقله وكيانه فى حريق ·

ودخلت أم حسين ورأته ورأت فى يده الأوراق وأدركت بنت الحياة وأمها كل شىء ·

ــ معتز ·· ليس هذا وقته ·

ــ ولكن القدر أختار هذه اللحظة لأعرف كل شىء عليك أن تقولى للقدر وليس لى ليس هذا وقته ·

ــ أمك مظلومة ·

ــ أذن فكل مافى الورق صحيح ·

ــ صحيح ·

ــ دادا ·

ــ ولكن أقسم لك بابنى الوحيد أو أفقده كما فقدت الآن

أمك وهى فى مكان بنتى · ان أمك أشرف واحدة عرفتها منذ عملت معها ولا أدرى عما قبل ذلك شيئا · وأنا معها الآن لى مايقرب من الثلاثين سنة ·

ـ وهذا الزواج الباطل ·

ـ لم يلمسها ولم تلمسه طول فتـرة الزواج ولا بعده ولا قبله ·

ـ أذن ·

ـ أنك ستودع أمك الآن ولابد أن تودعها وأنت تعرف قيمتها فأنا مضطرة الآن أن أحكى لك كل شىء مع أننا نحتاج الى كل لحظة أتكلم فيها ·

ـ ليس أهم فى الدنيا مما ستقولين ولا حتى دفنها ·

ـ أذن فأسمع ·

***

كانت أم حسين فى الدقائق التى غابتها عن معتز قد كلمت نديم وأخبرته وطلبت منه ألا يجىء وانما يرسل من يسـاعدها · وطبعا لن يعجـز عن نديم ايجـاد كثير من مساعديه وموظفيه ليفعلوا ما يأمر به وان كان موقوفا عن العمل بالشركة ·

فعلاقاته بالموظفين فيها وبآخرين فى خارجها غير محدودة وقد استطاع فى الفترة الطويلة التى عمل بها فى الشركة أن يصطنع لنفسه لا للوظيفة كثيرا من الناس ·

وحين عرف معتـز الحقيقة كلها كان أعـوان نديم قد قدموا وتمت كل الاجراءات ونشر الخبر واهتمت به الجرائد

بطبيعة الحال فنشرته خبرا أما النعى فلم يزد عن توفيت الى رحمته تعالى الفنانة اسعاد فريد أم معتز نديم الطوبجى وستشيع الجنازة الساعة الثانية عشر ظهر اليوم من جامع عمر مكرم حيث تقام ليلة المأتم ٠

***

وفى الجنـازة حرص نديم أن يكون بين من يستقبلون العزاء ٠ فالمتهمون يهتمون كل الاهتمام أن يكونوا فى صدر التجمعات العامة كأنهم يريدون أن يثبتوا للناس أنهم أبرياء فحكم الناس عندهم أهم من حكم القضاء ٠

وكان المشيعون كثيرين من أجل اسعاد نفسها بل أن كثيرا من الناس وقفوا بجـانب المجمع ليروا الى الفنـانين الذين سيأتون ليأدوا واجب العزاء فى زميلتهم ٠

همس نديم لمعتز ٠

ـ أريد أن أراك ٠

ـ وأنا أيضا ٠

ـ متى تحب ؟

ـ فى العزاء ٠

ـ لن نستطيع الكلام فى العزاء ٠

ـ بل لن نستطيع الكلام فى غير العزاء ٠ فأنت مراقب والكلام الذى أريد أن أسمعه أو أقوله لا أريد أن تتبعه صلة لى بك ٠

ـ أذن فأنت ٠٠

ـ عرفت كل شيء ٠٠ فى العـزاء ستكون مراقبا وغير مراقب ٠٠ هذا هو الوقت الوحيد المناسب ٠

***

فى أوائل سنوات الرعب التقى صديقان مع أحدهما أبنه الذى لم يكن يجاوز السنوات الخمس وجلس الصديقان الى مقهى ٠ وتهامسا فى السياسة ثم أراد الصديق أن يحى صديقه فى مداعبة لابنه فقال :

ـ هيه وأنت ما رأيك ٠

فأذا بالطفل الحدث يقول فى خبث شديد المكر :

ـ أنا لا أتكلم فى السياسة ياعم ٠٠ أتريد أن تودى بى فى داهية ٠

وفزع الصديق ثم راح يراقب الجيل ٠٠ لقد أصبح كله هذا الطفل ٠ لقد شب فى سنوات الفزع فى السنوات التى اهتدت فيها الكلاب على أعراض الرجال واعتدت فيها السلطات على اعـراض السـيدات الفضـليات تنكيـلا بأزواجهن أو أبنائهن ٠

جيل كل همه أن يبعد عن نفســه المظنة فهو يصــطنع النفاق أو يمتهن التجسس وخير من فيه صامت ٠ جيل تعلم كيف يهرب دائما حتى لا يصبح من بين الضحايا جيل تدرب فيه الذكاء منذ السنوات الباكرة من حياته ٠ لم يسمع الكلام الا همسا أو هتافا ٠ الهمس مرتعد والهتاف نفاق ٠ جيل رأى الأب فيه أن تحدث فى السياسة الى الأم تحرى أن تكون الأبواب مغلقة والأبناء بمبعدة حتى لايرددوا مايسمعون عن غير قصد ٠

جيل أقام التنظيم الأساسى فيه حفل تكريم لأخت وشت بأخيها أنه ينتقد العهد مجرد انتقاد بلا تآمر .

فى هذا الجيل نبت معتز . فليس عجيبا أن يرسم لنديم وهو من هو سنا وتجربة وحيلة أين يكون الكلام وكيف يكون .

***

وفى العزاء حرص نديم أن يجلس الى جانب معتز .

ــ طبعا أبلغك سعد عن الحديث الذى دار بيننا .

ــ أقسم لك بحياة أبنائى أن صلتى بوالدتك .

ــ عرفت كل شىء . وأشكرك . وأعتذر لك ولسعد .

ــ شكرا .

ــ وسيأتى الوقت لآتى عندك وأعتذر لسعد بنفسى .

ــ ولماذا لا تأتى منذ الغد . أنا مستعد أن تجعل الكذبة حقيقة ، وما دمت قد عرفت كل شىء فما المانع أن تجعلنى أباك الروحى . أنا والمرحومة والدتك يجمعنا مجرم واحد . والمصائب كما يقول الشاعر يجمعن المصابين .

ــ أنا أعجب لك .. ولاشك أن لك زملاء كثيرين يمسك هذا الوحش برقابهم . أتتركون رقابكم هكذا بين يديه .

ــ ومن أدراك أننا ساكتون .

ــ ما أراه .

ــ انتظر .

ثم كأنما صحا وتلفت حوله .

ــ اياك أن تعيد هذا الكلام .

ـ أنا صغير حقا ولكن السنة من عمر جيلى بعشر سنوات من جيلكم وكل الأجيال التى سبقتكم ٠

ـ ولماذا تريد ألا تظهر بجانبى وأنا أمام الناس أبوك٠

ـ انت أبى ولكنى لم أقترب منك طول حياة والدتى وطول الفترة التى كنت فيها قويا فلو اقتربت الآن سأصبح تحت المراقبة ٠

ـ وماذا تخشى من المراقبة ٠

ـ هذا سرى ٠٠ دم أمى لن يذهب هدرا ٠

ـ اياك أن تكرر هذا الكلام ٠

ـ أنا لم أقله الا لمن أعرف أنه لن يجرؤ على تكراره ٠

ـ من ؟

ـ أنت ٠

ـ فقط ؟

ـ فقط ٠

ـ وأم حسين ؟

ـ وهل أنا عبيط ٠

ـ أسكت ٠

ـ ساكت ٠

٢٤

خيوط السماء

حين ملك فرغلى رقاب كثير من الناس وأصبح يتصرف فى مصائرهم ماشاء له هواه وما شاءت له مصالحه عجب أن تخرج الطبيعة عن ملكه وتتمرد بقوانينها على مشيئته ورغباته • ولم يتصور أن ينهار بناء الجامعة دون أمر منه وقد عاش عمره لايفصح عما يعتمل بنفسه ولكن نفسه أيضا دون أن يدرى جزء من الطبيعة وهى أيضا دون أن يدرى تخضع لقوانينها • ولذلك عجب هو وليس فى الأمر عجيب حين أصابه نوع من الدوار وأحس برأسه تكاد تنفجر وعرف فجأة أنه فى تكوين أعضائه انسان ككل انسان يجرى على جسمه مايجرى على جسوم النــاس وقد كان يظن أنه

يستطيع أن يصنع جسمه كما يشاء هواه وكما صـنع خلقه وكما يصنع مصائر الذين حوله ٠

وكان ممدوح ابن عمته حريصا منـذ حادثة الجامعة واتهام أخيه أن يزوره كل يوم مخافة أن يظن به أنه غاضب لأخيه وكان حريصا ألا يذكر ماحدث كل الحرص ، فهو يعلم أن فرغلي يملك من أمره مايستطيع به أن يقضى عليه وفرغلي يعلم ذلك أيضـا فلم يجـد فى زيارة ممدوح اليـومية له مايدهشه بل انه كان سيدهش لو فعل ممدوح غير ذلك ٠

واسـتطاع ممدوح بخبرة الطبيب العجـوز أن يدرك مايحـاول فـرغلي أن يخفيه من المرض ولكنه لم يجـرؤ أن يفاتحه مادام هو لم يشأ أن يذكر شيئا ٠

قليلا ماصمت فرغلي فقد طلب الى ممدوح أن يأتى له بالدكتور أحمد الفقى الباطنى الشـهير ٠ واتفق الطبيبان سريعا على أن فرغلي يعانى من الضغط العالى ٠ وعجب فرغلي أن ضغطا يفـرض عليه الآن حتى ولو كان هـذا الضغط من شرايينه هو ٠ وفكر لحظة كيف بدأت حياته بالضغط عليه من جوانب الحياة من أمه ومن أبيه ومن قريته ومن المجتمع ٠ كان الضغط عليه من الخارج ٠ وحين تصور أنه استطاع أن يتخلص من هذا الضغط الى الأبد وأصبح هو يفرضه على الحياة من حوله وأفاه الضغط من داخله من كيانه من جسمه الذى تمرد عليه كما تمرد بناء الجامعة وكما تمردت قوانين الطبيعة ٠

وفرض المرض عليه نظاما خاصا فى الطعام ٠ فأصبح وحده فى البيت لايأكل الا الطعام المسلوق الخالى من الملح ٠ واضطر فرغلي أن يخضع بعد أن نسى الخضوع سنوات طويلة

من حياته · وكان ممدوح بكل مافى نفسه من ذعر ومن كره يشرف بنفسه على الطعام ·

***

ربما كان نديم مبعدا عن الشركة · ولكن كثيرين فى هذه الشركة مرتبطون به ارتباطا عضويا · متعلق مصيرهم بمصيره · بعضهم يعرفهم فرغلى وقد أبعدهم ولكن الأكثرية منهم لم يكن يعرفهم · وقد ظلوا يعملون فى الشركة جزءا من كل شرايينها الظاهرة القوية ومن كل شعيراتها الصغيرة المستخفية وقد كان هؤلاء أخطر وأكثر حرية من الكبار فى تصرفاتهم وفى تحركاتهم ·· ماذا كانوا يصنعون ·· ولا أحد يدرى لقد كان صغر شأنهم يتيح لهم الدخول والخروج الى البوفيه حيث تعد القهوة فى الفنجان الخاص بفرغلى ·· ماذا كانوا يصنعون ؟ لا أحد يدرى ·

***

قال معتز :

ــ دادا ·· أين فهمى عبد الموجود وحسنين كرم ؟

ــ موجودان ·

ــ أين ؟

ــ ان فهمى يعمل طباخا عند فرغلى ·

ــ أين ؟

ــ عند فرغلى ·

ــ أمتأكدة ؟

ـ يا ابني انه يزورني دائما .. هو وحسنين لم ينقطعا عنا الا بعد الطلاق الأول بضعة أشهر كانا فيها بالحجاز فقد عينهما فرغلي هناك ولكنهما عادا لمصر وعادا الينا يزوران البيت ويطمئنان على المرحومة . أيام مرضها كانا يأتيان كل يوم ليطمئنا عليها كانا يحبانها حبا لا مزيد عليه . لو رأيت حسنين يوم وفاتها لتهيأ لك أنه أخ يبكي أخته الوحيدة .

ـ ولماذا عينه فرغلي عنده بعد أن عاد من الحجاز والحكاية انتهت .

ـ أولا كان يحب أكله وليطمئن على سكوته .

ـ ألم يكن عنده طباخ ؟

ـ العقبى لآمالك . كان عنده ولكن عين فهمي ليطبخ له العشاء . فهو يحب الأكل زي عينه ولايستطيع أن يأكل في الظهر كما يريد لأنه مضطر أن يشتغل بعد الظهر فالأكلة المهمة عنده في العشاء . بعيد عنك حين كان يتعشى عندنا كأنما هو وحش يأكل آخر زاده .

ـ وحسنين ؟

ـ عينه في قصر العيني .

ـ اشمعنى .

ـ حسنين طول عمره عينه فارغة ويحب الفلوس وكان له صاحب يعمل في أجزخانة قصر العيني وكانت مكاسبه كبيرة وكان حسنين يتمنى دائما أن يعمل معه .

ـ في الأجزخانة ؟

ـ في الأجزخانة .

ـ هل أستطيع أن القاهما ؟

ـ عندما تحب ·

ـ من بكرة ان أمكن ·

ـ أنا لا أروح لأحـد منهما ولكن الأسبوع لايمر الا ويزورنى واحد منهما أو الاثنان ·

ـ عظيم ·· قلت ·· حسنين يحب الفلوس ·

ـ أكثر من الحياة ·

ـ وفى الأجزخانة ؟

ـ فى الأجزخانة ·

ـ وفهمى ·· ماذا يحب ؟

ـ الصـلاة والصيام وزيارة أهل البيت ·· مجذوب تقريبا ·

***

وقال معتز :

ـ انظر ياعم فهمى ·

ـ يابك هذه امضائى ·

ـ وانظر فى هذه ·

ـ عقد الزواج ·· أعرفه ·

ـ قارن بين التاريخين ·

ـ وأعرف هذا أيضا ·

ـ وكيف لقيت الله فى بيته ووقفت عند شباك نبيه ·

ـ الا من تاب ·

ــ الحج توبة ؟

ــ سبحانه هو الذى يقول الا من تاب وآمن ٠

ــ أكمل الآية ٠

ــ وعمل عملا صالحا ٠

ــ أعملت عملا صالحا ؟

ــ لم أرتكب بعدها جرما ٠ وكنت مضطرا ٠

ــ أعملت عملا صالحا ياعم فهمى ٠ أنت لم تكن مضطرا ٠

ــ فهمت قصدك ياسى معتز ٠

ــ لايكفى أن تفهمه ٠ حسنين أحضر لى هذه ٠

ــ ربنا يعمل مافيه الخير ٠

ــ وعمل عملا صالحا ياعم فهمى ٠

ــ نعم ٠٠ وعمل عملا صالحا ٠

***

لم يكن بالمنزل أحد عندما مات فرغلى الا أهل البيت والدكتور ممدوح الذى نظر فيمن حوله ٠٠ سكتة قلبية ٠٠ هاتوا الدكتـــور أحمد ٠٠ هاتوا دكاترة البلد كلهـــا ٠٠ هاتوا ٠٠

جاء الدكتور أحمد ونظر فى عينى الميت وصمت ونظر الى الدكتور ممدوح ونظـــر اليه الدكتـــور ممدوح جامد الوجه ثم قال فى قطع حاسم ٠

ــ سكتة قلبية يادكتور ٠٠ سكتة قلبية ٠

وصمت الدكتور أحمد وخرج من الغرفة وخرج معه الدكتور ممدوح وأرسلا فى طلب طبيب الصحة المسئول عن الحى وحين وجد الدكتور أحمد سأله :

ـ هل كشفت يادكتور ؟

ـ نعم ·

ـ سبب الوفاة ·

ـ سكتة قلبية ·

وكتب طبيب الصحة اذن الدفن دون أن يكشف وماكان له أن يكشف مادام الدكتور أحمد الفقى أستاذه والطبيب الساطع الشهرة يقول ذلك ·

(انتهت)

طائر في العنق

طائر في العنق

١

هذه هي المرة الأولى التي أمسك فيهـا بالقـلم وأنا لا أدرى الى أين سأرمي به ولا الى أين سيرمي هو بي ٠٠ أهي رواية طويلة ٠٠ أهي قصـة قصيرة ٠٠ أهي شيء بين هذه وتلك أم هي شيء جديد بالنسبة لي أنا ـ ولك أن تسألني وما لك لاتفعل ـ ولماذا لاتصبر على قلمك وتنتظر حتى تعرف الى أي الوديان أنت متخذ سمتك ، ومستقبل وجهتك ٠ ولي على سؤالك اجابة ٠

لقد خرجنا من فترة سياسية قلبت الموازين الاجتماعية كلها ، وانقلب معها ما استـقر عليه مألوف النـاس ، وما تعارفوا عليه في مضطرب حياتهم ٠

وقد وقف بنا هذا الاضطراب على أبواب حياة جديدة اصبحنا نرى فيها ماتعتبره بعض الأجيال عجبا وماتعتبره أجيال آخرون أمرا طبيعيا لا يدعو الى دهشة أو تعجب ٠

وقد شاء لى تزاحم الحياة حولى أن أرى الكثير ٠ وشاء لى قدرى أن أكون من أهل الرواية والقصة ٠ فليس عجيبا اذن أمرى اذا أنا أمسكت بالقلم ورحت أفكر به فيما رأيته حولى من زحمة الحياة ، وليس عجيبا من أمرى ولا من أمرك أن أقدم اليك ما انتهى اليه حديثى الى قلمى أو حديث قلمى الى ٠ قد يكون بعض الناس قد شاهد ما شاهدت وسيجد هؤلاء أن ما خبره من الحياة لم ينفرد وحده بخبره ٠ وقد يكون بعض آخرون قد سمع ولم يختبر ونقل اليه الأمر ولم يره ، أو قد يكون بعض ثالث بمعزل عن مضطرب الحياة وزحمتها فلا هو رأى ما رأيت ولا هو حتى سمع عنه ٠

وأيا ما يكون الأمر فقراءة الشيء غير مشاهدته وغير الاستماع اليه لأن القارىء حين يقرؤه يجده نابضا بنبض الكاتب ورؤيته ٠ فلست حكاء أروى لك الخبر دون أن أنفذ الى العميق العميق من أغواره ثم أنا ألف حوله وأدور فأرى ما يحيط به من كل جانب فأنت لن تقرأ حديثا هامدا لا حياة فيه ولا حركة ٠ فليست القصة أو الرواية مجرد مجموعة من الأحداث أو من ملامح الشخصيات أو تطور التآلف بين الحدث والشخص ، وانما القصة أو الرواية هى رؤية فنان وهى حياة كامله ولعلها الحياة الوحيدة فى الحياة التى نعرف سرها فسر الحياة لا يعلمه الا الله ٠

وما أنا بسبيلى الى تقديمه اليك الآن لا أدرى — كما قلت لك — كيف أنا سائر به أو كيف سيسير هو بى فهذا الذى

كتبه لم أضع خطوطه العريضة وانما أنا مسلم أمرى الى
كرياتى و تفكيرى وقلمى وهذه الذكريات فيها كثير تهادى
لى من افواه ناس عن ناس وأنا أعرف الحاكى والمحكى عنه ·
هذه الذكريات فيها ما عرفته عن مشاهدة أو معرفته من
شاركة ويتمازج هذا جميعه فى نفسى وعلى سن قلمى فاذا
نا لا ادرى كيف يمكن أن تؤدى البداية فيه الى النهاية ·

٢

عادل صديقى الذى أعرفه متمسك بالأخلاق الرفيعة تمسكا لا يقبل معه التنازل عن شىء من صغائر الامور . ولكنه أمام مشكلة عمه واقف كالحجر لا يستطيع أن يحقق ما تقاضيه به المثل ولا يستطيع أن يسكت ، أو أن نفسه تأبى عليه الهدوء أو قبول السكوت منه . وأقصى ما أستطاع أن يبلغه من نفسه ومن جهده أن يدعى الجهل بكل مايقال حول عمه .

وهو يدرك أنه بذلك الذى صنعه انما يخادع نفسه فى حين تأبى نفسه أن تنخدع فهو واياها فى صراع أى صراع ولكن مالنا نبدأ بالحديث عنه ولا نبدأ بالحديث عن عمه هذا .

هو من مواليد السنوات الأولى من هذا القرن ٠ وهو الأخ الأصغر لوالد صديقى الحائر ٠ وأخوه يكبره بسنوات ليست قليلة وقد مات عنهما أبوهما فواز الوسيمى والأخ الأكبر حلمى فى مدرسة الحقوق فلم تكن فى ذلك الحين تحمل اسم الكلية فما كانت الجامعة قد نشأت بعد ٠ ٠

وكان الأخ الأصغر حنفى متجمدا فى الابتدائية لايريد عنها حولا ولا منصرفا ٠

وكان التعليم فى ذلك الحين قد بدأ يأخذ مكانه الرفيع من الحياة المصرية ، وكان حرص حنفى على البقاء فى الشهادة الابتدائية ينغص على أخيه حياته فهو ينظر فى هلع كلما استشرف المستقبل له ورآه فيه ضائعا كهباءة لا معنى لها ولا وجود ولا ثقل ٠

وكان الأخ الأكبر شأن جيله جميعا من المشتغلين بالقضية الوطنية الا أنه أبى أن يقف موقف المعلق أو السائر حيث تسير الجموع فقد كان صاحب قلم وصاحب مواهب خطابية فأمره بين جيله متفرد تفرد صاحب الموهبة بين عامة الناس ٠

وقد كانت القضية المصرية تمثل عند حلمى الحياة جميعا فهو ملهوب العاطفة كاره للانجليز ولكل شىء ينتمى اليهم ٠ وقد كانت المدارس الثانوية فى ذلك الحين والتى كانت تسمى التجهيزية فيها قسم يدرس علومه جميعا باللغة الانجليزية وآخر يدرس علومه باللغة الفرنسية ٠ فاختار هو الدراسة باللغة الفرنسية امعانا منه فى كره الانجليز على الرغم من الحاح اخوانه الذين كانوا يريدونه أن يدرس الانجليزية ليعرف لغة أعدائه فقد يحتاج الى مجادلتهم ٠ وكان

جواب حلمى القاطع : عليهم هم أن يكلمونى بلغتى فان لم فليتكلموا بالفرنسية أما أنا فلن أجعلهم يرغموننى على تعلم لغتهم • وحين نال حلمى شهادة التجهيزية كان يتقن اللسان الفرنسى اتقــانا نادرا فقد كان ذا موهبة فى اللغة وأحب الفرنســية فكان الى جانب العلوم التى يتعلمها بالفرنســية كالجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء والحساب يقرأ فى الأدب الفرنسى بنهم شديد •

وهكذا كان الأمر ميسورا بالنسبة اليه فى الرجوع الى المراجع الفرنسية كما كان ميسورا له تلقى المحاضرات عن الاساتذة الفرنسيين ، ولم يكن عددهم قليلا فى هذه الأيام • وعلى أية حال فقد أحس حلمى نفسه سعيدا كل سعادة انه استطاع فى تعليمه أن يقاطع الانجليز والانجليزية مقاطعة تامة وحين تخرج حلمى لم يصبح له عمل الا حرب الانجليز حيثما هيأت له الفرصة حربا وان لم تهيئها اصطنعها هــو اصطناعا •

كان حلمى مشغولا فى الحياة العامة بحــرب الانجليز ومشغولا فى حياته الخاصة بحرب الجهل الفاضح الذى يرزح فيه أخوه الذى يرفض كل الرفض أن يمسك كتابا أو يفكر فى امتحان أو مستقبل يعتمد على علم •

بــدأ حلمى عمله فى وزارة الداخلية وأصر حفنى أن يتمسك بوظيفته التى يحبهــا ولايفــكر فى تركها • طالب بالشهادة الابتدائية • وبلغ حفنى مشارف الشباب وأصبح فى البواكير الأولى من الحياة • وكان طــويل القــامة جميل القسمات بصورة لايستطيع الانسان أن يتجاهلها • وهب الله له حب النــاس ويسر الصـــداقات فكل الذين زاملوه وكل أصدقائهم الذين عرفوهم به أحبوه حبا شديدا • وقد كان

يستطيع أن يجعل كل شخص منهم يعتقد أنه صديقه الأوحد أو الأول على الأقل . وكان كل أصدقائه يثقون بهذه الفكرة ثقة لاتقبل المناقشة أو التفكير . وهكذا أصبح لحفنى أصدقاء فى المدارس التجهيزية طبعا ومع السنين أصبح أغلب أصدقائه فى المدارس العليا ومن باب أولى كان له أصدقاء كثيرون فى المدرسة الحربية ومدرسة البوليس . ولعل هؤلاء كانوا أشد اصدقائه قربا اليه فما كان يذهب الى هاتين المدرستين الا الذين يريدون أن يتعجلوا الخروج الى الحياة فهم فى هذا مع حفنى على وفاق أى وفاق .

فما كانت هاتان المدرستان تحتمان أن يكون الملتحق بهما من حملة البكالوريا .

وياطالما ألح حلمى على حفنى أن ينال الابتدائية لعله يستطيع أن يلتحق بواحدة من هاتين المدرستين .. ولكن من أين . انه يستطيع أن يصادق أى انسان أو أى شىء الا أن يصادق الكتاب حتى وان كانت صداقة مغرضة منافقة تتقطع أواصرها اذا نال منها بغيته : عداوة موهوبة ومكتسبة ، وهكذا اصبح من الطبيعى أن يكون له أصدقاء فى المدرسة الحربية أو فى مدرسة البوليس ولكنه لم يستطع أبدا أن يخطو الى داخل واحدة منها تلميذا منتظما .

لم يستطع عمل حلمى فى وزارة الداخلية أن يجعله معتولا بعض الشىء فى كرهه للانجليز . فكان يكتب مقالات بتوقيع مستعار «مصرى صميم» فى الصحف اليومية ، وكانت السلطات البريطانية تحاول التعرف على صاحب هذا التوقيع فتصاب بالفشل الشديد فقد كان رؤساء التحرير يدعون دائما أن المقالات تأتى اليهم فى البريد وأنهم ينشرونها دون أن يعرفوا اسم صاحبها . وكانوا يعلمون طبعا أن العقاب نازل

بهم لنشرهم هذه المقالات ولكنهم كانوا يشعرون بالسعادة وهم يستقبلون هذا العقاب ·

واستطاع حلمي عن طريق وظيفته ومقالاته أن يتعرف على رؤساء تحرير هذه الصحف · وكان حفني قد كف عن محاولته في الحصول على الابتدائية فلم يجد حلمي بدا آخر الأمر من أن يرجو صديقه فاين وهبي رئيس تحرير مجلة الفن أن يعين حفني عنده ناقدا فنيا · فالنقد لايحتاج الى مؤهل وحفني يستطيع أن يتعرف على العاملين في المسرح وغير المسرح من ملاهي الليل ·

ولم يكن حلمي يعلم أن حفني وطيد الصلة فعلا بالممثلين والمخرجين ، فقد كانت الحياة التي تجمع حلمي وحفني في بيت واحد تباعد بينهما بعد ذلك في كل شيء ، فحلمي لايعرف عن حفني الا أنه موظف بوزارة الداخلية وحفني لايعرف عن حلمي الا أنه خائب ·

وحين تجمع بينهما المائدة فحديث مقتضب ، فكل منهما يحيا حياة غير التي يحياها الآخر فان لم يكن هناك خبر ذو شأن في السياسة أو جديد يقال عن الأرض التي يملكانها والتي يشرف عليها حلمي لايكون بينهما حديث على مائدة الغداء وهي المائدة الوحيدة التي يمكن أن تجمع بينهما في وجبات اليوم ·

على أن مائدة الغداء هذه نفسها قليلا ماكانت تجمع بينهما فكثيرا ماكان يتغدى كلاهما خارج البيت أو يتغدى أحدهما على الأقل في الخارج مع صديق له ·

وعلى مائدة الغداء قال حلمي :

ـ حفني تستطيع أن تذهب غدا الى الأستاذ فاين وهبي ·

ـ صاحب مجلة الفن ؟

ـ أتعرفه •

ـ أعرف المجلة •

ـ من أين تعرفها ؟!

ـ أكان لابد أن أحصل على الابتدائية حتى أعرف مجلة الفن :

ـ كنت أحسب أن ليس لك صلة بأى قراءة •

ـ ولا حتى مجلة الفن •

ـ حسنا •• هل تستطيع أن تكتب شيئا عن المسارح والغناء والتمثيل وما الى ذلك •

ـ طبعا •• أنا لى أصدقاء كثيرون بينهم •

ـ كيف ؟

ـ طول المعاشرة للمدرسة جعل لى أصدقاء فى كل مكان •

ـ حتى بين أهل الفن •

ـ خصوصا بين أهل الفن •

ـ لك حق فكلهم ••

ـ لاتكمل •• أعرف ماستقول •

ـ أنت تعرف أنى أقدر الفنون •

ـ ولكن هذا لن يمنعك أن تقول أن كلهم خائب مثلى •

ـ أنا لم أقل •

ـ قلت ولكنك لم تنطق •

ـ ياخسارة ياحفنى •

ـ نعم لك حق •

ـ وفهمت هذه أيضا ٠

ـ ان لم أفهم أخى الذى فى مكان أبى فمن أفهم ٠

ـ لو كنت أكملت تعليمك لاخترقت كل الصفوف لتصبح النابغة الأول فى أى ميدان تختاره ٠

ـ وهل يدرى أحد ياسى حلمى أين يكمن نجاحه ٠

ـ لك حق ٠٠ فعلا لك حق ٠٠ ان شـاء الله توفق فى عملك الجديد ٠

ـ بفضلك ٠٠ ان شاء الله ٠

ولعلك قرأت كلمة ياسى حلمى وأنت بين مصدق ومكذب فما هكذا ينادى الأخ أخـاه الأكبر فان حـرفى سى اللذين يمثلان اختصارا لكلمة سيدى لم يعودا يتخذان نفس القيمة فى زمانى وزمانك الا فى بعض البلاد العربية غير مصر ٠ ولكن هذين الحرفين فى ذلك الزمان كانا عنوان احترام شديد وتوقير ٠٠ وكان الأخ الأصغر ينادى بهما الأخ الأكبر اذا كان فارق السن بعيدا كما كان أى شاب فى أسرة ينادى من هم أكبر منه بأسمائهم مسبوقة بهـذين الحـرفين ٠ ومادمت قد أخذت نفسى أن أقص عليك ماكان من شأن هـذين الأخوين فحتم على أن أقص أيضا مايعرض له الحديث من عادات العصر الذى نشأ فيه ٠ فان لم أفعـل وجـدت نفسك متعجبا حينا ورافضا أيضا وأنا حـريص أن أمنع عنك التعجب وأشـد حرصا ألا ترفض ٠

***

وبدأ حفنى مستقبلا جديدا كأنما الوسط الفنى لم يخلق الا ليعيش فيه حفنى ، أو كأن حفنى لم يخلق الا ليعيش فى هذا الوسط ٠

انداح فيه كأنه مولود على خشبة مسرح . وحاول بعض المخرجين أن يستغل جمال وجهه ولكن انعدام الموهبة تماما عنده وربما أيضا خشيته من آخيه كانت حائلا بينه وبين أن يكون ممثلا . فقد يقبل حلمى أن ينقد أخوه الفن ولكنه لايسمح أبدا أن يصبح آخوه فنانا .

لم يكن المسرح فى ذلك الحين هو ذلك الفن الرفيع الذى نعرفه اليوم .. ولم يكن مستقلا كل الاستقلال عن مواخير الليل وكباريهات الرقص وبائمات الجنس .

وهكذا راح حفنى يتنقل بين أولئك النسوة فى زهو الشباب .. وعلى موائد المواخير عرف حفنى مصر كلها . كبراءها وشبابها .. عظماءها والمتسلقين حول عظمائها .. وعرف الناس من كل النحل والمهن .. عرف الأطباء والمحامين والكتاب والمهندسين وكبار الموظفين وصغارهم وضباط البوليس وضباط الجيش وما أكثر ضباط الجيش الذين عرفهم هناك .

وعرف أيضا . . عرف القمار .

وعلى هذه المائدة يجتمع عالم آخر غير عالم الناس .. وتعيش بجانب الحياة حياة أخرى .

وعرف الزجاجة ولم يحبها ولكنه كان يشرب ليجارى الجلسة .

وفى جلسة من هذه الجلسات سأله صديق جديد لم يكن رآه قبل ذلك اليوم :

ــ اسمك حفني الوسيمى ؟

ــ نعم .

ـ ترى هل لك صلة بالأستاذ حلمى الوسيمى ٠

ـ أخى ٠

ـ غير معقول ٠

ـ لماذا ؟

ـ لا ٠٠ لاشىء ٠

ـ ألأنه جاد ٠

ـ ماذا تقصد بجاد ؟

ـ يعنى ٠٠ ليس مثلى ٠

ـ على كل حال ليست دهشتى لهذا ٠

ـ فلماذا ؟

ـ لأنه صديق قريب لى جدا وكثيرا مانذهب الى المسارح وكثيرا مانجلس معا فى بار اللواء وفى صولت ٠

ـ فلماذا لم تأت به الى هنا ؟

ـ الى هنا ٠٠ مستحيل الظاهر أنك لاتعرف أخاك ٠

ـ هو فى مكان أبى ولكن المؤكد أن الذى أعرفه عنه أكثر مما يعرفه الآخرون حتى ولو كانوا أصدقاءه ٠

ـ الحقيقة أننى لم أعرف أن له أخا الا الآن ٠٠ هل أنت متأكد أنك أخوه ٠

ـ أنا متأكد أن والدتى مثل أعلى فى الشرف ٠

وضحك الجميع وخجل محاوره بعض الشىء وغمغم

ـ أنا آسف ٠٠ العفو ٠٠ طبعا أنا لا ٠٠ المهم ٠٠ المهم أن هناك حقيقة عن أخيك المؤكد أنك لاتعرفها ٠

ـ الحقيقة أن سعادتك أكثرت من الشرب وجعلتنا نشغل الاخوان بما لايعنيهم ·

ـ الحقيقة أننى أريـد أن أعلن عن بطـولة أخيك التى لاتعرفها ·

ـ هل أنت مصمم ·

ـ هل تقرأ وهل تقرأون المقالات الموقعة باسم مصرى صميم ··

واختلطت أصوات التأييد وأصوات الاعجاب ·

ـ أتعرفون من يكتبها ؟

وتضافرت «لا» على الشفاه ·· ونظر الصديق السكران الى حفنى ··

ـ أتعرف أنت ؟

ـ ومن أين أعرف ؟

ـ ألم أقل لك أنك لاتعرف شـيئا عن أخيك ·· حلمى الوسيمى هو مصرى صميم ··

***

قبض على حلمى وألقى به فى السجن وفتش بيته فى القاهرة وفى قريته الرمايحة ·

ولكن الغـريب أن الاحتـلال لم يكن يلقى النـاس فى السجون دون أن يوجـه لهم تهمـة معينة أو يعنى على الأقل بتلفيق تهمة بذاتها يستر بها وجهه أمام العالم ·

وهكذا لم يكن غريبا ألا يطول المقام بحلمى فى السجن·

ولكنه حين خرج وجد نفسه مترددا فى مواصلة العمل بوزارة الداخلية ولكن السلطات المحتلة كانت على قدر من الذكاء فلم تشأ أن تفصله ليصبح بطلا قوميا ولم تشأ أيضا أن تنقله من الداخلية حتى يظل تحت عينها • وكان يعلم أن بقاءه تحت عيونهم سيقف حائلا بينه وبين نشاطه الآخر الذى كان أكثر خطورة من المقالات •

ولم يشـأ حلمى أن يستقيل ليظل قـريبا من الادارة المصرية •• ترك بضعة أيام تمر ثم ذهب الى مقهى الكلوب المصرى حيث تصعب المراقبة وتحـرى ألا يجلس مع شخص واحد بمفرده بل عمد الى جماعة كان بينهم صفوت الأشمونى الذى يريد أن يكلمه • ولم يطلب الى صفوت أن ينتحى به جانبا وانما جلس الى جواره بين الجالسين وراح ينظر الى النرد الذى يتحلق حوله الآخرون • وقال صفوت :

ـ أرسلنا اليك لتبتعد عنا فترة •

ـ لم يأت لى أحد •

ـ يحسن أن تبتعد •

ـ سأسافر الى الرمايحة فترة •

ـ خيرا تفعل •

ـ سأحضر أول اجتماع •

ـ موعدنا كما هو لم يتغير •

ـ وهو كذلك •

***

لم تمنع عنه الأجازة حين طلبها • وذهب الى الرمايحة وراح يكتب المنشورات من هناك • ولم يكن غريبا أن يرى

المرشدون والمخبرون فلاحا يرتدى طاقية معممة يذهب الى الكلوب المصرى · ولم يكن غريبا أيضا أن يجلس بجانب الأفندية وتنتقل المناشير فى ذكاء شديد من عيسى أحد خفراء بلدة الرمايحة الى وحيد زنكى الذى آخذ مكان صفوت فى الكلوب ·

وماهى الا ليلة حتى تكون هذه المنشورات قد طبعت ووزعت فى القطر المصرى كله من آقصاه الى آقصاه موقعا عليها بتوقيع مصر ·· وهل كان يكتبها الا مصر ·

ولكن حفنى كان لاشآن له مطلقا بهذا الذى يصنعه أخوه وانما هو يغمر حياته فى متع كثيرة فلايترك لحظة من حياته لايملؤها المرح والبهجة :

***

انتهت أجازة حلمى وعاد الى القاهرة يشم فى آرجائها عبير ثورة يكاد يراها ويوشك يهتف بها ولا يطول به الانتظار ·

يخترق يوم ١٣ نوفمبر حجب الغيب ، وآستار التوقع ، وسدل الحدس والتخمين ويتم ذلك اللقاء الذى بدآت به مصر حياتها السياسية فى العصر الحديث ·

ومثل ريح عاصفة ، طيبة ، عاتية ولكن حنون ، مزمجرة ولكنها موسيقى التاريخ ·· يصبح سعد وفهمى وشعراوى أنشودة أمل وبداية حياة لمصر وللعالم العربى ثم لكل الدول التى لاتغيب عنها شمس الامبراطورية الكريهة ·

وتتواكب الأحداث ويقبض على عمالقة الثورة فيسيرون الى المنفى وكأنهم الى الاحتفال باستقلال مصر يسيرون :

وتصبح مصر نارا مثل نار الحقيقة التى ألقى اليها ابراهيم عليه الصلاة والسلام ٠٠ ولكن النار الحديثة كانت تقتل المحتل مع ذلك حين هى على الوطنيين برد وسلام ٠ كما أمرها الله أن تكون على أبى الأنبيـــاء ٠٠ ثم هى تنقلهم من فانية الى باقية ومن أسماء لا قيمة لها على صفحات الحياة الى خلود يظل أبد الدهر والى مابعد الأبد مضيئا على جباه الحرية ٠

وفى مدرسة الحقوق يضرب الطلبة عن تلقى العلوم ويخرج اليهم عميد الكلية الانجليزى ٠

ــ عليكم أن تنتظموا فى دراستكم وتتركوا السياسة فان آباءكم قد أرسلوكم الى هنا لتتعلموا ٠

ومن بين الصفوف يخرج طالب شامخ الطول مثل مصر ٠ فى صوته ثورة الأحرار ، وحكمة الفلاح ٠

ــ ان آباءنا هم هؤلاء الذين قبضتم عليهم ونحن نؤمن بالقضية التى يبذلون حريتهم فى سبيلها وحياتهم اذا احتاجت القضية الى حياتهم ٠ وهيهات لنا أن ندرس هنـــا الحقوق ٠ وحقوق آبائنا ووطننا مضاعة ٠٠ تحيا الثورة ٠

وتندلع الى بروج الســماء هذه الأيام المجيــدة المطهرة بدماء الشهداء والنابضة بروح جديدة وهبها الله للشعب ٠٠

وكان اسم هذه الروح الجديدة المنورة بضياء السماء هو مصر ٠ وتنعقد الاجتمــاعات السرية وتتخذ القــرارات ٠ ويقسم الشباب نفســه بين خطباء ظاهرين وبين جنــود فى الخفاء يقتلون فيصبح الاحتلال فى مصر على فراش رصاص ومتفجرات ٠

وفى بعض الأحيــان كان المجتمعون يقررون قتل من

يرون أن فى وجوده خطرا على القضية المصرية حتى وان كان مصريا • فليست المصرية مولدا وانما هى عقيدة تنبت مع الولادة وتسمق شجرتها فى النفس حتى تصبح هى النفس كلها • فاذا كانت البذرة خبيثة وماتت فى ركام المنفعة واختنقت فى حمأة الخيانة فصاحبها اذن ليس مصريا •

كان هؤلاء قلة نادرة بل كانوا أقل من القلة النادرة وكان الحكم عليهم فى جمعيات الثورة السرية لابد أن يكون اجماعيا ، لذلك فلم تقتل هذه الجمعيات من المصريين الا فردا أو اثنين •

حاول الانجليز أن يصوبوا سهامهم الى العقائد الدينية، وصاحوا بالعالم انهم يريدون أن يحافظوا على الأقليات باحتلالهم مصر •

وأدرك أقباط مصر الدور المهين الذى يريد الانجليز أن يستعملوهم فيه • فاذا هم ينتفضون مصريين • وحين تنهار حجة القوى يصبح السلاح هو حجته فاذا الدماء المراقة تلقح الثورة بالعنفوان فتزداد على الأيام روعة وشموخا •

وبعد فما أظنك تنتظر منى أن أروى لك أحداث الثورة الكبرى فى مصر فأنت لاشك تعرفها •• وتعرف كيف أصبح الشعب فيها كلا واحدا • واختلط المثقف بالجاهل والقادر بالمعسر والفلاح بصاحب الأرض والعامل بصاحب المصنع وسقطت كل الفوارق • فتعانق الصليب والهلال وأصبح كل فرد فى الشعب المصرى لايعرف أن له مصلحة خاصة وانما مصلحة الوطن العامة هى هى ذاتها المصلحة الخاصة عند الجميع •

حلمى فى ثبج الأحداث وفى بؤرة العاصفة • فهو فى

الجمعيات السرية وهو يقوم بدوره الذى يختارونه له فيوما تراه خطيبا فى صحن الأزهر الخالد الشامخ ويوما لا تراه لأنه يلبس الخفاء ويتعقب جماعة من الانجليز يقضى عليهم بالسلاح الذى تتفق الجمعية على استعماله . فالرأى جميع والجميع رأى وعمل .

قلة قليلة وقفت من الأحداث على حوافيها تعلق ولاتشترك فالثورة عندها موضوع حديث لا حياة أمة . والأمة عندها شخص غريب يوحى بالحواديت والأخبار المسلية . فيستوى الأمر عندها أن يكون هذا الشخص مصر ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم أو أى دولة أخرى لا صلة لهم بها ولا سبب كان .

كان حفنى من هؤلاء . فقد كانت أهمية الثورة عنده أن الأحاديث حول مائدة القمار أصبحت أكثر جمالا ورونقا وانفعالا أصبح فيه سحر الحدث لاموات التعليق . الخبر يلقى ليشمل أمة بأسرها وكانت الأخبار قبل ذلك تلقى فلا تكاد تجد سامعا ومن أى سلة كانت تخرج الأخبار قبل الثورة غير سلة التفاهة . فهذا زوجته تزور أمها وهذا يريد لابنته عريسا فيوسىء ولايصرح ويشير ولايبوح . وذلك يريد لابنه عروسا فيقول ويرفع صوته . أليس غضنفرا رئبالا أنجب ولدا بحاله ويريد له عروسا . كانت أخبارا تولد موءودة تموت قبل أن تتم خبرا أو تجد تعليقا .

أما اليوم فالخبر أسطورة . والكلمة تاريخ . واللحظة خلود وهم يلعبون القمار ويلتذون فى نفس الوقت بجسامة الأحداث وبهذه الخلجات العالية الضجيج التى يصنعها الخبر العظيم حتى فى نفس هؤلاء الذين يعيشون من الحياة على هامش الحياة .

وتمضى الأيام ويعود سعد ورفاقه من المنفى وتبدأ المفاوضات · وحلمى ورفاقه سائرون الطريق بقوة الثائر وذكاء السياسى · وقد استقر الرأى عندهم أن يكون عملهم هو تأييد المفاوضين بالطريقة التى يراها المفاوضون . وكان عبد الرحمن فهمى فى مصر ذلك الزعيم العملاق الذى رفض أن يتقاضى ثمن الزعامة هتافا واعجابا وانما تقاضاه راحة ضمير وعملا خطيرا خفيا وراء الأستار فى سبيل مصر كان ذلك السياسى الزاهد فى المجد الشخصى والمتعبد فى محراب مجد الوطن هو الصلة بين المفاوضات وبين الجماعة التى يعمل فيها حلمى ·

فالعمل اذن كان متئدا متزنا لا نزق فيه ولا رعونة · وكان أعضاء الجمعية يتزاورون فلم يكن معقولا أن يصطنعوا لأنفسهم مكانا ثابتا يلتقون فيه ·

وقد يزور الصديق منهم صديقه على غير موعد · وقد يزور الغنى منهم فقيرا فلم يكن المال بذى شأن فى علائقهم · فمنهم من كان قادرا على أن يستأجر أكثر من خادم ، ومنهم من لايستطيع أن يستأجر الا خادما واحدا أو خادمة · فقد كان وجود الخادم فى المنزل ضرورة لا غنى عنها · والا فمن يشترى من الأسواق ·

وقد تطهو سيدة المنزل أو ابنتها ولكن لابد أن يصل اليها الطعام الفج ليكون على يديها مطهوا ·

وحين زار حلمى بيت صديقه وزميله فى الدراسة أحمد عبد المتعال لم يكن بالبيت فرج الخادم وكانت الأم مشغولة فى شئون المنزل فلم تجد وصفيه بدا من أن تجيب الطارق فلم تكن الأجراس معروفة فى ذلك الحين · ولم تقل من ؟ وانما ظنت

أن فرج عاد من السوق ففتحت بسرعة وما آن رأت غريبا حتى توارت فى لمحة وراء ضلفة الباب ٠

ــ آفندم

ــ أحمد بك هنا

ــ لا ياافندم

ــ شكرا

ــ نقول له من

ــ حلمى

ــ خاضر

ــ شكرا

كانت اللمحة كافية لأن يرى حلمى وصفيه ٠

٣

ولم لا · وتزوج حلمى من وصــفية وانتقل الى بيت جديد وترك أخاه حفنى فى البيت · وبدأ صـــديقى عــدلى يتشكل فى عالم الغيب ·

وكانت السيدات فى ذلك الحين يسيرات المآخذ قريبات الرضى فبحسب الزوجة أن تجد رجلا يحميها من ضراوة الحياة ويمد قلبها وروحها بدفء الطمأنينة حتى تسلم اليه حياتها كلها وقد كانت حياة الســيدات كلهــا موهــوبة لبيوتهن · فالنجيبات منهن النجيبات من أصابت بعض تعليم فى المنزل الأول سواء كان هذا المنزل بيت أبيها أو بيت أخيها كشأن وصفية التى مات عنها أبوها وهى فى باكر الصــبا وتولى أخوها أحمد أمرها · ولما كان واسع الأفق واسع الآمال حين يفكر فى بلاده فقد كان مؤمنا بتعليم المرأة وهكذا ذهبت

وصفية الى مدرسة السنية وبقيت بها حتى أتقنت القــراءة والكتابة واللغات أيضا ثم أصرت أمها منيرة هانم أن تكتفى من التعليم بما أصابت خشية أن ينصرف عنها الرجال ، أو ذلك ماصرحت به لابنها على الأقل فقبله فى غير اقتناع ، ولو كانت قد ساقت له السبب الحقيقي لرفضه بغير جدال ولو أن الرجال فى هذه الأيام لم يكونوا ليجرءوا أن يرفضوا لأمهاتهم مطلبا مهما يكن حظ الأبناء من التعليم والمكانة ومهما يكن حظ الأمهات من الجهل فقد استطاعت الحياة أن تعلم نفسها لأولئك الجاهلات فهن فى شئون حياتهن وخاصة أمورهن أعلم من العلماء ان فات الرأى السديد هؤلاء العلماء فى هــذه الشئون ٠

كانت منيرة هانم ترى وصفية متفوقة فى الدراسة وقد خشيت ان أمعنت فى هذا التفوق أن تنصرف عن الزواج الى الدراسة فرأت أن تحسم الأمر فى مهده وتقضى عليه قبل أن يستفحل ، واصطنعت هذا السبب الذى اصطنعته لتبقى ابنتها فى البيت ولم يستطع أحمد أن يجادل مكتفيا بأن وصــفية أصبحت تستطيع أن تثقف نفسها اذا شاءت مادامت أصبحت تعرف الكتابة واللغات قراءة وكتابة ٠

***

مر على الزواج شهور والزوج سـعيد بزوجته سـعادة يتوقعها فقد كانت أغلب الزيجات تتم دون أن يرى العريس عروسه أما هو فقد رآها وهو يعــرف البيت الذى نشأت فيه فأبوها رجل من علماء الأزهر الأجلاء وان يكن قد رحل وهى طفلة الا أنه ترك نور ايمانه فى البيت وفى زوجه وفى ابنه أحمد صـــديق حلمى وزميل دراسته منذ هما فى الخـــديوية

الثانوية حتى نالا شهادة الحقوق وعمل حلمى بالداخلية وأحمد بالنيابة العامة · وحين تم هذا الزواج كان أحمد قاضيا ·

ولم يكتمل العام على الزواج فقد سرعان ماقبضت عليه السلطات المحتلة وألقت به الى السجن وذهب أحمد الى أخته ·

ـ تعودين معى الى البيت ·

ـ أترضى لى هذا ؟

ـ ولا أرضى لك أن تعيشى وحيدة ·

ـ كنت تعرف حين زوجتنى أن زوجى قد يقبض عليه فى أى لحظة ·

ـ وكنت تعرفين ·

ـ وقبلت أنا الزواج وقبلته أنت أفاترك البيت حين يحدث ماتوقعه كل منا ·

ـ لو كان مسافرا لجئت معك ، أما وهو فى السجن السياسى فلا ·· أأجعل سجانه يحس ولو للحظة أنه هدم بيته وأن زوجته تخلت عنه ·

ـ ان واجبى قبلك وقبل حلمى يحتم على ألا أتركك وحدك ·

ـ هذا حق ·

ـ اذن ·

ـ تأتى أنت وتقيم معى ·

ـ وأمى ·

ـ سلها ·

***

ـ وأقيم أنا أيضا معكما عند حلمى ٠

والناس اليوم لاتـدرى أية تضـحية كبرى قدمتها الأم الغظيمة منيرة هانم وهى تترك بيتها فترك البيت فى ذلك الحين كان أمرا تقف دونه أهوال جسام ولكن الأم آدركت آن هذا هو وقت التضحية التى تملكها فى سبيل مصر آولا ثم من بعد ٠ من أجل ابنتها وزوجها البطل ٠

٤

خلا حفنى بالأرض فأصبح يشرف على أرضـه وأرض حلمى جميعا وكان القمار قد تغلغل فى دمـه فـراح ينفق الريع كله فى شهر أو شهرين ، ثم يقف عاجزا لايدرى ماذا يصنع • أما أموال أخيـه فقد كان يخشى عليها من نفسه ، وكذلك أعطى أمره للناظر ألا يعطيه مليما من أموال حلمى وانما عليه أن يذهب بها جميعا الى أحمد بك صهر أخيه لينفق منها على البيت ويبقى بقية المال لأخيه •

وهكذا تعرف الناظر الحاج على سعدون على أحمد • وفى أول لقاء لهما •

ــ هذا هو الريع

ــ هل معك ايصال أوقع عليه

ـ والله أعددت الايصال نعم · ولو كان مالى ماأعددت

ـ وانما لا أقبل مليما لاأعطى عليه ايصالا فأنا آمين على هذا المبلغ ولابد أن أؤدى الأمانة الى أهلها ومعها الشواهد ·

ـ ان صهرك يعرف طهارة يدك ·

ـ وأنا أيضا أعرفها ولكن ماذا أقول اذا نسيت أنت أو نسيت أنا قيد مبلغ الايصال أضمن ·

ـ أمرك ·· هذا هو الايصال ·

ـ وهذا هو التوقيع ·

ـ ولكن هذا أمر لا خطر له ·

ـ أوهناك أمر له خطر ؟

ـ كل الخطر ·

ـ خيرا ·

ـ لا خير مطلقا ·

ـ ماذا ؟

ـ حفنى بك ·

ـ ماله ؟

ـ طلب الى أن أبحث عن مشتر لعزبة الزمايلة ·

ـ أكلها من نصيبه ·

ـ له النصف وهو مايريد بيعه ·

ـ وأرض حلمى ·

ـ ملاصقة طبعا لنصيبه ·

ـ كم فدانا هى ؟

ـ مائتا فدان ٠

ـ وبكم الفدان ٠

ـ لن يزيد عن مائة جنيـه ، سينفقها على القمـار فى شهرين أو ثلاثة . واذا استمر الحال على هـذا المنوال فالله أعلم الى أى مصير سينتهى اليه والله أيضا يعلم الى متى سيظل البك محبوسا عند أولاد الكلب هؤلاء ٠

ـ اسمع كم عندك لحلمى بك ؟

ـ هذه عشرة آلاف وعندى محاصيل بحوالى خمسة آلاف ٠

ـ ألا تستطيع تدبير الخمسة الباقية ٠

ـ لايهم أن أدبرها ٠

ـ كيف ؟

ـ لاعب القمار يرضى بأى مبلغ ٠

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أخسف الثمن واشترى على آجال وحين يخرج حلمى بك من السجن نكون قد اشترينا الأرض كلها بربع ثمنها ٠

ـ افعل ذلك ٠

ـ وحلمى بك ٠

ـ لو استطعت أن ألقاه ـ وهـذا مستحيل ـ لن يقبل ونحن نحافظ على أرض أبيه فى غيابه ولا حيلة لنا الا هـذه لأن الأرض اذا انتقلت الى يد غريبة فلن تعود ٠

ـ نعم الرأى ٠ ولكن مصاريف البيت ٠

ـ أمرها سهل ٠٠ لا شأن لك ٠

ـ وهو كذلك ٠

***

٥

القمار مضمار عجيب من ميادين الحياة · الداخل فيه يدخل الى حياة أخرى بعيدة كل البعد عن حياته وعن مألوف أمر الناس · وما ظنك بقوم يجتمعون حول مائدة واحـدة وكل شخص منهم يحرص أن يخرب بيت الآخـر فى صراحة ووضوح ، فعلى هذه المائدة لا وجود لأى آصرة من قربى وان كانت قربى ابن من أبيه ولا وجـود لأى معنى من معـانى الصداقة أو المودة ، سعار خالص برىء من أى شائبة انسانية ولا يبقى الا المال صاحب الصرخة الوحيدةوالسيطرة المطلقة · وان كان المال قوى البراثن صلب المخالب فى الحيـاة الا أنه فيها يتخفى وراء كلمة طيبة أو يستخذى أمام صلة رحم أو سبب من أسـباب المودة أو عشرة قديمـة الا أنه فى مائدة

القمار يخلع كل الأقنعة ويعلن نفسه حاكما فردا باطشا آخذا لا شريك له ولا هو يقبل أية مراجعة ٠

وعلى هذه المائدة تلتقى أصناف من الناس شتى لكل منهم عالمه الخاص البعيد كل البعد عن عالم الآخرين الجالسين على نفس المائدة العاكفين على المعبود الواحد ٠٠ القمار ٠ تجد السياسى رجل الدولة الذى يوشك أن يكون عالميا وتجد الطبيب العالمى فعلا وتجد المهندس الذى يهز اسمه أوساط الفن الهندسى فى كل أنحاء المعمورة وتجد الضابط ٠ وكثيرا ماتجد الضباط وتجد القواد وتجد المقامر المحترف النصاب ٠ وتجد الجميع يعرف عن الجميع كل شىء ولكن لا شأن لأى منهم بالآخر ٠ متفقون على أن الصلة بينهم هى هذه المائدة ٠ وان كان لأحدهم عند آخر منهم مسألة أو موضوع فلا بأس أن يقضيه له كما يقضى خدمة لشخص يعرفه ٠٠ ولكن العلاقة تظل واضحة ٠٠ علاقة قمار ٠ وأغلب الأمر أن من يقضى هذه المسألة انما يقضيها لأنه يعلم أنه ملاق الشفيع فيها كل يوم ولن يفلت من الحاحه ٠ على أن هذه الخدمات لاتتجاوز فعل الخير الى المنفعة الخاصة فالمصارحة بينهم تتم حين يوزع بينهم ورق الدور الأول فى اجتماعهم ٠ فلايستطيع رفيق المنضدة أن يستغل نفوذ السياسى لأن السياسى سيواجهه فى الحال بما لم يتعود أن يواجه به الآخرين ، وسيقول ان هذا الموضوع ستكسب منه كذا ولست مستعدا أن أخون الأمانة من أجلك أو من أجل أى أحد ٠

فلاعب القمار ليس من الحتم أن يكون لصا وانما قد يكون شريفا غاية الشرف ٠ صحيح أن القمار قد يجرف الشريف الى مهاوى الدنية ولكن هذا المنحرف ضعيف كان مستعدا أن يكون لصا تحت أى ضغط أو أمام أى اغراء ٠ وهأنتذا رأيت حفنى يأبى أن يمس مال أخيه ٠

فالقمار هو هذه المائدة العجيبة التى تجمع الأصـدقاء الألداء والأحبـاب الذين لايمـانع أحد فيهم أن يقتل حبيبه فقرا طبعا بل هو يسعى الى ذلك جاهدا ما وسعه الذكاء والمران والمناورة والمداورة •

كانت مائدة حفنى للقمـار تعمر بكل هـؤلاء الذين ضربت بهم المثل فكان فيها حامد باشا محمد السياسى الداهية الذى تولى منـاصب الوزارة بل انه تولى عـددا وفـيرا من الوزارات ، وهو رجل شريف السمعة لم يقل عنه أحد مايشين وهو ذو عقلية سياسية نادرة وكان يلعب القمار بشىء من التعبد وبكثير من الاخلاص فى اللعب فقد كانت المائدة هى المكان الوحيد الذى ينسى عليه خصوماته السياسية والمؤامرات التى تدبر عليه والتى يدبرها هو وقد كانت أغلب الخصومات حتى ذلك الحين مع الانجليز • وكان معه دائما سياسى آخـر يعمل بالمضاربة فى البورصة فهو حينا منتعش النفس أو هو حينا آخر منتكس الخاطر والقلب ، ترى فى وجهـه تقلبات البورصة شأن المبتدىء الذى لايستطيع أن يخفى مشاعره ، ولهذا لم يكن عجيبا أن يخسر عبد الفتاح صدقى بك دائما على المائدة فقد كان وجهه صفحة مفتوحة للأعين الخبيرة وكان معهم أيضا وجدى المسـيرى الملازم بالجيش فمائدة القمـار لاتعترف بالفوارق فأنت تجـد السـياسى العجوز يجلس الى الضابط الصغير دون أى شعور بفارق المرتبة وكان وجدى فى اللعب مغامرا يبحث عن البطولة فى ورق اللعب بعد أن تعب فى البحث عنها فى أرجاء الحيـاة ودروب الوظيفة • وكان هناك أيضا يسرى الجنـدى اللاعب المحترف • وكان هناك أيضا رشدى المهدى اللاعب المحترف والقواد المحترف أيضا وهو الذى يعـد المائدة ويدعـو اليها ويدبر اللقـاءات بين اللاعبين • وكان هناك طبعا حفنى •

اذا اتفقت المشارب بين اثنين من اللاعبين فلا بأس عليهما أن تقوم بينهما صداقة . وقد كان حفنى بموهبته الخارقة فى صنع الصداقات على صلة وطيـدة بالجميع حتى ليحسب كل لاعب على المنضدة أنه الصديق الأول عند حفنى .

ولكن القمار لا صـديق له فحفنى يخسر عشر ليـال ويكسب ليلة ، واذا كان جميع اللاعبين الذين ذكرتهم والذين لم أذكر يتبادلون أمكنتهم على المائدة فهناك دائما اثنان لايكاد يغيب أحد منهما عن اللعب ، رشدى المهدى وحفنى الوسيمى . أما رشدى المهدى فتلك هى وظيفته فى الحياة ولا وظيفة له غيرها ، وأما حفنى فلأنه لم يكن يجد شيئا يعمله الا اللعب وربما لو وجد متعة أخرى لترك المائدة سعيدا . فهو لايعرف التحمس لشىء حتى ولا للقمار الذى أجمع التاريخ على أن من يصاب به فلا فكاك له منه . ولكن حفنى شىء آخر غـير الناس ، لايخلص لشىء ولايتشبث بأى عادة مما يتعود الناس عليه . دخن بعض الوقت ثم ترك التـدخين وشرب الخمـر ويشربها ولكنه لايشربها الا ليشارك الشاربين ، فهو لايذكر أنه جلس منفردا وطلب كأس خمر واذا مـر به الشـهر أو الشهران لم يجلس الى شاربين لم يشرب هو قطرة واحدة . وهكذا شأنه مع القمار يذهب كل ليلة ليلعب فاذا وجد متعة أخـرى انقطع تماما عن اللعب . هـو لايتمسك بشىء أبدا ولايسمح لشىء أن يتمسك به .. ماذا تراه يفعل اذا تزوج ؟ تلك تجربة ستكون فريدة وعجيبة أيضا .. أيمكن أن يفكر مثله فى الزواج .. من يدرى ؟

وهكذا باع حفنى أرضه كلها وكان مثال المقامر فى بيعه فكل ماكان يفعله أن يوقع حيث يطلب منه الحاج على أن يوقع لايرى الى اسم البائع ولايعنيه أن يرى اليه بحسبه أن يرى

المبالغ معدا فى يد الحاج على حتى يوقع عجلا متسرعا ويطوى الحاج على العقد فى تؤدة وذكاء وخبرة نادرة ويضعه فى جيبه ويقول :

ــ عد معى ياسعادة البيك ٠

ــ ياحاج على ألم تعد أنت ؟

ــ نعم وانما لابد أن تعد أنت أيضا ٠

ــ ياحاج على أنت تعلم كم أثق فيك ٠

ــ ولكن أنا ياسعادة البك لاأثق فى نفسى عد مائة مائتين ٠٠

ويتكرر هذا المشهد فى كل مرة لاينقص كلمة ولايزيد ولايختلف فى مرة عن الأخرى الا فى رقم المبالغ الذى راح يتضاءل يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر ٠

***

دعا رشدى المهدى الى عشاء بمنزله وكان حفنى بين المدعويين وهناك وجد حفنى دنيا جديدة تطالعه من الحياة لأول مرة وهو الذى خبر من هذه الحياة مالم يخبره الا القلة النادرون ٠

الباشاوات هناك وقد خلعوا رتبة الباشوية بل خلعوا رتبة الانسانية وارتدوا حيوانات حمر الوجوه من الرغبة والاثارة ٠ والعظماء بلا عظمة والنساء بلا ملابس والمقامرة بالعرض لا بالمال ٠ وبالشرف لا بالنفوذ ٠ ورشدى منتعش النفس يضحك دائما ويعقد الصفقات بين المرأة والرجل وهو سعيد غاية السعادة هنىء فى قمة الهناءة ٠

ويعجب حفنى أن رشدى لم يفقد شيئا من احترام المجتمع بل ان كل هؤلاء يقدم له الاحترام والتبجيل والاعزاز ولايعنى حفنى بما فى داخل النفوس وانما بحسبه مايراه فى ظاهر الوجـوه وفى الأيدى الممتدة بالمـال من ناحية وبالاجـلال والتعظيم من ناحية أخرى للشخص نفســه الذى يتاجر فى الشرف ، ولم يعرف حفنى أن هذا الذى يتاجر بالشرف لابد أن يتاجر معه بشىء آخر هو الذى يهيىء له كل هذا الاجلال · انه كما يتاجر فى شرفه وشرف النســاء يتاجر فى ســمعة الرجال والعظماء من الرجال · وكلمـا ازداد الرجل عظمة ازداد حرصا على سمعته ولكن أى حرص لايستطيع أن يقف أمام رشدى · يالها من تجارة · يالها من تجارة ·

ماهذا الحب الذى يحظى رشدى به من أصـدقاء له بل ماهذا الاحترام وماهذا الاجلال · انها مهنة تصور حفنى أن يكون رصيدها أى شىء الا الاحترام · قد يجنى العامل فيها مالا أو صداقات أو قدرة على الشـفاعة أما أن ينـال الاحترام أيضا فهذا مالم يتصـور حفنى أن المهنة ترتد على صـاحبها به · لقـد كان لفظها يختلط فى نفسـه بالمهانة والاحتقار وكل ماهو ذليل فى الحياة · فقد عرف محترفيها من أسـفل الطبقات ولم يعـرف من محترفيها فى الطبقات العليا الا رشدى · القواعد فى هذه الطبقات مختلفة والوسائل ليست هى الوسائل والصفقات تعقد دون تصريح والأجور يتم تسلمها دون ابانة ولكن الهدف واحد والغاية لم تتغير · هنا فى هذه الطبقة الأسماء تطلق على مسميات أخرى ، فالفتاة أو المرأة موضوع الصفقة صديقة لا عاهرة والأجـر هـدية وليس أجرا · ولكن الفتاة أو المرأة تذهب الى المخدع على أية حال والهدية تصل واسطة التعارف ولايسمى قوادا ولاتسمى

الهدية أجرا فكل شيء هنا محصن بسياج الشرف وأى عيب أن يحيى صديق صديقا وأى بأس فى هذا المجتمع الساقط أن تحب المرأة رجلا فتقضى ليلة فى مخدعه ، وأى لوم فى أن يقبل شخص فى مثل مكانة رشدى ابن الأكرمين هدية من شخص آخر هو أيضا ابن أكرمين .. منذ هذه السهرة أصبح عبد الفتاح صدقى أكثر الناس تقربا الى حفنى ولم يكن هذا غريبا فقد كانت سنه ومكانته تمنعانه أن يصل الى المرأة عن طريق آخر غير طريق حفنى . وقد رأى عبد الفتاح اقبال النساء على حفنى وحبهن له . وخير له أن يتعرف بالمرأة عن طريق حفنى أخى حلمى وغير القواد من أن يتعرف بها عن طريق رشدى فيصبح الأمر رسميا وان كانت الرسمية متسترة بأسماء بريئة . والظاهر عند عبد الفتاح وأمثاله أهم من الواقع . وحفنى يمثل له الشخص الأمثل ليقدمه الى من يحب فجمال حفنى يقتنص من النساء أشدهن مراسا وأعظمهن فتكا . ومكانة حفنى الاجتماعية وما هو معروف عن غناه وماليس معروفا عن فقره كل هذا يجعل صداقة العظماء به أمرا طبيعيا لا غرابة فيه ، ولو لم يكن لأسرته من المكانة الا اسم أخيه بطل ثورة ١٩ وسجين الانجليز لكان حسبه وحسب أسرته مكانة ورفعة .

وهكذا توطدت العلائق بين عبد الفتاح رجل البورصة الذى يحيط دائما بكل ظروف الصفقة قبل أن يقدم عليها وبين حفنى الذى وجد فيه شخصا غاية فى الذكاء وسرعة الخاطر مع مقدرة فائقة على التمتع بالحياة جدها وهزلها . وأصبح بيت عبد الفتاح مثابة لحفنى ولم يجد عبد الفتاح فى ذلك بأسا فحفنى يصغره بسنوات عديدة ولا خوف على زوجته منه وزوجته سيدة فاضلة شريفة أنجبت بنتيها وانتهى مابينها وبين الأنوثة منذ مجىء آمال البنت الصغرى منذ

مايقرب من خمسة عشر عاما ٠ وكانت البنت الكبرى سناء في السابعة عشرة حين تعرف على الأسرة حفنى ولم يكن حفنى يتعامل مع هذه الأعمار فى مألوف حياته ٠ فلا حرج على عبد الفتاح اذن ٠ أن يستقبل بيته حفنى فى أى وقت ، وقد استطاع حفنى بالموهبة التى منحتها له السماء أن يكون محبوبا من السيدة كريمة المدبولى ومن ابنتيها جميعا سناء وآمال ٠ وقد سعد حفنى بهذه الأسرة فقد كان عمله فى الصباح قليلا فما عليه الا أن يكتب كلمتين ويلقى بهما الى المجلة ثم يصبح فارغا لا هم له الا أن ينام فى القيلولة بضع ساعات يقوم بعدها ليجد الفراغ ينتظره حتى يبدأ السهر المتكاسل الذى يأبى أن يبدأ قبل العاشرة ان يكن قمارا فقمار أو يكن حفلة فحفلة ٠

فماذا هو صانع فى الصباح ٠

وماذا هو صانع بعد نومة القيلولة الى مشارف العاشرة٠

أما بيت أخيه فلم يكن يرحب به كل الترحيب وان كان لايصد عنه فهو يذهب ليقضى واجب الأخوة ثم سريعا ماينصرف الى هواء آخر يحب أن يستنشقه وهو بالتأكيد ليس الهواء الذى فى بيت حلمى ٠

ولم يكن هواء البيت عند عبد الفتاح مشوبا بما يحب أن يستنشق حفنى فى مألوف حياته ٠ ولكنه أيضا كان خاليا من التزمت الذى كان يواجهه فى بيت حلمى وزوجه وأخيها وأمها التى لاتترك سجادة الصلاة اذا تصادف ووجدهما عند زيارته ٠

وحفنى لم يحصل على الأسرة منذ وعى الحياة والأسرة جزء من دمائنا نحن الشرقيين ٠وقد كان حلمى هو أسرة حفنى

جميعا • أما أقاربه الكثيرون فكانوا أصدقاء ولم يعاشرهم وما عاشروه فهو اذن واجد فى بيت عبد الفتاح كل ماتتوق له نفســه من شــعور الأسرة ومن ترحيب فى اللقــاء ومن سماحة فى المعاملة من بين ضحكات منطلقة لايحبسها شىء فى رنينها ، فهى صفاء القلب الخالى والاطمئنان والاقبال على الحياة •

٦

صدر تصريح ٢٨ فبراير وأصبحت البـــلاد تتهيـأ لدستور جـديد وانتخابات برلمانية وأصبح من المضحك أن يبقى الانجليز على معتقلين من المصريين وهم يعترفون لهم فى نفس الوقت بحقهم فى الحياة البرلمانية الديمقراطية ٠

.. وخـرج حلمى دون أن تتم محاكمته فالقضـية سقطت بصدور التصريح ٠

ـ ماذا فعلت بأرضك ياحفنى ؟

ويجيبه صمت واطراق ٠

ـ أجب ٠

ـ لقد عرفت ٠

ـ ولكن أحب أن أسمع الاجابة ٠ فلست وحـدى الذى

سيسألك هذا السؤال · ستسمعه من أقاربنا جميعا وستسمعه من أصدقائك الذين يحترمونك اليـوم ظانين أنك صاحب الضياع والأرض والمال ·· ستسمعه دائما · فماذا أنت قائل · أجب ·· ماذا أنت قائل ؟

ـ أنا لم أمس من مالك مليما ·

ـ ومتى كان لى مال ولك مال ·

ـ احتجت للنقود ·

ـ فالبيع أقرب شىء اليك ·

ـ لم تكن بجانبى ماذا كنت أفعل ؟

ـ بسيطة تبيع الأرض · أقدرت أننى سأموت فى السجن، ألم تنتظر أن تقف منى هذا الموقف ؟

ـ كنت فى حال يائسة ··

ـ توقف عن القمار ·

ـ كنت خسرت كثيرا وأريد أن أعوض ·

ـ وتدور العجلة فتخسر كل شىء ·

ـ لم أقدر هذا ·

ـ لأنك لاتقدر شيئا على الاطـلاق · أنت ابن لحظتك وليكن بعد ذلك مايكون ·

ـ أرجوك ياسى حلمى كفى ·

ـ ألم تقل لنفسك كفى وأنت تبيع كل هذه الأرض ·· أظننتها أرضك ؟

ـ أليست أرضى ؟

ـ انها أمانة فى أعناقنا ولها أصحاب ·

ـ أمانة ٠٠ أصحاب ٠٠ من أصحابها ٠

ـ أصحابها أولادنا ٠

ـ قد يبيعونها هم من يدرى ٠

ـ نؤدى نحن أمانتنا والباقى نتركه على الله ، فالأرض كلها ملكه ومانحن الا خلائف له عليها ٠

ـ ماذا ؟

ـ أنا آسف ٠٠ كان يجب آن آقدر آن هذا الحديث لايلقى اليك ٠

ـ أكافر أنا ؟

ـ لا ٠ مقامر فقط ٠

ـ سأتوقف ٠

ـ أرجو ٠٠ كم بقى معك من ثمن الأرض ؟

ـ ماذا ؟

ـ لاشك أنك سمعتنى ٠

ـ وماذا تريد من الباقى ؟

ـ أريده ٠

ـ أنت ٠

ـ نعم أنا ٠

ـ أنا لا أعصى لك أمرا ٠

ـ أعرف ذلك ٠

ـ خمسة آلاف جنيه ٠

ـ هاتها ٠

ـ أمرك ٠

وخرج حفنى ذاهلا وابتسم السياسى المحترف حلمى وهو يرى الدهشة على كل نأمة جسمه حتى على قفاه الذى كان آخر ما اختفى من الباب ٠

بقى حلمى لحظات وحده ٠٠ لم يفقد كل الخير الذى فيه ٠٠ قلت هات قال حاضر ٠٠ وهو حتى لايعلم لماذا الا أننى أريد فقط ٠

ويدخل أحمد الحجرة ويصيح به حلمى :

ـ أهلا أحمد باشا ٠

ـ باشا مرة واحدة ٠

ـ الباشاوية مضمونة لك ياسعادة القاضى ٠٠ كل القضاة يصبحون مستشارين فباشاوات ٠٠

ـ وأين أنا من مستشار هذه ٠

ـ أنت عينت فى النيابة منذ تخرجك ورقيت الى القضاء وأنت صغير فان لم تصبح أنت مستشارا فمن يكون ٠ المهم أنا لا أعرف كيف أشكرك على ماصنعت مع وصفية ومع حفنى ٠٠ أما فضل السيدة العظيمة والدتك فهو أكبر من أن يذكر ٠

أما عجيبة ياأخى ٠ أولا من وصفية هذه أليست أختى وهل أشكر لأنى أؤدى واجبى نحو أختى وثانيا حفنى أنا صنعت ماصنعته معه لأننى تصورت أنك لو كنت خارج السجن لما فكر هو فيما أقدم عليه ٠ وأن لك علينا واجبا أكبر من واجب الصهر على أصهاره ٠

ـ أى واجب ياسعادة الباشا ٠

ـ واجب الوطنى على مواطنيه • أتسجن من أجل مصر ولانقدم كل مانملك لك • ألسنا بشرا مصريين •

ـ خطبة وطنية رائعة •

ـ تنفعك فى الانتخابات •

ـ لا ياعم •• لاشأن لك أنت بالانتخابات فأنت رجل قضاء •

ـ من سيرشح أمامك ؟

ـ اثنان حتى الآن أعتقد أن أحدهما سيتنازل •

ـ والآخر •

ـ مرشح الوفد •

ـ ولماذا لاتنضم الى الوفد • أنت من مؤسسى لجان الشباب فيه • وكنت من أعظم أبطال منظماته السرية •

ـ العمل فى السياسة عندى ليس تجارة أدفع مقدما لأربح مؤخرا • أنا عملت مع الوفد لأنه كان مصر كلها وكنت واحدا من الذين يستطيعون أن يقدموا شيئا لوطنهم •

ـ وقد قدمت بتلمك ولسانك ومالك وحريتك •

ولكنى لم أعد معجبا بسياسة الوفد التى ينتهجها فقد أصبحت سياسة شخصية بعد أن كانت قومية •

ـ ولكنه قوة خطيرة فى الانتخابات •

ـ هـذا صحيح ولكنى حتى اذا لم أنجح فان هـذا لن يجعلنى أغير رأيى فى سياسة الوفد الآن • المهم هناك موضوع أحب أن أكلمك فيه •

ـ انتظر حتى أفتح باب المرافعة •

ـ وهل حجزت القضية للحكم ٠

ـ وماذا أعمل لك وأنت تستأذنني فى الكلام ٠٠ نحن اخوة ياحلمى ٠

ـ وأكثر والحمد لله ٠ حين راجعت الحسابات وجدت أنك أعطيت كل الريع لحفنى ثمنا لأرضه ومعنى هذا آن مصاريف البيت كنت تقوم بها أنت ٠٠

ـ وماله ٠٠ بيتى ٠

ـ وبيتى أيضا ٠

ـ كنت فى السجن ٠

ـ ولكن آرضى لم تكن فى السجن معى ٠

ـ أرضك ريعها ذهب لحاجة أهم ٠

ـ ليس أهم من المعيشة ٠

ـ قمت أنا بها ماذا فى هذا ٠

ـ لاشىء ولكن قدر ظروفى ٠

ـ حين تقدر أنت ظروفى ٠

ـ ظروفك ؟

ـ أيرضيك أن أحس أنا وأمى أننا انتقلنا الى بيتك لنعيش على حسابك ٠

ـ وأنت هل يرضيك أن آتزوج آختك ونعيش على حسابكم ٠

ـ كان ظرفا استثنائيا ٠

ـ لو لم يصنع حفنى ماصنع ماذا كنت ستفعل ٠

ـ كنت سأعطى آختى ماتحتاجه يدها من مالك وأنفق

أنا على البيت الذى أصبحت رجله حتى يخرج رجله من السجن الشريف ·

ـ هذا ظلم ·

ـ هذه كلمة يقولها الناس فى مألوف حياتهم ولاتعنى شيئا ولكنها اذا قيلت لقاض فهى كبيرة ·

ـ والقاضى يكون فى بعض الأحيان ظالما لنفسه ولابد أن يجد من يواجهه بهذا مادام بعيدا عن منصة القضاء · أنت فى هذا ظالم ·

ـ ظلما أحبه ·

ـ وهذا أظلم ·

ـ لمن ؟

ـ لى أنا ·

ـ وما شأنك أنت ·

ـ لايقـع الظـلم الا على مظلوم · وأنت لايرضيك أن تظلمنى ·

ـ لقد طال الحوار فى أمر لايحتاجه ·

ـ وهذا ظلم آخر · فان المظلوم وحده هو الذى يعرف أين ينتهى الدفاع ·

ـ اسمع أنت خريج حقوق معى فقل ماتراه ·

ـ أدفع ماكنت أدفعه فى البيت وأنا فيه ·

ـ اسمع · لقد فوضت المحكمة الأمر اليك فكن عادلا واخصم ثلثه مقـابل غيبتك فقـد كنت تعيش على حساب الحكومة فى السجن ·

ـ موافق ٠

ـ وأنا موافق وأمرى الى الله ولو أن الأمر لايستأهل كل هذا ٠٠

ـ ان راحة النفس لايماثلها شيء فى العالم ٠

ـ أعرف ذلك ٠

ـ وأعرف أنك تعرفه ٠

٧

حين خرج حفنى من حجرة أخيه أحس دوارا لا قبل له به . كأنما كان يواجه تنينا وأنقذ منه ، أى شيء فيه أخافه . هو أنيس لاينطق كلمة جارحة ولايأتى بعمل عنيف .. ولكنه مع ذلك قوى صلب أى شيء فيه اخافة . ربما لأنه دائما على حق وأننى دائما أفعل مايحلو لى بغير اهتمام بالحق أو بالباطل . هو يضحى بعمره من أجل وطنه وأنا أتمتع بحيـاتى أقصى ماتكون المتعة . أنهل رحيق كل ساعة فيها وتسرى لحظاتها فى دمائى نشوة وسرورا وجذلا وفرحا . أيحس هو فى جهاده بما أحس أنا به فى متعتى . الحياة عندى ضحكة والحياة عنـده جهاد . أينا عرف سرها وبلغ مكامن الحقيقة فيها . هو يعطى دماءه لبلده جميعا وأنا أعطى دمائى لنفسى . ربما شعر هو بمتعة العطاء قدر ما أشعر أنا بمتعة الأخذ .

هو يعتصر الحياة ليقـدم للبشرية مثـلا رفيعا مختلطا بتضحيته بكل مايمتعه وأنا أعتصر الحياة لتعطينى أكثر مما تطيق أن تعطيه فأنهله أنا ·· أنا ·· أنهله متعة وحبا للنساء كل النساء ولرشفة خمر أشربها فى غير رضاء عنها وانمـا لأنها تمثل رحيق عدم المبالاة بالحياة متجسما فى شراب ولعب القمار لأن الحياة قمار وأنا أريد أن أمارسها وأعيشها وأذلها بألا أعنى بكل ماتخبئه لى فان يكن خيرا فأهلا وان يكن شرا فأنا عنه لاه وعن نتائجه مشيح غير آبه ولا مهتم ومنه آنا غير خائف ولا متوجس ولا متحسب لخفايا الغد فيها · هو يفكر فى الغد وما بعد الغد وأنا ابن لحظتى وأبوها وربها وقاتلها قبل أن تقتلنى · فأينا عرف حقيقة الحيـاة وأينا بها أكثر خبرا ولخبثها أكثر درءا ومنعا · وأينا أذل الحياة واغتصب منها مايريد أن يغتصب ·

حين سألنى كم بقى قلت خمسة آلاف فصـدقنى · هل صدقنى أم أراد أن يصـدقنى انه ذكى يقبل الكذب الذى يلقى اليه مادام يعرف أنه لن يستطيع أن يصل الى الحقيقة · فيم يريد هذا المبلغ · لعل الانتخابات ونفقاتها جعلته يحتاج الى هذا المال · ان كان الأمر كذلك فيسـعدنى أن أقدم له العون · فرغم أن كلا منا يقف على طرفين متناقضين من الحياة الا أننى أقـدره كل التقدير · أترانى أقـدره أم أقدر فيه الرجل الذى تمنيت أن أكونه ولم أستطع · ترى هل مرت به لحظة ولو لحظـة عابرة تمنى أن يكوننى ولم يسـتطع · من يدرى ·· ربما ··

مشى به الطريق والضجيج فى داخله وليس يشعر من خارج نفسه ضجيجا ولا حسا واذا هو يجد نفسه فجأة بين

رأسى حصانين ويعلو الضجيج في هذه المرة من خارجه لا من داخله ·

ــ ياافندى اصح · مسطول فى عز الظهر ·

ــ احفظ أدبك ·

ــ أدق لك الجرس من الصبح وأنت ولا آنت هنا ·

ــ قلت لك احفظ أدبك ياقليل الأدب ·

وحينئذ يقفز من داخل العربة ضابط ملازم ثان ويثور به ·

ــ أما انك بارد حقا وقح · تسير فى منتصف الشارع ولايهمك من العربات الرائحة والجائية واذا أنقذ الأسطى حياتك تطول لسانك عليه ·

ــ أتظن أنك تخيفنى ببذلتك العيرة هذه ·

ــ عيرة ياقليل الأدب ·

ــ بذلة المحمل ·

ــ محمل ·· قدامى على القسم ·

ــ أخفتنى ·· قدامك على القسم ·

وكان أسرع منه فى ركوب العربة فقد تنبه آنه ينبغى أن يحسم الموقف قبل أن تتشابك الأيدى ويتجمع النـاس · وصادف هذ االتفكير مثيله عند الملازم شوقى سالم · وحاول السائق أن ينهى الموضوع ·

ــ ياأفندية لا لزوم لهذا ·· حضراتكم ناس محترمون والقسم ليس لأمثالكم ·

وصاح الملازم فى كبر وغيظ ·

ـ امش أنت الى القسم ولا شـأن لك . لابد أن يدفع ثمن طول لسانه .

ـ اياك أن تزيد كلمة واحدة . فى القسم قدم شكواك ولكن حتى نصل الى القسم تسكت تماما .

ـ وهو كذلك . أما نشوف ..

ولم يجـد السائق بدا من الصمت فقـد أدرك بذكائه الفطرى أن أى حديث قد يشعل حريقا لاداعى له .

وقفت العربة عند القسم ونزل الخصمان وطبعا قصد الملازم الى حجرة المأمـور مبـاشرة ودخل حفنى وراءه واذا الجالس فى مكان المأمور مـلازم ثان من الشرطة لم يعـرف ضابط الجيش ولكنه ما ان رأى حفنى حتى هب من كرسيه .

ـ من حفنى الوسيمى ؟

وصاح حفنى :

ـ أهلا .. كيف أنت يازين .

وصاح شوقى :

ـ أتعرفه .

والتفت زين أخيرا الى شوقى :

ـ أهلا حضرة الضابط تفضل .. كيف أنت ياحفنى .

وحين هدأت التحايا قال شوقى فى غيظ موجها كلامه لحفنى :

ـ ولأنك تعرف ضباط البوليس تريد أن تأخذ الدنيا فى وشك .

وقال حفنى فى ثقة وعدم مبالاة :

ـ أنت الآن فى القسم ٠٠ اكتب شكواك واترك الأمر للبوليس يأخذ اجراءاته ٠

ـ وهل بقى فيها اجراءات ٠٠ طلعت صاحب البوليس ٠

وقال زين وهو يكتم غيظه :

ـ ياحضرة الضابط لا لزوم لهذا ومعرفتى بحفنى بك لن تمنعنى من اعطائك حقك ان كنت صاحب حق ٠

ـ وهل عاد فيها حق ٠

ـ سترى ٠

ـ وهو كذلك ٠

وروى القصة وما أن انتهى منها حتى ضحك زين ٠

ـ ألا تعرف حفنى بك ٠

ـ عرفته بين رأسى الفرسين ٠

ـ حفنى بك الوسيمى ٠

ونظر شوقى الى حفنى نظرة متفرسة ٠

ـ أأنت الذى تكتب فى مجلة الفن ٠

وقهقه زين أخيرا وقد أحس أن الحرج الذى وقع فيه قد انجاب عنه الى غير رجعة ٠

ـ هو الذى يكتب فى مجلة الفن وآخوه حلمى الوسيمى الوطنى المشهور ٠

ـ ولماذا لم تقل هذا من الصبح ياأخى ٠

ـ وهل تركت لى فرصة لأقول ؟

ـ أوجعتنى بذلة المحمل ٠

ـ حقك على ٠

ـ ولا حق ولا يحزنون ٠٠ الى أين أنت ذاهب ٠

ـ كنت فى طريقى لاستئجار عربة ٠

ـ لمجرد استئجار عربة أم لتذهب بها الى مكان معين ٠

ـ والله كنت سأفكر أين أذهب بعد أن أركب ٠

ـ ولا تفكر ولا حاجة ٠٠ تعال نشرب حاجه أولا ثم فكر على كيفك ٠٠

ـ تعال معنا يازين ٠

ـ والمحضر ؟

ـ اكتبه حين ترجع ٠٠

وضحك ثلاثتهم ٠

ـ على رأيك ٠

ونادى زين البلوكامين :

ـ أنا خارج فى مهمة ٠٠ ولن أغيب ٠

ـ أمرك يافندم ٠

وفوجىء سائق العربة بالخصمين يخرجان وقد لف كل منهما ذراعه فى ذراع خصمه ومعهما أيضا ضابط البوليس وركب الثلاثة عربته ٠ وصدر اليه الأمر أن يذهب الى قهوة ريش ٠٠ وزيد عدد الأصدقاء عند حفنى صديقا جديدا سرعان ماتبين له أن صداقته ستكون وطيدة بذلك الاحساس الخفى الذى لايعرف مأتاه الا خالق النفوس وباريها ٠

٨

توقع حفنى كل شىء الا هذا الذى فاجأه به أخوه حين ذهب اليه بعد الظهر يحمل مبلغ الخمسة آلاف جنيه التى ادعى أنها كل مابقى له ٠

ـ أتعرف من اشترى الأرض ٠

ـ لا والله ٠

ـ ألم تقرأ عقدا واحدا من عقود البيع ٠

ـ وفيم أقرأ ؟؟ الحاج على هو الذى يقوم بالبيع وكلانا يعرف أمانته كل المعرفة ٠٠

ـ هيه ٠٠ النهاية ٠٠ أنا الذى اشتريت الأرض ٠

ووجم حفنى فى ذهول ٠

ـ تقول من !

ـ ألم تسمع ·

ـ ولكنك ·· ولكنك ·

ـ نعم وأنا فى السجن اشتريتها ·

ـ كيف ··

ـ لايهم ·· المهم ·

ـ أرجوك ·· انتظر ·· أرجوك ياسى حلمى انتظر لم يعد فى رأسى عقل ليسمع ·

ـ ضياع عقلك أمر يحدث كثيرا ·

ـ فى عرضك انتظر قليلا ··

وصفق وجاء بخيت أمين المنزل وطلب منه كوب ماء وانتظر الصمت كوب الماء حتى حضر · وخرج بخيت بالكوب الفارغ ··

ـ أهذا ذهول الفرح أم العجب أم السخط ·

ـ كل هذا معا ·

ـ والسخط أيضا ·

ـ على نفسى ·

ـ أهذا فقط مايسخطك على نفسك ·

ـ لماذا لم تقل لى هذا من قبل ؟

ـ وماذا كنت تفعل اذا قلت لك ؟

ـ أهدأ وأستريح ··

ـ وهل كنت مضطربا حتى تهدأ ؟

ـ ومن أدراك أننى لم أكن مضطربا ·

ـ لأن الله وهب لك أعصابا من حديد ·

ـ كيف تعرف ·

ـ بعت أرضك كلها ومع ذلك لم يهمك شيء ·

ـ وماذا يمكن أن يهمنى ؟

ـ ألا تخاف المستقبل ·

ـ وأنت موجود ·· لا ·· لا أخاف شيئا ·

ـ نعم تعودت أن تجدنى دائما ·

ـ وسأجدك دائما ·

ـ فهل ياترى سأجدك أنا ؟

ـ أنت لاتحتاج الى ولن تحتاج الى ·

ـ من يدرى ؟

ـ أنا أدرى ·

ـ تستطيع أن تكون قمة فى الذكاء ولكنك أبدا لن تستطيع أن تعرف الغيب ··

ـ أرجو ألا تحتاج الى أبدا ولكن على كل حال انت أبى وأخى وأستاذى ومثلى الأعلى فان خنت واحدا من هؤلاء فلن أخون الآخر ··

وعاد الصمت مرة أخرى وبدأ حلمى الحديث :

ـ على كل حال · الأرض ستظل ملكا لك وسأسدد لنفسى مادفعته لك ثمنا لها من الريع حتى اذا استوفيته عادت الى إدارتك مرة أخرى وفى هذه المرة لن تستطيع أن تبيعها ثانية ·

ـ أطال الله عمرك وأبقاك ·

ـ وفى فترة السداد سأعطيك خمسين جنيها شهريا لتظل محافظا على مظهر البذخ الذى عرفك الناس به ·

ـ هذا كثير ·· كثير جدا ·

ـ الجنيه فى يدك مليم ·· أرجو أن تقدر أن المبلغ كثير حقيقة ولا تبالغ فى الانفاق ··

ـ مرة أخرى وثالثة وعاشرة وألفا أطال الله عمرك ·· أريد أن اقبلك ولكن لن اقبل وجهك كما يفعل الأخ مع أخيه وانما ··

واختطف يده وقبلها وأكمل الحديث :

ـ كما يفعل الابن مع أبيه ··

واضطرب حلمى هنيهة ولكنه تمكن بقوة السياسى أن يكبت عواطفه ويغير مجرى الحديث ·

ـ أنا مسافر غدا لابدأ الحملة الانتخابية ·

ولكن حفنى عاجله :

ـ لاتغير الموضوع هناك أمر لم يتم ·

ـ ما الذى لم يتم فيه ؟

ـ هذا المبلغ ·

ـ ماهذا ؟

ـ ألفا جنيه ·

ـ اذن فقد كانت سبعه ··

ـ لم أكن أعرف فيم تريد المبلغ قلت ان كان يريد أن يعاقبنى فالخمسة كافية أما اذا كان يريد المبلغ للانتخابات فالسبعة كلها له ·

ـ مهما تكن أعمالك سيئة فى حق نفسك الا أنك كأخ تعتبر من أبر الأخوة ٠

ـ الآن غير الموضوع اذا شئت ٠

ـ أنا مسافر غدا للانتخابات ٠

ـ أسافر معك ٠

ـ لماذا ؟

ـ لأكون معك ٠

ـ كما تشاء ٠ ولو أننى أفضل أن تبقى ٠

ـ أبقى لماذا ؟

ـ أخشى أن تحتاج وصفية اليك ٠

ـ هل اقترب موعد الوضع ؟

ـ أظن ذلك ٠

ـ البلد ليست بعيدة وأنا قادر ان شاء على أن أكون على علم بأخبارها دائما ٠

ـ كما تريد وعلى كل أخوها أحمد ووالدتها سيقيمان معها هنا ٠

ـ اذن فأنا معك ٠

ـ على بركة الله ٠

***

فى مولد فجر من عام ١٩٢٤ ولد صديقى عدلى حلمى الوسيمى الذى بدأت به ومعه هذه الرواية التى أرويها لك وأصبح والده الأستاذ حلمى الوسيمى عضوا بمجلس النواب وبدأت بالأب وابنه حياة جديدة ٠٠ وربما أيضا بدأت مصر نفسها حياة جديدة ٠

٩

أما أخى فقد أصبح عضـوا بالبرلمان منـذ سـنوات وسنوات وأصبح له ابنه عدلى فماذا أنا فى هذه الحياة ؟ مقامر صاحب نساء ثم ماذا ‥ وماذا تريد بعد ثم ‥ هو يجاهد فى سبيل الوطن ويشق الحياة بمخالبه ليحقق الاستقلال لبلاده لأن استقلاله هو متمثل فى اسـتقلال مصر أما أنا فمتمتع باستقلالى دون البحث عن استقلال مصر ‥ هو سينال مكافأته وسعادته اذا جلا الاحتلال وأنا أنال مكافآتى من كل لحظة حياة والدفع فورى ، المتعـة مع اللحظة بلا أجـل ولا تسـويف ولا تعطيل ولا تأخير ٠ أنا واثق أننى تقاضيت ثمن جهدى ‥ أسهر على المائدة وأتمتع وأنال متعتى مع سهرتى ٠ أو أسهر مع صاحبتى وأنال متعتى فى الصحبة نفسـها أما هو

فمن يعلم أينال مايرجوه أم جهاد بلا نتيجة وشقاء بلا ثمن وتعب بلا فائدة ٠

أهو هكذا حقا أم تراه يجد لذته فى أنه يؤدى واجبه الذى اقتنعت به نفسه واطمأن اليه ضميره ٠٠ أشهد أنه لايهتم بالشهرة ولايسعى اليها ولايفكر فيها وانما هى تسعى اليه كنتيجة طبيعية لجهاده ولكنها أبعد مايكون عن آماله ٠

أينا خير من صاحبه ٠ وفيم التفكير ؟ وهبنى أردت أن أكون مثله أبيدى هذا ٠ انما أحسن مالا يحسن ويحسن هو ما لا أحسن ٠ هل أستطيع أن أتكلم بالبرلمان وأحارب الانجليز وأؤيد الحكم أو أعارضه ٠ وهل يستطيع هو أن يلعب البوكر أو الكونكان كما ألعب هل يستطيع أن يجعل أجمل سيدات مصر يتقن الى ابتسامة منى أو موعد ٠ هيهات له هيهات ٠

بالمناسبة ماقصة هذه الأميرة المقبلة على وماذا تريد منى وماذا أستطيع أن أقدم لها ٠ جمالى وشبابى ٠ ألم تجد شابا جميلا غيرى ٠٠ أعجبتها ٠٠ وأى عجيبة فى ذلك ٠٠ ومهما تكن أميرة فانها مازالت امرأة ٠٠ ولكن الملك معجب بها ٠٠ وماذا فى ذلك ٠٠ هل جننت انه الملك ٠٠ وأنا ماشأنى به ٠٠ لتكن أنت لاشأن لك به أليس أخوك مرشحا أن يكون وزيرا ٠٠ وما شأن الوزارة وأميرة أرادها الملك وأرادت هى غيره ٠٠ أنسيت كيف تحكم مصر ٠٠ لا ولكن أستطيع أن أتناسى ٠٠ أنها أميرة ٠٠ وأنها امرأة ٠٠ كيف ستبدو ٠٠ كما تبدو النساء ٠٠ أكل النساء متساويات هيهات ٠٠ لو كان الأمر كذلك مابحثت عن بديلات دائما ٠٠ كل امرأة لها مذاقها الخاص وطعمتها الخاصة ولونها المتميز ٠٠ صوت كل امرأة له تهدج مختلف ٠٠ ولكل صوت وقعه فى الأذن نغمات

تتقاصر بجانبها موسيقى عبد الوهاب وآم كلثوم ٠٠ والله ولا مـائة ملك سيمنعنى عن الأمـيرة فضيله ٠٠ فضيله ٠٠ مصيبة لو كان لها من اسمها نصيب ٠

***

كان الحفل فى قصر الأميرة فضيلة غاية فى البهاء والروعة ولكن حفنى أصبح متمرسا على هذه الحفلات ٠ الا آنه فوجىء بشوقى سلام ضابط الجيش بين المدعوين ٠

ـ أهلا شوقي ٠

ـ أهلا حفنى ٠

ـ ماذا أتى بك ؟

ـ مأمورية ٠

ـ ماذا ؟

ـ ألم تسمع أم أنت مندهش ٠

ـ كنت أظن هذا من عمل البوليس ٠

ـ أصبحت وجوههم معروفة وأصبحنا نحن نكلف من حين لآخر بهذه المهمات ٠٠

ـ فى أى سلاح أنت ؟

ـ ألم تذرك ٠

ـ أريد أن أتأكد ٠

ـ في الحرس الملكى ٠

ـ أهلا ٠٠ تشرفنا ٠

ـ حفظت ؟

ـ وأنت ماذا أتى بك ؟

ـ مأمورية ٠

ـ انت الآخر ٠

ـ هذا عملى الرسمى ٠

ـ حسبتك صحفيا ٠

ـ هذا عملى غير الرسمى ٠٠

ـ وقعتك هباب ٠٠ مأموريتك ألعن من مأموريتى ٠٠

ـ ربنا يستر ٠٠

ـ أنا على أن أراقب أما أنت ٠٠

ـ مادمت أنت الرقيب فمهمتى سهلة باذن الله ٠٠

ـ ولم لا ٠٠ لولاك ماجئت أنا هنا الليلة ٠٠

ـ كيف ؟٠

ـ وصلت اخبارية أن هناك حبيبا جديدا ومهمتى أن أعرفه ٠

ـ لا تتعب نفسك ٠

ـ وفيم التعب المأمورية تمت والحمد لله ٠

ـ اياك أن تؤدى المأمورية بأمانة ٠

ـ المسألة كلها لا أمانة فيها ومادمت انت المقصود فأنت أولى بالمحاباة ٠

ـ والله صاحب ٠

ـ هل رأيت شيئا بعد ؟

ـ الناس لبعضها البعض ٠

ـ هيص أنت وأنس أمرى تماما ٠٠

ـ تعيش ٠٠

***

الأميرة فضيلة ذات نوع من الجمال المبهر الذى لايستطيع انسان مهما يكن زاهدا أن يعبره دون أن يقف أمامه حائرا ذاهلا وفى أحيان كثيرة يتولى الذى يراها للمرة الأولى نوعا من الخشوع والرهبة ٠ قوام فارع مياد اذا مشت خيل اليك أن العالم كله يعزف موسيقى الهية من نوع خاص لاتعرفها الأرض ولم تسمع بها ٠ شعرها ثورة كل شعرة منه تقوم بوظيفة لايستطيع أن يؤديها غيرها عيناها الخضراوان الضاربان الى الزرقة بحر وشلال ونمير وجدول ومطر وبرق ورعد وناى وعود كمان وقانون تعزف جميعها ألحان باخ وبيتهوفن وشوبان وليست ٠ أنفها آمر وفمها اشراقة ابتسامة وكبرياء سيد ٠ جيدها قصيدة تشابكت البحور فيها فاذا هى بحر جديد يجمع فن الغرب والشرق جميعا وجهها أنواع شتى من وجوه الجمال فى أنحاء العالم كله ٠٠ اذا طالعه انسان لم يستطع أن يطيل اليه النظر خاشيا أن تصيبه منه صاعقة ترديه وفى الوقت نفسه لايستطيع أن يصرف عنه عينيه فهو عائد اليه فالصاعقة أهون بكثير من أن يحرم النظر الى هذا العالم المتفرد من الفن والجمال والطيبة والقسوة والاسماح والجبروت والقبول والرفض ٠

كل ماكان يحسه حفنى أنها ذات جمال رائع ٠٠ ولكن هيهات له أن يصل من جمالها الى أعماقه ومن أين له ٠٠ وكل

مايعنيه منها مايفكر فيه رجل من محترفى النساء عند امرأة تحب دائما أن ترى جمالها الفادح على المحترفين قبل الهواة ٠

فى لحظة أو هنيهة من لحظة استطاعت أن تهمس فى أذنه آمرة فى دلال وحزم حاسم :

ـ تأتى غدا الساعة الواحدة ظهرا ٠

ـ أمر سموك ٠

١٠

مجلة الفن التى يعمل بها حفنى تجمع فيها كل أصناف الناس وكذلك شأن الصحافة منذ ولدت الصحافة فى العالم فهى تجتذب بسحر لها عجيب آلوانا من الناس شتى تضاربت مشاربهم واختلفت أهواؤهم وتعددت ثقافاتهم وجهالاتهم ، وكثيرا مايكون الجهل فى الصحافة رأس مال · ولاتحسب أنى أغالى أو أحاول اثارة التعجب فى نفسك · وانما أقصد تماما ما أقول فاذا كان محـرر الشـئون الفنية للممثلين فى ذلك الزمان عالما ــ لا قدر الله ــ يسقط بابه سـقوطا فاحشا · فالمفروض فى محرر هذا الباب أن يكون قمة فى السطحية لأنه ينبغى عليه أن ينقل الى القراء آين تصنع الممثلة ملابسها وأين تسهر ومع من · كمـا يتحتم عليه أن يذكر أحـداثها الغرامية ومغامراتها فاذا لم يكن لها أحداث فعليه آن يختلقها

اختلاقا • والخبطة الصحفية تتحقق عنده اذا ذكر أن ممثلا وقع فى حب ممثلة • وليس يعنيه أن يكون الممثـل متزوجا ولايعنيه أن تكون الممثلة كذلك ، انما المهم أن يمتع القراء• ولو كان ــ لا قدر الله مرة أخرى ــ على شيء من الثقافة لأصابه بعض الحياء فان أصابه هذا الداء الوبيل المسمى بالحياء لما استطاع أن يقدم الباب الناجح الذى يريده صاحب المجلة أن يقدمه ••

وهكذا تجدنى لم أبتعد عن الحق بل التزمته حين قلت لك أن الجهل يكون فى كثير من الأحيان رأس مال خطير فى عالم الصحافة ••

وكما تجتذب الصحافة هؤلاء تجتذب أيضا من يريد أن يظهر اسمه منقوشا بحروف المطبعة ولايهم على أى مادة يظهر هذا الاسم انما المهم أن يظهر حتى ليضطر بعض الذين على شيء من العلم أن يخفوا علمهم هذا وكأنه سـبة حتى يقبل صاحب الأمر فى الصحافة أن ينشر له •

ومن الصحفيين من يريد أن يتصل بصـاحب سلطة أو صاحب جاه أو صاحب شهرة •

ومنهم من يريد أن يكون كاتبا فيبدأ حياته ناقل خبر حتى يصل الزمن به يوما أن يكون صاحب قلم •

ومنهم غير ذلك كثير •• فى بعضهم الاخلاص لمهنته وفى بعضهم الرغبة أن يركب مهنته وسيلة الى غاية أخرى •

منهم من يتخذ مهنته ــ كما ينبغى لها أن تكون ــ مهنة الأمانة والشرف والصـدق والنقد الراغب فى الاصـلاح والتأييد المنبعث فى **الحق** ••

ومنهم يتخذ مهنته ـ كما لاينبغى لها أن تكون ـ سلاحا لقطع الطريق وفرض أتاواته على كل من لايطيع رغباته الشخصية فاذا هاجم هاجم لينال وان مدح مدح لينافس ... و ..

واذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت وأى الناس تصفة مشاربه

فى كل مهنة فى الحياة أخيارها وأشرارها ، وهل المهن جميعا الا نبات الحياة . صناعها هم أبناء الدنيا . والدنيا خير وشر . وشرفاء ولصوص . وأتقياء وفجرة . وأنقياء وقذر .

***

شاع فى الصحافة جميعا تلك الصلة التى استحكمت حلقاتها بين الأميرة فضيلة وحفنى . ورأى حفنى عجبا . راح الصحفيون من جميع الجرائد يتقاطرون على حفنى . ولكن سبقهم جميعا اليه اثنان من العاملين معه فى المجلة . لم يكن واحد منهما يلقى اليه اهتماما أو يحاول أن يتعرف به . ولكنهما فجأة حين عرفا بتلك الصلة الجديدة أقبلا عليه اقبالة غير قادرة ولا متمرسة . فقد كان كلاهما فى أول حياته الصحفية وان شئت قلت فى أول الحياة كلها ولكن هذان الصحفيان حقيقان أن نعرف عنهما كل شىء وانى بأمرهما على علم اليقين .

فأما أولهما فهو حامد العراقى . وليست العراقى تلك جنسيته وانما هى اسم والسبب فيه غاية فى الغرابة ..

قدمت قبل مولد أبيه جارية من العراق أدركها قانون منع

الرق فصارت راقصة فى الأفـراح والموالد واستعملت معها مغنية مصرية كان لابد لها منها حتى يتاح لها أن تسمع سيدات هذا العصر الغناء فقد كان لايغنى عند الحـريم الا المغنيات وكان من الطبيعى أن تطلق على هذه المغنية اسما فنيا فأطلقته فاذا هو سعاد العراقية · وحين تزوجت سعاد نسب ابنها الى الجانب الأكثر شهرة فاذا اسم ابنها وجيه العـراقى لا وجيه القماش ·· كما كان ينبغى أن يكون · مع أن القماش كان أيضا من أهل الفن فقد كان طبال الفـرقة التى تغنى فيهـا العراقية ولكن أين الطبال من مغنية الفرقة ·

أنجب وجيه العـراقى الذى عمـل قاهيا بوش البركة فوزى العراقى الذى صمم أبوه أن يبعده عن الوسط تماما فعلمه حتى نال الشـهادة الابتدائية وسعى له عنـد زبائن بالمقهى حتى عين موظفا بوزارة الأوقاف وأصبح يحمل اسم فوزى أفندى العـراقى وأنجب فارس حـديثنا هـذا حامد العـراقى · وقد لقى حـامد من شظف العيش ماجعله يكره الدنيا جميعا فجوانحه كلها حقد وسخيمة ·· ونفسه تأكل نفسه حتى شب ولم يشب فهو مشروع انسان لم يستمل خلقه ولم تكتمل نفسه · فهو قصير غاية القصر ضامر كل الضمور وان تهيأ لك أن تطلع على داخله لوجـدته أعظم قمـاءة من جسمه ·

أصر أبـوه أن يعلمـه ويتم تعليمه وكانت دون ذلك أهوال ·· واستنجد فوزى أفندى بكل ذى آكرومة حتى استطاع أن يحصل على اعانة من الأوقاف كانت هى أحـد المصدرين اللذين كان لهما الفضل فى تعليم حامد أما المصدر الثانى فقد كان مبلغا من المال يجود به كل شـهر وجيه العـراقى على حفيده حامد · وهكذا شب حامد وتعلم على موردين من المال

عجيب أن يقترب أحدهما من الآخر وعجيب أن ينسجما فى مجرى واحد وكل منهما قادم من مصدر بعيد كل البعد عن المصدر الآخر • فقد اجتمع على تنشئته وتربيته وتعليمه مال الصدقة قادما من الاوقاف ومال السحت قادما من وش البركة •

وأكمل حامد العراقى تعليمه وتخرج فى كلية الحقوق وكان ترتيبه متقدما فكان طبيعيا أن يسعى جهده ليعين فى النيابة العامة أمل خريجى الحقوق جميعا ولكن وقفت دون ذلك عقبات لايستطيع أن يتخطاها به أحد حتى ولا زبائن جده بوش البركة • وكيف لمن كان جده قاهيا وجدته راقصة أن يصبح عضوا بالنيابة • هيهات • راح حامد يبحث عن وظيفة آخرى ولكن الوظائف لم تكن ميسورة فى ذلك الحين فالأبواب أمامه مغلقة • كان الحقد قد تمكن من نفس حامد وعظم سخطه على المجتمع • فأى ذنب جناه هو حتى تحيطه الحياة بكل هذا القذر الذى يحيط به والذى يحول بينه وبين أن يبلغ من المكانة مايصل اليه من هم أقل علما •

راح حامد فى هوة الفراغ التى تطالعه من الحياة يقرأ وكان بروح الحقد التى طمت على نفسه يعرف مايريد أن يقرأ • وبدأ يكتب واتجه بكتابته الى مجلة الفن فقد كان فيها أبواب لاتخلو من الجرأة وهو يريد حقده أن يفشو فى كتاباته ومقالاته بعد أن فاضت به مشاعره •

ومهاجمة المجتمع والمستقر من شئونه أمر حبيب الى نفس أصحاب الصحف • فكل هجوم حبيب الى القراء • فالفاشلون فى المجتمع أكثر من الناجحين وقديما قال الشاعر :

بغاث الطير أكثرها فراخا
وأم الصقر مقلات نزور

والفاشلون يحبون دائما أن يعلقوا أسباب فشلهم على أقرب مشجب . وليكن المشجب فساد المجتمع أو الوساطة التى تأخذ بيد الناجحين أو هم يبالغون فيدعون أن الذين أفلحوا انما أفلحوا بالنفاق والسفالة وبيع الضمير . ليكن المشجب أى شىء الا أن يكون الناجح أهلا للنجاح وهم أهــلا للفشل بغبائهم أو جهلهم .

وهكذا نشر صاحب المجلة مقالات حامد . وماهى الا بضع مقالات حتى عين حامد محــررا لباب المجتمع فى مجلة الفن ومن هذا الباب كتب فى السياسة . وحين تقرب الى حفنى طلب اليه أن يعرفه بأخيه حلمى . ولم يجـد حفنى مانعــا وتعرف حامد بحلمى .

ألا يطيب لك الآن أن نترك حامد قليــلا لنــذهب الى زميله الذى سعى الى حفنى حين بلغه اتصاله بالأميرة . انه حسن هنداوى .

أما أبوه فسمسار غــلال تمكن من تعليمه حتى نــال الابتدائية ثم تقطعت أنفاسه وأعلنه أبوه هنداوى :

ــ الابتدائية على أيامنا كانت تجعل الحاصل عليها أفندى قد الدنيا .

ــ ولكنها على أيامنا لاتزيد عن الآخرة فى شىء .

ــ يابنى ألا تعرف ماذا أعمل ؟

ــ تاجر غلال .

ــ ياليت .. يابنى أنا سمسار . أوصــل البــائع الى المشترى أو المشترى الى البائع وآخذ العمولة والسمسرة .

ــ ولماذا لاتكون تاجرا ؟

ـ أولا أنا لا أملك رأس المال وهذه وحده سبب كاف ثم ان التاجر عرضة للخسارة أما السمسار فلايخسر أبدا ٠

ـ ولكنك لاتملك شيئا حتى تخشى الخسارة ٠

ـ حتى وان كنت أملك المال لا أملك الجرأة ٠

ـ الجرأة هى الحياة ٠

ـ وهى الموت أيضا ٠

ـ المهم أنا لاأستطيع اكمال تعليمك ٠

ـ حاول أن تعينى فى وظيفة اذن فعملك جعلك تعرف الكثيرين ٠

وكان عضو النواب بالدائـرة ممن يبيعون قمحهم عن طريق أبيه ٠ فزكاه عند صاحب الجريدة فعين بها ٠ وراح يحاول الالتصاق بالأستاذ فايز وهبى صاحب الجريدة ٠

وكان الأستاذ فايز يحب الليالى الحمراء وآدرك حسن هذا فيه فاذا هو يتقرب اليه عن طريق النساء ٠ وآصبح هوالصلة بين الأستاذ فايز وبنات المواخير اللاتى وجد حياته تقوم على الاتصال بهن ٠ وآصبح من آقرب المحررين الى صاحب المجلة ٠ ولكن حسن كان ذا طموح كبير ضخم وليس فايز بالنسبة اليه الا أول الدرج وربما كان حفنى وحلمى هما السلمة الثانية فى هذا الدرج ٠ وهو درج من نوع عجيب يراه حسن يؤدى الى السماء السابعة من الشهرة والمجد والجبروت ، ويـراه المجتمع الشريف يؤدى الى أسفل حمأة من السفالة ويبيع القلم والضمير والشرف وكل مايتصل بالخلق الكريم ٠

ولكن حسن حين جال بعينيه فيمن حوله آدرك آنه لا سبيل

له أن ينال مكانة مرموقة فى الصحافة التى رمته المقادير اليها الا بأن ينال شهادة وأن يتقن لغة آخرى • وان كانت صلته بفايز تمكنه اليوم من نشر مقـالاته وتقـريبه مما يظن أنه شهرة ومجد فقد كان من الذكاء بحيث يدرك أن الكتابة هى عرض عقل الانسان على بشر كثير ، واذا لم يكن مايعـرض عميقا ذا قيمة فلابد على الأقل أن يكون جـذابا فاذا هو ظل محصورا فى دائرة الثقافة الابتدائية ومايكتبه الآخرون فى شـتى الصحف فلا مستقبل له • التحق حسن بمدرسـة من مدارس اللغات وراح يتعلم اللغة الانجليزية وفى نفس الوقت راح يذاكر لينال شهادة التوجيهية أو البكالوريا من المنزل • فقد كان حسن يعلم أنه اذا لم يتسلح بالشـهادة وباللغـة فلا سـلاح له فى الحياة ، وحين تعـرف بحفنى كان قد نال شـهادة البكالوريا وكانت أنفـاسه قد تقطعت فاكتفى بها وانصرف عن اكمال الجامعة واعتمد على أن اتقـانه للغـة الانجليزية قد يعوضه عن الشهادة العالية واعتمد أيضا على أن الناس مع الزمن ينسون ما حصل عليه الانسان من شهادات وخاصة اذا كان هذا الانسان يعمل فى الصحافة وليس فى وظيفة رسمية فى حكومة •

كان كل من حامد وحسن أصـغر كثيرا من حفنى •• وهكذا استطاعا أن يلازماه مـلازمة الظل وتعـرف كلاهما بحلمى الذى أصبح وزيرا فكان مصـدر معلومات سـياسية لكليهما وكانا يقسمان المعلومات بينهما ويعرض كل منهما معلوماته ويعلق عليهـا كل بطـريقته • أما حـامد فبخبث الحـاقدين وأما حسن فبديماجوجية التجار البـاحثين عن الابهار عن طريق تضخيم الهائف وتعظيم التافه واكساب هين الأمور ما لا تستحقه من آهمية وخطورة •

١١

طغى الملك واستكبر وتجمعت حوله ثلة من أصاغر الناس وحقرائهم الباحثين عن المال لأنفسهم وللملك عن أى طريق وبأى وسيلة ، أما هم فوضعاء ويعلمون أن بقاء أى فرد الى جانب السلطان أمر لايطول أمده ، وأنهم ان كانوا نجوما اليوم فهم فى غد قريب مبعدون فهم يهتبلون فرصة قربهم هذا ليشفطوا مايتاح لهم وما لا يتاح من أموال ، أما الملك فقد كان يشعر فى بيته بالمهانة وحقارة الشأن وكان يريد أن يثبت لنفسه أنه ذكي وخطير وأنه يستطيع أن يسخر ممن يشاء وما درى المسكين أنه يسخر أول مايسخر من نفسه، فان أحدا مهما يكن ذكاؤه لايستطيع أن يسخر من شعب أى شعب فما الخطب ان كان هذا الشعب هو الشعب المصرى الذى خاض من أهوال الحياة مالم يخضه شعب آخر . والذى اقتيد

قمة التاريخ فى صدر التاريخ ودوخ الطغاة ودوخوه على مر الآلاف من السنين • فليس فى العالم أجمع شعب خبر الحياة وخبرته الحياة مثـل الشعب المصرى فهيهات أن يسـخر منه ساخر •

قد يخدعه مخادع ولكن هيهات أن يستطيع المخادع أن يخدع المثقفين منه والمتعلمين ، أما الذين لم يتلقوا من التعليم حظا فهم يتلقون من الحياة صنعتهم فى الحياة ، فالفلاح المصرى يزرع بأدوات قدماء المصريين وينتج انتاج القرن العشرين •• رأيت فلاحا يمسك بقطعة الطين من الأرض ويضعها على لسانه ثم يقول وكأنه أستاذ فى أعلى الجامعات :

ـ هذه الأرض لاتصلح لزراعة القطن •

ورأينا الصانع المصرى يجتـاز فترة الحـرب العـالمية وسيارات مصر جميعها تسير بغير قطع غيار من الخارج والمبانى تقوم دون أن يستقدموا لها الحديد أو أدوات السباكة من الغرب الذى كان مشغولا بحـربه ولا عبور بالبحـر الأبيض المتوسط الذى كان لايخـدم الا سـفاكى الدماء من الجانبين المتحاربين •

فاذا ظن سياسى أنه يخادع هؤلاء فلأنهم كانوا مشغولين عنه باتقـان صنعتهم وليس يعنيهم أمـره فى قليل أو كثير وكأنهم كانوا يريدون أن يقولوا له فى تلك الابتسامة الطيبة العذبة :

ـ أتريد أن تضحك علينا وماله ؟ اضحك ولكن أتركنا نحن لنقوم بواجبنا نحو صنعتنا •

وهكذا أصبح الملك لصا وهـو فى غـير حاجة الى مال وحلا له أن يذاع عنه أنه فى ميدان النساء صنديد لايشق

له غبار ليخفى بذلك حقيقة أمره . وماكان فى حاجة الى اخفائها فما يعنى الناس عنه فى هذا الميدان شىء ولكنه غباء تمكن منه وخرج به عن طبيعة الأمور وربما كان له العذر فى ذلك بما كان يلقاه فى أسرته من أهوال .

حاول الملك أن يعدو على أموال الدولة فى الوزارة التى كان يحمل عبئها حلمى باشا . وكان الملك يظن أن انعامه عليه بالباشوية سيجعله يقبل محاولة الملك أن ينال أموال الدولة ولكن فأله خاب . ورفض حلمى أن تتنازل وزارته عن حقها فى المال العام فيصبح مالا خاصا للملك .

وأصر الملك وأصر حلمى . وأحرج رئيس الوزارة ولكن حلمى الذى لم يأبه بغضب الملك كان أكثر اهمالا لحرج رئيس الوزراء .

وأوشك رئيس الوزراء أن يستقيل ولكن الأحداث تلاحقت ..

واضطر الملك أن يتراجع ليتظاهر أنه يواكب الأحداث .

فقد حدث فى ذلك الحين أن بدأ اليهود فى انتهاب دولة فلسطين مؤيدين بالامبراطورية التى كانت ماتزال حتى ذلك الحين تغطى بشمسها المظلمة العالم أجمع . وأصبحت مصر فى موقف غاية فى الحرج ، فهى من ناحية زعيمة العالم العربى والاسلامى ، وها هى ذى دولة عربية بأكملها يحاول عدو وقح أن يستولى عليها ويقيم عليها دولة يهودية ، ومن ناحية أخرى كانت مصر هذه الزعيمة دولة محتلة بالامبراطورية البريطانية التى تحمى العدوان اليهودى الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ .

وحاول الملك أن ينتهز الفرصة ليلهى الناس عن فضائحه

ويحيى الحلم القديم الذى راود أجداده أن يصبح خليفة على العرب جميعا متناسيا طبيعة التاريخ والدول ورفض كل دولة أن تكون تابعة فى حكمها الى أى دولة أخرى مهما تكن هذه الدولة حبيبة وصديقة بل وزعيمة أيضا ٠

أراد الملك أن يجبر الوزارة على دخول الحرب بغير أى استعداد وعرض الأمر على مجلس الوزراء وانقسم الرأى وكان رأى حلمى أن نسأل وزير الدفاع وكان وزير الدفاع من أتباع الملك فاذا هو يقول وهو يعلم أنه كاذب :

ـ ان هذه الحرب تعتبر نزهة حربية للجيش المصرى وأنه يستطيع أن يقضى على القوات الاسرائيلية فيما لايزيد عن أسبوعين ٠

وحينئذ قال حلمى :

ـ مادام الأمر كذلك فان الجيش المصرى لن يجد فرصة مثل هذه ليمحو عن نفسه ذلك الاسم المقيت من أنه جيش المحمل الذى لا عمل له الا الخروج فى الاستعراضات ليكون أشبه شىء بعارضات الأزياء ٠ ومصر عليها أن تواجه قدرها الذى ألقاه التاريخ على كاهلها فهى زعيمة العالم العربى والاسلامى ، ومصر يجب أن تجعل المحتل يحس أنه غير آمن فى احتلاله ولعله يعجل بالرحيل بعد أن انتهت المفاوضات الأخيرة بالفشل شأنها شأن كل المفاوضات السابقة عليها ٠

ورفعت الجلسة دون أخذ الرأى فاذا حلمى يقدم استقالته الى رئيس الوزراء ويطلب اليه رئيس الوزراء أن يؤجلها الى فترة قصيرة ويقول حلمى :

ـ أنا أعلم أن الوزير عليه أن يخضع لرأى الأغلبية فى مجلس الوزراء ٠٠ ولكننى أعلم أيضا أن موضوع الخلاف اذا

كان من الخطورة بهذا المكان فان ضـميرى يحتم على آن أقدم استقالتى لأننى مصمم على رأيى وآرى آن بقائى فى الوزارة يعد خيانة منى للوطن ولنفسى ٠

ويقول رئيس الوزراء :

ـ انك محق فيما تقول ولكن لاتنس آن مجلس الوزراء لم يقل رأيه بعد فأبق عليك استقالتك حتى يصدر المجلس قراره فان كان مخـالفا لرأيك آصـبح من حقك آن تقـدم استقالتك وأصبح من واجبى أن أقبلها ٠

وانتظر حفنى وقطع الشعب المصرى الطريق على آى رآى فقد تطوعت الآلوف من الشباب بل تطوع آيضا الكثيرون من رجال الجيش ووجدت الحكومة نفسها مرغمة آن تعلن الحرب حتى تستطيع آن تقدم لهم السلاح عـلانية وقامت الحـرب واكتسح الجيش المصرى أعـــداءه ٠ ولكن الامبراطـورية البريطانية أدركت أنها لو آتاحت هذا النصر لمصر فمصيرها فى مصر أصبح مقضيا عليه وهى فى الوقت نفســه كانت تريد لدولة اسرائيل آن تقوم لتكون قاعدة لها فى المنطقة اذا اضطرتها الظروف أن تجلو عن البـلاد التى تحتلها وكانت تدرك فى نفس الوقت أن شمسها تنحسر عن العـالم وآن شمس الامبراطورية الأمريكية الجديدة تطفىء أضـواءها فـكان من الطبيعى أن تحـاول لندن وهى تلملم ثيـابها من الشرق أن تغرس فيه هذه الشوكة لتستعملها عند الحاجة اليها ٠

وتتابعت الأحداث ٠٠

١٢

أين صديقى الذى حدثتك عنه عندما بدأت هذه الرواية ألا ترى معى أنه تأخر كثيرا عن الظهور • لا على ولا عليك ولا عليه • فما كان صديقى حتى الآن ذا مكان فى الحياة حتى يمثل مكانا فى هذه الرواية • وأنت على كل حال قد تعرفت عليه ولكنك لم تلتفت الى أمره ولا عنيت به فهكذا انت أيها القارىء تريد من الروائى أن يضع لك كل شخصية فى اطار ويلح عليك أن تتعرف بها والروائى عادة لايفعل ذلك الا اذا كان يحتاج الى هذه الشخصية وهو أيضا لايفعل ذلك الا حين يرى أن الموقف قد حان لشخصيته أن تظهر • وقد ألمحت لك عن عدلى قبل الآن •• متى كان ذلك ؟ عليك أنت أن تتذكر • ان عدلى هو الابن الوحيد الذى أنجبه حلمى الذى أصبح حلمى باشا وقد كان عدلى يحبو فى حنايا السنين ليتعلم

وحين تعرف حامد وحسن الصحفيان الى أبيه الباشا كانت سنه تقارب سنهما · فلم يكن غريبا أن يسعى كل منهما الى التعرف اليه وتوثيق هذه المعرفة وكان عدلى من ذلك النوع من الناس الذين يحبون أن يعرفوا الناس وينزلوا كل انسان فى منزلته ·· وأدرك حامد أن عدلى لايمكن أن يكون متفقا معه فى الرأى فهو من الفئة التى لاتحقد وانما يحقد عليها الحاقدون فعمل جهده أن يجعل الجانب الذى يبدو لعدلى منه مناقضا تماما لوجهه الحقيقى واستطاع فى نفس الوقت أن يجتذب عدلى اليه بما قرأ من كتب فى الفلسفة والسياسة والتاريخ · أما حسن فقد علم أن عدلى لايحتاج الى فتيات المواخير وهو فى نفس الوقت لايحب أن تكون هذه الصفة معروفة عنه فى بيت حلمى ولكنه استطاع أن يجتذب عدلى بحديثه المنمق وبنفاقه ويسكب المديح من غير تحفظ على والده حلمى باشا ·

وقد أثمرت هذه الصداقة منفعة لحامد وحسن على السواء ·

أما حامد فقد كان يريد أن يسافر الى الخارج بأى وسيلة من الوسائل ، وقد أدرك أن حفنى لايستطيع أن يكون شفيعا له عند فايز ليأمر له برحلة الى العالم الخارجى ليرى مالايستطيع أن يراه بماله الخاص ·

وقد استطاع هو أن يقنع فايز أنه لو جعل له مراسلا فى لندن وآخر فى باريس لسبق المجلات المصرية فى عرض أنباء العالم · وقد اقتنع فايز بهذه الفكرة وخاصة بعد أن أصبحت مجلته عامة لاتقتصر اهتمامها على الفن وحده · وطمع حامد أن يكون هو واحدا من هذين المراسلين · ولكنه وجد فى فايز فتورا عن الاستجابة لمطلبه وفى دربة الكلاب على الشم

أدرك أن حلمى باشــا لو أوصى به عنــد فايز فان فايز لن يستطيع أن يتغــاضى عن رجــاء الوزير • وتكلم حامد مع صديقه عدلى وأصبح حامد مندوب المجلة فى باريس •

أما حسن فقد أراد أن يكون مندوب المجلة فى حــرب فلسطين ولكن فايز لايستطيع أن يستغنى عن خدمات حسن فى القاهرة فهو الذى يؤجر له الشقق ومايننتفع به فى هذه الشقق وهو الذى يعد له كل مايحتاجه الأمر فى أمسياته ، ولكن حسن كان مصرا على أن يقفز حواجز الزمن وكان يدرك أنه اذا لم يصنع فى الصحافة مايخشى الآخرون أن يصنعوه فلا فلاح له • ومادام قد صنع مايخجل الآخرون أن يقوموا به فمن الطبيعى ألا يقف شىء أمامه بعد ذلك •

وتوجه الى عدلى برجائه وتقرر أن يكون حسن مندوب المجلة فى الحرب •

***

لم يكن حفنى ليعنى بهذه الحرب فى شىء الا أنه فوجىء بشوقى سلام يأتى اليه على غير موعد ببيته ••

ــ أنا وقعت من السما •

ــ وأنا ألقاك •

ــ أنا مسافر الى فلسطين بعد يومين •

ــ يانهار اسود •

ــ ولا اسود ولا حاجة كل اخوانى مسافرون •

ــ من اخوانك هؤلاء •

ــ ليس هذا هو المهم •

ـ فما هو المهم اذن ٠

ـ صاحبتى ٠

ـ أحـــلام ٠

ـ طبعا وهل أعرف غيرها ٠

ـ الآن لا ٠

ـ اذن هى ٠

ـ وما شأن أحلام بفلسطين ٠

ـ هى عندى منذ ثلاثة أيام ٠

ـ عندك ٠٠ ألست متزوجا ٠

ـ ماذا جرى لك ٠٠ ياأخى انت تفهمها وهى طائرة ٠

ـ ولكن هذه ليست طائرة ٠٠ هذه غير واضحة الرؤية مطلقا ٠

ـ فى شقتى الخاصة طبعا ٠

ـ عظيم ٠

ـ بل هباب ٠

ـ لماذا ؟

ـ كانت قالت لزوجها انها ستذهب الى أمها فى الاسكندرية بسلامته أخذ أجازة أمس وذهب الى الاسكندرية ولم يجدها ٠٠ أحد أصدقائى ٠٠ ماذا أقول ٠٠ أحد اخوانى وشى بى ٠

ـ أحد اخوانك ٠

ـ ضابط زميلى كل نفسه حقد يحقد على أى سعادة مهما يكن مصدر هذه السعادة ٠ المهم ليس هذا وقته أرسل ورقة مجهولة الى الزوج يخبره عن عنوان الشقة ٠٠

ـ وكيف عرفت أن صديقك هذا هو الذى أرسل الورقة ·

ـ من حظى الأسود له صديق فى نفس العمارة التى بها الشقة ومن حظى الأسود أنه جاء يزور صديقه هذا فرآنى مع أحلام · فهو الوحيد الذى كشف أمرى ·· ياأخى ليس هذا هو المهم ··

ـ وما هو المهم ؟

ـ أن نختفى ·

ـ أين ؟

ـ فى أى داهية ·

ـ ألم يأت الزوج الى الشقة ؟

ـ تنيل ·· أتى ·

ـ وأين كنتما ؟

ـ كنا فى أول الشارع قادمين الى العمارة حين رأينا سيارته أمام الباب فأدركت كل شىء ·

ـ والآن ؟

ـ ابحث لى عن مخبأ ·

ـ هيا بنا ·

ـ الى أين ؟

ـ الى العزبة ·

ـ هيا ···

ـ أين أحلام ؟

ـ تحت فى السيارة ·

ـ سأذهب أنا في سيارتي وتلحق بي أنت في سيارتك ٠

ـ لماذا ٠٠؟

ـ حتى تكون عندنا حرية الحركة ٠

ـ لك حق فان صديق المقد الذى كلمتك عنه يعرف صلتي بك ولاتستبعد أن يرسل ورقة ليرشد الزوج عن العزبة ٠

ـ هيا ٠

وقبيل الغروب شهد منزل الوسيمي ببلدتهم الرمايحة سيارتين ينزل عنهما ثلاثة نفر وجرى عبد المعين خادم المنزل ففتح الباب وقال حفني :

ـ كيف حالك ياعبد المعين ٠

ـ بخير ياسعادة البك ربنا يبارك فيك ٠

وصاح شوقي :

ـ اسمه عبد المعين ؟

وقال عبد المعين ٠

ـ خادمك ياسعادة البك ٠

قال شوقي :

ـ ربنا يستر ٠٠ أخشى أن يكون هو عبد المعين صاحب المثل المشهور ٠

وضحك حفني قائلا :

ـ لاتخف فهو عند الشدة يعجبك ٠٠ اعمل لنا عشاء ياعبد المعين ٠

ـ أمرك يابك ٠

ــ وجهز حجرتى لشوقى بك والست زوجته وانا جهز لى حجرة من حجر الضيوف ·

ــ أمرك يابك ·· سعادتك ستتعشى هنا أم فى الدور الأعلى ؟

ــ هنا ؟

وصاح شوقى :

ــ فى الدور الأعلى ·· فى الدور الأعلى أنا فى عرضك ·
ونظر اليه حفنى وسكت لحظة ثم أدرك مايعنيه وقال :

ــ وهو كذلك فى الدور الأعلى ·· واسمع ياعبد المعين قل لسعدون يفتح الجراج ·

ــ أمرك يابك ·

وحين انصرف عبد المعين قال حفنى :

ــ ادخل سيارتك فى الجراج وقل لهم أن يتركوه مفتوحا

ــ معقول ·· الجراج بعيد عن مدخل البيت ·

ــ طبعا ·

كان الليل حالك الظلمة وكانت آلة الانارة قد توقفت تماما فى عزبة الوسيمى وأصبح البيت قطعة من ظلام لم تجرؤ الأشعة المتخافتة من ضوء مصباح الغاز المتروكة فى البهو أن تعدو على حلكته أو أن تبدد شيئا من قتامته ·

ولكن ضوء سيارة اخترق الظلام واعتدى على هذه الحلكة بنور جرىء جرأة صاحب الحق ، وهب الثلاثة فى بيت الوسيمى وهم يعرفون من صاحب السيارة والنور ·

واقتحم حفنى الحجرة على شوقى وأحلام وألقى أوامره فى سرعة وحسم :

ـ أحلام خذى بدلتى هذه والبسيها وانت البس هدومك وانزلا فورا من باب الخدم الى الجراج وسأشغل أنا عبد الصادق حتى تخرجا بالسيارة الى مصر واذهب أنت ياشوقى الى بيتك أما أنت ياأحلام فعودى الى بيتك واتفقى مع صديقة لك فى أى بلد أن تقول انها دعتك فذهبت اليها . أسرعا .. اسمعى أليس لك صاحبة ليست فى القاهرة .

ـ المنصورة .

ـ حلوة .. هيا .

وبسرعة نادى عبد المعين وأمره أن يرتب فراش شوقى وأن يترك فراشه مهوشا كما هو ونزل الى الطابق الأول .

ـ أهلا عبد الصادق بك .

ـ أهلا بك ياحفنى بك .. أهكذا .

ـ أهكذا ماذا ؟

ـ أتقبل أن تكون هذه صنعتك ؟

ـ ياترى أنت متأكد أنك قصدت الى الشخص المطلوب ؟

ـ لاشك فى هذا .

ـ ومن هو الشخص المطلوب ؟

ـ حفنى الوسيمى .

ـ فى عزبتى والساعة تقترب من الثانية صباحا .

ـ أتظن أننى أفعل مثل هذا الا لسبب خطير ؟

ـ متصل بى انا .

ـ طبعا ... أين زوجتى ياحفنى .. أين أحلام ؟

ـ أحلام .. معى أنا .

ـ مع صاحبك شوقى .

ـ وأنا ماشأنى •

ـ أنت تخفيهم عندك •

ـ واذا كان هذا صحيحا فكيف عرفت ؟

ـ اقرأ •

ولم يكن حفنى فى حاجة الى ان يقرأ فقد ادرك ان توقع شوقى قد صح فأخذ الورقة ثم رفع بصره الى عبد الصادق :

ـ ورقة من مجهول تجعلك تأتى فى الثانية صباحا الى بيت وزير من وزراء الدولة لتتهم أخاه أنه يتستر على جريمة زنا ••

ـ كان على أخى الوزير أن يبقى بيته وبيت آخيه شريفا •

ـ وهل سمعت عن حلمى غير ذلك •

ـ عن حلمى لا •• أما عن آخى حلمى فانه يستطيع أن يصنع أى شىء ••

ـ تهمة مثل هذه عندنا نحن الفلاحين لايمحوها الا الدم ياعبد الصادق بك •

ـ اذا لم تكن صحيحة •

ـ أنت تحتاج الى اثبات •

ـ اسمح لى أن أمر بغرف البيت •

ـ الطابق الأسفل نعم •• آما الطابق الأعلى فهيهات أن تخطو اليه رجل غريبة •

ـ ماغريب الا الشيطان ياسعادة البك ياأخا سعادة الباشا •

ـ اخرس •

ـ تخفيهما فى الطابق الأعلى وتقول لاتطؤه رجل لا وحياة والدك لئن لم أصعد الى الطابق الأعلى لأبلغن البوليس فورا ٠

ـ أتظن أن البوليس يجرؤ على التهجم على بيت وزير وعضو نواب دون أمر بالتفتيش ورفع الحصانة من مجلس النواب أيضا ٠

ـ أبلغ وزير الداخلية ووزير الحقانية ٠٠ شرفى ياهوه ٠٠ شرفى ياعالم ٠

ـ أتظن أنك تصون شرفك بهذه الضجة ٠

ـ هذا شأنى أنا ٠

ـ اسمع ياعبد الصادق ٠٠ أنا لاأخشى التهديد ولكن لأننى انسان وأدرك الحالة التى أنت فيها سأصعد معك الى الطابق الأعلى ولكن قل لى ٠٠ اذا لم نجد أحدا كيف ستعتذر ٠

ـ الذى جعلك تقدر حالتى من الثورة سيجعلك تقدر حالتى من الخجل ٠٠

ـ وهو كذلك ٠٠ تفضل ٠

وطبعا لم يجدا أحدا ٠٠

١٣

ربما خيل اليك بما قدمته لك عن حفنى أنك عرفته من كل جوانبه ولكن هيهات · فان حفنى هذا دنيا بأكملها وهيهات لأحد أن يحيط بدنيا · بحر هو متلاطم الأمواج لايقر له قرار · وأعجب مافيه أنه لايتحمس لشيء في الوجود ولايأخذ شيئا مأخذ الجد الا متع الحياة وليس يعنيه مصدر المتعة وانما يعنيه أن يحصل عليها في أى مظنة لها ·

وقد رأيناه يبيع أرضه ليلعب القمار ولم يكن ذلك منه تحمسا للقمار وانما احتقارا للتملك مع حب شديد للمال لا ليكنزه وانما لينفقه ويستمتع به ، وليس يهمه أن ينفق كل مايملك في سبيل لحظة واحدة من المتعة الحقيقية · وهو لايعرف فى الدنيا مشاعر فهو لم يستطع أن يكره أحدا · وشعوره نحو أخيه شعور من نوع عجيب فهو يعلم أن انتسابه

الى أخيه هذا يمكنه أن يحصل على أنواع من المتعة هيهات أن يستطيع الوصول اليها اذا لم يكن أخا لحلمى باشا .

ولكن حلمى يظل مع هذا بالنسبة لحفنى جزءا من كيانه. ولو كان قلبه يعـرف الحب ما أحب الا أخاه حلمى ولكنـه لايشعر بهذا الحب ولا هو يعرف معناه ولكنه يعرف أنه مستعد أن يبذل كل جهده من أجل أخيه من غير حب . ومادام مايبذله لايفسد عليه متعة من متعة . وأحسب أن حفنى لو أحس أن قطعة من جسمه ستقف حائلا بينه وبين متعته لاستغنى عنها وكأنه يلقى سيجارة شربها الى عرض الطريق . وهكذا عاصر حفنى كل هذه الأحداث التى مرت بها مصر لم يشترك يوما فى مناقشة يحس أنها ستعكر مزاجه أو تجعله آخـر الأمر يفكر بجـدية فى شىء ما ، ولهـذا لم يكن عجيبا أن يكثر حـوله الأصدقاء ، ولماذا لا وأين سيجدون شخصا يوافق كل الآراء المتعارضة دون أى مناقشة لها ، بل ربما وجد الكلمة المؤيدة للرأيين المتناقضين فان يكن أخوه من حزب معارض للوفد فهو لايعرف الحزبية وأصدقاؤه من كل الأحزاب وكلهم واحد عنده تأييدا لرأيه فى الحياة .

وهـكذا مرة أخـرى لم يكن عجيبـا أن تتوثق الصلة وتزداد توثقا بين حفنى وعبد الفتاح صدقى وتستمر هـذه الصداقة رغم فارق السن بينهما ، ولكن صلات حفنى لاتعترف بفوارق الأعمار ولا بفوارق الطبقات فهو كما يعرف حامد وحسن وهما من سن ابن أخيه عدلى الذى هدهد طفولته وهو وليد يعرف عبد الفتاح صدقى الذى يكبره بما يقـرب من عشرين عاما ..

وبعد فهل تراك عرفت حفنى .. هيهات لك أن تعرفه وكيف لك أن تصل الى أغـواره اذا كنت أنا وأنا مصـدرك

الوحيد عنه لاأستطيع أن أدعى أننى بلغت من حقيقته كل حقيقة ٠

وحسبى وحسبك أن أروى لك ماخاض من أحداث لعلك تقف على شىء يسـير من حقيقته ٠ وربمـا سـألت نفسك وماذا يهمنى من أمر حفنى ؟ فاذا فعلت فاننى أحزن حزنا شديدا فانما حفنى لون من ألوان الانسانية ومانحن اذا لم نعرف أنفسنا وكل أنسان هو جانب منا ونحن جانب منه ، هو يمثل لونا من الفصيلة التى نكونها نحن البشر فاذا كنت لاتعرف نفسك مصورة فى الآخرين فماذا يمكن أن تعرف ٠

لا عليك ولا على فانى أقص وشأنك وما أقول ولك أن ترى فيه ماتشاء من رأى ٠

***

لم يكن حلمى قد اشترك فى الوزارة بعد ، حين التفت عبد الفتاح صدقى الى حفنى وهو يقدم له فنجان قهوته :

ـ قل لى ياحفنى ٠٠ الى متى تظل تلعب القمار ٠

ـ كلنا يقامر ياعبد الفتاح بك ٠

ـ لم نختلف ولكن قمار عن قمار يختلف ٠

ـ كله قمار ٠

ـ تظل تلعب الليل كله وتجهد نفسك وتتعب أعصابك

ـ اسمع ياعبد الفتاح بك لعلك أول انسان أخبره أنا لا ألعب لأكسب ٠

ـ فلماذا تلعب ؟

ـ لأنى أجد متعة فى اللعب فاذا فقدت المتعة تركت اللعب ٠

ــ ولا تريد أن تكسب ٠

ــ ليس للفلوس عنــدى أى معنى الا أن تكون وســيلة لأنبسط وأعيش كما أحب أن أعيش ٠

ــ أنت أحسن انسان يمكن أن يعمل فى البورصة ٠

ــ أتظن هذا ؟

ــ أنا محترف وأعرف ما أقول ٠

ــ ولماذا أعمل فى البورصة ؟

ــ لتكسب ٠

ــ وماذا أفعل بالمكسب ؟

ــ ستتزوج يوما ٠

ــ أتظن ذلك ؟

ــ اسمع أنت تعرف خالتك كريمة عز المعرفة ٠

ــ طبعا ٠

ــ أتعتبرها امرأة ؟

ــ كانت ٠

ــ أنا أتكلم عن الحاضر ٠

ــ أنا لم أنظر اليها من هذه الناحية ٠

ــ وهل يستطيع أحد أن ينظر اليها من هذه الناحية ؟

ــ ماذا تقصد ؟

ــ وأنت تعرف طبعا مغامراتى ٠

ــ كلها على يدى ٠

ــ أتعرف لو ارتفعت حرارة خالتك كريمة نصف درجة أصاب بالجنون ٠

ـ هو الحب اذن ؟

ـ وأكثر ·· هو الحياة ·· حياتى وحياة بنـاتى وكل ما لى فى الوجود ·

ـ وتريدنى أن أتزوج ؟

ـ طبعا ·

ـ أتريدنى أن أجن ؟

ـ لا ·· وانما أريدك أن تعيش ·

ـ الزواج مسـئولية وأنا ياعبـد الفتاح بك أرفض المسئولية ·

ـ أنت اليوم شاب فكر فى يوم تصبح فيه فى مثل سنى أنا بدون كريمة وسناء لا أساوى شيئا ·

ـ أما أنا فقاربت الأربعين أما أنت فتساوى كثيرا من غير أحد ·

ـ أوهام ·· أنا أعمل لأسرتى ·· أنت لاتعرف المتعة التى أجدها حين أشغل نفسى بأمورهم ولاتعرف المتعة التى أحس بها وأنا أتكلم مع كريمـة عما سنصنعه لسـناء حين تتزوج ولأمال ·

ـ ولكن لا أنسى الشقاء الذى ساد البيت يوم مات لطيف خطيب سناء ·

ـ أنت رجل مقامر ولكى تكسب لابد أن تخسر ·

ـ أنا أريد أن أكسب فقط ·

ـ المتعة الحقيقية هى المكسب بعـد الخسارة أما المكسب المستمر فيورث الملالة ·· المتعة العميقة هى الخسارة والمكسب معا ·· هكذا الحياة ·

ـ أظن أن هذه متعة لا أحب أن أعرفها ٠

ـ اسمع أنت ستتزوج يوما ٠

ـ لا أظن ٠

ـ سترى ٠

ـ انتظر حتى نـرى ٠٠ المهم لمـاذا لاتعمـل معى فى البورصة ٠

ـ أعمل ٠

ـ حقا ٠

ـ ولم لا ٠

وعمل حفنى فى البورصة وعن هذا الطريق استطاع أن يجد وظيفة لعدلى فى البورصة بعد أن تخرج فى كلية التجارة ٠ وكان اليوم الواحد من العمل فى البورصة يقـدم لعدلى من الخبرة فى المجال الاقتصادى ماتقدمه عشرات السنوات فى أى عمل آخر بهذا الميدان ٠

وعين حلمى وزيرا وحاول حفنى أن يسـتخدم وظيفة أخيه ليصل الى معلومات يسـتفيد فيها فى البـورصة فكان الفشل نصيبه دائما مهما يكن ذكاء حفنى فهو لايستطيع أن يصارع داهية فى السياسة مثل حلمى ٠

والتفت حلمى الى عدلى فوجده مازال عبيطا عبط الشباب فى سنة المؤمنين بالشرف والخلق وأسرار الدولة وواجبات العمل فانصرف عنهما كليهما واتجـه الى صـداقاته وطالما أسعفته صداقاته ٠٠ وازدادت ثروة حلمى وكاد ينشغل تماما عن مائدة القمار وانحصرت متعته فى الحفلات الصاخبة التي

يخرج منها دائما بامرأة لايعنيه من أمرها أن تكون متزوجة أو غير متزوجة ٠

***

كان الحفل رائعا فى بيت رشدى المهدى فقد ترك الشقة التى كان يسكن بها وابتنى لنفسه فيلا أنيقة جعلت أعماله تتسع والمال ينهمر عليه انهمارا وكانت الحفلات التى يقيمها فى فيلته تدر عليه أرباحا خيالية فقد كان يوهم كثرة من الوجهاء أن الحفلة مقامة له خصيصا ليعرفه بالفتاة التى يريد أن يتعرف بها ، وهكذا كان يأخذ مصاريف الحفلة مضاعفة خمسة أضعاف او ستة أو أحيانا سبعة قبل أن تقام الحفلة ٠ وكان من الطبيعى أن يكون حفنى الوسيمى وعبد الفتاح صدقى عضوين دائمين فى كل حفل يقيمه رشدى المهدى ، أما حفنى فلسمعته النسائية ولحب الأصدقاء له وأما عبد الفتاح فلأنه هو أيضا كان يقيم الحفلات فى بيت رشدى المهدى لحسابه الخاص أو أن رشدى يوهمه بهذا على الأقل ٠

كان حفنى منذ تعرف بالأميرة فضيلة قد علا نجمه بين النساء بصورة خيالية ٠ وأصبحت كل فتاة من اللواتى لايمنين كثيرا بالشرف تتمنى أن تكون صديقة لذلك الفتى الذى صاحب الأميرة فضيلة فترة من الزمان ٠

وكان فى هذه الحفلة فى تلك الليلة فتاة أو قل سيدة أو اذا كنت تريد الدقة فى الوصف فقل امرأة اسمها وسيلة الدهرى ٠٠ وكانت لها قصة ٠٠ أما قصتها فلا شأن لها بما أرويه لك ولكننى مع ذلك أجد نفسى مسوقا لقصها عليك ٠٠ اذا كنا اتفقنا أننا نسعى لمعرفة البشر الذى تنتسب اليه ٠٠ أم ترانا لم نتفق المهم كانت وسيلة ٠٠ أتحب أن أروى لك

أنا قصتها أم أتركها هى ترويها لك فأنا حريص على ألا أقص عليك قصة واحدة مرتين • وفى هذه الحادثة التى سأقدمها اليك والتى وقعت بين حفنى ووسيلة ستسمع القصة منها هى فلماذا لا أكتفى بنقل أنباء هذه الواقعة اليك وأترك وسيلة تقص عليك قصتها • والحقيقة أنها فيما قالته كانت صادقة • لا لأن الصدق من طبيعتها ولكن لأنها لم تكن محتاجة لكذب على من تروى له القصة •

كان رشدى المهدى يقدم خدماته للجنسين معا • فكما يستجيب لرغبات الرجال كان يستجيب أيضا لرغبات النساء، وقد طلبت اليه وسيلة أن يعرفها بحفنى وكانت هذه الحفلة هى الموعد الذى حدده لها لينفذ رغبتها •

وسيلة سيدة غاية فى الجمال تركت الثلاثين من عمرها منذ سنوات قلائل وهى زوجة الدكتور فتوح عبد القادر وهو طبيب واسع الشهرة فى أمراض النساء والولادة •• ووسيلة هى زوجته الثانية • وهى تتمتع بشهرة قريبة من شهرة زوجها فى ميدان المغامرات وان كانت لألسنة تتناقل شهرة زوجها فى علانية وصوت جهير فهى تتناقل سمعة زوجته بنفس السعة ولكن خفية وفى صوت هامس •

قال رشدى المهدى :

ـ حفنى بك لابد أنك تعرف وسيلة هانم •

ـ بشهرة الجمال وان لم يسبق لى الشرف •

وقالت وسيلة :

ـ أما أنا فأعرفك بشهرات أخرى عديدة •

وقال رشدى المهدى :

ـ اذن فلا مكان لى بينكما •

خبير هو واسع الخبرة · لقد أتم مأموريته وانصرف ليقوم بالأعمال الأخرى الكثيرة المتراكمة على كتفيه أم يجدر بنا أن نقول المتراكمة على رأسه ·

قالت وسيلة :

ــ غريبة أننا لم نلتق قبل الآن ·

ــ بل لا غرابة فأنا أعرف آن الدكتور مشغول وأنك لاتكثرين من الذهاب الى الحفلات ·

ــ أنت تعرف عنى الكثير ·

ــ اذا لم أعرف عن هذا الجمال كل أخباره فالموت أولى بى ·

ــ أعوذ بالله ·· لا ·· اطمئن ·· انك جدير بالحياة فأنت تعرف كل شىء تقريبا ·

ــ اذن فهناك أشياء لا أعرفها ·

ــ طبعا ·· وهل يستطيع أحد أن يعرف كل شىء عن الآخرين ·

ــ اذن فأنا منتظر أن تخبرينى أنت عما لا أعرف ·

ــ عنى ·

ــ طبعا ·

ــ وهل تظن أن أحدا يعرف كل شىء عن نفسه ؟

ــ الآن عرفت شيئا لم أكن أعرفه ·

ــ أهكذا ؟

ــ أنت فيلسوفة أيضا ·

ــ وهل شفت حاجة ؟

ـ أريد أن أشوف ٠

ـ وماله ؟

ـ متى ؟

ـ متى أحببت ٠

ـ أنا أحب من الآن ٠

ـ من الآن ؟!

ـ من الآن ٠

ـ والحفلة ؟

ـ في ستين داهية الحفلة ومائة حفلة ٠

ـ هيا ٠

ـ هيا ٠

***

كانا فى سرير حفنى عاريين تماما ٠

ـ ها أنت شفت ٠

ـ وما أجمل ماشفت ٠

ـ ولكن أتظن أنك عرفت عنى كل شيء ٠

ـ عرفت أهم شيء ٠

ـ يتهيألك ٠

وعلا صوت جرس الباب يدق فى اصرار متصل فشحب وجه حفنى وابتسمت وسيلة وقال حفنى :

ـ أنا لا أنتظر أحدا ٠

وقالت وسيلة فى عدم مبالاة وفى هدوء :

ـ أما أنا فأنتظر ٠

ـ غير معقول ٠

ـ فعلا غير معقول ٠

ـ ضعى شيئا على نفسك وادخلى الحجرة المجاورة ٠

ـ لاتخف ٠

ـ أنا خائف فعلا ٠٠ افعلى ماقلته لك ٠

وقالت وسيلة فى غير عناية ٠

ـ أمرك ٠٠ ولكن لاتخف ٠

وكان قد وضع على نفسه أحد معاطفه المنزلية وخرج وهو يربط حزامه والجرس مصر على الا يصمت وفتح حفنى الباب ليرى أمامه الدكتور فتوح ولم يخطئه فهو رجل شهير وقد رآه أكثر من مرة فى أكثر من مناسبة ٠ وقال الدكتور وهو على الباب :

ـ أين وسيلة ؟

وكان حفنى مشدوها حائرا فهو مع ممارسته الطويلة للمغامرة لم يلتق بمواقف مثل هذا الذى يعانيه فى لحظته تلك :

ـ ألا تدخل يادكتور ؟

ـ لا أريد أن أدخل ٠

ـ أظن لايعقل أن دكتور فى مثل شهرتك وسنك ٠

ـ لاشأن لك بسنى ٠

ـ فى مثل مكانتك يناقش أمرا مثل هذا على باب شقة ٠

ويدخل الدكتور ويغلق حفنى الباب وهو يقول ٠

ـ تفضل أقعد ٠

والتفت اليه فاذا بيد الدكتور مسدس وروع حفنى ٠

ـ ماهذا يادكتور ٠٠ أهو فيلم سينما ؟

ـ أريد زوجتى •

وقال حفنى وهو يتصنع الشـجاعة وان كان فى دخيلة نفسه قد زلزل الهلع كيانه كله وفى لحظات تصور ماقد ينشر فى غده عنه وعن أخيه وعن الدكتور الشهير وعن وسيلة •

ـ أدخل هذه اللعبة فى جيبك •

ـ أنا أقتلك واقتلها وأقتل نفسى •

ـ وماذا تكسب ؟

ـ أقتلك ••

ودخلت وسيلة وهى تضع على نفسها معطفا منزليا من معاطف حفنى وقالت فى حسم :

ـ قم يافتوح واذهب الى البيت •

ـ اذن فأنت هنا •

ـ قم يافتوح •

وتوقع حفنى أن ينطلق النار من المسدس ليقتل وسيلة وهى فى وقفتها هذه المتحدية وفى ملبسها هذا الذى يدعو ألف رصاصة أن تنطلق ولكن الذى حدث شىء مختلف تماما• ارتخى المسدس فى يد الدكتور • وانخرط العملاق الأشم فى بكاء منهار مستخز واعتمد رأسه بذراعه وتقطعت جمله •

ـ نعم هى تعرف أننى لن أفعل شيئا •• هى متأكدة •• لأنى أحبها •• أحبها •• ضعفى الوحيد فى حياتى •

وقالت وسيلة التى أصبحت مثل صخرة ناطقة •

ـ بل أنت تعرف أنه ليس ضعفك الوحيد•• قم ولاتجعل من نفسك أضحوكة فأنت رجل محترم •

وقال الزوج وهو ينشج :

ــ وهل يمكن لمن يتزوجك ان يكون محترما ؟

وقالت الصخرة :

ــ اذا احترم هو نفسه ·

ــ سأطلقك ·· سأطلقك ·

ــ اذهب الآن الى البيت ·· هيا ·

وقام فتوح أشبه مايكون بكلب يطيع أمر صاحبه وتدلى المسدس فى ذراعه المرتخية وخرج وقبل أن يغلق حفنى الباب وراءه صاحت وسيلة :

ــ ضع هذا البتاع فى جيبك ·

ورآه حفنى وهو يصدع بالأمر مثل آلة ضغط صاحبها على الزر المناسب للحركة التى يريدها منها · وأغلق حفنى الباب وارتمى على كرسى مرتعدا مايزال يكاد ، لايصدق ما رآه منذ لحظات · وأحضرت له وسيلة بعض الماء وراحت ترش على رأسه كولونيا وهى تضحك ضحكا شديدا وهى تقول :

ــ لم أكن أتصور أنك خواف الى هذه الدرجة ·

ــ خواف ·· ياست انت مش واخده بالك من اللى حصل ولا دا كان حلم ·

ــ بل حقيقة ·

ــ أمال ربنا عمل الخوف ليه اذا لم يكن للموقف الذى كنا فيه ·

ــ عمله لغيرك الذين لايغامرون مع زوجات الآخرين ·

ـ طول عمرى أغامر مع زوجات الآخرين ولم يحصل لى شيء من هذا مطلقا ٠

ـ ألست أنت الذى أردت أن تعرف عنى كل شيء ٠

ـ معرفة مهيبة ٠

ـ ألم تنبسط ؟

ـ وهل هناك انبساط فى العالم يساوى هذا الذى كنا فيه ؟

ـ اهدأ ٠٠ اهدأ ٠

ـ انما قولى لى انت ٠٠ ماكل هذا الهدوء ؟

ـ ألم تعرف ؟

ـ أكاد أعرف ٠

ـ ماذا ؟

ـ ليست هذه المرة الأولى ٠

ـ ولا أظنها ستكون الأخيرة ٠

ـ ماحكايتك ؟

ـ هذا الرجل تزوجنى من اثنتى عشرة سنة ٠ كنت أنا لم أكمل العشرين وكان هو فى الستين وقد جاوزها ٠٠ الزواج الحقيقى لم يدم بيننا أكثر من سنتين ٠

ـ ولماذا قبلت الزواج منه ؟

ـ أبى كان غنيا واضاع أمواله كلها وطمع أن يعينه هذا الرجل على الحياة والبنت منا لاتملك من أمر نفسها شيئا ٠٠

ـ اذن ٠٠

ـ وهل فيها اذن ٠٠ كان من حقى أن أستجيب للطبيعة

وكنت فى أول الأمر أحاذر أن يعرف ولكنه عرف وفى كل مرة أتعرف بشخص جديد تتكرر هذه التمثيلية ..

ـ ماذا سيفعل معك حين تعردين الى المنزل ؟

ـ أنا عادة لا أعود فى نفس الليلة التى يقدم فيها هذا العرض الذى شهدته .

ـ اذن .

ـ هل عندك مانع أن أقيم معك بضعة أيام ؟

ـ أهلا وسهلا .. ولكن ماذا بعد بضعة الأيام هذه ؟

ـ أعود الى المنزل .

ـ وزوجك ؟

ـ يستقبلنى وكأنى عائدة من مشوار لم يستغرق أكثر من ساعة وكأن الذى جرى ماكان ونستأنف حياتنا ، هو يعرف أنى أخونه وأنا أعرف أنه يعرف ولايذكر أحد منا للآخر شيئا .

ـ ولماذا لم تقولى لى هذا قبل أن تدهمنى المفاجأة التى كدت فيها أن أفقد حياتى ؟

ـ من مسدسه .

ـ من الخوف .

ـ أحببت أنا أيضا ان أعرف شيئا عن مقدار شجاعتك .

ـ ياست وهل قلت لك انى جنرال ؟

ـ أنت فى حجرة النوم أعظم من جنرال .

ـ فى حجرة النوم انما امام المسدس أنا أقل من قطة .

ـ عرفنا .

ـ الحمد لله انكم عرفتم ٠

***

وفي اليوم التالى ووسيلة لاتزال فى بيته قصد الى بيت عبد الفتاح صدقى ٠

ـ لابد أن أتزوج فورا ٠

ـ ماذا ؟

ـ ألم تسمع ؟

ـ المصيبة أننى سمعت ٠

ـ وما المصيبة فى هذا ؟

ـ كلمتك مائة مرة أن تتزوج وكنت ترفض ٠

ـ والآن قبلت ٠

ـ أنا عندى العروسة ولكن لن أخبرك عنها الا اذا قلت لى ما الذى غير رأيك بهذه السرعة ٠

ـ أنا الآن فى الأربعين واستطيع أن أكون زوجا صالحا لسنوات عديدة ولا أريد أن ينزل على قضاء الله بالزواج وأنا أكبر من هذه السن ٠

ـ كلام معقول ٠

ـ خشيت أن أصاب وأنا فى الشيخوخة بحمى الزواج وأصبح أضحوكة أمام نفسى وأمام زوجتى ٠

ـ لابد أن شيئا قد حصل لك بالأمس ٠

ـ حصل أو لم يحصل لايهم ٠٠ أنا أريد أن أتزوج ٠

ـ وأنا عندى عروستك ٠

ـ من ؟
ـ ابنتي سناء ·
ـ أنا في عرض النبي ·· أنا أعرف سناء وهي طفلة ·
ـ أنت دخلت بيتي منذ كم سنة ·
ـ أظن منذ حوالي عشر سنوات ·
ـ هو كذلك فعلا ·· سناء كان عنـدها في ذلك الحين سبعة عشر عاما ·
ـ حقا ·
ـ طبعا ·· أنت لم تكن تنظر لها لأنك كنت في الثلاثين من عمرك وقطعت السمكة وذيلها ·
ـ وهي تأخرت في الزواج لأنهـا كانت مخطوبة لابن عمتها ·
ـ وأنت تعرف أنه استشهد في فلسطين وأنا أريد أن أخرجها من حزنها عليه ·
ـ لايزال الفرق بيني وبينها حوالي ثلاثة عشر عاما ·
ـ كل زواجتنا تتمتع بهذا الفرق ·
ـ والله معقـول ·· ولكن كيف تقبلني زوجـا وأنت تعرف عني ماتعرف ·
ـ أنت شبعت من النسوان وأنا أطمئن على ابنتي بين يدي رجل في مثل تجربتك ·
ـ على بركة الله ·
ـ نقرأ الفاتحة ·
ـ بل لابد أن يقرأها عني حلمي أخي ·
ـ هكذا يكون كلام العائلات وهو كذلك ·
وتزوج حفني من سناء ·

١٤

حين عاد حسن من الجبهة كانت تحيط به أجواء غريبة كل الغرابة على الذين يعرفونه • فقد أصبح يحاول أن يضفى على نفسه نوعا من الأهمية • وأصبح فايز يهتم بأمره بعض الاهتمام ، الأمر الذى لم يكن أحد يتصور أن يحدث أبدا • بل والأعجب من ذلك أنه أصبح يشارك فايز سهراته بعد أن كان يعدها له فقط دون أن يجرؤ على التفكير فى مشاركته فيها •

وقد أصبح شديد العناية بملبسه فى الحدود التى تتيحها له دخوله المختلفة • والتى مازالت قليلة مع ذلك •

وقد توثقت صلة حسن بالأميرالاى وهبى عبد المولى وصار يتردد على بيته فى انتظام • وكان للأميرالاى وهبى ابنة فى الثلاثين من عمرها وكانت تكبر حسن ببعض سنوات ولكنه

وجد أن فرصة زواجه منها لن تتكرر ومن أين له أن يجد ابنة أميرالاى الا أن تكون زوجة سابقة مات عنها زوجها وترك لها طفلا ٠

ــ ياترى ياسعادة البك أطمع فى هذا الشرف ؟

ــ والله ياحسن ياابنى تعرف أن بنتى كانت متزوجة وقد أصبح لها وحدها الحق أن تقبل الزواج مرة أخرى او ترفضه ٠

ــ البركة فيك ياسعادة البك ٠

ووافقت الست بديعة وهبى على الزواج وطبعا لم يفكر حسن أن يدعو أباه الى العرس ولكنه دعا اليه ــ طبعا ــ حلمى باشا وأخاه حفنى وعبد الفتاح صدقى وعدلى ٠ ودعا أيضا شخصا ربما تكون قد نسيته وهو حامد العراقى الذى عاد من فرنسا ومعه زوجة فرنسية فقد انتهز فــرصة وجــوده فى باريس ووثق أنهم هناك لن يعرفوا شيئا عن جده أو جدته أو الطريقة التى تعلم بها وأين يمكن أن تتوه هذه الأعراق العميقة الجذور فى تربة وش البركة اذا لم يدركها التيه فى باريس ٠

وهكذا تزوج هو أيضا وشــهدت زوجته مادلين زواج زميله حسن ٠ وقدم فايز الى حسن مائة جنيه هدية زواج له استطاع أن يشترى منها حلة العرس ٠ وبدأت مطالع حياة جديدة تسفر عن وجهها لحسن بعد وجه شائه لم تكن الحيــاة تطالعه الا به ٠ وحين انتهى العرس جلست أسرة الأميرالاى وهبى بك تتذكر ماكان من أمر المدعوين ومن أمر الراقصة ومن أمر النقوط ٠ وان لم يكن الحفل كبيرا ولكن الحديث عنه كان موفورا ٠ وغمزت الست حكمت اليازرجى زوجة وهبى لزوجها بعينها وتلقى الاشارة وأحسن فهمها ٠

ـ الا قل لى ياحسن يابنى ؟

ـ نعم ياسعادة البك ٠

وقالت الست حكمت :

ـ ياأخى قل ياعمى ٠

وقال حسن فى نفاق يجرى فى عروقه مجرى الدم :

ـ لايمكن ياست هانم آين آنا من كلمة عمى هذه ؟

وضحك الأميرالاى وهبى فقد كان لقب بك حبيبا الى نفسه دائما وأكمل حديثه ٠

ـ متى تحب أن تتم الدخلة ؟

ـ متى تأمر بديعة هانم ٠

وقال وهبى :

ـ بيدك أن تكون الليلة وبيدك آن تكون بعد آشهر ٠

ـ اجعلها الليلة آنا فى عرضك ياسعادة البك ٠

وضحك الجميع ووضعت بديعة على وجهها خمارا من حياء وقال وهبى :

ـ هل تصر على أن تسكن فى شقة وحدك آنت وعروسك؟

ـ والله الأمر اليها واليك ٠

ـ أنت تعرف أن ابنها نبيه محتاج لمن يرعاه وهنا سته تستطيع أن تكون الى جانبه دائما والبيت هنا كبير وتستطيع أن تعيش معنا وهكذا لاتحرم خالتك حكمت من بنتها الوحيدة ومن حفيدها ٠

ـ وهل يمكن أن أتمنى آحسن من هذا ٠٠ كل مافى الأمر

أنني مواعيدى صعبة كصحفى وسعادتك تعرف وآخشى آن أزعجكم ٠

ـ لا ازعاج فى الأمر سنجعل حجرتك على السلم مباشرة لتخرج وتدخل وقتما تشاء ٠٠

ـ وهو كذلك أمركم ٠

ـ اذهب اذن وأحضر ملابسك ٠

ـ فى لمح البصر ياسعادة البك ٠ فى لمح البصر ٠

ألم أقل لك آن الحيـاة أصبحت تطالعه بوجـه لم يكن يتصور أنه سيراه من هذه الحياة ٠

١٥

حين اندلع حريق القاهرة لم يأت على القاهرة وحدها وانما أتى على أموال حفنى وعبد الفتاح مصطفى فى لفحة واحدة · فالبورصة لم تكن تتوقع هذا الحريق فاذا هى تجابه به وكأنه حيوان شرس جائع وجد طعامه · والمال أكثر شيء جبنا فما الخطب اذا واجه الرعب نفسه والحريق والدمار الآخذ لايبقى على شيء ·

ونزل الحدث على عبد الفتاح مصطفى بالهول الوبيل · فهو انسان طبيعى ضاعت ثروته كلها التى شقى فى جمعها طول عمره · فأى عجيبة أن يصاب بالهول بل أى عجيبة أن يصاب بالفالج · أما حفنى فالأمر معه مختلف كل الاختلاف لقد استقبل الأنباء وكأنه يسمع أمرا ليس يعنيه فى شيء فقد المال الذى كسبه فى البورصة وفقد الأرض التى تركها له

أبوه وأنقـذها له أخـوه وكأنمـا كان ينقذها لتعتسـفها البورصة - وأصبح مصيره ومصير زوجته وابنه فواز الجوع والمسغبة وهوان الفقر وذلة الأخذ وهو الذى تعود الشبع وعزة الغنى وكبرياء العطاء • ولكن لو أنه كان اهتز أقل هزة لأصبح انسانا آخر غير حفنى الذى نعرفه •

ولما استحق منا أن نتيح له هذه المساحة العريضة مما تقدمه لك هذه الرواية •

وقف حفنى للعاصفة مثل الجبل وانتظر حتى انحسر عزيف الرياح عنها مخلفا وراءه الخراب وعبد الفتاح صدقى وقد أصبح جزءا من شىء لا حياة فيه ولا رجاء منه •

وكان حلمى على علم بالأمر وكان يتعرف من أخيه فى كل لحظة على أنباء الخراب الذى يحـل به • واعتصرت الرجـل الوطنى أيد عنيفة من الأسى فهو حزين أشد الحزن على عاصمة وطنه التى يمثل خرابها خراب مصر جميعا وحزين من أجل أخيه الذى أتت الكارثة على أمواله جميعا •

كان حلمى قد ترك الوزارة وهكذا أعفته الظروف أن يكون فريسة لموقف المسئول أمام مسئوليته •

كان من الطبيعى أن يطلب حفنى ليوافيه بمنزله :

ــ أنا أنقذت أرضك مرة وأظننى قادرا على انقاذها مرة أخرى •

ــ ياأخى ربنـا يطيل عمرك • أظنك فى هـذه المرة لاتستطيع •

ــ كيف ؟

ــ الدين الذى تحمله الأرض أكثر من ثمنهـا عشرات المرات •

ـ وماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ هل رأيتنى عمرك أشكو قلة المال ؟

ـ كان لايمكن أن تشكو قلة المال وأنت على ماكنت عليه من غنى ٠ أما الآن فالأمر يختلف ٠

ـ توكل على الله ٠

ـ كم عندك الآن ؟

ـ مايكفينى ٠

ـ لايمكن ٠ فلوسك كلها كانت فى البنك ٠٠

ـ معى مايكفينى ياسى حلمى ٠

ـ طيب ٠٠ خذ هذه خمسمائة جنيه ودبر بها حالك ٠٠ أو ابقها معك اذا كان معك مايكفيك حقا ٠

ـ لن أرفضها ٠ فهذه يد أحب دائما أن آخذ منها أطال الله عمرك ٠

حين عاد حلمى الى بيته أصبح يعرف طريقه تمام المعرفة ٠ فهو حين تزوج كان قد انتقل الى شقة فاخرة ضخمة عريضة الاستقبال تستطيع أن تتسع لمائتين فى ليلة واحدة ٠ وقد أثثها له حموه بأحسن الأثاث ٠ وهكذا بدا حلمى يعطى أوامره ٠ وقد اتخذ موقف المسئولية عن بيته وبيت حميه وماكان الأمر يحتاج الى هذا فقد كان عبد الفتاح مصطفى شأن كل المقامرين قد كتب عمارة لكل فتاة كما كتب عمارة لزوجته فهم يستطيعون أن يعيشوا فى ستر وان لم يكن فى رخاء ٠ ولكن حفنى لم يكن يملك شيئا وهو حريص أن ينال المتعة التى رصد حياته لها فكيف اذن سيبرر تصرفاته المقبلة اذا لم يتظاهر أنه يصنع فى سبيل فواز وأمه بل ويزداد جرأة

على الحق فيدعى أنه ينظر أيضا الى مصلحة حماته ومصلحة آمال •

وحاولت سناء أن تذكره أن دخل والدته وأختها من العمارتين سيكفيهما بل ان دخلها هى من العمارة سيكون قادرا على مواجهة الحياة ، ولكنه قال فى حسم :

ـ لقد تعودتم جميعا على العيش فى سعة وهيهات أن تستطيعوا العيش فى قلة •

ـ وماذا تريد أن تفعل ؟

ـ نذهب لنعيش مع أبيك فى بيته •

ـ هل البيت باق له ؟

ـ انه قد كتبه باسمك واسم آمال فى العام الماضى •

ـ وبعد ذلك •

ـ لاشىء •• أولا تكون عيشتنا واحدة • وتجد والدتك وأختك رجلا معهما تعتمدان عليه •

ـ هل وافقتا ؟

ـ ان أمك هى التى طلبت هذا •

قالها الرجل فى بساطة وهدوء ولو كنت شاهدا الحوار بينه وبين كريمة •• ومالى لا أتيح لك أن تسمعه •

قالت كريمة :

ـ أهكذا ينتهى عبد الفتاح صدقى ياحفنى ؟

ـ عبد الفتاح صدقى لاينتهى أبدا ياكريمة هانم •

ـ ألا ترى اليه ؟

ـ شدة وتزول · انما أنا أرى أن تنتقلى به الى بيتنا ، الأمر قد يحتاج لوجودى معه · ربما احتاج الى طبيب فى الليل أكون الى جانبكم ·

ـ ربنا يابنى يطيل لنا عمرك · وهل أصبح لنا غيرك ·· لا والنبى · لم يصبح لنا غيرك ·

ـ فما رأيك ؟

ـ وكيف يمكن نقله يابنى وأنا كيف أذهب معه ؟

ـ بيتى كبير وأنت تعرفين ·

ـ لكن اسمع ·· أليس بيتنا أكبر ·· لماذا لاتأتى أنت وسناء وفواز وتعيشون معنا · أولا أجد أنا رجلا أطمئن به ونوحد المعيشة ·

ـ أترين هذا ؟

ـ أليس هذا هو المعقول ؟

ـ أمرك ·

وانتهى الحوار ·

ولكن حفنى الجبار يقول لسناء أن كريمة هانم هى التى طلبت · وهذا فى ظاهره حق · ولكنها طلبت لأنه جعلها هو تطلب ·· هكذا حفنى ·· أتذكر حين قلت لك أنك لن تستطيع أن تلم بجوانبه ·

وقالت سناء :

ـ ولكن ماذا سنفعل ببيتنا هذا ؟

ـ ياستى لاتفكرى فيه الآن ·

طبعا يجب ألا تفكر فيه الآن أو بعد الآن فما كانت النقلة الا لما يفكر هو فيه بشأن هذا البيت ·

بدأت الحفلات فى بيت حفنى الوسيمى تضارب حفلات رشدى المهدى ، وبدأ حفنى نفسه يقضى على رشدى المهدى فى صنعته التى عاش عمره كله بها ولها ٠

وعاد المال ينهمر على حفنى وان كان انهماره من انهار أخرى ولكن الرجل لم يكن يعنى أقل عناية بمصادر المال الذى يصل اليه ٠

وكان شوقى سلام يأتى الىحفلات حفنى بانتظام لايخطىء وكان يأتى معه فى كل مـرة بأربعة نفر تعـرف بهم حفنى وأدرك بذكائه الخارق أنهم يدبرون شيئا ، ولكنه أيضا أدرك بذكائه الخارق أنهم لايريدونه أن يعلم عنه شيئا فصمت وقد فطن أنه لو أظهرهم على مايحسه فربما امتنعوا عن المجىء ٠

وفى صباح يوم دق جرس التليفون فى بيت عبد الفتاح صدقى الذى أصبح بيت حفنى الوسيمى ٠

ــ أنا شوقى ٠

ــ أهلا شوقى ٠٠

ــ أين ستذهب فى الصباح ٠

ــ لا مكان ٠

ــ اذن فاذهب الى جروبى ٠

ــ ولماذا لاتأتى أنت الى هنا ؟

ــ اسمع مأأقوله ولاتناقش ٠٠ الساعة الحادية عشرة فى جروبى عدلى ٠

سلام عليكم ٠

ــ وعليكم السلام ٠

ـ تذهب الى أخيك فورا وتطلب منه أن يبيع مايستطيع من أرض ٠

ـ ماذا تقول ؟

ـ ماتسمع ٠

ـ وما الذى يجعله يصدقنى ؟

ـ أخوك سياسى وهو يرى الحالة بعين الغيب وسيعرف أن الكلام ليس تخريفا ٠

ـ كل أرضه ٠

ـ ان استطاع ٠

ـ وان لم يستطع ٠

ـ لايبقى منها غير خمسمائة فدان ٠٠ خمسمائة على الأكثر ٠

***

وقال حلمى باشا :

ـ خمسمائة فدان ٠

ـ على الأكثر ٠

ـ أترى هذا معقولا ٠

ـ اسمح ووكلنى واترك الأمر لى ٠

ـ اننى أملك أكثر من ألف وخمسمائة فدان ٠

ـ هذا شأنى ٠

ـ تعال غدا خذ التوكيل ٠

***

ذهب حفنى الى العزبة وصحب معه عدلى ٠ وراحا يبيعان الأرض متظاهرين أن حلمى باشا يريد أن ينقذ أخـاه ٠

واستطاعا فعلا أن يبيعا كل مايزيد عن الخمسمائة فدان وأحضرا الأموال وسلماها الى حلمى باشا الذى وضعها فى خزانة بيته وانتظر الأحداث .

ولم يطل به الانتظار .

وحين صدر قانون الاصلاح الزراعى الأول كانت الأرض التى يملكها لاتزيد عما فرضه القانون الا مائتى فدان استطاع أن يبيعها بسهولة مطبقا نفس القانون الذى كان يسمح لمن تزيد أرضه عن النصاب أن يبيعها .

١٦

حين قامت الثورة كان حفنى صديقا للأغلبية الكاثرة منها • وقد جاءه شوقى الذى يتصدر منها مكانا مرموقا فى ليلة من ليالى بيته التى ازدادت ازدهارا مع الأحداث الجديدة وقال شوقى :

ـ قل لى ياحفنى هل أساء أخوك حلمى الى الصحفى حسن هنداوى •

ـ أساء •• انه هو الذى جعله يذهب مندوبا عن المجلة فى حرب فلسطين وهو الذى •• النهاية لا أحب أن أذكر ماصنعه معه ولا ماكان يعطيه له من •• المهم ••

ـ هل أنت جاد ؟

ـ الأمر معروف • اسأل أى صحفى يخبرك •• لماذا ؟

ـ طيب وحسن العراقى هل أساء له أخوك ؟

ـ كل الاساءة ٠

ـ كيف ؟

ـ هو الذى رجا فايز حتى يكون مندوب المجلة فى باريس ٠

ـ عجيبة ٠

ـ ماذا حصل ؟

ـ أنت لاتتصور كيف كان كل منهما يصر اليوم على أن يلقى أخوك فى السجن مع المعتقلين السياسيين ٠

ـ هل هذا معقول ٠٠ ماذا قالا ؟

ـ قالا ان الوجوه القديمة لابد أن تتغير وأن الناس لابد أن تعرف أن حياة جديدة فى الطريق ٠ ولابد لهؤلاء السياسيين أن يختفوا من الحياة ، وقلت لهم حتى الشرفاء ، فقال حسن وخاصة الشرفاء لأن هؤلاء هم الذين يخشى منهم على الوضع الجديد ، وأيد حامد كلامه فى صياغة آيدولجية وألفاظ رنانة ٠

ـ يانهار أسود وبعد ٠

ـ ولا بعد ولا قبل ٠٠ أصررت أنا وأصدقاؤك الذين تعرفهم فاستثنى أخوك من الاعتقال ٠

***

وهكذا اجتاز حلمى باشا كل ماوقع على زملائه من ضير وأحس السياسى المحنك أن الحياة فى مصر تغيرت ورأى أن خير مايفعله أن يبتعد ٠

ينظر الى الجهلاء والمنتفعين فيجدهم أصحاب رأى يقال وينشر وينفذ ، وهو الذى كانت مصر عنده عقيدة كأنها دين يحرم من أن يقول رأيه ٠٠ هذا الحق البسيط الذى ينبغى أن يتمتع به كل فرد من أفراد الشعب الحر ٠٠ ولكن أين الحرية فى بلد أصبح أخوه حفنى هو الذى يحميه فيها ، ولم يكن يعرف عن حفنى الا أنه انسان فشل فى كل ماعهد اليه من الحياة ٠ ولم يرق اليه النجاح الساحق الذى يحققه حفنى فى كل ليلة فى البيت الذى شهد زواجه وشهد مولد ابنه فواز الذى أسماه على اسم جده وكأنه انسان يعرف كيف ينتمى الى أسرة عريقة ٠

ولكن أصدقاء حلمى كثيرون ٠ وما لم يرق اليه فى شهر بلغه نبؤه بعد أشهر وكأنما كان هذا الذى بلغه ستار الختام لحياته ٠ فقد طلب أخاه فى التليفون وأمره أن يحضر اليه فورا ٠ وكان أمر حلمى عند حفنى معناه النفاذ ٠ فما أسرع ماقصد اليه وجلس منه تلك الجلسة التى تعودها معه ولم يستطع أن يغيرها وكأنه مازال ذلك التلميذ الذى لم يستطع أن ينال الشهادة الابتدائية ٠

كان حلمى قد استطاع أن يقف صلبا شامخا أمام كل ما مر به وبمصر ٠ ولكنه فى هذه المرة لم يستطع أن يبقى على هدوئه ٠ كانت عيناه تلتمعان بدموع يمنعها الكبر أن تسيل فانفجرت نبضا على شفتيه ورعشة فى يديه لم يتح له أن يتحكم فيها وتخلج لسانه فى فمه ٠

ـ أحقا ياحفنى ٠٠ احقا ٠٠

ـ ماذا ياسى حلمى ؟

ـ أحقا ٠٠ أحقا ٠٠

وآثرت روحه أن تخرج الى بارئها قبل أن تخرج الكلمة التى تجمدت على لسانه الى حفنى ٠

ومات حلمى ٠٠ ومات عهد ٠

١٧

انفرد عدلى بين كل لداته من أبناء الأثرياء بأن المال كان موفورا لديه فلم يشك الفقر ولا القلة وكان له فى عمه حماية أى حماية ولكنه كان غير مرتاح قط كان يقول لى :

ـ الله وحده يعلم كيف استطاع عمى حفنى أن يحصل على هذه الأسرار التى حفظ بها ثروتنا ٠

وكنت أحس أنه كان يريد أن يتعرف منى على مدى انتشار الحقيقة التى يتناقلها الناس عن عمه ٠ كنت واثقا أنه يعرف ولايريد أن يعرف وكنت أشفق عليه أن أظهره على مايقوله الناس وكنت أختار لنفسى طريقا ملتويا ٠

ـ ياأخى وأى عجيبة أن يحمى أخ أموال أخيه ٠

ـ لست من هذا أعجب وانما أريد أن أعرف كيف وصل الى هذه الأسرار ٠

ـ من أصدقائه ٠

ـ مانوع هذه الصداقة وماذا وراءه وما مداها ؟

ـ وفيم يعنيك هذا ٠٠ لقد أنقذه أبوك مرة من الخراب وأنقذ هو أباك مرة فى مقابلها ٠

ـ أما أبى فأنقذه بماله أما هو فماذا قدم لينقذ ابنى ٠

ولم يكن شيء يجعل عدلى يسكت عن هذا التساؤل كلما خلا به وبى مكان ٠

***

لم يكن عدلى يستطيع أن يعيش دون أن يعمل فقد التحق بالوظيفة منذ تخرجه ولم يكن فى التحاقه بالوظيفة آمرا يستحق منه انعام نظر أو امعان فكر فهو حاصل على شهادة التجارة العليا وعين فى الدرجة التى يعين بها كل زملائه وكان تعيينه فى البورصة لأن عمه كان يعمل بها وصداقاته فيها مشهورة معلنة لاتحتاج الى البحث عما وراءها ان كان شيء وراءها ٠

ومرت على وفاة أبيه سنة وبعض السنة وهو مقيم فى بيته مع والدته التى بدأت تلح عليه آن يتزوج شأن كل أم لها ابن وحيد وتريد أن تطمئن آن حياة أبيه التى اعتسفت ممتدة فى حفيد يوحى اليها ببعض طمأنينة أن حلمى الوسيمى لم يمت ٠

وكان عدلى يرى أن زواجه أمر طبيعى فهو ليس من رواد الليل ولا هو عربيد ولا صاحب لهو فسنة الحياة سنته والطريق

الذى رسمه المجتمع هو طريقه لايريد أن يخرج عنه ولا أن يغير الكون أو يحطم ماجرى عليه عرف الحياة ٠

وقد وجد فى ابنة خاله احمد نشيدته فهى فتاة متعلمة حصلت على شهادة الآداب وذات جمال ناضر نقى وقلب يافع طازج مقبلة على الحياة اقبالة طهورا رصينة ، وهو منها ومن أسرتها فى امان أى امان ٠ أمها كانت منه بمنزلة الأم وأبوها أبوه ٠ وهما أسرتان لاتجمعهما صلة الرحم وحـدها وانما يجمعهما أيضا قانون مجتمع واحد وخلق متشابه ، فهما وان كانا يعيشان فى بيتين الا أنهما فى تكوين أخلاقهم وتفكيرهم بيت واحد ٠ حتى لقد كان كل بيت منهما يطلق على البيت الآخر كلمة البيت الثانى فلا يقال بيت الباشا ولا يقال بيت أحمد بك فى أى من المنزلين وانما يقال البيت الثانى ٠ فهما اذن بيت واحد ٠ فزواج عدلى من حورية أمر يكاد يكون مقررا بالأمر الواقع حتى أنه لو لم يحدث لكان شذوذا عن الطبيعة الكونية لا معنى له ولا داعي اليه ٠ وكان من الطبيعى أيضا أن تقيم حورية مع عمتها فى نفس البيت ٠

***

حين أغلقت البورصة أبوابها كان عدلى قد أنجب ولده الأول منذ سنوات وكان من الطبيعى أن يسميه حلمى ٠ ولم يطق عـدلى أن يعمل فى الوظيفة التى نقـل اليها فقد كان لايصنع شيئا الا أن يقبض المرتب فى آخر كل شهر وهذا أمر يأباه ضـميره كما أن طبيعة عـدلى ترفض أن يكون بلا عمل حقيقى وليس يرضى أن يتوارى أمام النـاس وراء وظيفة بلا عمل ٠

كان قد تعرف وهو فى البورصة على أكبر المحاسبين شأنا وقد اختـار منهم مكتب الدكتور فكرى الدهشـان فقد كان

يأنس اليه وكان يحس منه أمانة منقطعة النظير كما أنه كان يعجب بعلمه النظرى والعملى جميعا ٠

وقد كان الدكتور فكرى من الذين يعجبون بوالده كل الاعجاب ولم يكن يخفى اعجابه هذا كلما دعا الحديث أن يبديه ٠ قصد اليه ٠

ـ يادكتور أريد أن أعمل معك ٠

ـ وتترك الحكومة ؟

ـ أنت بالذات تعرف معنى أن يتناول الانسان مرتبا دون أن يعمل فى مقابله شيئا وأنت بالذات تدرك معنى أن يكون الانسان فى ريعان شبابه وفى استقبال القادم من الأيام دون أن يعد نفسه لذلك بالعمل والجهد ٠

ـ ولكن ياعدلى يابنى عمل المحاسبين فى مصر أصبح محدودا كما تعرف ٠

ـ وهل طلبت منك مرتبا ؟

ـ اذا كنت أنت لاتقبل أن تنال أجرا بلا عمل فاننى أنا أيضا لا أقبل أن يعمل محاسب فى مكتبى بلا أجر ٠

ـ أنت تعلم أننى والحمد لله موفور ٠

ـ لايعنينى هذا فى شىء ٠٠ أنت ستعمل معى فلابد أن تنال مرتبا ٠

ـ اذن فأنت ترفض أن أعمل معك ؟

ـ وهل تتصور هذا ؟

ـ هذا مافهمته من كلامك ٠

ـ ان ماقلته واقع لاشأن له بعملك معى فان مجرد ابداء رغبتك فى العمل معى يعتبر كأنك عملت فعلا فأنت تعرف رأيى فيك وفى المرحوم والدك ٠

ـ اذن ٠

ـ اسمع أنا لن أجد خيرا منك ليتولى أعمال مكتبى فى مصر ٠

ـ ماذا ؟

ـ هذا هو الجديد ٠٠ لقد فتحت مكتبا فى الكويت وأعتقد أنه سيشغلنى بعض الوقت عن المكتب هنا ٠ والعمل الحسابى فى مصر كما قلت لك أصبح نادرا أو أقل من النادر وخاصة فى المكاتب الكبيرة مثل مكتبى وكنت فكرت أن أقفل المكتب هنا ولكنى سرعان ماطردت الفكرة فقد أحسست أنها أشبه ماتكون بالانتحار فالدنيا ياعدلى ليست فلوسا فقط وها أنت تبحث عن عمل مع أنك تستطيع أن تعيش على دخلك وهذا المكتب يمثل عندى كفاح عمرى كله فأنا اذن سأتركه فى رعايتك وأسافر أنا لانشاء مكتب الكويت وسنكون على اتصال دائم اما بأن تأتى أنت الى الكويت أو بأن أجىء أنا الى القاهرة ٠٠ مارأيك ٠

ـ سأقدم استقالتى غدا ان شاء الله من الحكومة وان كنت مندهشا مما سمعت ٠

ـ ومم الدهشة ؟

ـ أنت بلا ولد وقد كونت اسما عظيما ولاشك أنك كونت ثروة ففيم اذن سفرك الى الكويت وهذا الجهد ٠

ـ عجيب شأن الناس ٠ لماذا يظن الناس أن مايصدق عليهم لايصدق على غيرهم ٠ يارجل ألم تأت الى هربا من الفراغ ؟

ـ أنا آسف لك حق ٠

١٨

كانت الحياة الجديدة هى أصلح حياة لحسن هنداوى ٠ وكأنما تم كل هذا الذى تم ليصبح حسن هنداوى فى الذؤابة العليا من القمة ، والحقيقة أنه كان يعرف طريقه كل المعرفة فاذا هو حوت شرس ٠ يحرص كل الحرص أن يمزق بأسنانه الحادة المتراكبة كل من كان ذا فضل عليه فى ماضيه ٠ استطاع أن يزج بفايز الى السجن أو أوحى الى مستمعيه أن عدلى لاحديث له الا الهجوم والتنقص واعتقل عدلى ولكنه لم يبت ليلته فى المعتقل فقد أدركه عمه مرة أخرى وخرج بعد عشر ساعات من اعتقاله فصداقات حفنى لم تكن مقصورة على فئة بعينها انما هى تنداح وتتسع فتشمل كل ذى سلطان فى أى وقت ٠ وكأنما كانت شقة حفنى مظهرا لايكتمل سلطان ذى السلطان الا به ، فلم يكن عجيبا أن يكون محاطا

بسياج من الأمان يستطيع أن يصد عنه وعن كل من يهتم به أى عادية ٠

ولكن العجيب أو ربما لم يكن عجيبا أن حسن لم يحاول يوما أن يمد أباه بشيء بعينه على الحياة مع أن المال كان يجرى بين يديه سيلا لم يطف يوما بأحلامه ٠ وبعد أن كان يعيش مع الأميرالاى فى بيته ابتنى هو لنفسه فيلا خاصة وطبعا أقامت فيها زوجته وحدها دون أهلها ودون ابنها وانما أقامت معهما ابنته التى أسماها جميلة ٠

أما حامد فقد فشا هو والآخر واعتلى مكانا سامقا ربما لايطاول مكانه حسن الا أنه ليس بعيدا عنه كل البعد ٠ وقد كان حامد بحاسته وبقدرته الفائقة على النفاق حريصا أن يجعل حسن راضيا عنه دائما كل الرضا ٠

***

كان عدلى جالسا فى سميراميس فى انتظار صديقه الصحفى فخرى عبد النبى الذى كان يعمل تحت رئاسة حسن ٠ وجاء فخرى وهو ملتاع خائف لايطيق أن يخفى من لوعته أو خوفه شيئا ولم ينتظر عدلى أن يسأله بل عاجله ٠

ـ مصيبة سوداء ٠

ـ ماذا ٠٠ قل ؟

ـ قرأت اليوم نعيا لعم حسن هنداوى ٠

ـ نعم قرأته ٠

ـ أنت أيضا ٠

ـ وما العجيب فى هذا ؟

ـ يبدو أن أحدا لم يقرأه الا أنا وانت ٠

ـ كيف ؟

ـ كان من الطبيعى آن آذهب الى العزاء كلمت زملائى فاذا هم جميعا يرفضون الذهاب ، منهم من يدعى المرض ومنهم من يدعى الشجاعة والعزوف عن النفاق ٠ فقلت أذهب وحدى والأمر لله ٠ البلدة ليست بعيدة عن القاهرة استأجرت سيارة أجرة وذهبت ٠٠ وياليتنى ماذهبت ٠

وقال عدلى وطيف ابتسامة يتماوج على فمه ٠

ـ فعلا ياليتك ماذهبت ٠

ـ أنت أيضا تعرف ٠

ـ لو كنت سألتنى لأخبرتك ٠

ـ أأطلب منك أن تعزيه وأنا أعرف آنه حاول أن يعتقلك ٠

ـ كنت سأرفض الذهاب ولكن ليس من أجل هذا السبب ٠

ـ فلماذا ؟

ـ أكمل حكايتك

ـ ذهبت فوجدت العزاء بلا سرادق ولا حتى كراسى وانما جلسنا على الأرض وتحتنا شريط من الحصير ٠ وكان أبو حسن يستقبل العزاء وعليه معطف حائل اللون يملأ الرتق جوانبه جميعا ٠

ـ هذا هو السبب الذى رفض زملاؤك الذهاب من أجله ٠

ـ أكلهم يعرفون ٠٠ أليس هناك خائب غيرى ٠

ـ وفيم خوفك ٠

ـ أن يعرف أننى عزيته ٠

وضحك عدلى وقهقه ثم انخرط فى البكاء فى حـزن شديد وأخذ فخرى وكأنما خشى أن يكون صاحبه قد أصابه مس من الجنون ٠

ـ الله ٠٠ عدلى ٠٠ عدلى ماذا بك ؟

وتماسك عدلى وصمت وناوله صديقه كوب ماء وشرب ثم تكلم وكأنما ينعى نفسه ٠٠

ـ أهذه هى مصر ٠٠ يخاف فيه الشخص أن يعرف رئيسه أنه عزاه وعرف أنه سافل مع أبيه وضيع ساقط المروءة ٠ كان من الطبيعى أن يخاف الشخص اذا لم يقم بواجب العزاء أما أن تخاف ـ وأنت محق ـ لأنك قمت بالواجب فواضيعة مصر ٠ ولا يخـاف الشخص الذى لم يقم بواجبه أو ببعض واجبه نحو أبيه أصل وجوده وصاحب اسمه ٠ وتكون أنت يامن قمت بواجبك مرؤوسا ويكون الآخر رئيسا ٠٠ فلأى شىء صنع البكاء اذا لم يكن صنع لهـذا الذى ترويه ٠ وهو أهون مانراه ٠

***

كيف أعيش فى مصر ٠ لقد جربت أن أنافق وفشلت ٠٠ لا شجاعة منى ولكن طبيعة تكوينى ترفض أن تتيح لى هذه الميزة التى تتمتع بها الكثرة الكاثرة ممن أعرفهم ٠

مازلت أذكر ذلك اليوم الذى قمت به فيه بمراجعة دفاتر

رجل الأعمال الشهير مرجان علوان الذى نجا من التأميم لسبب لايعرفه أحد • ربما كان له هو الآخرعم كعمى • المهم راجعت دفاتره فوجـدت أنه لص من أكبر اللصـوص الذين تسمع عنهم • ووقفت أمام دفاتره حائرا • مكتب الدكتور فكرى ليس فيه مثل هذا وان كان فيه ماعملت معه أو لما قبل هو أن أعمل معه • ولكننى أيضا لاأستطيع أن أرفض الزبون برأيى المفرد فهذا قرار يجب أن يتخذه صاحب المكتب نفسه الموجود الآن بالكويت •

كان على أن ألقى مرجـان • وجـاء الرجـل فى الموعد المحدد •

ــ أنت ياعدلى بك رجل سمعتك مثل الجنيه الذهب •

ــ ألف شكر •

ــ وليس هذا غريبا على من له أصلك واسم أبيك نار على علم •

ــ ألف شكر يامرجان بك •

ــ وأنا والحمد لله رجل لا أقبل مليما حراما •• وأنت اطلعت على دفاترى ومثلك لاتخفى عليه خافية ولو كان فيها لا قدر الله شىء لاترضى عنه ••

ومضى الرجل يتحدث عن الشرف الذى يتمتع به وعفة اليد وكيف أنه لاياكل على الحكومة مليما واحدا •• وثبت أنه يملك مع ذمة اللص جرأته على الحق • وعزمت فى نفسى أن أؤيد كل كلمة يقولها عن نفسه وبدأت أرتب الحديث • أستغفر الله يامرجان بك أنت رجل فوق كل الشبهات ولايجرؤ أحد أن يشك فى ذمتك •• الى آخر هذا الحديث الذى تواضع

المنافقون على قوله لكل اللصوص فأنا أعرفه ولست أغباه • كان المهم فقط أن أقوله • فأنا لم أقله قط لمن لايستحقه • ظللت أتمرن على الكلام طوال الفترة التى يتكلم فيها مرجان عن ضميره اليقظ ويده الشريفة وذمتـه النقية • ولم يكن حديثه قصيرا فالفترة التى أتيحت لى للتمرين لم تكن قصيرة حتى اذا سكت مرجان وجدتنى أقول فى عفوية وانطلاق دون أى ريث من تفكير •

ــ الحقيقة يامرجان بك أنك أكبر لص التقيت به فى حياتى •

وسكت ، وجوبه الرجل لحظة ثم انفجر ضاحكا باعلى صوت له ووجدتنى أقول :

ــ ولكننى لا أمزح يامرجان بك •

وازداد ضحك الرجل • حتى اذا هدأ الضحك قال :

ــ العجيبة أن هذه هى الحقيقة ولكنى اسمعها لأول مرة وقد كنت أفكر ماذا أنا صانع اذا جابهنى بها أحد •

ولم أجد شيئا أقوله وكان الرجل غاية فى الذكاء فقد سرعان ما استرد وجهه ملامح الجد •

ــ ان الحكومة التى تسرق الأفـراد لابـد أن يسرقهـا الأفراد •

ــ الحكومة شخصية معنوية تمثل الشعب أجمع وأموالها أمـوال عامة لايجوز لأحـد أن يسرقها والذين تتكلم عنهم يمثلون أنفسهم ولا يمثلون مصر • وعلينا أن نؤدى واجبنا نحو بلدنا حتى لو كان هناك من لايؤدى هذا الواجب •

ــ اذن فانت ترفض الدفاتر •

ـ أنا شخصيا لن أكون مسـئولا عنها أما رفضـها أو قبولها فمن حق صاحب المكتب الدكتور فكرى وحده ٠

ـ أنا أعرف مكانتك عنده ومادمت أنت رفضتها فهو أيضا سيرفضها ٠ فدعنى آخذها ويادار ما دخلك شر ٠

ـ هذا اليك ٠

ـ أتصدقني ان قلت لك شيئا ٠

ـ هذا يتوقف على ماستقوله ٠

ـ أنا معجب بك غاية الاعجاب ٠

ـ ألف شكر ٠

ـ ولكنى لا أتمنى أن تعمل معى ولا أن تعمل لى ٠

ـ الآن صدقتك ٠

ولم أعجب من الدكتور فكرى حين رد على رسالتى التى قصصت له فيها ما كان من أمر مرجان ووجـدته سـعيدا بموقفى كل السعادة ولكن الدكتـور فكرى فى الكويت ٠ فكيف أعيش أنا فى مصر ٠ ومع من أستطيع أن أعمل ٠ بل مع من أتكلم ٠٠ كلام الناس فى مصر همس بل لقد انقطع الهمس خشية أن تشى النفس بالنفس ٠ مع من أعيش ٠ مع زوجتى ٠ وابنى وأمى ٠ ولكن الحيـاة لاتستقيم الا مـع الحياة ٠ اذا لم أر الى الناس وأجلس اليهم وأعيش حياتى كما ينبغى لانسان فى مجتمع أن يعيش فما الحياة ٠ هذه مصرى أنا وهى مصر كل انسان فيها ٠ فكيف تنحسر ملكيتها وتصبح مقصورة على عمى حنفى ومن يذهب الى شقته فى خوافى الظلام الذى لا يخفى شيئا ٠

كيف أعيش فى مصر ٠٠ واذا أنا استطعت فما مصير

حلمي أنه الآن في العاشرة من عمره وستلقفه في غد هذه الحياة فأي الطريقين سيسير فيه وأي النجدين سيهتدي اليه . أهو سائر في طريقي وطريق جده أم هو آخذ سمته الى طريق عمي . ان الدماء التي في عروق حفني هي الدماء التي في عروقي . وهي نفسها التي في عروق ابني حلمي . ففي نفسه فجورها وتقواها ..

ان البيت الذي نشأ أبي ونشأني هو البيت الذي نشأ حفني وهو نفسه الذي سينشأ في اجوائه وتعاليمه حلمي الحفيد فما مصيره .

واذا كان عمي حفني قد اختار طريقه والحياة في مصر فيها الجانبان فما مصير حلمي وهو لن يجد الا جانبا واحدا هو جانب عمي حفني ورواد لياليه .

***

جاءني عدلي وعرض على حيرته تلك ووجد عندي الصمت المطبق . فقوله كله حق . والله وحده يعلم مصائر الناس . ولا أستطيع أنا ولا أعتقد أن غيري يستطيع أن يطمئنه . ولم أجد شيئا أجيب به حيرته الا أن أسأله .

ــ ماذا تتوقع ؟

ــ في أي شأن .

ــ في شأن مصر .

وصمت قليلا وقال :

ــ لم يبق الا الكارثة .

وذهلت وأكمل :

ـ لكل أمر مستقر ولكل فورة نهاية . ومادامت الأمور قد بلغت هذا المدى فلابد أن تنكشف عن قمة الهاوية اذا جاز هذا التعبير .

ـ أهذا ما تتوقعه .

ـ لابد للسائر أن يقف ولابد للصاعد أن يبلغ القمه أو يهوى ونحن صاعدون قدما على جبل من أوهام وفساد وليس للفساد قمه الا الهاوية .

وما لبثت أن جاءت ٦٧ تحمل فى طواياها كل ماتنبأ به عدلى . وكان أبنه حلمى قد تخطى الحلقة الأولى من حياته . ولكن عدلى لقينى والدموع فى عينيه وهو يقول :

ـ انها ليست على مصر الحاضر وحدها وانما على مصر الغد أيضا .

ـ أعوذ بالله

ـ لو رأيت حلمى ابنى وكيف أصيب فى سنه هذه الباكره بانهيار عصبى .

ـ كل الشباب كذلك .

ـ الشباب نعم لأنهم شهدوا غير ماكانوا يسمعون ورأوا عكس كل ما كانوا يتوقعون . أما حلمى فهو لم يصبح شابا بعد . فما مصير جيله اذا أشرقت حياتهم على الحروب وافتتحوا مستقبلهم بالخراب .

***

لست أدرى أى الأسباب كان هو الأقوى عند عدلى حين قرر أن يسافر الى الكويت .

فقد حــدث أن أصيب الدكتور فكرى بأزمة قلبية فى الكويت وحين شفى منها قرر أن يعود الى مصر وعرض على عدلى أن يقوم هو بأعمال مكتب الكويت ٠

– يابنى ياعدلى أنا ليس لى أولاد ومكتب الكويت يدر مكاسب طائله وحرام أن أقفله دون أن تستفيد منه فلماذا لا تذهب تقوم بشأنه ويكون لك نصف الأرباح والنصف لى طول حياتى حتى اذا أختارنى الله الى جواره تكون أنت قد تعرفت على الناس هناك وبارك الله لك فى المكتب جميعه ، وفى مكتب مصر أيضا ٠

وقبل عدلى ٠٠ هــل من أجل المال ٠٠ لقد كان عنــده ما يكفيه ٠٠ أكان يريد أن يهرب من مصر ٠٠ أم يريد أن يهرب من نفسه فى مصر ٠ ولكنه سيلقى مصر ونفسه فى الكويت أو فى أى مكان ٠ ولو كان استشارنى ما نصحت له بالذهاب ، ولكن الانسان لا يستشير الا اذا كان مترددا فهو اذن لم يتردد وغادر مصر الى الكويت وتركنى أنا أقول لعله كان يريد أن يعمل أى شىء غير السكون والصمت والجمود فليس هنــاك سبب واحد يجعله يترك مصر وزوجته وابنه وأمه الا أنه كان يريد أن يصنع أى شىء ٠٠ أى شىء حتى ولو كان هذا الشىء ترك نفسه الى مالا يدرى ٠٠ لعله كان يريد أن يبحث عن نفس آخرى لاتضيق عليه الخناق ولاتلهيه بعذاب القلق ٠

ربما هرب من الترجح بين الأمل واليــأس الى احــدى الراحتين ٠ مسكين عدلى فما كان يعرف الى الهدوء سبيلا ٠ ولو كان على غير ماهو عليه لكان الهدوء ملك يمينه ورهن اشارته ٠

١٩

سمعنا عن قصة ذلك المهندس الذى استدعاه صاحب أحد المصانع ليرى رأيه فى آلة توقفت عن العمل وكانت الآلة تساوى ملايين الجنيهات وكان المصنع قد آخذ قراره بالاستغناء عنها وشراء غيرها الا آن القــائمين بأمر المصنع آرادوا أن يكونوا على ثقة من قرارهم فاستقدموا هذا المهندس ليعطى رأيه وليصدر قرار المصنع النهائى · ورآى المهندس الآلة وقال فى بساطة :

ـ أستطيع اصــلاحها ويمكن آن تعمل بعد ذلك عــدة سنوات أخرى ·

ووافق صاحب المصنع ولكن المهندس طلب آجر اصلاحها للآلة خمسين آلف جنيه ولم يجد صــاحب المصــنع بدا من الموافقة ·

ولبس المهندس حلة العمل وأمسك بعض المفاتيح وواجه الآلة وربط مسمارا هنا وآخر هناك واستغرق عمله ساعة أو بعض الساعة وضغط على زر الآلة فعملت وعادت وكأنها قادمة لتوها من مصنعها • وخلع حلته وذهب الى صاحب الآلة وطلب أجره • ولكن صاحب المصنع بعد أن دارت الآلة ذات الجنيهات الملايين استكثر أن يدفع خمسين ألف جنيه من أجل ساعة عمل واحدة وقال للمهندس :

ـ أتريد خمسين ألف جنيه من أجل عمل ساعة واحدة •

ولكن المهندس قال له في ثقة :

ـ لا ياسيدى اننى اتقاضى خمسين ألف جنيه من أجل عمل خمسين سنه فالخبرة التى قدمتها لك فى ساعة واحدة اكتسبتها انا فى خمسين سنة •

وأمام هذا المنطق الحاسم لم يجد صاحب المصنع مناصا أن يدفع الأجر الذى اتفق عليه •

ولكن بعض الدول العربية مازالت تفكر بتفكير صاحب المصنع ، وقليلة هى الدول التى تفكر بتفكير المهندس • فالخبرة التى تقدمها مصر الى الدول العربية هى خبرة آلاف السنين تلقوها من أجدادهم الذين بنوا الأهرام مارين بكل ما مرت به مصر من تجارب فالصانع المصرى لا مثيل له فى العالم والعلماء المصريون يقفون مع علماء العالم على قمة واحدة والمثقف المصرى هو منارة العالم العربى آجمع •

فمالى أرى الناس فى الكويت تعاملنا نحن المصريين المقيمين فيها هذه المعاملة وقد شهدتهم يستقبلون الأدباء المصريين والعلماء والفنانين أعظم استقبال ويحتفون بهم كل الاحتفاء ويجلونهم غاية الاجلال ••

ولكن المقيم عندهم لا يلقى من هذا شيئا . وأعرف أن الشعب الكويتى مثله مثل الشعوب العربية جميعا يحب مصر والمصريين غاية الحب ولم لاوقد تعلموا على مدرسيهم وحفظوا شعرهم وغنوا غناءهم . فما بالهم اذن اذا أقام معهم المصريون تكبروا وشمخوا عليهم بأنوف عربية من شأنها أن تعرف الكبرياء ولا يجوز لها أن تعرف التكبر . يذكروننا ببيت الشعر القديم :

وكان بنــو عمي يقولون مرحبــا
فلما رأونى معــدما مات مرحبــا

وعلم الله ما أصـبحت مصر معـدمة الا بظروف قاهرة فرضت عليها فرضا ولم تخترها وعلى آية حال فقد انفقت مصر على الحروب العربية ما أبهظ مقدراتها بقدر ما ابهظها المتلفون الذين اضاعوا اموالها واذكر البيت القديم أيضا :

يعيرنى بالدين قـومى وانمـا
ديونى فى اشياء تكسبهم حمدا

أكان ذنبنا أن حاربنا نحن وخلطنا بالمال دماءنا دفاعا عن العرب أم كان ذنبنا أن تولى أمرنا من جلب علينا هزيمة ٦٧ . ولماذا اعتبرت هزيمة ٦٧ هزيمة لمصر وحـدها ولم تعتبر هزيمة للعرب أجمعين .

يعيروننـا فى الكويت وفى العـراق وفى دول الخليج بالهزيمة ونصلى نحن المصريين مرارة الخجل والهوان وأصبح فى نفسى :

لم أكن من جنـاتها علم الله
وانى بحـرها اليـوم صـال

أمن أجل هذا اللقاء تركت وحيـدى حلمى وزوجتى

الحبيبه حورية وأمي التي تتلهف على في غيبتي وتخشى أن يوافيها الأجل وأنا عنها بعيد ٠

ولكنى قبلت ماعرضـــه على الدكتـور فكرى وان كنت أستطيع أن أضيع حق نفسى فما أنا بمستطيع أن أضيع حق رجل وهب لى ثقته واعتمد على ٠ فما هكذا نشأت وما بهذا يرضى أبى ٠

فلأصلاها اذن أياما قاتمة ولأقضى للدكتور فكرى حقه على ٠ بل ان هنا فى الكويت أيضا قوما وضعوا ثقتهم فى ما أحسب أنه يجوز لى أن أتخلى عن ثقتهم قبل أن أربى هنا ممن يساعدوننى من يطيق أن يحمل هذه الثقة ويؤدى الأمانة التى أؤديها ٠ وليظن منهم من يظن أننى الى المال أسعى فأنا أعرف ما فى نفسى وحسبى هذا ارضاء لها ٠

وليس السعى فى سبيل المال أمرا تأباه الكرامه ٠

أنا هنا أعرف كيف أعامل من يسىء الى فـــان من كان عزيزا فى قومه يعرف كيف يكون عزيزا فى أى قوم ٠

وأنا أضع كرامتى فى مكان لا يستطيع أن يرقى اليه انسان فاذا تطاول أحد على فانما الى نفسه يسىء وليس لى ٠ وتعجبنى كلمة قالها معاوية لابنه يزيد حين رآه يضرب غلاما له «أتعلمه الأدب بأن تضيع أنت أدبك» ولم يضرب يزيد غلاما له بعد ذلك قط ٠ وأنا هنا لست على استعداد أن أعلم أحدا الأدب وأفقد فى سبيل ذلك أدبى فلأتذرع بالحلم وليقضى الله أمرا كان مفعولا ٠

***

تتابعت الأحـداث فى مصر وكان عدلى يعـود الى أهله

أسبوعا فى كل شهر وكان يعد مكتبه فى الكويت ليقلب الأمر ويزور بعد ذلك مكتب الكويت أسبوعا فى كل شهر فقد كان حلمى يشب عن الطوق وكان عدلى مصرا أن يكون الى جانب ابنه فى هذه الفترة التى يتكون فيها أساسه فقد كان عدلى يرى أن يقوم هو بواجبه نحو ابنه ويترك المستقبل لمن عنده أم الكتاب .

حدثت ثورة مايو واسترد شعب مصر قدرا كبيرا من حريته وبدأ الناس يتنفسون جهرا بعد ان كانوا يتنفسون خفية واصبح كل فرد فى مصر يحـاول ان يذكر الآخرين بنفسـه بعـد ان كان كل فرد فى مصر يتمنى لو ينسـاه الآخرون .

كان عدلى فى مكتبه بالكويت حين طلبته السيدة ألفت حشمت بنت أخى الدكتور فكرى لتخبره ان الدكتور فكرى قد عاودته الأزمة القلبية . وانها تكلمه دون علم عمها ولكنها تدرك العلاقة بينهما وأحست أنه ينبغى عليها أن تخبره .

ووصل عدلى الى القاهرة فى أول طائرة ولم يقصد الى بيته وانما سارع من فوره ومعه حقائبه الى بيت استاذه . وكان الأطباء قد منعـوا الدخول الى حجرته ولكن السـيدة ألفت استثنت عدلى من هذا المنع وطفرت الى وجـه الرجل فرحه حب لا تطفر الا على وجه أب يرى ابنه .

ـ كيف انت يا عدلى .

ـ طمأننا الله عليك يا دكتور .

ـ اطمئن .

ـ أرجو ألا تتكلم .

ـ اذا مت ذهبت الى مكان سعيت عمرى أن اذهب اليه وأن عشت فأنا مطمئن بوجودك الى جانبى ٠

ـ أطال الله عمرك ٠

ـ لايهم ٠٠ مصر الآن بخير ٠٠ ومابنيته أنا سيصبح فى يد أمينه ٠ لم أعش عبثا يا عدلى يابنى وهل هناك أجمل من أن يحس الانسان أنه لم يعش عبثا ٠

ـ سأتركك لأنك تتكلم كثيرا ٠

ـ وما له دعنى أتكلم فاننى سأصمت طويلا ٠

ـ اتركك بخير ٠٠ هل تأمر بشىء ٠

ـ خذ بالك من نفســك ومن ابنك حلمى ٠٠ اجعله يصبح مثل أبيك أو مثلك على الأقل ٠

ـ وهل بيدى ؟

ـ حاول ٠

ـ أنا سعيد اننى رأيتك ٠

ـ وستراني دائما ٠

ـ ربما وانما أعتقد أنك انت لن ترانى ٠

وخرج عدلى وكأنما كان الرجل يطلع على وجه الغيب فقد كان هذا آخر لقاء بينهما ٠

واستمرت أعمال المكتبين فى مصر والكويت على حالهما لم تتغير فقد كان زبائن المكتب قد عرفوا عدلى واطمأنوا الى عمله فلم يترك أحد منهم أيا من المكتبين ٠

وكانت ألفت ميسورة الحال وكان زوجها ميسور الحال

أيضا ولكن عدلى أصر أن يكون لها مرتب ثابت من المكتب فاذا هى تلقاه :

ـ ماهذا المبلغ الذى أرسلته الى ؟

ـ أهو قليل ؟

ـ هو غير مفهوم •

ـ انه مرتب شهرى أعتقد أنك تستحقينه من مكتب عمك •

ـ لم يصبح المكتب مكتب عمى •

ـ هو الذى أنشأه •

ـ ولكنك الآن تقوم بشأنه وأنت تعلم أننى والحمد لله غير محتاجه •

ـ أعلم ذلك كل العلم ولكن أنا أقوم بما أراه عدلا •

ـ هل من العدل أن تعمل أنت وأتناول أنا مرتبا ؟

ـ لولا عمك ما عملت •

ـ لقد ورثت كل أمواله فقد باعها لى منذ سنوات دون أن يتلقى ثمنا لها أما المكتب فقـد كانت ارادته أن يؤول اليك •

ـ أعلم ذلك •

ـ فما هذا المرتب الذى تريد أن تجريه على ؟

ـ أريح به ضميرى •

ـ فهل فكرت فى ضميرى ؟

ـ اسمعى يا ألفت هانم هذا نقاش اشعر معه بنوع من السعادة انقطعت عن الشعور بها منذ سنوات •

ـ والعجيبة أننى انا أيضا اشعر بجو أصبح غريبا على زماننا ٠

ـ فما رأيك أن يكون هذا المبلغ الذى قدرته لك نواة شىء طيب بيننا ؟

ـ كم هو ؟

ـ ألم تعديه ؟

ـ لا والله وجدت نقودا فى ظرف ومعها بطاقة منك فجئت اليك من فورى ٠

ـ أنت ست عظيمة ٠

ـ وأنت رجل عظيم ٠

ـ المبلغ مائة جنيه ٠

ـ هذا كثير ٠

ـ اسمعى ما رأيك لو أنك ادخرت المبلغ ثم نلتقى كل عام مثل هذا الشهر ونقرر جهة البر التى نقدمه اليها ٠

ـ موافقه ٠

ـ عظيم ٠

ـ ولكن انتظر ٠٠ باسم من يكون التبرع ؟

ـ باسمك طبعا ٠

ـ أكون قد ادعيت لنفسى فضلا ليس لى ٠

ـ وجدتها ٠

ـ فقلها ٠

ـ باسم المرحوم الدكتور فكرى الدهشان ٠

ـ هو ما قلت ٠

٢٠

ان الذى يبنى مجده على أكتاف الآخرين يزول مجده بزوالهم . فمجدك أن لم تصنعه يداك على آساس من الكفاءة والعمل الجاد هو سراب قد يفرح به الرائى ولكن اذا بلغته الحقيقة وجدته وهما من الوهم وهباء من الهباء .

ولكن الذين يخدعون أنفسهم مساكين فهم آول من يصدق أنفسهم حين تخدعهم .. وهم فى خداعهم هذا يعمون عن الحق ويطيشون عنه ويظنون آن مجدهم هم صانعوه وهيهات لهم أن يتبينوا الحقيقة من أنهم نباتات متسلقة على أشخاص أخرى . فاذا شاء حظهم التعس وزال هؤلاء الآخرون طالعتهم الحقيقة صريحه صارخه لا قبل لهم بمواجهتها ولا قبل لهم بتجاهلها وويل لهم من أنفسهم حينذاك . فالنفس الممزقة

والحقيقة التى تكشف الوهم وتجعل الدجل ينماع الى زوال ويتهافت الى تلاش وينهار الى هباء تجعل الواهمين الدجالين فى سعار من الجنون يتخبطهم الشيطان فيعرف الناس عنهم اعماق الاعماق التى كان يغشيها الوهم ويذود عنها الدجل الرؤية الصادقة ·

وقد يغيب الحق عن الظهـور بعض الوقت ولكنـه فى موعده قادم لاشك · وهو فى قدومه موكب له طبل وزمر وزفاف كفيل ان يجعل الخداع مهتك الاستار والدجل مفضوحا ليس له من غطاء ولا وقاء ·

لهذا لم اعجب وانا فى الكويت حين كنت اقرأ مقالات حسن فالعهد الجديد يرفض ان يعطيه ما كان يعطيه العهد الماضى · فاذا هو يبـالغ فى مـديح الماضى وهو فى مديحه لايملك أدلة من واقع · فالهزيمة ماحقة والجراح من النفوس والجسوم مازالت تنزف وليس هناك نظرية واضحة المعالم يسـتطيع ان يتخفى وراءها كمـا كان يتخفى حامد وراء نظرية · وهكذا أصبح موقف حسن مضحكا · وكلما كتب ازداد الناس ضحكا منه ولكنه ضحك موجع مؤلم كله سخرية من ذلك الذى خدعهم حينا ثم تكشف أمره عن بلياتشو كانت الأصباغ تغطى وجه ثم ازالتها مياه الحرية فاذا هم يتبينون أن الوجه لم يكن وجهه وانما كان وجه الآخرين ·

ان الشيوعيين حين يدافعون عن رأيهم يجدون نظريه مهما تكن فاسدة سفاحة قاتله للانسان فى الانسان الا انها على كل حال نظرية اعتنقها سفاكون وفرضوها على دول · وهكذا كان حامد يستطيع أن يقول ويجـد ما يقول · أما حسن فعن أى شىء يدافع ·· ليس فى يده الا وقائع كلهـا

عسف وبطش وجبروت واعتداء على كل ما هو انسانى فى الانسان جسما كان أو روحا أو كرامة ٠

ووجد حسن مدخله الى الحديث من باب ضيق حشر نفسه فيه فلم يخرج فقد راح يدافع عن الهزيمة ويبين أنها أمر لا يمكن تلافيه وأن التفكير فى حرب أخرى انما هو الخراب الآخذ الشامل الذى لاخراب مثله ٠ ويقرأ الجيش هذا الكلام فيزداد سخطا على حسن ويقرأ العرب هذا الحديث فيزدادون اشمئزازا من الكاتب ورفضا له ٠

فقد كانت الحرب هى الأمل الوحيد يتحدثون به وقد كنت أنا بعد الهزيمة واثقا أنه لا حرب هناك ٠ وكيف تكون الحرب مع جيش هزم الجيش المصرى فى ساعات والجيش السورى فى دقائق ٠

ولكنى مع ذلك كنت لا أميت الأمل فى نفس محدثى ٠ وأذكر بيت الشعر :

اذا تمنيت نمت الليل مغتبطا
ان المنى رأس أموال المفاليس

وقد كنت أعتقد اعتقادا راسخا أننا أصبحنا أكثر هوانا من كل مفاليس العالم ٠٠

أما أنا فلست كاتبا وأنا لا أنشر رأيى على الناس فمن حقى أن أظن ما أشاء وأعتقد ما أريد أن أعتقد مادام هذا الظن وذلك الاعتقاد حبيسين فى نفسى لايخرجان منها الى كلام منشور فى صحف ٠

أما الكاتب فانه وان كان واجبه أن يكون انذارا للناس ونورا لهم ومصباحا على غدهم ، وكشفا لأمسهم الا أنه

لايجوز أن يكون لهم حسرة وبأسا . فاذا توجس وجب عليه أن يذكر مكان الأمن واذا حذر تحتم عليه أن يبين طـريق الرشاد . أما أن يكون ارتكاسة مع الحكام ومعولا مع الخراب وهزيمة مع الهزيمـة فهذا ما لا يرضـاه أحـد من كاتب ولا يرضاه أحد له .

وقد كان حسن ارتكاسة وحطاماومعولا وخرابا وهزيمة في وقت معا .

في أول رمضان جئت الى القـاهرة لأقضى الشـهر مع حورية وحلمى ومع أمى . وبدأ الشهر .. بدأ طبيعيا ولكن ماكادت تمضى منه أيام ستة حتى انفجر فى العالم العربى ذلك الخبر الذى قلب موازين العالم أجمع .

مصر تعبر القناة .

كان حلمى في تلك السن التى تبهرها الأنباء ولا تطل الى ما وراءها فاذا الفتى يكاد يجن من الفرح فهو رائح غاد فى البيت وفى يده الراديو أو وهو ممسك به وعيناهما على التليفزيون التصق بهما والتصقتا به .

أما زوجتى فهى خائفة على الشباب الذى يحارب وهى فى نفس الوقت فرحة سعيدة . فهى تعتقد أنه لم يكن لنا سبيل الى استعادة الحياة الا بحـرب أخـرى ولتكن نتيجتها ماتكون . أما أمى فلا تترك كرسى الصلاة على السجادة فقد كانت لاتستطيع أن تصلى الا وهى جالسة وهى تدعو الله فى تجـرد كامل لوجهـه سـبحانه أن يحمى أبنـاء مصر المحاربين .

أما أنا فقد كان أمرى عجيبا .. لقـد توقعت هـزيمة محققة : والآن وأنا أفكر بعد كل هذه السنوات أجدنى كنت

سحقا فى تفكيرى .. والا فكيف لجيش هزم منذ ست سنوات فقط فى ست ساعات أن يعود الى حرب أشد شراسة بنفس الرجال ونفس السلاح ويريد أن ينتصر .

لقد كان فى الحرب الأولى مع العدو على أرض واحدة لا تفصله عنه حدود من طبيعة أو من صنع الانسان . والآن يريد أن يعبر القنال ويحطم خط برليف وما فيه من ألسنة لهب مثلوها لنا كنار جهنم ، ثم ينتصر .

أينهزم ولا حدود بينه وبين عدوه وينتصر وبينه وبين عدوه حواجز من بحار وجبال ونيران .. هيهات ؟؟

ولكن . الآن . لابـد أن أقـول اذا لم يكن الجيش قد انتصر وأمامه كل هذه العقبات لما حقق المعجزة وقد شـاء ربك من فوق سماوات سبع أن يقول لعباده آمنوا بى فان أكن قد قطعت عنكم رسالات السماء فانى أرحم بكم من أن أقطع عنكم معجزاتها .

وتمت المعجزة .

ويمارى فيها أقوام فى نفوسهم احن وأحقاد مثل حسن وحامد ولكنها معجزة . وما لهذين ولأمثالهما ألا يماروا . والا فماذا كنا نريد منهم أن يقولوا .. أعيدوا الينا شلالات الأموال التى كانت تنسكب علينا وآيات المجـد التى كانت تحيط بنـا وطقوس الاجـلال التى كانت تفـرش تحت أقدامنا .

وما لهم ألا يماروا وقد خسروا بانتصار مصر طريقهم الى خراب مصر .

استعاد حلمى ابنى نفسه وأحس أنه انسان مكتمل وفى

يوم وقف اطلاق النار فوجئنا به على المائدة يقف والدمع فى عينيه ويصيح بأعلى صوته ·· أنا مصرى ·· بابا آنا مصرى ·· نينا أنا مصرى ·· ماما آنا مصرى ·

كانت بداية مشرقة لعامه المدرسى فقد كان فى الثانوية العامة وقد اختار هو دون آى تدخل من أحــد آن يكون فى القسم العلمى · وكانت درجاته العلمية تتيح لى آن أستبشر خيرا باختياره هذا ·

وكان حلمى فى الأجازة قد وثق صلته بقريتنا الرمايحة وقد أغراه فريد بن الحاج سعدون الذى أصبح يشرف على أرضنا بعــد أبيه آن يربى بعض عجــول بدلا من آن يترك العزبة خالية من البهائم تماما · وقد أحببت آن يرتبط عدلى بالرمايحه وشجعت تحمسه المراهق وفرح وبدأ مشروعه · وقد كان الفتى يعرف حقوقه وواجباته وكنت واثقــا أن اشتغاله بالعجول لن يشغله عن الدروس وكنت أمزح معه قائلا :

ــ ياعدلى يابنى العجول لاتغنى عن المقول ·

ويبتسم فى ثقة ويقول :

ــ لاتخف ·

***

انتهى شــهر رمضــان وعــدت الى الكويت لأقضى بها أسبوعين ·· لقد عادت مصر الى مكانها بل انهــا عادت الى أرفع مكان تبوأته فى تاريخها ، وما لها آلا تعود وقد حققت النصر الوحيد فى العصر الحديث ولكن عجيبة ·· أم تراها ليست عجيبة · لقد كانت الهزيمة هزيمة مصر وحدها ولكن

وبقدرة قادر أم ترانى يجب أن أقول بقــدرة ظالم أصبح النصر نصر العرب أجمعين .. لابأس فليكن كذلك . وهل مصر والعرب الا كما قال الشاعر :

وهــل أنا الا من غــزية ان غوت
غويت وان ترشد غــزية أرشــد

وانتهى الأســبوعان . وركبت الطــائرة عــائدا الى القاهرة . شعور عجيب يتولانى كلما عدت من الخارج الى مصر . مهما يكن المكان الذى كنت فيه والذى أعود منه الى مصر . أنا دائما مشوق اليها بكل حال هى عليه . أنا مشوق اليها والظلم يتغشاها ويتغشانى معها ومشوق اليها وحقى وحقوق المصريين مكفولة . مشوق اليها حتى بعد أن خامرها ماخامرها من طريق غير سوى وماء متفجر وكهرباء مقطوعة وتليفون لاينطق . بل ربما أنا أشد شوقا اليها وهى فى تلك الحال من شوقى اليها وهى لاتعانى . وهل نعرف قيمة الأم الا اذا مرضت الأم . وهل نحبها فى مألوف أيامنا قدر مانحبها وهى تعانى . وأمنا الخالدة تعانى فنحن أبنــاءها أعظم لها حبا وأكثر اليها لهفة وأشد عليها حرصا .

لقينى حلمى فى البيت وما هدأ بى المقام حتى وجدته ينتهز فرصة صمت ويسارع قائلا فى لهفة وقد وضح لى أنه كان يختزن مايقوله منذ أيام وينتظرنى متعجلا عــودتى ليعرض على مايعرض .

ــ يابابا من المفروض أن يأتى الى العجول طبيب بيطرى ليرى ان كانت قد بلغت الحجم الذى تســتحق معــه الحصة المخصصة لهــا من العلف أم لا . وقد جــاء الطبيب ورأى العجول وقرر أنها لاتستحق بعــد تلك الحصة وقبلت رأيه

كأمر مقـــرر ولم آناقشه وخـــرج الطبيب من المنزل هـــو الذى يعمل معه ولكن ماهى الا دقائق حتى عاد الى التمارجى ليهمس فى أذنى اذا كنت تريد أن يقـــرر الدكتور حصـــة العلف فادفع خمســـة جنيهـــات عن كل رأس وســـألته لمن قال للدكتور قلت أهى تمغة أو ضريبة حكومية مثلا قال لا وانما هى اكرامية للدكتور ، قلت ولك قال اللى تشوفه قلت ولكن الاكرامية من الاكرام والاكرام لايكون بالعافية قال والله أمرك قلت أتركنى آفكر فى الأمـــر • والحقيقة أن المبلغ بسيط لايستحق التفكير ولكننى يابابا لا آتصور أن أبدأ حياتى بالرشوة وفى نفس الوقت أرفض أن يقع على ظلم لأننى رفضت أن أقدم رشوة •• ماذا أفعل •

ولا أدرى ان كان قد ظهر على وجهى ماشقيت به من ذلك الحديث أم لم يظهر ، فجعت فجيعة كبرى • ليس الأمر غريبا على ولكننى شأن الناس أرى الشيء وهو بعيد ولاأتوقع أن يلاقينى أنا فى طريقى • ماذا آنا قائل لابنى الآن أأقول أقبل أن تكون راشيا • أهذه هى المثل العليا التى يريد أب مثلى أن يرسيها فى نفس ابنه • وماذا سيكون آمرى أمام ابنى وهو يرفض لنفسه أن يكون راشيا وآنا آقبل له هذا • أم أقول له أرفض وهو يريد آن يخـــوض الحيـــاة وقد بدأ خوضها فعلا بتلك العجول التى يربيها • وكيف يســـتطيع خوضها وهو بكل هذه الطهارة ويل لمصر مما مر بمصر •

قد يصلح الطـــريق فيها للســـيارة ولكن ما أظن أنه سيصلح للمثل العليا • وقد لاتنقطع فيها الكهرباء ولكن نور الشرف سيتأخر عن الانارة • وقد يتحدث التليفون ولكن شـــقة عمى مازالت تعمل ومازال التليفون يســـتعمل فى اقامة لياليها •

قلت لحلمى فى حسم :

ـ حلمى مادمت قد دخلت الى الحيــاة فينبغى أن تقرر طريقك فيها وحدك ·· أنظر أنت ماذا تريد أنت أن تفعل وافعله ·

قال الفتى فى حسم :

ـ بابا ·· أنا لن أدفع مليما واحدا وليكن بعد ذلك مايكون ·

قلت فى نفسى : لهفى عليك يابنى ·· لقــد اخترت طريقك لاشك فى ذلك فاللهم يارب العالمين ياحق ياعــدل ياسبحانك ثبته على هذا الطريق وان لقى فيه مالقى الحسين ابن على ·

وقررت أن أقيم فى مصر · هنا بجانب ابنى فانه فى هذا الطريق سيحتاجنى لأكون له نســمة هــواء فى هجيره ونفحة دفء فى جليده ·· أنا هنا ·

٢١

قال لى عدلى :

ـ ماذا أصنع الآن ·· ان عمى حفنى يرسل الى كثيرا من الزبائن وكلهم أصدقاؤه وكلهم من ذوى الصداقات ذات النفوذ · وأنا لا أحب صداقاته هـذه ولا أعـرف ماتخفى ولا أدرى أقبل أم أرفض ·

وأسـقط فى يدى فان كان هـو يدرى ماوراء هـذه الصداقات أو كان لايريد أن يدريها فأنا أدريها كل الدراية فان قلت له أقبـل خنت نفسى وخنته وان قلت له أرفض أقفلت من دونه بابا واسعا من أبواب الرزق · وليس الرزق له وحده فربما كان فى وفرة تغنيه عن المال وتغنينى عن الحيرة ولكن الرزق أيضا للشباب الكثيرين الذين يعملون معه

والذين يريدون أن يتعرفوا على هـؤلاء الناس ويشـقوا طريقهم فى الحياة كما شقه استاذهم عدلى • ولم أجد شيئا أقوله الا أن سألته :

ــ ألم تخبرنى عن موقفك من مرجان حين أراد لمكتب الدكتور فكرى أن يكون مسئولا عن حساباته •

ــ أمازلت تذكر •

ــ وأنت أيضا يجب أن تذكر •

ــ فهمت ماتعنى •

ــ فلا حيرة اذن •

ــ فيما يختص بالزبائن لم تعد هناك حيرة •

ــ اذن •

ــ حيرتى لن تنتهى •• لن تنتهى •

وعرفت ماكان يقصده تماما ولكننى أيضا كنت سعيدا بتخلصى من الاجابة على سؤاله ولم أشأ أن أوقع نفسى فى حيرة جديدة معه •

***

شمل السلام مصر واتهمها من اتهمها أنها باعت القضية بقبضة من الرمال وعلم الله أن مصر لم تبع القضية وانما أقامتها على أسس من المنطق والعقل بعد أن ظلت أعـواما لاشىء الا هتافات وشعارات وصراخا لا معنى له ولا قوام ولا عمق • وعلم اللة أن هذه الرمال انما هى أرض مصرية عزيزة على مصر • ولست أدرى لماذا تكون أرض مصر وحدها هى الرخيصة وكل أرض غير أرضها عرض وشرف وكرامة

ومستقبل وماض وحاضر وتاريخ · لم أذهب الى الكويت وان كان مكتبي ظل يعمل به تحت اسمي · وأصبح من بين تلاميذي الذي مرنتهم هناك من يستطيع أن يقوم بالعمل خير قيام ومن أعتقد أنه نال الثقة في نفسه ومن الزبائن · وتركت أمر المكتب لم أعد أفكر فيه واستغرقني عمل المكتب في القاهرة فقد نشطت الحركة الاقتصادية في مصر بصورة لم أر لها مثيلا في حياتي واتسع مكتبي اتساعا لم أكن أنتظره ولكن الذي يحيرني هو النظام الذي يقوم عليه الاقتصاد في مصر · فهو نظام فريد في العالم لا شبيه له ·

فهو باليقين والقطع ليس نظاما شيوعيا وهو أيضا ليس نظاما اشتراكيا · وهو أيضا ليس نظاما رأسماليا · انما هو خليط من هذا جميعه · يأخذ من كل نظام بطرف والنظريات ليست على استعداد أن تقبل معها نظاما جديدا خلقته الظروف الشاذة في حياة مصر ولم تخلقه التيارات الطبيعية التي تولدت عنها النظريات الأخرى مانجح منها وماثبت فشله · والذي لاشك فيه أن هذا النظام المضطرب الذي كان الاقتصاد المصري يعانيه هو ابن شرعي للنظام السياسي المترجح الذي كان يحكم مصر · فلا كان النظام في مصر ديكتاتوريا كاملا يترأسه حاكم باطش مخيف ليس يبقي لأعدائه من باقية وليس يرعى فيهم حق اله أو كرامة انسان أو شرف آدمية · ولا كان النظام أيضا ديموقراطيا سطلقا ومن أين له بالديموقراطية وقد قتلت أصولها منذ ربع قرن ولم تعد لها أدوات ولا أحزاب ولا أشخاص ·

وبيد الحرية الوليدة وآثار الديكتاتورية قتل رئيس النظام وتغيرت الأوضاع في مصر بعض الشيء فبقيت وجوه على المسرح وأخرى تبدلت بقوم آخرين انما الذي عناني

بالذات أن شقة عمي قد أقفلت أبوابها وبدأ عمي يبحث عمن يؤجرها منه ايجارا مفروشا - ولكن أن يكون وجوه القوم الذين كانوا يعمرون شقة عمي قد غابوا عن الواجهة فان أذنابهم يملأون أرجاء مصر منتشرين في كل مرفق من مرافقها ما لهم عنها من منصرف ٠

قالت له :

ـ أتقص على كل هذا وكأنني لا أعرفه ٠

ـ بل أعرف أنك تعرفه ٠٠ بل وتعرفه كل المعرفة ٠

ـ ففيم اذن أتعبت نفسك ٠

ـ لابد من شكوى لذى مروءة ٠

ـ أشكر لك حسن ظنك ٠٠ ولكن ماذا بعد الشكوى ٠

ـ اما جواب منك أو أظل أنا على حيرتي ٠

ـ وفيم الجواب وأنا لا أعرف بعد ما السؤال ٠

ـ ابني ٠

ـ ماله ٠

ـ لقد انتهى من دراسة الطب ٠

ـ وهذه أيضا أعرفها ٠

ـ والأطباء فئة فيهم الملائكة وفيهم الوحوش الكاسرة السفاحة السفاكة ٠

ـ هو ماقلت ٠

ـ وحلمي ابني يحمل دم جدي ٠ وهذا الدم أخرج أبي وأخرج عمي ٠ فالى أي فصيلة من الفصيلتين سينتسب

حلمى . وهل طريقه مسبعة الذئاب الكاسرة ام مسابح الملائكة .. لكم أخاف عليه .. ان الذى أشاهده فى مصر لايفرش الطريق الى مسابح الملائكة وهو مهيأ كل التهيؤ أن يجمله الى الوحوش يميل .

ـ أولم يكن الأمر معك أشد عسفا وجورا وظلما .

ـ لو كنت واثقا أنه سيصبح مثلى ما احترت .

ـ ومن الذى يستطيع أن يعرف الغد .

ـ وأخاف عليه أن تطالعه سمعة عمى حيثما اتجه .

ـ وأى شيء تخشاه من هذه السمعة .. أتخشى أن تكون عائقا له أم تخشى أن تكون طريقا له مفروشا بالورد والرياحين والزئبق الذى كان يملأ شقة عمك .

ـ أخاف عليه من الأمرين كليهما .. فكل من الفرضين أشد هوانا من صاحبه .

ـ هل طالعتك أنت سمعة عمك !

ـ لست أذكر .

ـ فلماذا تخشاها عليه وهى لم تهددك أنت وأنت الى عمك أقرب من ولدك اليه .

ـ الحيرة تقتلنى .

ـ ألم تشعر أنك أديت واجبك .

ـ كل انسان يطمئن نفسه بهذه الجملة .

ـ أتحس أن هناك شيئا كان يجب أن تصنعه ولم تصنعه

ـ لا أظن .

ـ أفلا تترك الأمر لله الذى ألزم كل انسان طائره فى عنقه · اترك ابنك يلزم طيره والزم أنت طيرك وتوكل على الله ·

وصمت عدلى ·· ولكن أكان صمت الطمأنينه وزوال الحيرة لا أظن ·· بل واثق أنه على حيرته ماتزال مسلط عليه ما كتب على الانســـان الا يعرف ماذا يكســـب غـــدا · ذلك القـــانون الذى يتمثل فيه عذاب الحياة وتتمثـــل فيه متعتها أيضا ·

الفهـرس

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٢٠٧١

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٩٠٤ ـ ٥

٦٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب